

تاريخ الدول الامارات الكردية في العهد الاسلامي

« وهو تعريب المجلد الثاني من « خلاصة تاريخ الكرد و كردستان »

ألفه باللغة الكردية

معالي محمد أمين زكي

الوزير العراقي السابق سنة ١٩٣٧

عربه وراجعاه الأستاذ

محمد علي عوني

المترجم بديوان جلالة ملك مصر المعظم

تاريخ الدول الامارات الكردية في العهد الاسلامي

« وهو تعريب المجلد الثاني من « خلاصة تاريخ الكرد و كردستان »

ألفه باللغة الكردية

معالي محمد أمين زكي

الوزير العراقي السابق سنة ١٩٣٧

عربه وراجعاه الأستاذ

محمد علي عوني

المترجم بدويان جلالة ملك مصر المعظم

سنة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م

الشمس
قرشا

تاريخ
تاريخ بلادنا
في العهد العثماني

تاريخ بلادنا في العهد العثماني

[حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمترجم]

طبع سنة ١٣٦٧ - ١٩٤٨

٥٣٦١ - ٥٣٦١

مطبعة التعاونية بجوار محافظة مصر

٥٣٦١



السلطان صلاح الدين بطل الاسلام والكردي

هذه الصورة وصورة « كريم خان » مأخوذتان من (روتر كورد) المجلة الكردية الشهرية الصادرة في استانبول سنة ١١٣١ (١٩١٣ م) . وقد دل البحث على أن الأصل في صور صلاح الدين المنشورة في أرجاء العالم حتى الآن هو ما نقل من كتاب روسي مأخوذ من دير قديم بمصر . ويدل البيتان الاتيان لحكيم الزمان عبد المنعم الأندلسي الذي عبط مصر في عهد صلاح الدين فنظام القضاة في مدحه ، على أن المسيحيين في ذلك العهد رسموه ووضعوا رسمه في الكنائس ؟

فحطوا بأرجاء الكنائس صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقاليم
 يدين لها قس ويرقى بوصفها ويكسبه ينسب به في التمام
 (راجع ص ٢٣٣ من هذا الكتاب ص ٢٠ من كتاب حياة صلاح الدين)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدى الناس أمراءا وهم ملهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ،
فيتآزرروا في سبيل تحقيق المثل الأعلى من الحرية والاستقلال للجميع ، حتى يتسنى لهم
الوصول الى السعادة التي يبتشدونها في معاشهم ومعادهم . والصلاة والسلام على
سيدنا (محمد) المرسل الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، والقائل ﴿ لا يؤمن أحدكم
حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه ﴾ رافعا بذلك أوية الاخاء بينهم ومذكرا أنهم
سواسية في جميع الحقوق والواجبات ، وأن لا تفاضل بين شعوبهم المختلفة
وأقوامهم العديدة الا بالتسابق الى الغايات الحميدة والأغراض النبيلة .

﴿ أما بعد ﴾ فاني حينما انتهيت من ترجمة المجلد الاول من كتاب (خلاصة
تاريخ الكرد وكرديستان) لمؤلفه المفضل معالي محمد أمين زكي الوزير العراقي
السابق ، وأصدرته بعد مراجعة علمية دقيقة في حلة عربية قشبية في أواخر
سنة ١٩٣٩ ، اشتعل أوار الحرب العالمية الثانية . فخالط ظروفها بيني وبين
مواصلة الجهود لتعريب المجلد الثاني من هذا الكتاب القيم ، لكي تم بذلك
ترجمة سلسلة التاريخ القومي للامة الكردية في مختلف العصور كما أرادها المؤلف .
ولما رأيت أن أيام هذه الحرب الضروس قد طالت لا يعرف لها مدى ولا آخر ،
عاودتني الرغبة وجذبني الشوق الى استئناف العمل الشاق الذي أخذت نفسي
به ، فواصلته حتى أتممت الترجمة واتخذتها أساسا للبحث والتنقيب ، لاصدار
المجلد الآخر الذي يتضمن تفاصيل وقائع وحوادث (الدول والحكومات
الكردية) التي قامت بأنحاء كردستان في مختلف الأدوار في العهد الاسلامي .

ولقد شرعت في ذلك مستعينا بالله من سنة ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٤٥. حيث عكفت على العمل في تلك الايام والليالي الرهيبة التي كانت تشن فيها العارات الجوية على مصرنا المحبوبة. — وقاها الله شر ذلك اليوم — فتعطرها بوابل من القنابل والطرايد. فكان لي في ذلك العمل المضى أعظم سلوى وأكبر لذة تصرفني عن الاحساس بوطأة تلك الايام العصيبة وأثرها الفعال في النفوس والأعصاب. إذ لم أدرك كيف مضت وانقضت تلك الأعوام الأربعة من عمري البالغ الآن واحدا وخمسين ربيعا. وما ذلك إلا لأنني كنت غارقا في لجة البحث وخصم التنقيب عن النصوص والنقول، للتأكد من الوقائع والحوادث واستخراجها من بطون مصادر التاريخ الاسلامي من عربية وفارسية وتركية وكرديّة، سالكا في ذلك، المنهج الذي اتبعته في ترجمة المجلد الأول ومراجعتة، كما هو مفصل في كلمتي المصدر بها ذلك الكتاب، فلا أعيد شرح ذلك هنا مرة اخرى. بل أكتفي بأن أعرض على النابهين من القراء المشغوفين بالبحث والتمحيص، أني قد تصرفت كثيرا في اسلوب الاصل وطريقة سرده للحوادث حذفًا وإضافة، وفي ترتيبه للحكومات والامارات، حيث لم يكن مرتبا ترتيبا تاريخيا. وانى ما أقدمت على ذلك إلا ليظهر تسلسل الحوادث والوقائع واضحا، ويعرف مدى نشاط هذه الامة التي عاشت القرون والدهور محتفظة بقواها الذاتية وسجاياها القومية، تتمتع بسيادتها الداخلية بين تلك الامبراطوريات الجبارة، والاغارات المدمرة التي كانت توزع يمينا وشمالا. وان كان نتعا ذلك على شكل حكومات ودول عديدة، وامارات وادارات متنوعة، من غير أن تتاح لها الفرصة لانشاء وحدة وطنية سياسية تشمل جميع أجزاء كردستان المقسم والممزق بين الامبراطوريات في مختلف العصور.

هذا وقد قسمت الكتاب مثل الاصل إلى قسمين، ومقدمة في الحكومات القديمة الوثيقة الصلة بشعوب وأقوام الامة الكردية الحالية. فسميت القسم الأول (الباب الأول في الحكومات الكردية في العهد الاسلامي). وهو

في أربعة عشر فصلا ، حيث عقدت لسكل حكومة فصلا . وسميت القسم الثاني (الباب الثاني في الامارات الكردية في العهد الاسلامي) وهو في سبع مجموعات . يحتوي كلها على خمس وثلاثين إمارة وشبه إمارة . قام معظم هذه الحكومات والامارات في أنحاء كردستان نفسه ، وقليل منها قد ظهر في خارجه من البلاد المجاورة اليى نقل إليها الكرد أو انتقلوا بأنفسهم ، في مناسبات أليمة مختلفة ، كشرقي إيران وجبل لبنان وبلوجستان وفارس . . .

وكل من ألقى نظرة امعان وتدبر بعيدا عن التعصب والهوى ، إلى نشوء هذه الحكومات الوطنية والامارات القومية المحلية وتطورها ، يرى أن الأمة الكردية المنبثقة ، بشعوبها الأصلية والأساسية من المر والكهر والكرمانج والكوران ، في البلاد الممتدة من جبال القوقاس إلى الخليج الفاري . ومن جبال زاغروس وأوند إلى جبال توروس وخليج اسكندرونة . لم تحافظ فقط من فجر التاريخ على كيانها الطبيعي وأكثريتها الساحقة وبميراتها القومية من لغة وعادات وتقاليد وطباع وسجايا ووحدة شعور وأزياء - بل أبدت نشاطا سياسيا كبيرا بمساهمتها في أغلب الحوادث التاريخية الكبرى التي اجتاحت بلاد الشرقين الأدنى والأوسط في مختلف العصور والأدوار . حيث وفقت إلى إقامة دول وحكومات وإنشاء إمارات محلية ، وإدارات وطنية ، آلت أخيرا بغدر الزمان إلى منظمات محلية ومؤسسات قومية متواضعة ، كالعشيرة والقبيلة والمشيمة - ولو أن هذه التقسيمات الاجتماعية تخالف مثلتها في الأمم الأخرى - في جميع أنحاء تلك البلاد التي أطلق عليها لفظ كردستان ، منذ العصور الوسطى ، للإسلام للدلالة على أنها مسكن وماوى الشعوب الكردية من القديم بأكثريتها القاهرة . وبالرغم من أن استيلاء الامبراطوريات على هذه البلاد العسة كان للعهد القريب أسميا ، فقد أنتج ذلك وغيره من الاسباب عدم سnoch الفرصة لها ، لكي تتمكن من إيجاد وحدة سياسية تشمل جميع الاقسام من كردستان . أو أن تنشئ لها إدارة محلية موحدة تنظم جميع الشعوب

والشيع التي انقسمت إليها الأمة الكردية ، لعوامل وأسباب عديدة بخارجة عن طوقها من طبيعية وجغرافية وسياسية ودينية ثقافية ، وغيرها من الاسباب التي ولدت على مدى الأيام ، فقدان الشعور بالوحدة اللغوية والثقافية والعمل على توحيدها وتعميمها في جميع الجهات والأقسام من كردستان .

ومن أشد الأسف أن هذه الحال قد حفرت بعض المغرضين إلى الأتلاق في ميدان المين والافتراء ، وجعلتهم يتخيلون خيالات باطلة . حتى زعموا - لا عن عقيدة وإيمان بن عن تمويه وبهتان - أن ليس هنالك أمة كردية وشعب كردي ينطق بلغة واحدة، له ميول واحدة وهو ذو شعور قومي واحد ، وأن هذه السكتل البشرية ما هي الا مجموعات متناثرة من القبائل والجماعات . فأباحوا بذلك لأنفسهم القول بان الأجدد بالكردي والأخرى به، أن يتنازل عن قوميته ويهمل شخصاته فيندمج في بقايا الأمم ممن تساكنها اليوم وتحكمها في بلادها .

وهكذا خلقوا بادعائهم الجري - وزعمهم الغادر ، المتاعب والصعاب لأنفسهم وللشعب الكردي الأمن في بلاده منذ أيام (نوح) عايله وعلى نبينا السلام . فنشأ من ذلك سوء تفاهم وحزازات لايزول أثرها مدى الدهر ، بسبب ما أريق من الدماء وانتهب من الأموال والثروات ، وما دمر من القرى والبلاد . وما مبعث ذلك - على ما أظن - إلا الجهل بأحوال البلاد وتاريخها وجغرافيتها وخصائص الشعب الكردي من النخوة والشهامة والتمسك بلغته وبلاد **آبائه** وأجداده من فجر التاريخ . بل والتجاهل والاستهتار بحقيقة مطلب الأمة الكردية وأمانها الشعبية التي هي في الوقت نفسه ضرورة من ضرورات حياة الأمم ، وما هي إلا اطلاق الحرية للثقافة العامة باللغة القومية ، حتى يقبل الشعب على التعليم المدني بكل شغف وإخلاص ، فبذلك فقط يحل الوتام والسلام محل النزاع والخصام ، وكفى الله المؤمنين القتال .

القاهرة ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٣٩٧

٧ مارس سنة ١٩٤٨

محمد علي عوني

مقدمة

في

(حكومات الشعوب القديمة الوثيقة الصلة بأصل الأمة الكردية)

ذكرنا في المجلد الأول من تاريخنا (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) أن المؤرخين وعلماء الآثار قد استدلوا بعد دراستهم للآثار والوثائق المكتشفة حتى الآن ، على أن هناك صلة وثيقة متصلة الحلقات بين بعض شعوب منطقة جبال زاغروس ، وأصل الأمة الكردية ، وأن هذه الصلة لو أمعن النظر في دراستها دراسة علمية منزهة عن الهوى والتعصب ، لا تضح أنها ليست بأقل من صلة كل من شعبي الأكاد والعموري بالعرب ، ولا من الصلة بين شعب الهون والأمة التركية .

ولأظن أن هناك معترضا علينا ، إذا ما اقتفينا أثر رجال هاتين الأمتين واتجهنا قبلتهم ، فسرنا على نهجهم في بعث تاريخنا القديم . لا سيما أننا في هذا المجال لا نهدف إلى إحياء تاريخ عريق في القدم بشتى الوسائل ، وإنما الغرض هو مجرد عرض بعض آراء المؤرخين وعلماء الآثار على أنظار القراء . ومع ذلك يجب أن نعترف بأن منابع التاريخ القديم للشعوب الكردية لا يزال يخيم عليها حجب كثيفة من ظلام دامس ، كما هو الحال بالنسبة للأمم الأخرى ، ولذلك فهي تتطلب منا جهداً متواصلاً ، وسعيًا حثيثاً ، وعملاً دائماً حتى تبرز بزوغ الشمس للعيان .

وكما أن هذه الحالة لم تصرف الآخرين عن البحث في أصول تاريخهم القديم لتعرف الأحوال وتبين المناسبات ، وجلاء حقيقة الصلات والروابط بين الأقاليم القديمة وأصول أممهم الحالية — فكذلك يجب ألا تمنعنا نحن الآخرون

أو تقف حجر عثرة في سبيل اقتدائنا بهؤلاء الرجال في التنقيب والبحث في أصول التاريخ القديم ؛ بل ينبغي أن نجعل من هذه البحوث الخاصة بتاريخ تلك الأقوام القديمة - وقد أنبت الوثائق إثباتا قاطعا بأنها وثيقة الصلة بالامة الكردية - مقدمة لهذا الكتاب .

ولقد أتينا في « المجلد الأول » بمجمل عن الشعوب القديمة الوثيقة الصلة بالامة الكردية ، والآن نتحدث هنا في « المجلد الثاني » على ضوء ما لدينا وتحت أيدينا من الوثائق والآثار المكتشفة ، عن التشكيلات السياسية وأغنى بها الحكومات التي أقامت هذه الشعوب ، وعمرت طويلا في مختلف عصور التاريخ القديم ...

١ - « حكومة لوللو = لوابي »

نما يؤسف له أن التاريخ لا يحمل بين طياته حتى الآن شيئا شافيا ، يستحق الذكر عن هذه الحكومة ومدى نفوذها وحدودها الجغرافية ، وإن كانت دراسة الوثائق التي يرجع تاريخها إلى عهدي « سرجون » و « نرام سن » الأكاديين تلتقي شعاعا على هذا الغموض ، إذ تدل على أن حدود هذه الحكومة كانت متاخمة لبلاد « آرافا = كركوك الحالية » وبلاد « الكاسيين » ، وعلى هذا الأساس تكون منطقة لواء السليمانية الحالية ونواحي « هورين - شيخان » و « خوراتو » ومنطقة « زهاو = هالمان » من بلاد ال « لوللو » القديمة .

هذا وكان الشعب اللولوي يؤلف مع قسم من الشعب الجوتي حكومة مستقلة ، يرى بعض المؤرخين أن مركزها كان (زيمري) ، ولكن الأستاذ « سبايزر » يقول إن مركزها كان (آراكدي) وأن الملك اللولوي المسمى « آنتوبانيئي » قد استولى على بلاد (هالمان = آرمان) في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ، وذكر المستر « هول » في كتابه (تاريخ الشرق

الأدنى القديم) أن ملكاً يدعى (لاسيراب) قد خلفه ، آنتوبانيني ، على عرش بلاد ، اللولو ، فيظهر أن الملك (سرجون)^(١) الأكادي قد اجتاح بلاد ، اللولو ، في عهد هذا الملك ، وقد ظلت حكومة اللولو قائمة مستقرة حتى عهد (شلنصر) الثالث الآشوري حيث اجتاحتها أخيراً الجيش الآشوري عام (٨٢٨ ق . م) تقريباً .

٢ - حكومة الجوتني (الكوتني = الجودي)

إن تاريخ هذه الحكومة تفصيلاً مجهول لنا تماماً ، والظاهر أن هذا الشعب كان يستوطن أطراف نهر (زبي كويه = الزاب الصغير) ثم أخذ يزحف رويداً رويداً نحو الجنوب إلى أسفل حتى غزا بلاد ، آكاد ، وسومر ، بعد وفاة (شاركالي شارري) خلف (نرام سن) في أواسط القرن السادس والعشرين تقريباً قبل الميلاد . وذلك بعد قتال عنيف ونضال مرير ، مع الأكاديين والسومريين ، حتى أخضعهم لحكمه تمام الاختضاع .

وقد دون في جدول ملكي كشف في مدينة (نيبور) القديمة أن واحداً وعشرين ملكاً جوتياً حكموا ١٢٥ سنة وأربعين يوماً في (بابل) ، وأن أحدهم المدعو (آنزي دابيرز - Enridapirzi) كان بنوع خاص ، عظيم الشأن ، عريض النفوذ ، حيث استطاع أن ييسط سلطانه على بلدان ليست بأقل اتساعاً من المناطق والبقاع التي كانت خاضعة لنفوذ ، نارام سن ، ولكن ضعف آخر وملوكهم أطمع الأعداء فيهم ، وحرك الغزاة على ديارهم ، إذ انتهز ملك ، تـه ريخ = أرك = الوركاء ، الشهير المدعو ، أتوخيجال = Utukhegal ،

(١) أول ملك من ملوك السلالة الأكادية (٢٥٥٠ - ٢٣٣٢ ق . م) دام حكمه ٥٥ سنة . (دليل المتحف العراقي ص ٤٨) بغداد سنة ١٩٤٣ . المترجم

السمرى هذه الفرصة الذهبية ودحر آخر ملك جوتى فى بابل وقضى عليه ، وأخرج الجوتيين من آكاد . وأسس حكومة بابلية جديدة (١) على أنقاض حكومة الجوتيين عام (٢٢٨٢ ق م) .

بعد ذلك عاد الشعب الجوتى إلى موطنه الأصيل فى منطقة الزاب الصغير و (كركوك = أرابخا) حيث لم تقم لهم بعد ذلك قائمة ولم تشرق لهم نهضة سياسية ظاهرة (٢) .

٣ - حكومة الكاسيين (كسو = كشو) (٣)

لما أخذ الضعف والانحلال ينخران فى عظام حكومة الساميين

(١) ولعلها سلالة الوركاء الخامسة التى أسسها توخيجال سنة ٢٢٨٢ ق م .

(٢) ورد فى دليل المتحف العراقى ص ٤٨ ما يأتى : (سلالة الكوتيين)

(حوالى سنة ٢٣٧٠ - سنة ٢٢٨٢ ق م)

(١) - أمبيا ٣ سنوات (٢) أنكيشو ٦ سنوات . (٣) نكل لجاب ٦ سنوات

٤ - شلى ٦ » ٥ - أولومش ٦ » ٦ - أئى مابكش ٥ »

٧ - أجيشوشى ٦ » ٨ - إيارجب ١٥ » ٩ - أمباته ٣ »

١٠ - أيارلجش ٣ » ١١ - كورم ١ » ١٢ - .. ٣ »

١٣ - ... ٢ » ١٤ - إرارم ٢ » ١٥ - ابراهم ١ »

١٦ - خابلم ٢ » ١٧ - بوزرسن (ابن) ٧ » ١٨ - ايارلجندا ٧ »

١٩ - لاسراب ٧ » ٢٠ - تريكان ٤٠ يوما

المترجم

(٣) تطلق المؤلفات التاريخية القديمة اسم الأسرة الثالثة فى بابل على

حكومة الكاسيين ، واسم الأسرة الأولى التى حكمت بابل من عام ٢٢٢٥ حتى

عام ١٩٢٦ ق م على حكومة العموريين ، وأن الملك « حورابى » الشهير هو

سادس ملوك هذه الأسرة الأولى ، وأن عدة حكومات مستقلة كانت تقوم

بمدن « سومر » فى هذا العهد ، وقد اعتبرت فى مجموعها أسرة ثانية من الأسر

الملكية .

المؤلف

(العموريين) في بابل وودب ديبيد في عهد الملك الحادي عشر السامي المدعو
، سمسوديتانا) آخر ملوك هذه الأسرة ، تحرك الشعب الخاتي (Khatty)
أى الحيثي ، وشن هجوما عنيفا على مملكة بابل ، أسفر عن قضاء مبرم على
الأسرة الأولى التي حكمت بابل ، ألا وهي الحكومة العمورية (عام ١٩٢٦ ق.م.)
وفي رواية لبعض المؤرخين أن الحيثيين لم يخطوا رحالهم في بابل ، بل

وورد عن الكاسيين في نفس المصدر ص ٥١ : (سلالة بابل)

(الكاشيون ١٧٤٦ - ١٦٦٩ أو ١٧٥٠ - ١١٧٠)

(١) - جنداش (٢) - أجم الأول (٣) - كاشتلياش الأول

أوشي .. أبي رتاش .. كاشتلياش الثاني .. تازيمرماش .. خربا - شباك

أجم الثاني (١٥٧٩ - ١٥٩٨) كوريجالزو الأول (١٥٧٨ - ١٥٦٠)

مليشباك الأول (١٥٥٩ - ١٥٤١) نازيمرتاش (١٥٤٠ - ١٥٢٢)

برنابرياش الأول (١٥٢١ - ١٥٠٣) كاشتلياش الثالث (١٥٠٢ - ١٤٨٤)

أجم الثالث (١٤٨٣ - ١٤٦٥) كره أنداش الأول (١٤٤٥ - ١٤٢٧)

كدشمان حربي الأول (١٤٢٦ - ١٤٠٨) كوريجالزو الثاني (١٤٠٧ - ١٣٨٩)

كدشمان - انليل الأول (١٣٨٨ - ١٣٧٠) برنابرياش الثاني (١٣٦٩ - ١٣٦٨)

كره انداش الثاني (١٣٦٧ - ١٣٥٥) كدشمان حربي (١٣٥٥ - ١٣٤٥)

كوريجالزو الثالث (١٣٤٤ - ١٣٢٠) نازيمرتاش الثاني (١٣١٩ - ١٢٩٤)

كدشمان ترجو (١٢٩٣ - ١٢٧٧) كدشمان انليل الثاني (١٢٧٦ - ١٢٧١)

كودر - انليل (١٢٧٠ - ١٢٦٣) شجركتي شرياش (١٢٦٢ - ١٢٥٠)

كاشتلياش الرابع (١٢٤٩ - ١٢٤٢) إنليل - نادن - شومي (١٢٤١ - ١٢٤٠)

كدشمان حربي الثاني (١٢٤٠ - ١٢٣٩) أداد - شم - إدن (١٢٣٨ - ١٢٣٣)

إداد - شم - ناصر (١٢٣٢ - ١٢٠٣) مليشباك الثاني (١٢٠٢ - ١١٨٨)

مردخ أبال أدن الأول (١١٨٧ - ١١٧٥) زيبابا - شم - إدن (١١٧٤)

انليل نادن - أخى (١١٧٣ - ١١٧١) . ام المترجم

جلوا عنها ، وعادروها بعد تدميرها ، وقللوا راجعين أدراجهم إلى بلادهم
بغربي الفرات ، فأعقب ذلك قيام حكومة وطنية في بابل عمرت قرنا
ونصف قرن من الزمن ، حيث أغار الكاسيون على بابل ، وما لبثوا أن
اجتاحوها واستولوا عليها في عام (١٧٦٠ ق . م) ، وليتهم وقفوا عند هذا
الحد بل شنوا غارة أخرى على البلاد الساحلية (القطر البحري) من مملكة
« سومر » في (عام ١٧١٠ ق . م) . وانتزعوها من بين برائن آخر ملوكها المدعو
« تي غاميل = Ea - Gamil » ، ثم وحدوا بين (سومر) و (آ كاد) فأصبحت
مملكة واحدة تحمل اسم (كار - دونياش Kar - Duniash)^(١) وهو الاسم
الذي أطلق على الحكومة الجديدة .

ونحن لسوء الحظ نفتقر إلى معلومات شافية عن عهد مؤسس هذه
الحكومة وهو الملك (غانديش - Gandish) أو « غادداش » اللهم إلا كونه
حكم ستة عشر عاما . ويقول المستر « هول » في كتابه « تاريخ الشرق الأدنى
القديم ص ١٩٩ ، إن (أولام بوريش - Ulam Buriash) الكاسي الذي انتزع
البلاد الساحلية من « تي غاميل » السومري في عام (١٧١٠ ق . م) ، هو ابن
ملك بابل المدعو (بورناهوراريارش - Burnaburariash) وأن (آ كوم الثالث

(١) يقول المستشرق مر كينج في كتابه « تاريخ بابل » ص ٢٤٤ « أن
لفظ « كار دونياش » يشمل القطرين المتحدين سومر و آ كاد ، على الرغم
من أنهما احتفظا بتقسيمهما الإداري والجغرافي ... أما « مر سدن سمت »
فيقول إن هذا اللفظ مشتق من : « دونياش » وهو اسم معبود من معبودات
الكاسيين ، و « كار » أي الأرض أو البلاد ، فيكون المعنى كاملا « مملكة
الاله دونياش » ويكون الغرض من هذا الاطلاق التبرك والتقديس . بينما يذكر
كتاب « شعوب ميسوپوتامى » ص ٩٨ ، أن كلمة « كر دونيا » إن هي إلا
لفظة كاسية تطلق على مدينة « بابل » .

المؤلف

- Agum) الذى استولى على مدينة دور - نى = Dar-aa ، التى كانت آخر مدينة محصنة فى سومر ، هو حفيد ، أولام بورياش ، .

ويقول أيضاً فى ص ٢٠٠ : انه على الرغم من قلة ما لدينا من معلومات وحقائق عن الكاسيين فمن المسلم به أن الملوك الذين خلفوا الملك غانديش ، هم كما يلي على التعاقب :-

(، أو ششى-Ushshi ، و ، أبى راناش - Aby Ratash ، و ، ناششى - كورماش-Tashshigurmarsh ، و ، آ كوم الثانى - Agum ii ، و ، آ كوم كا كريم ، .

وجاء فى الجزء الأول من كتاب « التاريخ العام للبؤرخين » ص ٣٢٨ ، أن الملك « آ كوم كا كريم » قد اعتلى العرش عام (١٧٠٠ ق . م) ، فبدل هذا على أن ملوك آخرين قد سبقوه على عرش بابل من بعد الملك غانديش حتى هذا العام (١٧٠٠ ق . م) ، كما يؤيد مستر هول هذا الرأى . هذا وفى عهد هذا الملك (آ كوم كا كريم) اشتبك الكاسيون مع الحيثيين فى حرب ضروس ، حامية الوطيس ، إنعقد فيها لواء النصر للكاسيين ومنى فيها الحيثيون بهزيمة شنيعة ، استرد خلالها الكاسيون منهم التماثيل وأصنام آلهة بلاد ، مردوك - Marduk ، و ، سار پانيتوم - Sarpanitum ، التى كان الحيثيون قد أخذوها ضمن الغنائم عندما استولوا على بابل فى أواخر عهد الأسرة الأولى وبمعنى آخر فى عهد آخر خلف للملك ، همورابى ، .

وقد اتسعت رقعة أملاك الحكومة الكاسية فى هذا العهد ، حيث استطاع (آ كوم كا كريم - Agumkakrim) أن يبسط سلطانه على جميع بلاد سومر ، وضمها إلى بلاد آ كاد ، فصارتا مملكة واحدة أطلق عليها اسم مملكة « كاردونياش » ، .

ولم تقف آمال هذا الملك عند هذا الحد ، بل توالت فتوحاته ، واستأنف

غزواته الموقفة فشن حرباً عواناً على الحيثيين فدحرهم ، واستولى على شمالي سورية ، وظل محتفظاً بالسيطرة على الشعب العموري حتى عهد الفتوحات المصرية لهذه الديار في القرن السادس عشر قبل الميلاد (١) .

وتروى لنا الوقائع التاريخية أنه بعد أن أسدل الستار على حكم هذا الملك الذي دام ٢٢ سنة ، مضت فترة طويلة تقدر بقرنين وثمانية وعشرين عاماً يكتنف تاريخها الغموض والابهام وليس لدينا عنها معلومات اليقظة ، اللهم إلا أسماء لبعض ملوكهم يقال إنهم قد خلفوا (آكوم كاكريم) .

وهم حسبما يقال (بورنا بوراياش) (الظاهر أنه الثاني) : و (كاشتيلياش الثاني - Kashtiliash II) - و (آكوم الثالث) ثم تعقبها فترة أخرى تذكر فيها أسماء (كاداشمن حربي الأول - Kadashmen Kharabe) - و (كوريكالزو الأول - Kuriqalzu I) و (مهلي شيبك الأول - Moly Shipak) وظل هذا الغموض سائداً ومجلمة التاريخ معطلة حتى بدأ عهد الملك (كارا اينداش - Kara indash) (٢) في عام ١٤٥٠ ق . م كما ذكر في التاريخ العام للتورخين . ونستطيع أن نقول انه منذ هذا العهد ، أضحت تاريخ الكاسيين معلوماً ومعروفاً إلى حد ما ، وهناك خلاصة وجيزة عنه (٣) :

١ - كارا اينداش الأول عام ١٤٥٠ ق . م .

وفق هذا الملك لعقد معاهدة خاصة بالحدود مع ملك آشور المدعو (آشور - بل - نيش - أشو) وبذلك بدأت العلاقات السياسية بين حكومتيهما ، وقد أنشأ معبداً للآله « في - اننا E anua »

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٢٠١ .

(٢) كان هذا الملك معاصراً لفرعون مصر « تحتمس الرابع »

(٣) التاريخ العام للتورخين The historian history of The World

(جزء ١ ص ٣٢٨ - ٣٢٩) المؤلف

- ٢ - (كدشمان - أنليل الأول) أو (كاداشمن - بل Kadashmou Bel عام ١٤٣٠ ق. م) وكان معاصراً لفرعون مصر (أمنحتب) الثالث .
- ٣ - (بورنا بورياش الأول Burnaburiash 1 عام ١٤٢٠ ق. م) أنشأ هذا الملك معبداً باسم (رب الشمس) ببلدة لارسا ، وحارب الملك الآشوري (يوزور آشور الرابع) بسبب نزاع قام بينهما بخصوص مسألة الحدود .
- ٤ - (كوريكالزو الثاني Kurikalzu II عام ١٤١٠ ق. م) أطلق اسم هذا الملك خلال حكمه على إحدى المدن ، ويغلب على الظن أنه غير اسمها السابق بعد أن جددتها . (وهي مدينة عقر قوف الأثرية) .
- ٥ - (بورنا بورياش الثاني ١٤٠٠ ق. م) خلف الملك ، كوري كالزو ، على العرش ، وعاش سعيداً طيلة مدة حكمه .
- ٦ - (خارا خارداش - Kharakharqash ١٣٧٠ ق. م) (١) . تزوج من ابنة الملك الآشوري المدعو (آشور او بالبط) . وقد شن ابنه (كدشمان حربي) الأول حرباً على (السوتيين Sotu) فانتصر عليهم وفرض عليهم إسكان بعض رعاياه بينهم .
- ٧ - وحدث في عام (١٢٦٠ ق. م) أن انفجر الكاسيون ثائرين في وجه حكومتهم لما رأوا من ازدياد وتغلغل نفوذ الآشوريين في بلادهم ، وامتد لهيب الثورة في أنحاء البلاد ، وتمسك الثائرون من قتل الملك ونصبوا على العرش مكانه الملك ، (نازي بورغاش Nazi purgash) ولكن هذا الملك بدوره لم يعمر طويلاً حيث أخطأه التوفيق إبان الحرب التي نشبت بينه وبين الملك الآشوري ، آشور أوبالت ، ولقى فيها حتفه .

(١) يظهر أنه الثاني كما في الدليل . المترجم

٨ - نصب (كورى كالزو الثالث) فى عام (١٣٥٠ ق . م) ملكا على البلاد من قبل الآشوريين وبموافقتهم ، وقد استولى هذا الملك على بلاد عيلام ، ودخل مدينة السوس (سوسا = شوشان) ثم اشتبك فى حرب مع الملك الآشورى (بل نرارى - Bel Nirari) .

٩-١٣ (نازى مرو تاش Nazy Maruttash ١٣٤٠ ق . م) و (كدشمان ترجو Kadashmen - Turgu ١٣٣٠ ق . م) ، و (كدشمان انليل الثانى أو ، بور ياش ١٣٣٠ ق . م) و (كودر - انليل - Kudur enlil ١٣٠٤ ق . م) ، و (شجرا كتى بوريا - Shagarakti Buriash ١٢٩٨ ق . م) .

واندلعت فى عهد هؤلاء الملوك الخمسة نيران حروب طاحنة ، فاشتد أوارها وطال أمدها بين بابل وآشور . وهذا هو كل ما لدينا من معلومات عن حكمهم .
١٤ - ثم أعقب ذلك فترة (١٢٨٥ - ١٢٧٠) اشتد فيها الهجوم على بابل ، وأخذ العدو اللدود ألا وهو الملك الآشورى الأول (توكولتى - نينيب = Tukulty - Ninib) يجرّد عليها الحملة تلو الحملة ، ويشن عليها غارة إثر أخرى منذ فجر عام (١٢٨٥ ق . م) حتى أحرز انتصارا باهرا ، وطرق أبواب المدينة ، ودخلها فاتحا غازيا ، واستولى على خزائن معابدها ، ونقلها مع المعبود (مردوك) إلى آشور ويلوح أن هذه الحوادث قد وقعت ودار رحاها فى عهد الملك الكامى (ييبى ياشو - Bibe iasho) الذى خلفه على العرش كل من (بيل شوم تيدن) و (كاداشمن حاربى) الثانى (١٢٧٧ - ١٢٧٥ ق . م) و (أدادشوم - تيدن) (١٢٧٤ - ١٢٦٩) . أولئك الذين كانوا خاضعين للملك الآشورى (١) الذى حكم (بابل) سبع سنوات حكما حقيقيا .

(١) وهو كما فى الدليل (نكلتى ننورتا) الاول . المترجم

١٥- لكن أهل (بابل) لم يطل خنوعهم للاستعمار الأشوري بل كانوا على أحر من الجمر يتربصون ساعة لتحرير بلادهم ، فثارت ثائرتهم وتحركت فيهم حمية الجاهلية الأولى بعد أن نظموا صفوفهم ، وما أن أهل عام (١٢٧٠ ق.م) حتى قاموا قومة رجل واحد في وجه العدو الغاصب ، ونجحوا في طرد الأشوريين من بلادهم ، ونصبوا على عرش بلادهم ملكا يدعى (دادشوم - اوسور) الذي كان عهده في بابل عهد رخاء وطمأنينة، وتمكن من قتل (بل - كودور - اوسور) ملك آشور ، وضم بعض بلاده إلى مملكته .

١٦ - (ملشيباك الثاني Meli-Shipak ١٢٣٨ - ١٢٢٤ ق.م)

أدار هذا الملك دفعة رحي الحرب ضد الملك الأشوري المدعو (نيب - آبال - ايشاررا) فانتصر عليه واستطاع أن يظفر به مما أدى إلى تحفز ملك آشور الجديد (آشوردان) الأول إلى تهديد بابل وشن الهجوم عليها في عهد الملك الكاسي (ماردوك - آبال - ئيددين) أو (مردخ - آبال - ادن الأول) الذي امتد حكمه (١٢٢٣ - ١٢١١ ق.م) ثم أخذت عوامل الفساد والانحلال تنخر في عظام دولة الكاسيين وما أن أتى عام (١٢٠٧ ق.م) إلا وكانت دولتهم قد دالت بسبب ثورة الساميين فيها ، وأسدل الستار على مدة حكمها البالغة ٥٧٦ عاما وتسعة أشهر (١) .

(١) يقول مستر « كينجج » : إن اسم آخر ملك كاسي على ما يظهر هو (ئى نادين - Ea Nadin) بينما يقول سرسدي سميت في كتابه « تاريخ آشور القديم » ص ٩٤ أن اسمه « انليل - تادن - أخى Enlil nadin akhe » وأن الملك العيلامي « شتروك - ناخوتى » قد هاجم الكاسيين وأسر آخر ملوكهم واستولى على بلادهم حيث قامت فيها حكومة محلية جديدة بعد ذهاب العلاميين وبذلك ، انقرضت حكومة الكاسيين التي بلغ عدد ملوكها (٢٦) ملكا . على ماورد في جدول هذا المصدر . أما صاحب كتاب التاريخ القديم للشرق الادنى =

٤ - حكومة الميتاني (١) :

قامت هذه الحكومة في شمالي الجزيرة ، واتخذت مدينة « واششوغانى » مركزاً لها ، ويلوح أنها تفرعت من حكومة الكاسيين ومن منظومة السوبارتين

= فيقول في (ص ٣١٨) : إن آخر ملك كاسى كان يدعى (بل نادين آخى - Bel Nadi akhi) ابن « زام - ا - شم - أدينا » وأنه مات أو قتل في عام ١٨١٠ ق.م (لعله ١١٨٠) بعد أن دام حكمه ثلاث سنوات تقريباً ، وبعد ذلك أقيمت في بابل حكومة (السلالة الرابعة Pashe) وحسب هذه الرواية يرجع السبب في انقراض الحكومة الكاسية لا إلى الهجوم الذى شنه عليها العيلاميون بل إلى ثورة « بابل » على أثر انتصار « آشوردان » الآشورى على « زامماما » الكاسى اه المؤلف

(١) ورد في دليل المنحف العراقى ما ملخصه : تقع مملكة « ميتانى » بين بلاد الحثيين من الغرب وبلاد آشور من الشرق وتمتد من حدود الفرات جنوباً حتى الجبال شمالاً . وقد ازدهرت هذه المملكة حوالى سنة (١٤٥٠ ق.م) وكان أشهر ملوكها (سوشنار) وهو رأس الأسرة و (أرتاتاما) - ابن - سنة (١٤٣٠) و (شنارنا) . ابن - سنة ١٤١٠ و (ارتاشوما را) . و (تشاراتا) أخ . سنة ١٣٩٩ و (أرتاتاما) الثانى . و (ماتيوازا) ١٣٥٩ وغيرهم . . . والميتانيون فرع من الأمم الآرية (الهندية الأوربية) وكان من بين آلهتهم (أندرا) و (ورونا) من الآلهة الآرية الأولى اه .

وقال المسعودى المتوفى سنة ٣٤٥ هـ فى (التنبيه والاشراف) ص ٧٨ عند ذكر مواطن الشعوب والقبائل الكردية وأسمائها (منهم البازنجان ، الشوهجان الشاذنجان ، النشاورة ، البوذيكان ، اللرية ، الجوزقان ، الجاوانية ، البارسيان = البارث ، الجلالية ، المستكان (أعنى المنيكان - المتينان الموجودين بحوالى (ماردين) حتى الآن فلا أشك أن لفظه المستكان تصحيف المنيكان . المترجم) والجابارقه ، الجروغان ، الكيكان ، الماجردان ، الهذبانيه وغيرهم ممن بزمام فارس وكرمان وسجستان وخراسان واصبهان وأرض الجبال من الماهات : ماه الكوفة وماه =

وقد أخذت تنمو وترعرع حتى علا شأنها وأضحت إحدى الدول الأربع العظمى وقتذاك وهي (مصر ، حيث ، كاساي ، ميتاني)

ولكن (تحتمس الأول) Telmtines فرعون مصر مالبث أن حطم عظمته، في حرب من حروبها في آسيا عام (١٥٨٠ ق . م) في معركة على الحدود منى فيها الميتانيون لأول مرة بالانكسار أمام جيوش فرعون مصر ، ومنذ ذلك بدأت سلسلة العلاقات بين الحكومتين المصرية والميتانية . وما أن جاء عام (١٥٢٢ ق . م) حتى كانت حكومة الميتاني خاضعة لمصر .

ولكن الميتانيين لم يطل بهم الصبر على الأذعان والتبعية لمصر ، بل أخذوا في وضع الخطط التي تكفل لهم التخلص من برائن هذه التبعية ، فعقدوا في خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد اتفاقا مع الحيثيين قوى شوكتهم ، وجعل لهم شأنا كبيرا ونصيبا لا بأس به في فتوحات الحيثيين فيما بعد . وفي أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان أمرهم قد اشتد ، فشمروا عن ساعد الجد ، وشنوها حربا عوانا على المصريين حتى تمكنوا من طردهم من بلاد (العموريين) ، واستولى ملكهم المدعو « كوشان ريش آثايم » على القسم الشمالي من « سورية » ، كما أخضع لحكمه لاسرائيليين مدة ثمانى سنوات هذا إلى أن الشطر الأكبر من كردستان ، وبلاد آشور وآررافا ، كانت هي الأخرى في قبضة الميتانيين .

== البصرة وماه سبذان والايغارين وهما البرج وكرج أبي دلف ، وهذان وشهر زور ودرآباد والصامغان واذر بيجان وأرمينية وأران والبيلقان والباب والأبواب - ومن بالجزيرة والشام والسنور .)

وليس أوضح من هذا في باب تحديد الوطن الكردي التاريخي وبيان العناصر والشعوب الهندية الأوربية التي تتألف منها الأمة الكردية وهي لاتزال محتفظا بتقاليدها وأساطيرها القديمة حتى الآن . المترجم

ولكن هذا السلطان العريض مال بث أن تضامل وانكمش إذ أخذ الضعف يسرى ويبدب في جسم الحكومة الميتانية رويدا رويدا واتهز الحيثيون هذه الفرصة التي لا تعوض فاستولوا على غربي الفرات الأعلى ... من بلاد الميتانيين واستعاد المصريون منها شمالي « سورية » ، كما استولى الملك الآشوري « تيجلات بلسر » الأول على البلاد الشرقية منها . . . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل فقدوا ما تبقى في حوزتهم من بلدان في عهد « آشور نصر بال » ، الثالث ، وهكذا اسدل الستار على هذه الحكومة في القرن الثامن قبل الميلاد .

٥ - الحكومة الخلدية (أوراتو) ^(١)

نكتفي عن هذه الحكومة بما ذكر في المجلد الأول .

٦ - الحكومات السوبرية

أسس السوبريون بضع حكومات صغيرة ، ويلوح أنهم لم يتمكنوا من تأليف حكومة قوية متحدة .

٧ - الحكومات النابرية = النهرية

لم يستطع النابريون (النهريون) وهم أحفاد السوباريين تأسيس حكومة مركزية قوية ، بل كانت حكوماتهم على شكل اتحاد أو تحالف Confederation بين عدة حكومات صغيرة . والثابت تاريخيا أن الملك الآشوري « تيجلات بلسر » الأول قد اشتبك في حرب مع ثلاث وعشرين ملكا من ملوك النابري ، وكان مسرح تلك الحروب سهل « ملاذجرد » بكرديستان الشمالي . (سر سدي سميت تاريخ آشور)

(١) ولا تزال إحدى العشائر الكردية العريقة في القدم تحمل اسم هذا الشعب القديم وهي عشيرة (الخلدية = الخلطى) اليزيدية المنتشرة في أطراف سمرقند والجزيرة والموصل كما في (شرفنامه) .
المرجم .

يقول أبو التاريخ (هرودوت^(٢)) المؤرخ اليوناني في صدد تشكيل الحكومة الميدية ماملخصه: (بعد أن عمرت حكومة الآشوريين (٥٢٠) عاماً في آسيا الشمالية (لعلها الغربية) ، ثار الميديون - وكانوا خاضعين للآشوريين - في وجه حكومتهم فكان لهم سبق على كل من عداهم من الشعوب الخاضعة الأخرى في الاستقلال النهائي التام ، إثر معركة حامية الوطيس دارت رحاها بينهم وبين الآشوريين . وقد حفزت هذه الحركة الناجحة جميع الشعوب الخاضعة للآشوريين فقاموا عن بكرة أبيهم وغلى دم الحماس في عروقهم واقنفوا أثر الميديين حتى تخلصوا من ربة الخضوع عن آشور فاستقلوا استقلالاً تاماً لا تشوبه شائبة .

ويروى أنه في أحد العهود ، ظهر بين ظهرائي الشعب الميدي رجل يدعى (ديوسس-ديوكس^(٣) Deioces) وهو ابن (فرائورث - فرا آرتس) ، يقال إنه قد تولى منصب العمدة في قرية ميدية ، وأنه كان يتصف برجاحة العقل والرزانة بما حدا بزرافات من الشعب وزعمائه أن يهرعوا إليه في المللآت يلتمسون النصيحة ، ويستنيرون برأيه إذا حزبه أمر من جلائل الأمور ، فطبقت شهرته الديار ، وعرف بين قومه بأصالة الرأي ، وحسن التصرف ، وذات يوم قال لقومه : (إذا لم تنشؤوا لي مقراً للحكم وحاشية تقوم على

(١) هذا البحث عن الميديين ملخص من كتاب (تاريخ آشور) لمؤلفه

المؤلف

٩٢٣ a. T. Otmstead (ق. م.)

(٢) ولد في هاليكارناس إحدى المستعمرات اليونانية بغربي الانضول

وعاش (٤٨٤ - ٤٢٥ ق. م.) المترجم

(٣) دام حكمه من (٧٠٨ أو ٧٠١ - ٦٥٥) ويظن أنه كيشباد الذي تذكره

المترجم

الروايات الشرقية من عربية وفارسية .

تصريف شئونه فاني سأتمخلى عن أعباء الرياسة وإبداء المشورة وتصريف الأمور (فصدع القوم ولبوا النداء ، وأخذوا في بناء مدينة أطلق عليها فيما بعد (آقباتان = همذان (١)) حيث اتخذت عاصمة للحكم ، وبعد أن عمر في الحكم (٥٣) عاما خلفه في الحكم ابنه المدعو (فراتورت) الذي بعد أن وضع أساس الحكومة الميدية) .

والواقع أن هذه الرواية لا يطمئن إليها الباحث لاقليلا ولا كثيرا ، لأن المواطن الأصلي للشعب الميدي هو هضبة إيران ، ويلوح أنه كان يمت بصلة النسب إلى الشعوب الآرية الوافدة أخيرا فضلا عن أن لغتهم من المحتمل جدا أن تكون إحدى اللهجات الآرية الإيرانية ، وكانوا أصلا قبائل رحل ، ثم حطوا رحالهم حيث استقروا في الوديان والجبال ، وأنشأوا القرى والساكن متخذين عادات المدن وأحوالها ، وبانين مدنهم على سفوح الجبال في أمكنة مشرفة على الوهاد ، ومطلة على الوديان ، وكانت حياتهم ساذجة تكاد تكون بدوية ، ولا تخضع منهم جماعة لأخرى .

ويستدل من الجدول الذي سجل أسماء عظماء هذا الشعب أن رؤساء القبائل المشهورة كانوا متساوين في الحقوق والواجبات لاسلطان لو احد منهم على الآخر ، وكانت أسماءهم لغويا تشبه الأسماء الإيرانية وأما لغتهم من حيث الأداء والاسلوب فكانت كالغة العشائر الكاسية . . . ، ولم ترد إشارة عن (آهورا مزدا) بين أسمائهم مما يحملنا على الاعتقاد بأن الديانة (الزرادشتية) لم يكن لها وجود بين هذا الشعب حينذاك بل ظهرت أخيرا .

(١) في الروايات الاشورية (امدانا) وفي الروايات الهبخامنشيه (هنك متان) بمعنى محل الاجتماع وهو (همذان) الحالية في الكردستان الايراني . المترجم

هذا ، وأن أول ملك جمع شمل الأمة الميدية هو (ديوسيس = كيقباد) ابن (دايوكو = دياكو)^(١) الذي كان واليا على (ماناي = ماندا) وكان (دياكو) هذا قد وضع ابنه رهينة لدى (روساش - Rusash) حاكم « أورارتو » ، فوقع هذا الابن أسيرا في يد الآشوريين أثناء حروبهم مع الأورارتيين ، فنفوه إلى (حماه) في سورية عام (٧١٥ ق . م) ، ويستدل من قرينة الاسم والمكان أن هذا الأمير الصغير هو نفس « ديوسيس = كيقباد » مؤسس الدولة الميدية^(٢) وقد ظلت أسرته باقية طويلا ، وكان أحفاده ملوكا للدولة الميدية التي اتخذت مكانها على صفحات التاريخ كدولة من أقوى دول العالم في عصرها .

وتصاري القول ان (ديوسس - deioses) بعد أن اتخذ مدينة (آقاتان = همدان) عاصمة لحكومته انصرف الى تجميلها وتحصينها حتى أضحت آية في الجمال منيعة الحصون ، هذا فضلا عن أن عمده الزاهر قد دخلا من نار الحروب والتطاحن والقتال ، وقد بذل جهودا جبارة في توحيد القبائل الميدية المتناحرة المتنابهة إلى أن كملت مجهوداته هذه بعلام التوفيق وساعده على ذلك انشغال (سناخريب) ملك آشور في حروب وقتال مع البابليين والعيلاميين فلم تح له الفرصة لعرقلة هذه الجهود ، والوقوف في سبيل اتحاد هذه القبائل .

ويقول « هرودوت » أن (ديوسس) قد توفي بعد أن حكم ٥٣ عاما ، بينما تذكر رواية أخرى أنه لحق بالرفيق الأعلى بعد حكم دام ٤٦ عاما (٧٠٦ -

(١) رواية مشير الدولة في (تاريخ ايران) نقلا عن هرودوت تخالف هذا إذ تقول ان (ديوسس) هو ابن (فرائورت) وأنه و (دياكو) شخص واحد فعلى هذا يكون هو نفسه وقع اسيرا في يد الآشوريين لابنه . المترجم .

(٢) يظهر ان هذا الامير قد نجح من الأسر على أيدي ميدي سورية وعاد الى (ميديا) وفي الواقع ان (تيجلات باسر الثالث) ذكر بعض العشائر الميدية الضاربة في سوريا اه . تاريخ آشور لاولمستيد ص ٥١٦ . المؤلف

٦٥٥ ق . م) ، وقد خلفه على العرش ابنه (فراورتيش Fravartish)
أو (فراوريتس) الذي اتبع في بدء حكمه سياسة المجاراة والمهادنة مع الحكومة
الآشورية حتى ألغى نفوذه قد امتد وعظم بين الشعوب الآرية ، إذ كانت
بعض شعوب آرية قد قدمت من الشرق وانضمت إلى أقربائهم الميديين ، هذا إلى
جانب خضوع الشعب الفارسي الذي كان ينظر إليه حينذاك نظرة استخفاف ،
إلى السلطان الميدي ، كل هذه الوسائل مجتمعة جعلت الميديين يتحرشون
بالآشوريين ، فامتنعوا عن دفع الجزية (الأتاوة) التي كانوا يدفعونها منذ
القدم مضطرين للآشوريين ، ولكن الآشوريين قد تملكتهم ثورة الغضب
على الميديين فركبوا رؤوسهم ، ومالبت أن اندلعت نيران الحرب بين
فراوريتس ، والآشوريين فأسفرت عن انكسار جيشه ومصرعه هو وجل
من كان يصحبه من الأمراء عام (٦٣٣ ق . م) بعد أن حكم ٢٢ عاما .

وقد خلفه على العرش أخوه الصغير (١) (هووخشتر - hovakhshatara)
= كي اكسار = كيكوس) وكان قائدا محنكا وملكاً حازماً ، إذ وجه أول
هجمه إلى الجيش فأعاد تنظيمه حتى أصبح من أحسن جيوش العالم ، لأنه رأى
بثاقب فكره أن الانتصار على الجيش الآشوري المنظم لا يكون على يد
جيش من أفراد القبائل والعشائر المتباينة العادات والمختلفة الطباع ، ولهذا
أدخل إصلاحات هامة على أنظمتها وفصل بين الخيالة والمشاة ، وسلح الأخيرين
بالقوس والنشاب والسيف ، وأحدث خيالة سريعة العدو استطاعت أن تقهر
فيما بعد الفرسان الآشوريين الذي انعقد عليهم لواء الشهرة في التاريخ :

(١) التاريخ العام للمؤرخين جزء (٢) . المؤلف . لكن هذا يخالف
ماورد في (هرودت) من أن (كيا زارس = كي اخسار) هو ابن (فراوريتس)
لا أخوه (المترجم)

أعمال كى أخسار الحربية:

بمجرد أن فرغ ، كى أخسار ، من إعداد جيشه وتسليحه على أحدث النظم ، وبعد أن نجح في عقد تحالفه مع ملك بابل (نبوبولسر - uebopolassar) ليقتفيا جبهة متراصة متحدة ضد العدو المشترك وهو ملك آشور ، بدأت جحافل جيشه تبدأ زحفها في أوائل ديسمبر عام (٦١٥ ق . م) متجهة صوب آشور ومرت ببلاد (نامرى) و (مازاموآ) حيث استولت في هجوم خاطف على بلاد « آرافا = arrapha » ومدينتها ذات الأهمية البالغة بالنسبة لمملكة آشور ، والتي كان انتزاعها من جسم مملكة آشور خسارة جسيمة لا تعوض . ويلوح أن كى أخسار قد اتخذ هذه المدينة قاعدة لأعماله الحربية .

ثم استأنف الجيش الميذى زحفه في العام التالى (٦١٤ ق . م) متجها صوب « نينوى » (١) العاصمة الاشورية ، وفي طريقه اليها استولى على مدينة

(١) يقول مستر (هول) في كتابه (تاريخ الشرق الأدنى القديم) (ص ٥١١) انه حدث في أواخر عهد الملك (آشور بانيبال) أن احتشدت جيوش (كى أخسار) مع العشائر المتحدة المسماة (أومان - ماندا) المؤلفة من الجنود السيتيين والمائناى وكييمرى أرمينية والعشائر الكردية بجبال الجودى وزحفوا على (نينوى) عام ٦٢٦ ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها . ويقول (هرودوت) أن (فرائورت) الميذى زحف على بلاد آشور عام (٦٣٤ ق . م) ولكنه عاد منها منهزما . وفي عام (٦٣٠ ق . م) حاصر مدينة (نينوى) ولكنها امتنعت عليه فعاد إلى بلاده بسبب هجوم السيت عليها بقيادة (مادايس) . فهاتان الروايتان ليستا بعيدتين عن العقل فالظاهر أن الميدين والسيتين لم يكونوا دائما على وفاق بدليل مقتل مادايس الذى وقع صريعا في ميدان القتال على يدي كى أخسار وجيشه .

(المؤلف)

(تاريخى) ثم يم شطر الجنوب حسب خطة موضوعة لىتصل بالجيش البابللى وفى طريقه استولى أيضا على مدينة (آشور = الشرقات الحالية) عاصمة اشور القديمة، وقد دمرها تدميرًا . وما أن تم الاستيلاء عليها، وفرغ الجيش الميذى من تدميرها حتى كان ملك بابل قد وصل، حيث عقد مع كى أخسار، معاهدة جديدة عينت فيها الحدود المستقبلية بين دولتيهما، وتوثيقا للروابط السياسية بين الدولتين، رؤى تعزيزها وتوكيدها بمصاهرة كريمة تمت بين الأسرتين المالكتين فتزوجت حفيدة (كى أخسار) وهى (أميتيس) بنت أستياغ من (نبوخذ نصر = Nebuchadnezzar) نجل ملك بابل .

وتلت ذلك فترة امتدت إلى نهاية عام (٦١٣ ق م) نفتقر إلى معلومات قاطعة عن تحركات ونشاط الجيش الميذى خلالها، وان كان هروودوت، المؤرخ اليونانى يقول: ان (كى أكسار) لما نعى إليه، أثناء هجومه الأول على نينوى، تبا اجتياح السيت = سك - Scythian، لبلاد (ميديه) قفل راجعا إلى بلاده على جناح السرعة ليتولى بنفسه الدفاع عنها ضد المغيرين عليها، ولكنه غلب على أمره أمام عدوقوى الشكيمة، بارع الحيلة، فخضعت (ميديه) ثمانية وعشرين عاما للقبائل السيثية. وكان (كى أخسار) يعمل طيلة هذه المدة على تخليص بلاده من بين براثن هذه القبائل، حتى هداه تفكيره أخيرا وبعد طول انتظار وفرغ صبر، إلى حيلة رائعة بل وبارعة أنقذ بها عرشه ومجد بلاده، فقد نجح فى القبض على زعماء هذه القبائل، فأفناهم عن آخرهم، فخلا له الجو، وأخذ يطارد المحتلين حتى طهر البلاد من شرهم واستعمارهم. وبعد أن أعاد (كى أخسار) إلى ميديه استقلالها المسلوب، استأنف زحفه شطر (نينوى) وحاصرها من جديد .

ولكن رواية (هرودوت) هذه لا تؤيدها الآثار المكتشفة ، فضلا عن أنها لا تطابق الواقع المحسوس ، إذ الثابت الذي لا يتطرق إليه أدنى شك أن المدة بين أول زحف على (نينوى) وبين سقوطها كانت ثلاث سنوات على الأكثر ، فإذا كانت رواية خضوع (ميديه) للسبت صحيحة ، فكيف يمكن التصور أن زحف ملك (ميديه) على (نينوى) حدث خلال هذه المدة؟ والمنطق يقول ان هذا الزحف لا بد أن يكون قد حدث بعد (٢٨) عاما أى في سنة (٥٨٦ ق م) . إن كان لهذه الرواية نصيب من الصحة ؟؟

وقصارى القول ان (كى اخسار) لم يعتوره وهن ، ولم يتطرق اليه اليأس في الاستيلاء على (نينوى) مهما كلفه الأمر ، ورغم أنها امتنعت عليه في هجومه الأول عليها ، فأعاد الكرة ، وشن عليها هجوما عاتيا ، ثم ألقي عليها حصارا منيعا ، ولما رأى بيعد نظره وثاقب فكره أن المدينة مازال الاستيلاء عليها صعب المنال ، أخذ في تكوين جبهة قوية تستطيع قهرها ، فبدأ يساوم بعض القبائل السيشية ^(١) التي كانت تشد أزر الآشوريين وتقف إلى جانبهم ، وقد نجح في إغرائهم بنهب وسلب بلاد آشور الغنية وما سيعود عليهم من هذه الأسلاب والغنائم فتألبوا على الآشوريين وهرعوا اليه معلنين انضمامهم إلى جانبه .

(١) هذا الشعب قوقازى [لعله يقصد أنه من الشعوب التي لم تعرف جنسيتها بعد ، كما هو المصطلح بين متأخرى العلماء . المترجم] وكان يستوطن شمال (أورارتو) جنوبي البحر الأسود خلال القرن السابع قبل الميلاد، ويظهر أنهم هجروا موطنهم الأول في جنوبي روسيا تحت ضغط العشار الكيممري (غومر)، وفي عهد الملك الآشورى (آسرحدون ٦٨١ - ٦٦٩ ق م) أفاروا على الحدود الشمالية لآشور ، وأخيرا لجأ أحد زعمائهم المدعو (بارتاتوا) إلى (الماناي) خوفا من الكيممريين حيث اتفق ضد (سباكا = أشباكا) وضد (كاستاريت) أغنى ملكى السيت وكاسكاشى ... ويقول (هرودوت) أن بارتاتوا هذا إن هو إلا =

كما انضم اليه جيش بابل تنفيذاً للاتفاقية التي أبرمت بينها ، وبهذا وفق (كى أخسار) في تكوين جبهة متحدة يدحر بها المدينة العاتية ، وكانت الخطوة التالية لتكوين هذه الجبهة أن أعلن (كى أخسار) نفسه ملكاً على (أومان - ماندا)^(١) الذي صار لقباً له .

وما أن أهل شهر (سيوان = مايو) حتى بدأت (نينوى) تتعرض لأعنف هجوم شنه عليها الحلفاء ، ورغم أنها امتنعت على هذا الجيش العرمم في هجومين متتاليين إلا أنها لم تستطع أن تحافظ على صمودها وتظل على امتناعها أمام الضربات المتكررة والهجمات المتعاقبة واضطرت مرغمة إلى التسليم ، وبهذا سقطت في أيدي الحلفاء في شهر (آب = يوليو) من نفس العام وقد هزتهم نشوة الفرح لاستيلائهم على هذه المدينة العظمى ذات الشهرة الخالدة والمجد التليد .

ولم يطق (سن - شار - ايشكوم^(٢) = Sin-Ghar-ishkum) الملك الآشورى صبراً على فقدان قلب مملكته النابض ، فأحرق نفسه ومن معه من خدم وحشم بالنار .

(بروتوتيوس) والد (مادايس) ، وهو الذي استولى بعد فتره من الزمن على جميع بلاد سورية حتى حدود مصر وخرّبها فمينه الملك الآشورى بدلاً عن (سبكا = سباكاي) المغلوب على أمره . ملكاً وقائداً على جيوش السيت بارميينه والماناى . اهـ (مستر هول . ص ٤٩٧)

(١) هذا لقب عام أطلق على اتحاد العشار الشمالية التي كانت تضم الميديين والسيت والماناى وبعض الكيمعريين . . . ويقول مستر هول في كتابه (ص ٥٥١) : أن لفظ ماندا كان لقباً مشتركاً بين الميديين والسيت وأن البابليين كانوا يطلقونه على مجموعة العشار الشمالية المتوحشة . المؤلف

(٢) ضبطه تاريخ إيران هكذا (سارا كس) . المترجم

وبعد أن فرغ جيش الحلفاء من نهب المدينة ومن تدميرها ، أخذ الجيش البابلي يطارد قسماً من الآشوريين الهاربين من المدينة ، ويتعقب آثارهم ، حتى لجأ جماعة منهم بقيادة (آشور أوباليت) إلى (حران) حيث وضعوا هنالك أساس حكومة جديدة . . .

ولسكن (كى اخسار) ابن عليهم الاستقرار في أى مكان وآلى على نفسه إلا أن يشتت شملهم ، ويقض مضاجعهم ، وقد واثته الفرصة فعلا لتحقيق هذا الهدف ، إذ بعد أن استجم في (ميديه) التي عاد إليها مع السيت في شهر سبتمبر بعد استيلائه على (نينوى) عاما وبعض عام ، استنجد به (نبوپولاسار) ليلحق به ويمد إليه النجدة في (حران) فحفر إليه على عجل ، وانضم إليه الجيش البابلي فاستطاع بمهارته الفائقة وخطته الحربية السديدة الاستيلاء على (حران) آخر حصون الآشوريين ، وبذلك تحققت آماله ، ثم قفل راجعا إلى بلاده مكللا بأكاليل النصر والغار .

ثم أخذ الحلفاء بعد ذلك في تقسيم الغنائم والأسلاب وتوزيع الميراث بينهم ، وقد جاء في كتاب تاريخ إيران القديم (١) أن المستعمرة الآشورية في آسيا الصغرى أضحت من نصيب الحكومة الميديه ، وكان خط الحدود بين (ميديه) و (بابل) ممتدا على طول نهر دجلة من الجنوب حتى مدينة (ديار بكر) كما أن خطا آخر كان يفصل بينهما ممتدا من (ديار بكر) حتى نهر

(١) كتاب فارسي لمشير الدولة (بيرنيا) . طبع بظهران سنة ١٣٠٨ ف ، ورد فيه ايضا ما ياتي : ولم تنقسم عرى الاتحاد بين ميديه وبابل بالقضاء على اشور بل زاد توثقا بعد ان زوج ملك (ماد = ميد) اخته لولى عهد بابل (بنخت النصر) الذي لما صار ملك بابل ، بنى الحدائق المعلقة التي تعد من عجائب الدنيا السبع تكريما لزوجته هذه اخت ملك ماد . وعلى هذا تكون نسبة بنساء هذه الحدائق إلى (سميراسيس) ملكة اشور خطأ مشهورا . المترجم

الفرات ، أما حدود (كايكيا) فكانت تبدأ عند الضفة اليمنى لنهر الفرات وتنتهى عند (ملطيه) . ويلوح أن الحد الفاصل بين حكومتى (ميديه) و(ليديه) كان يخترق سهل (اوزن يا بلا = الهضبة الطويلة) حتى نهر هالياس (قزيل ايرمق) ثم يأخذ فى الامتداد حتى ساحل البحر الأسود .

ولم يدم السلم طويلا بعد رسم الحدود ، إذ يظهر أن القدر قد شاء أن يمضى (كى اخسار) كل عهده فى ميادين القتال ، وبين صليل السيوف . إذ ما كان يخرج من حرب إلا ليخوض غمار حرب أخرى ، وكانت الحرب التالية بينه وبين الليديين التى تباينت الروايات فى استقصاء أسبابها وعوامل اشتعال لهيها ، فتقول رواية مصدرها كتاب (إيران قديم) ان بعض المجرمين السيت قد لجأوا الى الحكومة الليدية واعتصموا بحماها ، ولما طالبت الحكومة الميديه بردهم اليها لم تجب إلى طلبتها . إذ رفضت الحكومة الليدية تسليمهم لها ، فكانت هذه هى الشرارة التى أوقدت نيران الحرب بين الحكومتين .

بينما نجد رواية أخرى تعزو أسباب الحرب إلى أن الحكومة الليدية وقد تملكها الطمع فى المستعمرات الآشورية التى كانت من نصيب الحكومة الميديه بعد الاستيلاء على (نينوى) مما أدى إلى اندلاع نيران الحرب بين الدولتين ، والتحم الجيشان على شاطئ نهر (هالياس) ودارت رحى معركة حامية الوطيس وطويلة المدى فى مطلع عام (٥٩١ ق . م) ولم تقف رحاها إلا يوم (٢٨ مايو من عام ٥٨٥ ق . م) . بمعجزة ، فقد حدث خسوف كلى للشمس طيلة هذا اليوم ، فأيقن كلا الطرفين أن هذه الظاهرة العجيبة إن هى إلا علامة من علام الغضب الإلهى عليهما ، فرغب كل منهما بينه وبين نفسه فى وضع حد اسفك الدماء دون طائل ، وما أن عرض (نبوخذنسر = بختنصر) ملك بابل و(سيفيسيس) ملك كايكيا وساطتهما لإنهاء القتال وعقد الصلح حتى قبله الطرفان بارتياح ، وتوقفت العمليات الحربية ، واتفقا على أن يكون نهر (هاليس = هالياس) حدا

فاصلا بينهما، ثم عزز هذا الصلح وتوج بمصاهرة ملكية بين الأسرتين المالكتين،
فتزوج (آستياغ (١) (نجل (كي أخسار) من (آرينيس - Aryenis) كريمة ملك
(ليديه) في سنة (٥٨٥ ق. م).

ولم يعمر (كي أخسار) طويلا بعد إبرام هذا الصلح، بل عاجلته المنية
بعده بعام واحد، فخلفه على العرش ابنه (آستياغ) الذي عرف وأحجم
طوال عهده عن الاشتباك في حروب، مما أدى إلى ظهور دولة الفرس
وعلو شأنهم، وتحفزهم للاستقلال.

وأحس رجالات ميديّة بقوة فارس، وهي ولاية ميديّة تزداد شأنها يوما بعد
يوم وأن سياسة ملكهم السلبية، وعزوفه عن شن الحروب سيفضي حتما إلى
إنكماش دولتهم وربما إلى تقويض دعائمها وهي التي أقاموها بدماء أبنائهم،
فأعلنوا سخطهم على سياسته وكرهيتهم لحكومته.

ولكن ماذا ينفعهم سخطهم، وقد اشتد ساعد الفرس، وعلا سلطانهم على
حساب ميديّة، وحكومتها السائرة اللاهية؟؟

وكان يحكم فارس وقتذاك أمراء اسرة (أخميني - Achaimenes) (٢)

(١) أو (آستياج - آستاك) باللغة اليونانية واما باللغة البابلية فاسمه
(اينختوويكو) وفي المصادر الشرقية من فارسية وعربية (كيكاوس) الذي يظن
انه (نمروذ) ابراهيم الخليل عليه السلام. (المترجم)

(٢) هذه الاسرة الملكية الأخمينية من اقليم (انشان = أزان) ويظهر أن
هذا الاقليم يقع في الجنوب الشرقي من ولاية (لورستان) الحالية على مقربة
من اقليم (عيلام) القديم، وكانت هذه الاسرة محكم (فارس = بارس) فقط
منذ القدم، ومن المحتمل أنها اكتسبت لقب (الملك) أثناء انقراض الدولة
الاشورية، وربما كان ذلك بعد وفاة الملك (آشوربانيبال) وأثناء الاستيلاء
على عيلام، ثم أخذ سلطانها يمتد إلى بلاد (پارث = فرث) و (مهرقان =
خراسان) حيث تم لهم الاستيلاء عليها. ويؤخذ من نقوش (بهستون) =

الذين اتهموا وفرصة إخلاد الملك إلى الراحة ، وبذلوا جهودا جبارة لينفضوا عن جباههم ذل الخضوع للغير ، فشمروا عن ساعد الجهد ، وشرعوا في تكوين جبهة قوية متحدة للوقوف بها في وجه (ميديه) وقد نجحوا فعلا في ضم أقوام آخرين إلى جانبهم (كالبارث والهيركان) من الشعوب الخاضعة لـ (ميديه) والتي شقت عليها عصا الطاعة وأعلنت العصيان ، وكان بطل هذه المؤامرة التي أثارت هذه الشعوب على (ميديه) حاكم (پارس = فارس) المدعو (سيروس = كيروس Cyrus) الثاني أو (كوروش - Kurush) الكبير (كيخسرو الكبير) . وكان هذا الحاكم نفسه هو الذي حمل لواء الحرب ضد (ميديه) ، فزحف على رأس جيش جرار هاجم به ميديه حيث التقى بجيش (آستياغ) واشتبكا في معركة حامية الوطيس ، دافع فيها آستياغ دفاع المستميت وأبلى فيها بلاءً حسنا يمدوه الأمل في المحافظة على عرشه وعلى شرف أسرته ، واستمرت المعركة سجالا بين الفريقين ، وكان النصر يتأرجح بين الكفتين إلى أن لعبت الحيانة دورها على يد زعيم أحد البيوتات الميديه

= ودراسات مستر (هول) أن هذه الأسرة المالكة قد تأسست في اواسط القرن السابع قبل الميلاد وكان على رأسها (هيخامنيش = أخيمين) ولكنها انقسمت إلى فرعين بعد انتهاء عهد ثاني ملوكها المدعو (جيش = بيش) ويقول تاريخ إيران القديم ، أن أحد هذين الفرعين كان (پارسيا) والآخر (انزانيا) .

ويقول مستر هول ، ان الفرع الانزاني نشأ منه أربعة ملوك بينما نبت من الفرع الثاني ثلاثة ، وأن (سيروس الثاني) الذي يطلق عليه أيضا اسم (كوروش) ويلقب بالكبير هو الملك السابع من ملوك هذه الأسرة وأنه حارب (آستياغ) واستولى على (بابل) ونال شهرة عالمية في الغزو والفتح أما (داريوش) الأول فهو تاسع ملك في هذه الأسرة .
المؤلف

الكبيرة وكان يدعى (هارباغوس - Harpagos) الذي قرر مصير الحرب بعد أن باع شرفه ، وأجرم في حق وطنه ، فتقدم إلى العدو طائما مختارا ، وانضم ومن معه من الجنود إلى (كيخسرو) عدو وطنه اللدود ، وبانضمامه إلى جانب العدو وجه طعنة نجلاء إلى صدر آستياغ وجيشه ، حيث ضعفت روح الجيش المعنوية وأخذت تنتابه الهزائم متلاحقة لم يستطع أمامها صمودا . مما أدى إلى اندلاع نيران ثورة جامحة في ميديه ، تمخضت عن خلع (آستياغ) عن العرش عام (٥٥٠ ق . م) .

وهكذا كسب (كيخسرو) المعركة ، وبطبيعة الحال أحسن معاملة (هارباغوس) بل وسائر رجال البيوتات الميديه ، ولم يكن هنالك كبير فرق في الحقوق والامتيازات بين هذه البيوتات والبيوتات الفارسية بل كان الحال كمثل ما هو عليه الآن بين الانجليز والاسكتلنديين وكما كان عليه بين البروسيين والبافارين في عهد الامبراطورية الألمانية الأخيرة .^(١)

ولم تقم بعد ذلك قائمة للحكومة الميديه بل أخذت تسير بخطى سريعة واسعة نحو الانحلال والاضمحلال ، وما لبثت أن أسدل عليها الستار ، وانقرضت إثر انقلاب خطير هز أركانها المتداعية وقضى عليها بالزوال بعد أن حكمت خمسين عاما بعد المائة . وقامت على أنقاضها حكومة الأخمينيين الإيرانية .

وجاء في (تاريخ ايران قديم — مشير الدولة) أن الشعب الميدي كان قد توطن أصلا في آذربيجان وكرديستان والعراق العجمي^(١) ، ثم أخذ يسعى

(١) (التاريخ القديم للشرق الاذنى ص ٥٥٥) للمستر هول
(٢) يقول (تاريخ ايران القديم ص ٥٦) أن العراق العجمي كان يضم المقاطعات الحالية (كروس وهمدان وكر منشاء وقزوين وعراق وأصفهان ونهاوندوالري) حتى دربند بحر قزوين الذي كان حدا فاصلا بين الميديين والبارث . (المؤلف)

جاهدا لنشر نفوذه حتى اتسع سلطانه ابتداء من نهر (هاليس) حتى (باخترا)
أى (أفغانستان) ، ومن بحر قزوين حتى فارس وخوزستان ، بينما يذهب
العلماء الجغرافيون القدامى إلى أن ميديّة كانت منقسمة إلى قسمين :
(١) ميديّة الكبرى أى العراق العجمى (٢) و ميديّة الصغرى أى
أذربيجان .

البابُ الأول

في الحكومات الكردية في العهد الاسلامي

- وهي في أربعة عشر فصلا (١) الحكومة الروادية (٢٣٠ - ٦١٨ هـ)
(٢) الحكومة السالارية بأذربيجان ، (٣٠٠ - ٥٤٢٠ هـ) (٣) الحكومة الحسنية
البرزكانية (٣٣٠ - ٥٤٠٥ هـ) بهمدان (٤) الحكومة الشدادية بأران (٣٤٠ - ٥٤٦٥ هـ)
(٥) الحكومة الدوستكية المروانية بدياربكر (٣٥٠ - ٣٨٠ - ٤٧٦ هـ)
(٦) الحكومة العنازية بجلوان (٣٨٠ - ٤٤٦ هـ) (٧) الحكومة الشبانكارية
بفارس (٤١٢ - ٦٥٨) (٨) الحكومة اللرية الكبرى (٥٥٠ - ٨٢٧)
(٩) الحكومة اللرية الصغرى (٥٧٠ - ١٢٥٠) بلرستان (١٠) الحكومات
الأيوية بمصر والشام (٥٦٧ - ٦٨٥ - ٩٥٠) (١١) الحكومة الأردلانية
بايران (٦١٧ - ١٢٨٤) (١٢) الحكومة الملكية الكردية بخراسان (٦٤٣ -
٧٨٥) (١٣) الحكومة الزندية بايران (١١٦٧ - ١٢٠٢) (١٤) الحكومة
البراخوتية ببلوچستان (١١٧٢ - ١٣٠٠) .

الفصل الاول

١ - الحكومة الروادية^(١) : (٢٣٠ - ٥٦١٨ هـ)

تقول دائرة المعارف الإسلامية (ان هذه الحكومة هي أقدم الحكومات الكردية ، بدليل أن (ابن خرداذبه) الرحالة الذائع الصيت ، قد رأى بعيني رأسه حكومة (محمد الروادي) قائمة في (تبريز) ، حين زارها وجاس خلالها عام (٢٢٢) من الهجرة . وان إقليم (آذربيجان) قد انضوى تحت لواء أبي الساج محمد أفشين بن ديوداد عام ٢٨٠ للهجرة ، وظل يتوارثه الخلف عن السلف من أحفاده حتى عام (٣١٧) من الهجرة حيث قضى على حكم بني الساج بالزوال وأسدل على هذه الحكومة الستار . فخضعت منطقة (المراغة) بعدهم لسلطان الأمير (المظفر) وهو من أكراد الديلم أعني أحفاد الرواديين القدماء) ثم ذكر المصدر نفسه أن (مرزبان) وأخاه (وهسو ذان) هما من هذه الأسرة الروادية نفسها . والواقع أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن هذه الأسرة الكردية حتى عهد (المرزبان) الذي بدأت المصادر العربية والإسلامية منذ عهده تعج بالمعلومات الوافية ، والحقائق المفصلة عن هذه الأسرة .

وسنرى عند حديثنا عن (ديسم) في مبحث الحكومة السالارية أن (مرزبان) ابن (مامه لان = محمد) كيف تمكن من الاستيلاء على (آذربيجان) بفضل الدسائس التي حاكها (علي بن جعفر) وزير (ديسم) ضد سيده ، وأنه كان لمرزبان كاتب خاص يدعى (عيسكويه) ما فتى يدس لدى سيده ، ويوغر صدره ضده هذا الوزير الجديد طمعا في المال حتى شارفت الدسائس أن تأتي

(١) هذه الحكومة في الحقيقة أصل الحكومة السالارية فضلا عن ان حوادثهما متداخلة بل واحدة . وغاية ما هنالك ان فترة فصلت بينهما فنشأ خلالها تغلب بني الساج في آذربيجان ، فلهذا كان الاجدر اعتبارهما حكومة واحدة . المترجم

بئمارها المرجوة ، لولا أن نبأها قد طير إلى (علي بن جعفر) فنبتت عنده
فكرة الغدر بسيدته الثاني والتسكّر له ، وبيت في نفسه أمرا ، ثم أخذ ينفذ مكيدته
في السر ، وبدأ يغري سيده محاولا إقناعه بالاستيلاء على مدينة (تبريز)
للحصول على مالها الوفير وثروتها الطائلة ، فوقع (مرزبان) في حباله ، وأعد
له جيشا وأمره بالزحف على (تبريز) لتنفيذ الخطة الموضوعّة .

وسنفضل القول في مجرى حديثنا عن (ديسمبر) أيضا الدور الذي لعبه
(علي بن جعفر) واتصاله بأهالي تبريز واتفاقه معهم على أن يستنجدوا (ديسمبر)
ويفتكروا بديالمة المدينة ... كما سنشير أيضا إلى مجي (مرزبان) على رأس جيشه
إلى تبريز وإحاقه الهزيمة بالعدو وتضيقه الخناق عليه حتى استسلم (ديسمبر)
عقب سقوط أردبيل بخيانة ابن النعمي وزير (ديسمبر) الثاني له وانحيازه إلى
(مرزبان) ، وأقام في قلعة (طارم) هو وأسرته .

والآن نقول ، بعد أن تحقق لمرزبان ما تمنى ونجح فيما أراد من الاستيلاء
على جميع آذربيجان ، وجه همه نحو الإصلاحات الداخلية في بلاده .
وبيدنا كان (مرزبان) متوفرا على تنفيذ برامج الإصلاحية ورعاية شؤون
بلاده ، فوجيء بغارة شنها الروس على بلاده عام (٣٣٢) من الهجرة
بعد أن عبروا بحر الخزر على ظهور السفن وغادروها إلى الشاطئ عند مضب
(نهر الكر) ميممين شطر (آذربيجان) .

وما أن قاربت طلائع الجيش الروسي قلعة (بردعة) على الحدود الشمالية
لآذربيجان حتى انبرى لهم حاكمها وتصدى لهم هو ورجاله ، وبذل محاولة
يائسة لردهم على أعقابهم ، ولكن أتى له ذلك أمام قوتهم العاتية ، فدارت
عليه الدائرة وانسحب من الميدان مخذولا ، فتعقبه الروس وحاصروا القلعة
نفسها وسرعان ما سقطت في أيديهم ، فانطلقوا منتشرين في أحيائها يحصرون
أهلها حصرا ويسفكون دماهم ، ويرتكبون فيها من الفظائع ما تقشعر له
الآبدان وتشيب من هوله الولدان .

ولما طيرت هذه الأنبا. إلى مسامع (مرزبان) ثارت ثائرتة ، وغلى الدم في عروقه ، فأعد جيشا قوامه ثلاثون ألفا من المحاربين ، وقاده بنفسه ، وسار للقاء الروس الذين لم يستطيعوا الصمود أمام ضرباته وبسالة رجاله واستماتهم في القتال ، فلاذوا بالفرار ولكن فريقا منهم تسرب حتى بلدة (المراغة) وهناك تفشى واستشرى بينهم داء عضال قضى على الكثيرين منهم ، نتيجة إسرافهم في تناول الفواكه الفجة .

ولكن مناوشات الروس لم تنته عند هذا الحد ، بل أخذت قوات أخرى تنقاطر وتثير القلاقل من جديد ، فصمم مرزبان على قطع دابرهم بحيلة بارعة ، حيث بعث بقوة من جيشه لتعد كميناً في طريق القوات الروسية ، واشتبك هو ومن تبقى معه من قوات مع الجيش الروسي في معركة حامية الوطيس واضطروهم إلى التقهقر والجلأ عن المواقع التي احتلوها ، وانقلبوا على أعقابهم لا يلوون على شيء ظانين أنهم قد تخلصوا من نيران الحرب ومادروا أن كميناً قد أعد في طريق عودتهم لاصطيادهم وإيقاعهم في الشرك ، وقد تولتهم الدهشة وتملكهم الرعب حين فوجئوا بأنهم أضحوا بين نارين ، فالكمين أمامهم والعدو وراءهم ، ووقع الكثيرون منهم صرعى وعلى رأسهم قائدهم في حين اعتصمت الفئة القليلة التي نجت من المذبحة بقلعة (شهرستان) التي كان الروس اتخذوها مستودعا للأسرى المسلمين والغنائم التي سلبوها منهم ، فأسرع إليهم مرزبان وحاصروهم في القلعة ، وبينما هو قائم على حصارهم ، وتضييق الخناق عليهم ، جاءته الأنباء تترى بأن (أبا عبدالله الحمداني) قد زحف ليشن هجوما عنيفا على آذربيجان ، فاضطر إلى العودة فورا للدفاع عنها بعد أن ترك قوة من جنده لتقوم على حصار القلعة . وحين وصوله كان (الحمداني) قد طرق أبواب مدينة (سلباس) ، وعقد اتفاقا مع (جعفر بن شكويه) رئيس العشيرة الهذبانية الكردية الحاكمة في تلك الأنحاء .

وما أن التقي الجمعان ، وحى وطيس القتال ، حتى بدأت روح التمرد تدب
وتستشري بين صفوف الحمدانيين ، كما أبت الطبيعة إلا أن تلعب دورها فيكثر
تساقط الثلوج ، ويشتد الزمهرير فيزداد الحمدانيون - وجلهم من العرب -
نفورا من الحرب ، وقلوا راجعين إلى الموصل يجرون أذيال الهزيمة والفشل .

أما عن الروس الذين كانوا محاصرين في قلعة (شهربستان) فقد قاموا
بمحاولات يائسة للدفاع ولكن ذهبت كلها أدراج الرياح وأخيرا انتهزوا
فرصة سنحت فاغتنموها وتسللوا من القلعة خفية وتحت جناح الظلام إلى
ساحل البحر حيث حملتهم السفن إلى بلادهم بخفي حنين .

ثم استأنف مرزبان تنفيذ برامج الإصلاحية . وتنظيم شئون مملكته ،
ولكن سرعان ما جدت عوامل وظهرت في الأفق مطامع دفعته إلى التفكير
في الاستيلاء على أملاك جيرانه ، وكان أهم هذه العوامل عاملين :

أولهما : هجوم حكومة خراسان على (ركن الدولة) حاكم الري .

وثانيهما : إهانة (معز الدولة) لسفير (مرزبان) .

يضاف إلى هذا أن بعض قواد (ركن الدولة) كانوا لا يخفون استعدادهم
لشد أزره ، ومدته بكل مساعدة ممكنة ، وجاءه أحدهم المدعو (علي بن جوانقوله)
وأنبأه بأنه سيجد الأمور مذلة ، والطريق ممهدا أمامه لفتح (الري)
وأن هنالك قوادا آخرين غيره على أتم استعداد لمساعدته والانضمام إلى جانبه
في الوقت المناسب .

وبدأت المخابرات بين (مرزبان) و (ناصر الدولة) حاكم الموصل لاقتناع
الآخر وتشجيعه على الزحف إلى (بغداد) ، ولكن (ناصر الدولة) رفض
هذا العرض ، ولم يجذب هذا الرأي ، بل أشار بوجود الأستيلاء أولا وقبل
كل شيء على (الري) وبعدها يصبح الاستيلاء على (بغداد) من السهولة بمكان

وعلى أثر ذلك عقد (مرزبان) مجلسا استشاريا مؤلفا من والده وإخوته. وعرض عليهم خطته ، فنهاه والده عن إثارة الحرب ، ولكن مرزبان ركب رأسه ، ولم تجد هذه النصيحة منه آذانا صاغية ولا قلبا واعيا ، فانفجر والده باكيا ينعى حظ ابنه قائلا . يا ترى أين سأشاهد ابني بعد هذا العمر الطويل ؟ فأجابه مرزبان بعزم وطيد وجنان ثابت .

(ستراني إمامتربعاً في قصر الري أو صربعا بين قتلى هذه الحرب)
وأخذ بعد ذلك يستعد للقتال على قدم وساق ، ولما ترامت أنباء استعداده إلى مسامع (ركن الدولة) بعث يطلب النجدة من أخويه (عماد الدولة) (ومعز الدولة) ، وفي الوقت نفسه دخل في مفاوضات مع (مرزبان) وعرض عليه أن يسلمه (زنجان وأهر وقزوین) إذا أعرض عن إثارة الحرب بينهما ، وكان يقصد من وراء ذلك كسب الوقت حتى يصل إليه المدد من أخويه .

وأرسل (عماد الدين) قوة لمساعدة أخيه مؤلفة من ألفي فارس بقيادة (باش حاجب) . كما أرسل (معز الدولة) بقوة مماثلة تحت قيادة (سبكتكين) وتدفقت المساعدات على (ركن الدولة) ووافاه المدد من كل صوب وفج ، فجاهه (محمد بن الرزاق) على رأس قوة عاتية ، كما أتته نجدة أخرى من قبل (حسن فيروزان) تحت قيادة (محمد بن ما كان)

وهكذا أضحى تحت امرته قوات هائلة ، وجيش عرمرم ، فجمع الشمل ووحّد القيادة ، وأجرى حركة تطهير واسعة النطاق بين صفوف جيشه فتخلص من العناصر الشريرة وألقى القبض على من شك في إخلاصهم من قواد وأتقي بهم في غياهب السجون ، وبعد أن قبض الزمام ، وفرغ من الاستعدادات ، تحرك زاحفا على رأس الجيش جاعلا قبلته وهدفه (قزوین) وما أن ألقى (مرزبان) نظرة على جحافل هذا الجيش الضخمة حتى

أسقط في يده ، وأيقن ألا قبل له بمثل هذه الجموع الزاخرة والقوات المتدفقة ، ولكنه سرعان ما رجع إلى نفسه ، ورأى عليه عارا وشنارا أن يتراجع أو يتقهقر ، فجمع شتات جيشه المنظم المؤلف من الكرد والديلم وكان لا يعدو الخمسة آلاف رجل ، وغاض به غمار الحرب ، وتعرض جناحاه الأيمن والأيسر لهجوم عنيف من قوات ركن الدولة ؛ ورغم ما أبداه هو في الجناح الأيمن من ضروب الشجاعة والبسالة واستماتة جيشه عامة في الدفاع ، تمزقت أوصال جيشه شر ممزق ، ولبس الهزيمة صاغرا ، ووقع هو نفسه والكثيرون من رجاله أسرى ، فسلبه (ركن الدولة) إلى وزيره المدعو (أبو الفضل) الذي اصطحبه مخفورا بقوة إلى قلعة (سميرم) (١) .

(١) روى الوزير (أبو الفضل ابن العميد) تفاصيل خدعة حدثت خلال هذا السفر فقال : إن القواد الديلمية الذين كانوا في رفقتي قد اتفقوا فيما بينهم على إطلاق سراح (مرزبان) قوة واقتدارا وتأمرؤا على قتلى ، فلما علمت سرا نبأ هذه المؤامرة توجهت إلى (مرزبان) وأظهرت له اننى أنا الآخر على استعداد لخدمته ، فأطرق هنيهة ثم قال : إذا كنت صادقا فيما تقول فأقسم لى بالله العظيم ، وأنا مستعد للقيام بكل ما تريد وترغب ، فقلت له : إننى لا أضمن صداقة رفاقي من القواد الذين معنا . فقال : إذن أنت لا تعرف أصدقاءك من أعدائك ، فأولئك القواد الذين يرغبون في إطلاق سراحى هم أنفسهم الذين يريدون قتلك . فقلت له : لقد علمت الخبر اليقين ، وثق أننى على استعداد لتقديم الخدمات أكثر من غيرى .

وعلى أثر هذه المحادثة اتصلت بهؤلاء القواد جميعا كل منهم على انفراد وتظاهرت أمام كل منهم بأننى متضامن معهم وعلى استعداد لتنفيذ ما يريدون ، فأبدوا سرورهم ، واستقر الرأى بينى وبينهم على التنفيذ في أول منزل نزل إليه ، فلما وصلنا أول منزل دعانى مرزبان إليه وطالبنى بالتنفيذ =

أسر السالار (مرزبان) ونجاته

ولما بلغ مرزبان ، القلعة ، وألقى به في غياهبها أسيراً ، أضرَب عن تناول الطعام ، اللهم إلا حفنة من البر يتبلغ بها سحابة يومه ، فلما طير هذا النبا إلى مسامع (ركن الدولة) بعث إليه بطاهيه الخاص ليقوم على إعداد طعامه ويظل تحت إمرته . فغفل إلى (مرزبان) أن هذا الطاهي قد يشد أزره ويعينه على التخلص من ذل الإِسار فاتفق معه على أن يهيء له طريق الخلاص ، ويمهد له سبيل الفرار ، ولكن الطاهي كان متسرعاً وطائشاً فقد أذاع الخبر وأفشى السر في الوقت المناسب ، وعلم به « شيراسفار » محافظ القلعة الذي قام على عجل وسارع إلى القلعة وألقى القبض على الطاهي وقذف به من فوق الأسوار فلقى حتفه لساعته ، ثم أخذ على أثر ذلك يضيق الخناق على السالار وكانت والدة « مرزبان » المدعوة (خراسويه) - ابنة جستان بن واهسودان الملك - تتحرق شوقاً لابنها وتترقب ساعة خلاصه بفارغ الصبر ، فأخذت

فقلت له: بما أن بيت (ركن الدولة) في (أصمهان) وبها خزائن ملكه ، وجميع مقتنياته فالأفضل أن نواصل السير إليها حيث نستولى على ما فيها من الأموال والمتاع ، ثم ننفذ ما اتفقنا عليه . أما إذا أخذتنا العجلة وشرعنا في العمل منذ الآن فلن نأمن قيام المخالفين من القواد والجند علينا نأثرين وقد يفسدون علينا ما دبرنا . وقد خدع (مرزبان) بهذا الكلام المنطقي وأعجب بالفكرة وأبدى رضاه عنها .

وقصارى القول اننا ما كدنا نحط الرجال على أرض (أصمهان) حتى قمت لفورى بالقاء القبض على هؤلاء القواد الخونة وأفسدت عليهم مؤامرتهم . أما (مرزبان) فقد أرسلته مخموراً تحت حراسة أحد القواد المخلصين الذين لم يشتركوا في هذه المؤامرة ، إلى قلعة (سميرم) . (المؤلف)

تسعى سعياً حثيثاً متواصلاً عليها نجد له مخرجاً ، وبسطت يدها كل البسط
لكي تنسم أخباره وتفك أساره . فنقدت (ابن الضاباني) - الذي كان أسيراً
مع (مرزبان) - ثم نجا من الأسر - مبلغاً كبيراً من المال على أمل تخليص ابنها
من الأسر ، كما فعلت مثل ذلك مع بطل مغامر بل مقامر من أبطال المراغة
يدعى (ثوبان) اغتراراً منها بقوته وذكائه . بعد أن أعطاهما على نفسه العهود
والمواثيق بأنه لا بد منقذه ومخلصه لها من ذل الإسر . ثم أخذ (ثوبان)
، وابن الضاباني ، بعدان العدة لتنفيذهما وكل إليهما أمر تنفيذه ، فسكرافي زى تجار ،
وحملوا من الأمتعة والبضائع ما يحمله التجار ، وسارا حتى بلغ بهما المسير
قلعة (سميرم) حيث ضآلتهما المشودة ، فبعثا إلى محافظها (شيراسفار)
بكتاب قال فيه : نحن تجار نحترف التجارة من قديم ، وإن على (مرزبان)
ديننا لنا ، حيث أخذ منا بضائع منذ حين ، ولم يسدد حتى الآن ثمنها ، فترجو
أن تسمعوا لنا بمقابلته لتذكيره بديننا الذي في عنقه . وما أن قرأ المحافظ
كتابهما حتى أرسل في طلبهما ، فلما مثلا بين يديه ، بسط له شكواهما المزعومة ،
ثم تطرق الحديث إلى التعريض بسمعة (مرزبان) وعمارتكبه من مظالم
وآثام ، وعن غدره بمن كانوا به على صلة من الجمهور والتجار ، ثم احتما
حديثهما معه قائلين : الحمد لله الذي أنقذ العالم من شروره ، وقد وقع المحافظ
في حبالهما ، وخدع بقولهما ، وغلب عليه التأثير ، فرق لهما وأبدى عطفاً
عليهما ، وسهل لكل منهما مقابلة (مرزبان) على انفراد

ولم يفطن (مرزبان) بآدى الأمر لما دبراه من حيلة وما يتناه من خديعة
للعمل على تخليصه وفك أساره فأنكر أنه مدين لهما أو لغيرهما ، فبادر إلى شتمهما
وتوبيخهما . وإن هي إلا إشارة حازمة خفية من عيني أحدهما ، حتى فطن للأمر
وتنبه إلى أن ساعة الخلاص قد حانت أو أوشكت ، فغير أقواله وقال إنه

بعد أن فكر قد تذكر أن في عنقه لهما حسابا قديما غير أنه لا يعرف القيمة على التحديد ولا بد من إحضار دفاترهما للاطلاع عليهما ، وهكذا بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الاتصالات بينهما وبينه واستمرت فترة من الزمن دون أن يتسرب نبا مكيدتهما البارعة .

وكان لـ (خراسويه) غلام ديلبي قد تربى في كنفها وشرب من مهل نعيمها منذ نعومة أظفاره ، وكان بارعا في الضرب على الموسيقى والأنغام ، فدخل في زمرة هؤلاء التجار الذين يترددون على القلعة بين حين وآخر . ولا شك أن هؤلاء التجار قد أمطروا محافظ القلعة وموظفيها بوابل من الهدايا حتى تسنى لهم سهولة الاتصال بمرزبان كلما أرادوا ذلك .

وكان لـ (شيرأسفار) محافظ القلعة غلام شاب يتزى بزى الديلمة من حملة العمود والترس ، فعمد إليه (مرزبان) وقربه إليه وغمره بفيض من عطفه وأسبغ عليه كريم عفايته وأمطره بوابل من الهدايا ورائع التحف حتى توثقت بينهما عرى الصداقة والمحبة وأضحى (مرزبان) يوليه كامل ثقته ويطمئن إليه ، فعهد إليه بإحضار آلات لفك القيود وتحطيم السلاسل والأغلال ، فأحضرها وهكذا أخذ (مرزبان) في فك القيود وتحطيم الأغلال التي كانت تحيط بيديه إحاطة السوار بالمعصم ، وذلك بفضل هذا الغلام الديلبى الزى . وكان (شيرأسفار) قد تعود أن يحضر إلى القلعة يوم الجمعة من كل أسبوع إيشاهد القيود والسلاسل عن كذب ثم يعود أدراجه ، وقد حدث في يوم جمعة أن جلس (ثوبان) في القلعة إلى جانب (مرزبان) بينما وقف التجار الآخرون في انتظاره على باب القلعة ، وكان الغلام الديلبى الزى يجالس (مرزبان) أيضا ، فدخل عليهم (شيرأسفار) وجلس إلى جانب (مرزبان) ، وشرعا يتناقشان في مواضيع عامة . وفي أثناء الحديث بادره (مرزبان) قائلا : « إذا أطلقت سراحى وأخليت سبيلي فلك منى ماتريد وأكثر »

فأجابته « شيراسفار ، على الفور قائلا : اننى لن أخون ، ركن الدولة ، ما حيت ، وهنا نهض (مرزبان) متحلا من القيود والاغلال متجها شطر الباب وفي الوقت نفسه قفز « ثوبان ، لغوره وهجم على (شيراسفار) وألقاه على الأرض وطعنه بالخنجر طعنة نجلاء أردته قتيلا يتخبط فى دمائه ، كما انقض من الباب من التجار على الحراس وأوسعوهم طعنا وتقتيلا حتى فنوا عن آخرهم .

ولما أنهى هذا الخبر المشؤم إلى حفاظ الأمن وحماته الذين كانوا موزعين عند اجتماع مرزبان برجاله هرعوا إلى داخل القلعة يستقصون حقيقة الخبر ، فلما وقعت أنظارهم على رئيسهم ملقى على الأرض جثة هامدة لا حراك فيها ، لم يروا مندوحة من التسليم صاغرين إلى رجال « مرزبان » وأنصاره الذين هرعوا إليه من كل حدب ، وتدفعوا عليه من كل صوب ، فالتفوا حول رايته وقدموا له فروض الطاعة والولاء . [عام ٣٤٢ هـ]

وعلى أثر ذلك كتب إلى أمه وأخيه ومريديه يطلعهم على آخر أخباره ثم مالبث أن نهض وتوجه إلى أذربيجان . [تجارب الأمم ج (٢) - الكامل - ٩]
ونعود الآن لنعرف ماذا حدث بعد أسر « مرزبان » ؟

بعد اندحار قوات (مرزبان) ووقوعه فى الأسر ، عاد من تبقى ونجا من رجاله بقيادة كل من « جستبان بن شرمزبان » و « على بن فضل » و « شهر فيروز بن كردويه » وبعض قواد آخرين مع جيش قوامه ألف رجل من المقاتلة إلى « أذربيجان » والتفوا جميعا حول (محمد بن مسافر) والد (مرزبان) ثم توجهوا شطر « أردبيل » وتمكنوا من دخولها ، ونصبوه حاكما عليها ، ولكن هذا الحاكم أساء معاملة الأهالى واستبد بهم ، فهجر ابنه (واهسوزان) المدينة خشية ما توقع حدوثه من انفجار الأهالى ضد أبيه ولجأ إلى قلعة (طارم) ، وقد حدث فعلا ما توقعه إذ لم يمض زمن طويل حتى

ضج الناس وانفجروا ثأرين ينادون بسقوط حاكمهم الجائر، وعزم الديلمية على سفك دمه، فخشي (محمد بن مسافر) سوء العاقبة ومغبة الأمر فغادر، وأردبيل، وتوجه إلى ابنه (واهسوزان) في قلعة طارم ملتصقا بالأمان في كنفه والحماية في حوزته، ولكن لأشد ما كانت دهشته حين ألقى ابنه القبض عليه وزج به حبسا في قلعة (السيستان) وظل يعاني فيها آلام السجن جزاء ما قدمت يداها، حتى لحق بالرفيق الأعلى.

ومن الحوادث البارزة أيضا بعد أسر مرزبان، أن ركن الدولة، كان قد أقطع، آذربيجان، لمحمد بن عبد الرزاق وأرسله على رأس جيش إليها، فوقع (واهسوزان) في حيص بيص وأسقط في يده، واضطر لاطلاق سراح (ديسم) وأسبغ عليه جميل عطفه وأنعم عليه بخلع سنوية، ثم بعث به لمحاربة محمد عبد الرزاق. [تجارب الأمم] ويرجع في حوادث ونتائج هذه الحرب ومآل ديسم إلى البحث الخاص به الذي سيأتي الكلام عنه في الحكومة السلارية،

ولم يعمر السالار، مرزبان، طويلا بعد عودته من (سميرم) وقضائه على حركة (ديسم) التي سيأتي الحديث عنها، بل أصابه مرض مميت عام (٣٤٥) هجرية وأوصى وهو طريح الفراش بحكمداوية الروادية من بعده لأخيه (واهسوزان) وبولاية العهد لابنه (جستان)، ثم ألح عليه المرض، وما لبث أن لقي ربه.

وبعد وفاته بعث أخوه (واهسوزان) بخاتم الملك وبعض شارات حكم (مرزبان) إلى حكام المدن والقلاع طالبا اليهم تقديم فروض الطاعة والولاء لذاته الملكية ولكن أحدا منهم لم ينفذ له أمرا، لأنهم سمعوا مرزبان يقول قبل وصيته الأخيرة بوجوب الخضوع بعد مماته لابنه (جستان) أولا، ثم يرجع ملك (الروادية) إلى ابنه (ابراهيم)، ثم لابنه (الناصر) من بعدهما، وإذا

لم يوجد كل هؤلاء ، وجبت الطاعة ، وحق الولاء لأخيه (واهسودان) .
وقد أصر جميع القواد والزعماء على تنفيذ هذه الوصية التي سمعوها بأذانهم
مما أثار الخلق وحرك مكامن الغضب بين جوانح (واهسودان) ، وحمل هذا
على غفلة السالار .

وفي هذه الأثناء قام ابن أخيه الأمير ابراهيم الذي كان صهر الك (ولسكين
ابن خورشيد) زعيم الديلمة ، دون إذن من عمه ، بإطلاق سراح ولسكين هذا
وكان معتقلا بأمر من مرزبان في (أردبيل) وذلك تحت تأثير من امرأته ،
فاستشاط (واهسودان) غضبا على ابن أخيه ، وسرى الرعب في قلبه من
جرا هذه الحركة وما تلاها من حركات أخرى ، فما كان منه إلا أن اختصر
الطريق وغادر (أردبيل) سرا قاصدا قلعة (طارم) .

وبهذا خلا الجولد جستان ، فاستقل بأمور الحكم وقبض على زمام الحالة
وبسط نفوذه على شئون الإدارة في البلاد وحده دون منافس ، وخضع له
جميع أخواته ، وقدم له القواد والزعماء فروض الطاعة والولاء ما عدا والى
أرمينية المدعو (جستان بن شرمزن) الذي أخذ يناوئه ويعمل جاهدا على
الاستقلال بالحكم .

ولما استقر (واهسودان) في طارم لم يخلد إلى السكينة بل شرع يثير الفتن
والبغضاء بين أبناء أخيه على قاعدة (فرق تسد) ويؤلبهم ضد بعضهم البعض
فما لبثت هذه الأعمال أن أحدثت أثرها المرجو ، لدرجة أن أبناء أخيه أضحي
كل منهم يضر العدا والكراهية للآخر ، ولما يتقن واهسودان من أن العدا
قد استحكمت حلقاته بين الأخوة ، وجه الدعوة إلى ابن أخيه الأمير ابراهيم
واستقبله بحفاوة بالغة ، وفي نفس الوقت دارت المخابرات بينه وبين الناصر
وتمكن بدهائه ومكره من تأليب علي جستان ، فشق عصا الطاعة عليه ،

وتوجه نحو « موقان » - مكريان ، (١) ، فانسل فريق من جيش « جستان » وانضموا إلى صفوف الناصر جريا وراء المال ، ثم سار الناصر بعد ذلك لمحاربة أخيه (جستان) (٢) فتقدم نحو (أردبيل) وبسهولة تم له الاستيلاء .

(١) هكذا في الأصل وظاهر أنه خطأ إذ (الموقان ، أو الموكان) غير (مكريان) فالأول يقع فيما بين أردبيل ونهرى الكر والرس بعد اتصالهما ، أما الثاني فهو اسم لولاية كردية أخرى تقع بشمال ولاية أردلان وجنوب بحيرة أرمية (المترجم)

(٢) كان أول عمل قام به (جستان بن مرزبان) بعد أن استقرت في يده الامور أن قتل (ديسم) عام ٣٤٦ هـ . وكان هذا الحاكم الذي خلف أباه في الحكم مستهترا ومنغمسا في اللذات ومنهمكا فأهمل شئون الدولة والجيش ، وبعد حين ألقى القبض على الوزير (ابن النعمي) وسجنه ، فخامر الريب وزير (جستان بن شرمزن) الذي كان يكنى بأبي الحسن والذي كان يمت بصلة القرىبي إلى (أبي عبد الله النعمي) فحمل أبو الحسن سيده (جستان) هذا على الاتصال بإبراهيم وتشجيعه على المطالبة بالملك لنفسه ، ولم يمض طويل حتى قام إبراهيم وابن شرمزن بالهجوم على (المراغة) واستوليا عليها ، ولما أنبئ (جستان بن مرزبان) بذلك تفاوض مع ابن شرمزن ووزيره ، وأطلق سراح (ابن النعمي) إرضاء له وحل بينه وبينهما الوثام وكف ابن شرمزن عن مساعدة إبراهيم ، ولكن الأخوين قد كشفوا حقيقة ابن شرمزن وخيائته لكليهما فدخلا في مفاوضات أعادت المياه إلى مجاريها بينهما .

وأما (ابن النعمي) الذي أطلق سراحه فقد توجه إلى (موقان) ومن هناك اتصل « باسحاق بن عيسى بن المكنفي بالله » العباسي في شأن التماس الخلافة له ، وشجعه على ذلك وأعطاه عهدا على نفسه بأن يمدده بالجيش اللازم ، وأن يستولى على « آذربيجان » باسمه وفعلا قدم لأسحق ثلاثمائة فارس ووضع نفسه تحت امرته ، وحضر « ابن شرمزن » كذلك وبايعه =

عليها فاضطر اخوه (جستان) إلى اللجوء والاعتصام بقلعة (نيز) .
حدث بعد ذلك أن ثار جند (الناصر) عليه وأوغلوا في مضايقته مطالبين
بأعطياتهم المتأخرة ، وكان الناصر على يقين بأن عمه هو المحرك لهم لأنه يكد
له كيذا ويريد به السوء ، فأخذ يعرض بنان الندم على ما فرط منه ضد أخيه
(جستان) ، فرجع إلى نفسه ، وبعث إلى أخيه طالبا عقد الصلح بينهما ، فلبى
(جستان) النداء وعادت بينهما الأمور إلى مجاريها فاتصل بينهما حبل المودة
والوثام بهد الحرب والحصام ، واعترف الناصر بمسكية أخيه (جستان) .
ولكن الحالة في البلاد ظلت متوترة وكانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ ،
فقد اشتدت حاجة الجند إلى المال فألحوا في طلبها من أولى الأمر الذين أصموا
آذانهم حتى بلغ السيل الزبى لدرجة أن الأخوين يشا من إعادة الأمور في
البلاد إلى وضعها الطبيعي فما كان منها إلا ان كتبوا إلى عمهما (واهسوذان)
يعرضان الذهاب إليه فأعطاهما الأمان ورحب بعرضهما ، فاصطحبا والدتهما
وهرعا إليه ، ولكنه أبى إلا أن تظل الخيانة شيمته فألقى القبض عليهما
بمجرد وصولهما دون مبالاة لما أعطاه على نفسه من عهود ومواثيق ، وألقى
بهما في السجن . وبذلك خلاله الجو فبسط سلطانه ونفوذه على جميع البلاد
وأخضعها لأدارته ، ثم نصب ابنه (اسماعيل) وليا للعهد وأقطع أكثر البلاد ،
كما إنه أعطى مبالغ كبيرة من الأموال لرجال الجيش وقواده وبذلك ضمن
ولا هم له .

وفي خلال هذه الفترة كان (ابراهيم السالار) قد ذهب إلى أرمينية حيث
اتخذها له مستقرا ومقاما ، فلما جاءه نبأ إلقاء القبض على أخويه الناصر

= بالخلافه . واتفق الملك (جستان) مع الأمير ابراهيم وحاربا مدعى
الخلافه هذا، الذي سمي نفسه (المستجير) فقبضا عليه ، وأرغما (ابن شرمزن)
على الفرار والالتجاء إلى قلعة (أرميه) اه [السكامل ج - ٨] المؤلف

وجستان ، عمد إلى شن الحرب على ابن عمه (اسماعيل) أملا في إنقاذ أخويه
ولما علم (وهسودان) بهذا النبأ المروع ، تملكه الفرع واشتد به القلق ، ولا
سيما أن جماعة من الجمهور وبعض رجال الجيش من الديلمة كانت روح التمرد
والثورة قد بدأت تجدد إلى أنفسهم سيلا في نفس الوقت الذي أعلن فيه ابراهيم
الحرب على ابن عمه اسماعيل ، فبادر (وهسودان) إلى قتل كل من (جستان)
وأخيه (الناصر) وأمهما . وجهز حملة عسكرية بعث بها مع مبلغ من المال إلى
(جستان بن شرمزن) وطلب إليه أن يقاتل بها (ابراهيم السالار) وكان
ذلك (عام ٣٤٩ من الهجرة)

ولما فوجيء (ابراهيم) بهذه الحملة لم يستطع الصمود أمامها فاختر الطريق
وقفل راجعا إلى (أرمينية) ، ولكن (جستان بن شرمزن) قد شن هجوما
عنيفا على بقية رجاله وسدد إليهم ضربات قاتلة وألحق بهم هزيمة شنعاء ، وتمكن
من الاستيلاء على (المراغة) التي كانت مركز إمارة (ابراهيم) واستولى
كذلك على (أرمية) . اه من (الكامل ج - ٨ ص ٢٠٩) .

ولما عاد الأمير (ابراهيم السالار) إلى (أرمينية) لم يستسلم للهزيمة ،
ولم يخلد إلى الراحة والسكينة ، بل أخذ يعد العدة لإعادة الكرة ، فقامت
الاستعدادات على قدم وساق حتى تمكن في عام (٣٥٥) من الهجرة إلى حشد
جيش كبير ليغزو به (آذربيجان) ، ولكي يضمن لغزوته النجاح والظفر
اتصل بجستان بن شرمزن واتفق معه على أن يقف إلى جانبه ويشد أزره وتم
بينهما التفاهم على خطة العمل ، وساعدت الظروف (ابراهيم) حيث مات
ابن عمه (اسماعيل) وقتئذ ، فانتبه (ابراهيم) الفرصة وحف إلى أردبيل ،
وتمكن بسهولة من الاستيلاء عليها ، وصمم على الانتقام لأخويه من عمه ،
ولكن ، وهسودان ، قد اشم رائحة الخبر وخشى سوء العاقبة ففر هاربا مع
ابن مشكي ، إلى بلاد الديلم ، وبذلك خلا الجو للأمير ، ابراهيم ، وتمكن من
الاستيلاء على جميع بلاد آذربيجان ، وصادر جميع أملاك عمه وأمواله .

أما وهسودان ، فنذ أن فر هاربا الى بلاد الديلمة وهو يعمل جاهداً لتعكير صفو الامير ابراهيم ومناواته وقد حقق له الديلم أمنيته فأمدوه بجيش كبير زحف به على ، آذربيجان ، وتمكن من اقتحام قلعة طارم ، كما أنه أرسل أبا القاسم ابن ميشكى على رأس جيش آخر لمحاربة ابراهيم ، ودارت بين الجيشين رحى معركة حامية الوطيس أسفرت عن اندحار جيش ابراهيم ، وسفك دم رجاله الذين وقعوا صرعى في الميدان ولم ينج ابراهيم نفسه الا بأعجوبة وفر إلى الري ملتجئاً الى ركن الدولة ، زوج أخته الذي قابله بالحفاوة والتكريم وأكرم وفادته .

« ابراهيم السالار »

في نفس السنة وفي عاصمة (ركن الدولة) أدى ابراهيم السالار خدمات جليلة خلال ثورة الديلمة وشقهم عصا الطاعة على ركن الدولة لدرجة أنه أصيب بجراح خطيرة ، وبعد حين بعث ركن الدولة بوزيره (أبي الفضل ابن العميد) على رأس جيش في صحبة ابراهيم السالار للاستيلاء على آذربيجان وتمكن الجيش البويهي فعلاً من الاستيلاء عليها وتوسط في الصلح بين (جستان بن شمرن) و (ابراهيم) وتم الصلح بينهما على يديه ، وما أن رأى هذا الوزير العاقل (أبو الفضل) ما عليه إقليم آذربيجان من الغنى والثروة الطائلة والخصب حتى أعجب بها أيما إعجاب وكتب سرا إلى (ركن الدولة) قائلاً أنها لخسارة كبرى أن يعهد بإدارة مثل هذا الأقليم إلى مثل (السالار ابراهيم) المنغمس في الملذات والشهوات ، والمنصرف عن شؤون الادارة والحكم ، ثم طلب إليه أن يباشر هو بنفسه شؤون هذا الأقليم على أن يسند إلى ابراهيم شؤون إقليم آخر في الدرجة الثانية من الأهمية ، ولكن هذه المشورة كان

مصيها الرفض البات . وزيادة على ذلك فقد أمر (ركن الدولة) وزيره هذا بالعودة فورا من آذربيجان الى عاصمة ملكه .

هذا ، وبما يؤسف له أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن نهاية عهد إمارة (ابراهيم) وإن كنا نأخذ من رواية (بيشكوتن - نشریات - ٦) أنه يلوح أن ابراهيم قد استمر يحكم حتى عام ٣٨٠ من الهجرة ، ثم خلفه ابنه (راويدى) ثم خلف هذا الأخير ابنه (كلاس) ثم تلاهما فى الحكم (واهسوذان) بن (كلاس) (١) فى عام ٤١٥ من الهجرة .

« واهسوذان الثانى »

اجتاح (الغز) (٢) بلاد (آذربيجان) عام (٤٢٠) من الهجرة فى عهد هذا الحاكم ، وقد بذل محاولات يائسة فى مبدأ الأمر ليقبى البلاد شر هؤلاء الغزاة المتوحشين . فلا ينهم وقدم لهم كل مساعدة ممكنة ولكن ذهبت كل هذه المحاولات أدراج الرياح ، وازدادوا تعنتا وأوغلوا فى التدمير والتخريب واسترسلوا فى السلب والنهب .

وفى عام ٤٢٩ من الهجرة شن الغز غارة شعواء على مدينة (المراغة) وانتشروا فى شرايين المدينة يسفكون الدماء ويذبحون الأبرياء حتى هلك

(١) يطلق عليه منجم العمران فى ص ١٨٩ اسم (غلاك)

(٢) كانت (الغز) عشيرة تركمانية من عشائر أطراف بخارى ، جبلوا على الوحشية والقسوة وحب السلب والنهب مما حملهم على الانقضاض على البلاد والتسلط على العباد ، وكان قسم منهم قد تقدم تجاه (أصفهان) وبقى قسم آخر فى (خوارزم) بينما توجه القسم الثالث نحو « آذربيجان » و« كردستان » بقيادة كل من توقا وكوكتاش ومنصور ودانا .
المؤلف

الأهلون عن بكرة أبيهم ، كما أشعلوا النار في المساجد وأحرقوا المعابد ، ونهبوا الأموال واغتصبوا المقتنيات . واستهانوا بأقدس الحقوق الإنسانية ولم يراعوها مما لا يقره دين من الأديان أو يستريح ضمير أحط فرد من بني الإنسان . ولم تقف أعمال السلب والنهب عند حد سكان المدن والقرى فحسب بل أكتوت القبائل الكردية الضاربة في أطراف المدينة ، بنارهم ، وتعرضت لويلاتهم . وإزاء هذه النكبة الطامة والاضطهادات المريرة التف كثير من العشائر الكردية حول (أبي الهيجاء بن ريبب الدولة) رئيس عشيرة الهذبانية وتكاتفوا جميعهم مع (وهسودان) ليقفوا جبهة متراصة في وجه هؤلاء المغيرين المدمرين من الغز ، وقد نجم عن تكوين هذه الجبهة القوية أن خاف الغز سواء العاقبة ومغبة الأمر فزحفوا إلى (الري) أشتاتاً ، إلا أن الكرد قد طاردوهم وأعملوا السيف في رقابهم وقتلوا الكثيرين منهم .

وكانت قوة منهم قد دخلت (أرمينية) وأخذ رجال هذه القوة يجوسون خلالها وتوغلوا فيها ، وما أن جاءهم نبأ هذه المذبحة التي حاقت بأخوانهم حتى عادوا على جناح السرعة إلى (أرميه) وهي منطقة أبي الهيجاء الهذباني واشتبكوا في القتال مع الأكراد ودارت بين الجيشين معركة حامية الوطيس أسفرت عن خسائر فادحة لكلا الطرفين ، وعجز أبو الهيجاء عن استئصال شأقتهم وقطع دابرهم .

وفي عام ٤٢٢ من الهجرة دبر (وهسودان ماملان) (١) مكيذة للتخلص

(١) حين أغار الغز على (آذربيجان) كان يحكمها (واهسودان) وهو من الأسرة الروادية وكان مشهوراً باسم (واهسودان بن ماملان) على رأى دائرة (المعارف الإسلامية ج — ٤ ص ٥٨٤) أما رأى « منجم العمران ج — ٩ ص ١٨٩ » فهو أنه كان مشهوراً باسم (واهسودان بن غلان) .

من الغز ، فأقام في (تبريز) حفلة عامة دعا إليها رؤساءهم وزعماءهم المبرزين وما دار بخلدكم أنه قد دبر لهم في نفسه أمرا ، وفي أثناء الحفلة فوجئوا بالقاء القبض عليهم جميعا ، ثم أصدر (واهسودان) أوامره لرجال جيشه بالانقضاض على جند الغز ، فشنوا عليهم هجوما عنيفا ، وقتلوا الكثيرين منهم ، وفر الناجون منهم ، من (آذربيجان) كما سيأتي .

وليس لدينا معلومات أخرى عن عهد هذا الحاكم ولا عن أحوال وحوادث هذا الأقليم إلى حين أن قدم إليه (طغرل بك السلجوقي) واستقر فيه سنة (٤٤٦) كما سيأتي قريبا .

وتروى لنا (دائرة المعارف الإسلامية ج - ٤) أن عام ٤٣٤ للهجرة قد شهد زلزالا مروعا في مدينة (تبريز) جعل عاليها سافلها ، ونشر الدمار وأنزل الولايات في شتى أنحاءها مما اضطر ملكها (واهسودان) إلى تشييد قلعة جديدة ونقل قاعدة ملكه إليها ، خشية إغارة الغز وسطوهم على المدينة خلال محنتها القاسية ، ورزتها الجسم .

وكان يحكم مدينة (تبريز) عام ٤٣٨ للهجرة حاكم يدعى (ناصر خسرو)^(١) متخذًا لنفسه لقب سيف الدولة وشرف الملة أبو منصور واهسودان بن ماملان) كما يدعى بمولى أمير المؤمنين .

وفي عام ٤٤٦ للهجرة غادر السلطان (طغرل) مدينة (أصفهان) وتوجه صوب (آذربيجان) فيخف الأمير أبو منصور واهسودان بن محمد الروادي

(١) هكذا في الأصل ، والصحيح أن الرحالة الفارسي الشهير (ناصر خسرو) يقول انه حينما مر بمدينة (تبريز) كان على رأسها الملك المدعو (ابو منصور واهسودان بن محمد = ماملان) وكان يلقب بسيف الدولة وشرف الملة .
راجع رحلة (ناصر خسرو) ص ١٣ طبع الهند .
(المترجم)

لمقابلته ، وبادر إلى لقائه في طريقه إلى (آذربيجان) قبل أن يصل إليها مقدما له فروض الطاعة وعلام الولاء . وهكذا أضحت حكومة آذربيجان الروادية حكومة تابعة تدين بالخضوع للسلطان وأسدل الستار عليها كحكومة روادية مستقلة ، منذ هذا التاريخ .

وإنه ليتعذر علينا - لجهلنا بميلاد تأسيس هذه الحكومة - تحديد عهد استقلالها على التحقيق ، ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن قسما من إقليم الجبال كان يخضع أيضا لحكام آذربيجان الرواديين على أن المعلومات التي في متناول أيدينا عن الفترة الأخيرة عن عهد هذه الحكومة من القلة بمكان ، حيث ان المصادر لم تتعرض إلا للأعمال والحوادث التي وقعت في عهد (أحمديل) فقط . وإن كان (السيد حسين المكرياني) يقول إن (واهسوزان) الثاني قد لحق بالرفيق الأعلى عام ٤٥٨ من الهجرة وأن ابنه (ابراهيم) قد حكم بعده واستطال حكمه وعمر حتى عام ٤٩٠ من الهجرة .

والظاهر أن مدينة (تبريز) سقطت في أيدي الترك في عهد ابراهيم وبذلك انتزعت من أيدي الرواديين ، وخرجت عن حوزتهم ثم ظل حكمهم بعد ذلك قائما في (المراغة) فقط حينما من الدهر . (الكامل ج - ١٠ ص ٢٠٥) .

« الامير أحمديل »

تقول « دائرة المعارف الإسلامية » ان الأمير « أحمديل » هو « ابن ابراهيم بن واهسوزان الروادي الكردي » ويلوح أنه نجح في إحياء حكومة « المراغة » التي عمرت حتى عام (٦٢٤ هـ) .

وفي عام ٥٠٥ للهجرة حينما اشتعلت نيران حرب ضروس بين جيوش السلطان « محمد بن ملكشاه » وامبراطور الروم ، اشترك فيها الأمير « أحمديل » بجيشه إلى جانب الجيوش السلطانية مع كل من (سقمان القطبي) أمير تبريز

و(مودود) أمير الموصل و(ابن الهيجاء) حاكم أربل وأمراء آخرين في المعارك التي دارت رحاها في أرض سورية وأبلى فيها بلاءً أحسنًا ، حيث تصدى لقائد جيش ملك القدس الشهير (جوسلين - Jasselin) اه . من (تاريخ حلب) ولكن الأمير (أحمديل) ما لبث أن انسحب من الميدان متظاهرا بأنه مضطر إلى مغادرة سورية والعودة على عجل ، إلى (آذربيجان) بسبب وفاة سكان القطبي ، حاكم (ديار بكر) و (تبريز) . ولكنه في الحقيقة كان يخفي في نفسه أمرا جللا وهو العمل على استرجاع ملك آبائه وأجداده .

وكان تحت إمرته وطوع بنائه - كما يقول ابن الجوزي (١) - جيش خاص قوامه خمسة آلاف من الفرسان ، ودخل سنوي يقدر بأربعمائة ألف دينار . وكان طموحا عالي الهمة واسع الآمال . ولكن ما درى أن قدر له غير ما يهوى وخلاف ما ينبغي فقد حدث في عام (٥١٠) من الهجرة أن كان الأتابك (طغتكين) حاكم دمشق في ضيافة السلطان (محمد) في بغداد ، وبهذه المناسبة كان قد وفد إلى بغداد الكثيرون من الأمراء والحكام ومن بينهم الأمير (أحمديل) الروادي

وذات يوم بينما كان (أحمديل) جالسا إلى جانب (طغتكين) في حفل زاخر تقدم رجل ينهمر الدمع من عينيه مدرارا وفي يده ورقة يلتمس السماح له برفعها إلى السلطان ، فهض الأمير (أحمديل) وخف صوب الرجل وقد رق له قلبه ليتناول من يديه الورقة فما كان من هذا الرجل الذي بدا في ثوب البائس العاني - إلا أن شمر خنجره كان يخفيه وطعن به الأمير طعنة نجلاء ، ولكن الأمير أمسك بتلابيبه وطرحه أرضا ، فتقدم آخر وهجم على الأمير وطعنه طعنة ثانية . وظهر ثالث فطعنه طعنة قاضية أردته قتيلا على مرأى

(١) حيث يقول في (مرآة الزمان) ان الامير احمديل كان قد حضر الى بغداد وبعميته خمسة آلاف فارس . (ج - ٣ ص ٣٢) المؤلف

ومسمع من هذا الجمع الحاشد وهكذا قضى عليه ودفن ، ودفنت معه أماله
في استعادة ملك آباه وأجداده .

وقد ظن (طغتكين) لأول وهلة أن هذه الجريمة الشنعاء لا بد من
أن دبرها السلطان ورجاله ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الظن حيث ظهر
الحق ، وبان أن هؤلاء الجناة من الباطنية (١)

« آق سنقر الاحمديلي »

خلف هذا الأمير والده الأمير (أحمديل) على إمارة (المراغة) بعد وفاته .
وفي عام (٥١٤) للهجرة حينما شق الملك (المسعود) حاكم الموصل
وأذربيجان عصا الطاعة على أخيه السلطان (محمود) وقلب له ظهر المجن ،
أرسل أتاكبه السابق (قاسم الدولة بزرگ) ليستولى على إمارة المراغة ويتسلمها
منتزها الفرصة، ولكن ثورته هذه قد باءت بالفشل وعادت الأمور سيرتها
الأولى وبذلك تمهد السبيل لعودة (ابن احمديل) من بغداد الى مقر إمارته
عام (٥١٥) للهجرة . حيث اتخذها مستقرا له ومقاما دون منازع، ولكن الطمع
قلبا جمع أسباب الهناء والراحة ، إذ لحق بالرفيق الأعلى في هذا العام، الأمير
(كونطوغدى) حاكم (أران) من قبل السلطان (طغرل) ، وهنابداً (ابن
احمديل) يسعى سعياً حثيثاً لدى السلطان طغرل لتعيينه حاكماً على (أران)
خلفاً لحاكمها الراحل فارسل السلطان في طلبه ، على أن يصطحب معه عشرة آلاف
من المقاتلة ، ويقدم المساعدة الممكنة لجيوشه أثناء قيامها بفتح (أردبيل) .
ولكن تنفيذ هذا الأمر ، ومغادرة (ابن أحمديل) لإمارته (المراغة)
صار وبالاً، وجر عليه خسائر فادحة ، إذ انتهز السلطان (محمود) فرصة تغيبه

(١) من (دائرة المعارف الإسلامية ومعجم البلدان) . المؤلف

عن إمارته وانشـخاله في حروب السلطان طغرل ، واستولى عليها بوساطة (جيوش بك) ولكن سير الوقائع تدل على أن (ابن أحمد ديل) لم يقف جامدا ازاء الحالة الجديدة بل أخذ يسعى للتقرب من السلطان (محمود) ، حتى نجح مسعاه أخيرا فتم التفاهم والوثام بينهما ، وعينه السلطان أتابكا (مريا) لابنه وولى عهده الأمير (داود)

وفي عام (٥٢٣) من الهجرة اشترك الأمير (آق سنقر بن أحمد ديل) في الحملة المرسلـة على (ديبس بن مزيد) ، وبعد عام من اشتراكه في هذه الحملة أبدى نشاطا محسوسا ليتولى الأمير (داود) السلطة والملك .

وفي عام (٥٢٦) من الهجرة اشتبك جيشا السلطان (طغرل) والأمير (داود) على مقربة من (همذان) وحاقت الهزيمة بجيش الأمير لتألب الجنود عليه وخيانتهم له ، وهكذا لبست الهزيمة الأميرين (داود) و (آق سنقر) مما أدى إلى استيلاء السلطان (طغرل) على (المراغة) و (تبريز) .

وبعد حين لجأ كل من الأمير داود وعمه الملك المسعود وأتابكـه آق سنقر إلى بغداد حيث مد الخليفة اليهم يد المساعدة وزودهم بجيوش وعناد وأموال طائلة ، مما قوى ساعدهم وحفزهم إلى التوجه صوب (المراغة) وسرعان ما وقعت في أيديهم وأضحت في قبضتهم وفيها ازداد نفوذهم وقويت شوكتهم بفضل ما يـكنه أهلها للأمير (آق سنقر) من عميق الولاء ، وصادق الحب ، مما أدى إلى تحرير جميع بلدان آذربيجان وتخليصها من بين براثن غاصبيها ، ولكن أتى لهم الوقوف عند هذا الحد ، بل يـمـموا شطر (همذان) وهناك شنتوا شمل قوات السلطان (طغرل) ومزقوا صفوفها شر ممزق ، وسقطت (همذان) في قبضة جنود الملك المسعود . ولكن الأمير (آق سنقر) مثل والده قد اغتالته يد أئيمة في اثناء دخول القوات الظافرة همذان عام (٥٢٧) من الهجرة ، إذ كان هذا القاتل باطنيا موفدا من قبل وزير السلطان (طغرل) لارتكاب هذه الجريمة الوحشية .

« آق سنقر الثانى »

هو ابن آق سنقر الاول ابن احمديل . ولم يتفق جميع المؤرخين على هذه التسمية بل اختلف بعضهم وذكروه بأسماء متباينة .

وكان يتحدى هذا الأمير ويناصبه العداة والبغضاء ، أمير آخر يدعى (أزبك بن بالنيكارى) الذى كان يلح باذلا قصارى جهده أملا فى الاستيلاء على (أران) و (آذربيجان) وكان فى هذا الوقت (تبريز) خاضعة لحكم آق سنقر امير المراغة .

وما ان أهل عام (٥٤١هـ) للهجرة حتى ضرب هذا الأمير (أزبك) حصارا منيعا حول مدينة (المراغة) ولكنها امتنعت عليه واستطال حصارها حتى عام (٥٤٥هـ) . حيث خف إليه السلطان مسعود بنفسه على رأس جيوش جرارة ما لبثت أن اقتحمت المدينة وتم للسلطان الاستيلاء عليها وأمر بهدم قلعتها الحصينة . وبعد ذلك بقليل زالت الجفوة بين (أزبك) والأمير (آق سنقر) وتم بينهما الصلح وحل الوفاق والوثام أمام قلعة (روين دز) (١)

ولكن (أزبك) لم يعمر طويلا بعد هذا الصلح حيث لقي حتفه مقتولا على يد السلطان (محمد) إثر غضبية جامحة ؛ مما أفضى إلى استيلاء الأميرين (أيلدكز) و (آق سنقر) من السلطان محمد و اقدمهما على تنصيب الملك (سليمان) على عرش همدان ، عوضا عنه .

ولكن السلطان (محمد) استطاع بعد حين استخلاص همدان ، واستعادة سلطانه عليها ، ثم رأى من الحكمة أن يعقد صلحا مع أميرى آذربيجان (أيلدكز) و (آق سنقر) فأوفد اليهما رسالا من قبله لمفاوضتهما فى عقد الصلح ،

(١) اى قلعة (روين) كانت قلعة حصينة جدا على نهر الصوفى على مسافة ١٥ كيلو مترا فى شمال المراغة .
المؤلف

فلبيا دعوته وحققا رغبته وعقد الصلح في عام (٥٤٩) للهجرة ، وهكذا قسم إقليم آذربيجان بين الأميرين الكبيرين .

وقبل أن يلحق السلطان (محمود) بالرفيق الأعلى وتصعد روحه إلى بارئها وضع ابنه الصغير (داود) تحت وصاية الأمير (آق سنقر) لأن السلطان (أرسلان) كان في حماية الأمير (ايلدكز) وتحت وصايته .

ثم حدث بعد ذلك أن قام (بهلوان بن ايلدكز) على رأس حملة عسكرية وهاجم الأمير (آق سنقر) أملا في تنصيب هذا الأمير المحمي وهو السلطان (أرسلان) بدل والده غير أن أمير (المراغة) الشجاع قد دحر الجيش المهاجم بقيادة بهلوان على ضفاف نهر (سفيدروذ) واضطره إلى التقهقر وذلك بتعصيد (شاه أرمن = لقب ملوك خلاط من الكرد والتركمان) له في عام ٥٥٧ من الهجرة .

ولما تم لأمر المراغة استئصال شأفة هذه الحملة وتشتيت شملها ، بعث بخمسة آلاف من الجنود لنجدة (إبنانج) حاكم الري الذي كان مشتبكا حينذاك في القتال مع (ايلدكز) وجنوده . إلا أن (ايلدكز) قد استطاع تشتيت شمل هذه النجدة وألحق بها هزيمة شنعاء . ويلوح أن (آق سنقر) و (ايلدكز) قد زالت بينهما الجفوة بعد ذلك وحل بينهما الوئام والوفاق وتبدد الخصام ، بدليل مساعدة (آق سنقر) للأمير (ايلدكز) في حملته على بلاد الكرج .

وفي عام (٥٦٢) للهجرة قام الأمير (آق سنقر) بزيارة ، إلى بغداد حيث استقبل من الأهلين استقبالا منقطع النظير وقدم الملك (داود) لأتابكه وحاميه من ضروب الخفاوة والتكريم ما لم يسبق له مثيل . وفي نفس هذا العام أعاد (بهلوان بن ايلدكز) الكرة واستأنف إلقاء الحصار على (آق سنقر) في (المراغة) ، ولكنه سرعان ما رفع الحصار وتم عقد الصلح بينهما .

ومما يؤسف له أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن الحلقة الأخيرة من عهد هذا الأمير، اللهم ما يرويه لنا ابن الأثير من أن أمير الري (ابن ماج) قد قتل في عام (٥٦٤) للهجرة، ثم ثار (قتلغ) أخو (آق سنقر). إلا أن الأتابك (بهلوان بن ايلدكز) قد عاقبه وسلم حكومة (المراغة) لأخوى (قتلغ) وهما (علاء الدين) و(ركن الدين).

يتضح من هذا جليا أن الأمير (آق سنقر) الثاني قد توفي عن أربعة أبناء، وأن حروبا دامية قد اشتعلت نيرانها بين (آق سنقر الثالث) وأخيه (قتلغ) لسبب واضح وواحد. ألا وهو التكالب على الدنيا والتنافس على الحكم. وظلت نيران الحرب تزداد بينهما اشتعالا، مما أدى إلى تدخل (بهلوان ابن ايلدكز) لوضع حد لهذه المعارك الدموية وتمكن فعلا من حسم النزاع بإعطاء الحكومة إلى الابن الصغيرين للأمير (آق سنقر الثاني) الراحل وهما (علاء الدين) و(ركن الدين) وبذلك حرم الأخوان المتنازعان من الحكم.

كما يحدثنا ابن الأثير أيضا عن حاكم كان قائما على المراغة عام (٥٧٠) للهجرة يدعى (فلك الدين) وكان حفيد (آق سنقر الثاني) وأن والده تنازل له عن الحكم، وأن (بهلوان بن ايلدكز) قد أعاد الكرة في أيام حكم هذا الأمير وهاجم (المراغة) وقلعة (روين دز) ولكن سرعان ما توقفت رجلي المعركة وعقد بينهما صلح كان ضمن شروطه التخلي عن (تبريز) والتنازل عنها لأسرة (ايلدكز).

ومعنى ذلك - كما يتبادر إلى أذهاننا - أن مدينة (تبريز) قد ظلت حتى عام (٥٧٠) للهجرة في حوزة حكام المراغة وضمن دائرة نفوذهم، وأن منطقة حوالى جبل (صهند = سهند) بأكملها كانت تدين بالخضوع والتبعية لأسرة (أحمدبيلي). وتلك ذلك فترة قاربت الثلاثين عاما لا نعرف من أخبارها ولا عن حوادثها سوى خبر عن عقد اتفاقية بين (علاء الدين)، أمير المراغة ودمظفر

الدين كوكبرى (أمير) (أبريل) عام ٦٠٢ للهجرة ، وكان (علاء الدين) يرمى من وراء ذلك إلى الحصول على مساعدة (مظفر الدين) له ، وشهد أزره في العمل على انتزاع آذربيجان ، من يد حاكمها (أبو بكر ايلدكز) ، وتنفيذا للاتفاقية (١) قام جيشا الحلبيين بالزحف تجاه (تبريز) ، فما كان من حاكمها (أبو بكر ايلدكز) إلا أن بادر بطلب النجدة من (آى طوغمش) مملوك أسرة ايلدكز القديم الذى لى النداء واستجاب لطلبته ، ولكن ما كادت الحرب تنشب أظفارها ، ويشتد أوارها حتى انسحب (مظفر الدين كوكبرى) من الميدان عائدا إلى (أبريل) فى حين تعقب (آى طوغمش) أثر (علاء الدين) وأخذ يطارده حتى قرع أبواب (المراغة) فاضطر (علاء الدين) إزاء ذلك إلى التنازل عن القلعة التى كانت مشار النزاع لخصمه ، مقابل استرداد مدينتى (أرمية) و (أشنة = إشنو) .

ولم يعمر (علاء الدين بك) طويلا بعد ذلك . فقد لقي ربه فى عام (٦٠٤) للهجرة ويطلق عليه ابن الأثير اسم (قره سنقر) (٢) . وقد خلف بعد وفاته طفلا صغيرا كفله من بعده أحد رجاله المخلصين الأحرار ، ولكن شاءت الأقدار أن تصعد روح هذا الأمير الصغير إلى بارئها فى عام (٦٠٥) للهجرة أى بعد والده بعام واحد .

وبعد ذلك أتاحت فرصة ذهبية لأبى بكر ايلدكز فاستولى على شتى أملاك وممتلكات الأسرة الأحمديلية الكردية عدا القلعة (روين دز) التى كان يحكمها

(١) تقول (دائرة المعارف الاسلامية) فى مادة (تبريز) ان هذه الاتفاقية عقدت بين الأمير (علاء الدين قره سنقر احمديلى) .

(٢) ولا يخفى أن هذا الأمير هو غير (قره سنقر) التركى الذى كان حاكما على المراغة فى عهد (اولجايتو خان) وتوفى عام ٧٢٨ للهجرة . المؤلف

ذلك الرجل الصادق من رجال (علاء الدين بك) والذي كان يكفل الأمير الصغير كما ذكرناه .

والظاهر أن (علاء الدين بك) الذي أثنى عليه الشاعر (نظامي) في ديوانه (هفت بيكر) - ثناء مستطابا فأطرب في مديحه - هو بالذات (علاء الدين بك) حاكم (المراغة) ، ثم يكشف لنا هذا الشاعر في ديوانه أيضا عن اسمي ولدين لعلاء الدين بك يدعى أحدهما (نصره الدين محمد) والآخر (أحمد) ، وإذا طبقنا هذا الذي يقوله الشاعر (نظامي) على قول ابن الأثير لوجدنا أن هذين الأميرين قد أدركهما الموت وعاجلتهما المنية قبل (علاء الدين بك) نفسه . وبما هو جدير بالذكر أنه قد ظهر في أسيرة (أحمدبيلي) نساء تولين مقاليد الأمور وزمام الحكم . وحينها اجتاحت قوات (المغل) . (المراغة) في شهر صفر من عام (٦١٨) للهجرة واستولت عليها وهدمت قلعتها ودمرت المدينة وأشعلت فيها النيران بعد أن سلبت ونهبت ما فيها ، وقتلت أهلها - نجت ملكتها التي كانت وقتذاك قابضة بين جدران قلعة (روين دز) - من هذه الولايات والمصائب . وكانت هذه الملكة تدعى (من هواداد) وهي آخر ملوك الأسرة الروادية ، وحفيدة (علاء الدين بك) ،

وقد تزوجت مرتين أولاهما بابن لايلدكر يدعى (أزبك) كان أصم وأبكم ثم عادت وعقدت قرانها على (جلال الدين شاه) حين عاد من العراق وقد تم له الاستيلاء على قلعة (روين دز) أيضا . (دائرة المعارف الإسلامية ج - ٣ - ص ٢٧٩ ، ٢٨٠)

وهكذا انقضت الحكومة الروادية الكردية وأسدل عليها الستار بعد أن عمرت أربعمائة سنة كاملة .

الفصل الثاني

٢ - الحكومة السالارية^(١) بآذربيجان (٣٠٠ - ٤٢٠ هـ)

كانت آذربيجان - كما أشرنا في المجلد الأول - يطلق عليها اسم (ميدية) الصغرى. ففي عام (٢٣ ق. م) استولى عليها الملك الأشكاني (فرهاد) الرابع (٢) وهكذا سلبت الحكومة الاشكانية استقلال مدينة الصغرى، وانتزعتها اغتصابا، وإن كانت قد فشلت فشلا ذريعا في قمع حرية أهلها وإضعاف الروح المعنوية بينهم، بل ظلوا يتمتعون باستقلال داخلي، في ظل حكومات صغيرة، تسوس شؤونهم وترعى مصالحهم.

ومما يحز في النفس ويوجب الأسف، أننا نفتقر إلى معلومات مفصلة وافية عن تاريخ هذا الأقليم الكردي خلال بضعة قرون قبل الإسلام وإبانه، لدرجة أن المؤرخين والرحالة العرب والمستنئين أنفسهم، قد وقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه الفترة، وما استطاعوا لها تأريخا لإعطائنا فكرة واضحة وامدادنا بمعلومات شافية ضافية عن أحوال هذا الأقليم في فجر الفتوحات الإسلامية،

(١) يطلق (الصدقي) في (تاريخ الدول) اسم (الدولة السالارية) أو (الدولة المسافرية) على هذه الحكومة، وواضح ان التسمية الاولى اصح وانسب لأن مؤسس هذه الدولة كان يدعى (سالارمرزبان)، ويقول ايضا إن هذه الدولة كانت ديلية، في حين ان (دائرة المعارف الاسلامية) ليس لديها ادنى شك في انها كانت كردية، وعلى هذا تكون الديلمة بمقاطعتي (كيلان وطبرستان) فرعا من الامة الكردية كما يقول به (اسكندر منشي) في تاريخه (عالم آراي عبادي ص ٧٦٢) وكما ورد في كتاب (حزرة الاصفهاني) ان الايرانيين كانوا يطلقون لفظ الديلم على اكراد طبرستان - (٢) تاريخ ايران القديم ص ١٥٦ المؤلف

الأمر الذي يتعذر علينا معه محاولة الربط بين مجريات الحوادث والوقائع التاريخية لهذا الإقليم في العهد الإسلامي وبين تلك الوقائع القديمة التي كانت أذربيجان مسرحاً لها .

ومع هذا نستطيع أن نستدل من مجرى الحوادث والوقائع التاريخية على أن هذا الإقليم قد شاهد حكومة مستقلة كبرى قامت على تصرف شؤونه . وأنه على الدوام كان مرتعاً لنزاع دائم ، وقاتل مستمر بين الحكومات الإيرانية والدولة الرومانية (الشرقية والغربية) .

نعم : هنالك عالمان عريان على التحديد ، قد اهتما دون غيرهما ، يبحث حالة أذربيجان وهما (ابن خردادبه) (١) الذي زار (تبريز) عام ٢٢٢ هـ جريّة في عهد إمارة (محمد الروادي) أما ثانيهما فهو (الأصبخري) (٢) الذي قام بسياحة في إقليم أذربيجان في غضون القرن الثالث الهجري ، حيث رأى بعينى رأسه بلاد (تبريز وجبردان = دبخواركان واشنو) تحت حكم العشائر (الدينية) المعاصرة لحكومة (بنى الساج) التي كانت قصبته قديماً مدينة (المراغة) ثم أضحت فيما بعد مدينة (أردبيل = أردوبيل) .

ويقول (ياقوت الحموي) في معجم البلدان ، ان إقليم أذربيجان قد ظل فترة في قبضة الترك إلى أن تغلب ، كيخسرو ، ملك إيران على حاكمهم المدعو ، أفراسياب ، وقتله ، وبذلك دالت دولتهم عن هذا الإقليم .
ومما يدل على أن رواية ، ياقوت ، هذه غير صحيحة البتة ، وأنها محض

(١) هو أبو القاسم عبید الله بن عبد الله بن خردادبه الفارسي الذي طبع كتابه بليدني سنة ١٣٠٩ هـ ، وقد ألفه بين ٢٣٢ هـ و ٢٧٢ هـ ويظن انه توفي حوالي سنة ٣٠٠ هـ . كما حققه في دائرة المعارف الاسلامية

(٢) المتوفى سنة ٣٤٠ هـ - سنة ٩٥١ م المترجم

خرافة أننا نعلم علم اليقين أن « أفراسياب » هذا كان ملكا على تركستان أي ماوراء النهر ، لاحاكم على إقليم آذربيجان ، كما يدعى (ياقوت) .

بالرغم عن هذا ، فالمعروف أن بلاد « مدينة الصغرى » كانت بأكملها في قبضة الأكراد أحفاد الميديين الأوائل منذ عهد الميديين إلى أن تحركت الإغارات التركية نحو الغرب ، وظهر الغز ثم السلجوق عام (٤٢٠) .

ثم دخل هذا الإقليم في حوزة « يوسف بن أبي الساج » عام (٢٨٨) كما ورد في ياقوت وظل في قبضته إلى أن استطاع « مؤنس الخادم » أن يستخاضه ، وينزعه منه إبان خلافة « المقتدر بالله » . ولكن يوسف بن أبي الساج لم يهدأ له بال ، ولم يطق صبورا على انتزاع هذا الإقليم منه ، فأخذ يعمل جاهدا آتاء الليل ، وأطراف النهار ، حتى أعاده ثانية إلى حوزته .

وما أن أهل عام (٣٢٦ هـ) حتى تهباً حاكم « الرى » المدعو « وشمكير » للاستيلاء على هذا الإقليم ، وتحركت جحافل جيشه بقيادة أحد قواده « لشكرى بن مردى » ، حاكم الجبال ، وولت وجهها شطر (آذربيجان) التي كان يحكمها إذذاك قائد من قبل « يوسف بن أبي الساج » يدعى « ديسم بن إبراهيم الكردي » ، الذي قام على رأس جيش جرار ، قطع به الطريق على جيش « لشكرى » ، واشتبك الجيشان في القتال ، وانهدق لواء النصر في نهايته لجيش « لشكرى » ، وحاقت الهزيمة بجيش « ديسم » في بادىء الأمر ، ولكنه لم يقبع ، ولم يسكت على الهزيمة . بل أعاد الكرة بعد حين ، واستأنف القتال ، غير أن الهزيمة عادت فلاحقته للمرة الثانية ، فاضطر مرغما إلى التفهر تاركاً وراءه لخصمه جميع بلدان الإقليم ، عدا مدينة « آرده » و « بيل » = أردبيل ، التي استمات أهلها في الدفاع عنها ، ولم تخدعهم أقوال ووعود « لشكرى » ، المعسولة ، كما بلغهم عن ظلم الديلم وغدرهم ، لهذا وقفوا رجالا واحدا ، وطلبوا النجدة من « ديسم » ، فاتفق معهم على القيام بهجومين في يوم معين على جيش « لشكرى » ،

وحسب الخطة الموضوعة ، وفي اليوم الموعد ؛ خرج الأوردليون من قلعتهم وانقضوا كالصاعقة على جيش « لشكري » ودارت في نفس الوقت الذي هاجمه فيه جيش « ديسم » ، رعى معركة حامية الوطيس ؛ كثرت فيها المذابح وسفك الدماء ؛ ولم ينج منها إلا « لشكري » ، بأعجوبة ، وبعد نجاحه لجأ إلى « موقان » ، حيث زوده أصفهيدها « ابن دلولة » بقوة عسكرية ، عاد بها لمنازلة خصمه « ديسم » الذي عزف عن الاشتباك في حرب جديدة ، بل فضل الانسحاب إلى نهر الرس وتمكن من اجتيازه هو ورجاله بالرموث والاطواف (١) وقد احتجزها في جوار الشاطئ ، الذي نزل إليه ولم يعدها إلى الشاطئ الثاني ولما وصل « لشكري » ، من وراءه مطاردا فلول جيشه تعذر عليه اجتياز النهر في بادئ الأمر لعدم وجود « الرموث » ، ولكن اليأس لم يجد إلى قلبه وقلوب رجاله سيلا ، فأخذوا يبذلون المحاولات حتى تمكن بعضهم من عبور النهر من الجهة الشمالية ، وبهذا تكشفت أمام أعينهم بارقة أمل في اجتيازه وفعلا استطاعوا بأكملهم عبور النهر في ليلة ليلاء وانقضوا انقضاض الصاعقة على « ديسم » ورجاله بعد أن أيقنوا أنهم أضحووا في حرز مكين ومكان أمين .

توجه (ديسم) بعد هذه الهزائم المتوالية إلى الري وقابل حاكمها (وشمكير) وقدم له فروض الطاعة والولاء وأظهر له علائم الخضوع ، وقبل طائعا مختارا الشروط التي أملاها عليه « وشمكير » ، وأهمها أن يدفع له جزية سنوية مقدارها مائة ألف دينار ، وأن يذكر اسمه في الخطبة ، على أن يمده نظير ذلك بقوة عسكرية يسترد بها إقليم آذربيجان من بين برائن (لشكري) .

ولما فوجئ « (لشكري) » بهذه القوة تنقض عليه وتسد إليه ضربات ، لم يقو على الصمود أمام ضرباتها ، وغادر البلاد حقا للدماء ، قاصدا بلاد

(١) هي قرب تنفخ وتوضع في الانهر ليجتاز الناس المياه عليها (المترجم)

الزوزان (١) ويعتصم بالجبال بعد أن دمر كل ما صادفه في طريقه من البلاد والقري
ولكن الأرمين اعترضوا سبيله فلقى حتفه هنالك حيث أوقعوه في السكين .
وقد استطاع ابنه أن يصل إلى الموصل سالما على رأس قوة صغيرة من
جيشه ، انضم بها إلى حاكمها المدعو (أبو عبد الله الحسين بن سعيد الحمداني) .
وتم الاتفاق بينهما على إعداد جيش مشترك لاسترداد آذربيجان ، وبعد أن
فرغا من إعداد هذا الجيش توجهوا على رأسه صوب آذربيجان لمنازلة (ديسم)
الذي استطاع أن يشنت شمل جيشهما وألحق بهما هزيمة منكرة وهكذا عادت
آذربيجان مرة أخرى وأضحت خاضعة لحكم (ديسم) .

ومما لا شك فيه أن الأغلبية الساحقة من قوات (ديسم) كانت كردية ،
كما كان بعضها الآخر من جنود (وشمكير) الديليين ، وقد تلبه (ديسم) إلى
هذه الظاهرة ، ولفت نظره أن القوة الكردية تسيطر على أكثر مناصب
الجيش ، وتتحكم في شئونه ، وتحتل الكثير من القلاع والمدن الهامة ، وأنه
أضحى مغلوبا على أمره لا يرجع إليه في أي شأن ، فأخذ يفكر ويدير في وسيلة
يسترد بها نفوذه المسلوب ، وسلطانه المهوب ، حتى هداه تفكيره إلى أن أنجح
وسيلة هي تعزيز قوة الديلم حتى توازي قوة الكرد وبذلك يتحقق التوازن
بين القوتين ، وتحقيقا لهذه الفكرة أخذ يقرب إليه بعض الزعماء الديليين مثل
« صعلوك » ، و « علي بن فضل » ، وأخذ يصدق عليهم بعض الانعامات واختارهم
ندما له ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أخذ يفتزع المناصب ويخلص المدن
والقري من الكرد ، رويدا رويدا ، ويسندها إلى رجالات الديلم المقربين
ثم اتبع ذلك بمكيدة دبرها للتخلص نهائيا من بعض زعماء الكرد بأن ألقى
القبض عليهم وزج بهم في غياهب السجون ، وبذلك أمن شرهم .

(١) وهو اسم لاقليم جبلي من بلاد الكرد في شرق شمالي الموصل ذكره
ياقوت في المعجم . ومعناه ، بالكردية ، صايف جبلية المترجم

وكان (ديسم) نفسه خارجيا، وأما وزيره أبو القاسم علي بن جعفر فكان باطنيا ومن أهالي آذربيجان، فأوغر أعداء الوزير وحساده صدر (ديسم) عليه فحقد عليه، وبدأ الوزير يشعر بنجاح المؤامرة التي حاكها له أعداؤه فأخذ الرعب يسرى بين جنبيه، وتوجه سرا إلى الطرم ليحتسب به بمحمد بن مسافر (١)، وقد لازمه سوء الحظ في حله وترحاله إذ ما كاد يحط رحاله على أبواب ابن مسافر، حتى ألقاه على اختلاف مع عظماء شعبه، تسود بينهم الفرقة، ويشتمد بينهم الجفاء، مما ترتب عليه قيام كل من إبنى محمد بن مسافر، المدعويين، المرزبان، وهسوذان، بانتزاع ممتلكات والدهما، ثم ألقيا به سجيناً في القلعة، فاضطر (علي بن جعفر) أمام هذه الظروف أن يسعى جاهداً للتقرب من (المرزبان) حتى يحقق أمله ونال أمنيته، فأخذ يزين للمرزبان الاستيلاء على آذربيجان فوجد منه قلباً واعياً، وأذانا صاغية لما أوحى به إليه، وما لبث أن اتخذ المرزبان له وزيراً لا يبرم أمراً دونه ولا يقرر شيئاً دون أخذ رأيه والحصول على مشورته. فكان واسع النفوذ، مسيطراً على زمام الأمور، إذ كان علي بن جعفر باطنياً، أما مرزبان فقد كان شيعياً فقد سمح له أخيراً بنشر مذهب الباطنية جهاراً.

وبعد أن فاز (علي بن جعفر) بموافقة المرزبان على فتح آذربيجان، أخذ في إغراء الديلميين الذين كانوا يحاربون في صفوف (ديسم) حتى تمكن من أن يستميل إليه زعماءهم، فأعلنوا انضمامهم إلى جانبه، والعمل تحت قيادته، وكانت هذه الخطوة الموقفة حافزاً قوياً وعاملاً مشجعاً لكل من (علي بن جعفر) و (مرزبان) على الإقدام والتحفز للزحف على (آذربيجان) على رأس

(١) جاء في (دائرة المعارف الإسلامية) أن محمداً هذا كان يلقب باسم (ماه لان) وفي مصادر أخرى أنه مشهور بصعلوك المؤلف

جيش عمر مرم ، تقابل بجيش (ديسم) واشتبكا في القتال ، وهنا لعبت الخيانة دوراً حاسماً في تقرير مصير المعركة ، فقد تسلل الديلييون وفريق من الأكراد خفية من جيش (ديسم) وتآزروا مع «مرزبان» وحاربوا إلى جانبه ، أصدقاءهم بل وحلفاءهم بالأمس ، فخارت عزيمة (ديسم) ، وأسقط في يده ، ووقع في حيص بيص ، فترك ميدان القتال حقناً للدماء ، وانسحب مع بعض رجاله إلى جبال (کردستان = أرمينية) حيث نزل ضيفاً على صديقه (خاجيك بن الديراني) حاكم تلك البلاد ، فأكرم وفادته ، وأنزله منزلاً حسناً ، ولكن أتى لديسم أن تقل عزمته أو يستسلم للمزيمه فأخذ جاهداً في تجنيد أكراد تلك الجهات ، استعداداً لاعادة الكرة ومحاولة استرداد آذربيجان ، إذ بينما اطمأن «مرزبان» ورجاله إلى تخليص بلاد آذربيجان كلها ، عدا مدينة (تبريز) وضمها إلى حوزتهم ، نرى الخيانة تبرز على المسرح من جديد متمثلة في شخص (علي بن جعفر) وزير (مرزبان) الآن وموضع ثقته ، والذي سبق أن مثل هذا الدور مع (ديسم) ، فقد حدث بعد حين من تخليص آذربيجان أن أوفده (مرزبان) إلى مدينة تبريز للاستيلاء عليها ، فما كان منه إلا أن كاتب أهلها بأن (مرزبان) قد تولاه الجشع ، وتملكه الطمع في ثروتهم وأموالهم وأنه موفد إليهم من قبله لا يتراز هذه الأموال ، وأشار عليهم بطلب النجدة من (ديسم) ، وأن يقوموا بمجرد أن تصل إليهم النجدة قومة رجل واحد وينقضوا على دياملة (تبريز) لتشتيت شملهم وقطع دابرهم ، ورحب أعيان (تبريز) بهذه الفكرة ، وأبوا إلا أن يشاطروه الخيانة ، وقاموا فعلاً بتنفيذها ، وما أن وصل (ديسم) على رأس قواته إلى (تبريز) مليا النجدة ، وما أن ترمى إلى أسباع قوات مرزبان هذا الخبر ، حتى تسربت بمجموعة كبيرة من الكرد المستائين من مرزبان خفية من بينها وانضمت إلى جيش (ديسم) ، وكانت هذه الحوادث تتري ، وتجرى من وراء ستار دون

علم مرزبان ، فلما نفي اليه خبرها وجاءه نبأ هذه المكيدة ، قام على عجل ، وقاد جيشا كبيرا واتجه به صوب (تبريز) ، والتحم مع جيش (ديسم) في معركة حامية الوطيس على مقربة من المدينة ، وقد أبلى جيش (مرزبان) بلاءً أحسن وأظهر مهارة حربية فائقة مما ضمن له النصر على العدو .

تقهقر (ديسم) بعد أن اصطلى بنيران الحرب ، وشرب كأس الهزيمة حتى ثمالتها ، واعتصم بقلع المدينة ملتصقا حمايتها له ، ولكن (مرزبان) قد تعقبه وضرب حصارا مديعا حول القلاع ، فضيق بذلك عليه الخناق ، ورغم ذلك تمكن (ديسم) هو وبعض من تبقى لديه من قوات من الهروب ليلا تحت جنح الظلام والإفلات من الحصار الذي طوقوا به ، قاصدين صوب مدينة (أردبيل) ، فلحق بهم (مرزبان) . بعد أن ترك قوة كافية على حصار (تبريز) ، وظل يطاردهم حتى تمكن من محاصرتهم في (أردبيل) . ولما طال الحصار ، وامتنعت المدينة على (مرزبان) ، أخذ يفكر في تدبير مكيدة تذلل له الصعاب ، وتسكفيه مؤنة القتال ، وأخيرا حصل على ضالته المنشودة ، اذ وفق إلى مثل بارع لتمثيل أهم أدوار تلك المكيدة . وهي تلخص في أن : أبا عبد الله محمد بن احمد النعمي ، الذي اتخذه (ديسم) له وزيرا بعد (علي ابن جعفر) قد اتصل به سرا (مرزبان) وتبودلت بينهما المخابرات ، وكتب ابن النعمي إلى مرزبان يقول له : إنني سأبذل قصارى جهدي فأقنع (ديسم) بضرورة طلب الصلح ، وسيصلك بعض زعماء المدينة وكبرائها موافقين من قبله يطلبون عقد هذا الصلح ، فنتي وصالوك فمر بالقبض عليهم ، وزج بهم في غياهب السجون ، ولا تمكنهم من العودة حتى يستسلم (ديسم) . هذه هي رسالة وزير (ديسم) إلى (مرزبان) وهي رسالة يتمثل في كل حرف من حروفها الحيانة والغدر .

نفذ (مرزبان) بما جاء في هذه الرسالة حرفيا ، وبهذا نجحت المكيدة ،

حيث أرغم أهالي المدينة (ديسم) واضطروه إلى قبول الاستسلام حفظا على حياة المعتقلين ، وضمانا لإطلاق سراحهم . ولم يقدم (مرزبان) على أية إساءة إلى (ديسم) بل عامله معاملة كريمة ، ولما طلب إليه (ديسم) تخصيص قلعة (طارم = الطرم) لإقامته هو وأسرته أجاب طلبته .

وهكذا خضعت بلاد (آذربيجان) بما لها الوفير وكنوزها الهائلة، وثروتها الطائلة لمرزبان دون أن ينافس منافس أو يوجد عليه رقيب في بلاد آذربيجان كلها . وأقام (ديسم) ردحامن الزمن في (طارم) في جو يسوده الهدوء وتخم عليه السكينة ، ولكنه وهو ريب حرب إذا أخلد إلى راحة لا تلبث أن تسعى إليه ، إذ حدث أن أغار الجيش البويهى على (آذربيجان) ووقع (مرزبان) أسيرا ، فقام أخوه (واهسوذان) باستدعاء (ديسم) ليضمن وقوف الكرد إلى جانبه ، وأكرم وفادته ، ووكل إليه أمر الدفاع عن (آذربيجان) ضد المغيرين من (آل بويه) .

شمر (ديسم) عن مساعد الجند وتمكن من حشد قوة كبيرة من الكرد وتملك ناصية الأمور في (آذربيجان) ووقف على تمام الاستعداد وكامل الأهبة للقاء الجيش البويهى الذى كان يقوده (محمد بن عبد الرزاق) أما عن حوادث هذه الحرب ووقائعها فقد تعرض لها (ابن مسكويه) في المجلد الثانى من كتابه (تجارب الأمم) وذكرها كما رواها (ديسم) نفسه ، حيث قال :

إنه كان (محمد بن عبد الرزاق) القائد على الجيش البويهى كاتب خراسانى يدعى (ابن محمود) وكان موضع ثقته وتقديره فاتخذه وزيرا له ، وحدث أن أوفده إلى (آذربيجان) لتحصيل الأموال الأميرية ، وهناك لعب الشيطان برأسه ، وأبى الشيطان إلا أن يزين له خيانة سيده ، فأسرع منضما إلى (ديسم)

بمن معه من القوات العسكرية وما يحمله من أموال أميرية ، فلها علم (محمد بن عبد الرزاق) بهذا النبا المشنوم ، وقع في حيص ويص ، وتزعزع مركزه ، فلم يطل الإقامة في (آذربيجان) بل عاد أدراجه إلى (الري) عام (٣٤٢) من الهجرة بجر أذيال الفشل .

وألقي (ديسم) تصريف شؤون الوزارة وتدير مهام الحكم على عاتق (أبي عبد الله النعمي) و (ابن الصقر ^(١) المسيحي) وتفرغ هو لتجيش عدد كبير من الكرد والديلم استعان بهم على استرداد سلطانه واستعادة نفوذه في بلاد (آذربيجان) بأكملها . ولكنه ما كان يعلم أن سلطانه في هذه المرة أيضا سلطان موقوت إلى حين ، إذ بعد فترة قصيرة نجح (مرزبان) من ذل الأسر ، وأطلق سراح (علي بن ميشكي) هو الآخر من نير سجن (ركن الدلة) فاتفقا مع (واهسوذان) على إخراج (ديسم) من البلاد . وكان (ديسم) يجهل كل شيء عن نجاة (مرزبان) من الأسر ، وكان وزيره

(١) يذكر (ابن مسكويه) هذا البحث في المجلد الثاني من كتابه (تجارب الأمم) ص ١٣٦ بنوع آخر فيقول : ان (ابن الصقر) كان عاملا على مال جهتي (خوي وسلماس) من قبل (مرزبان) ، ولما بلغه نبا (ديسم) هرع اليه وسلمه جميع ماتحت عهده من الاموال ، وأظهر له علائم الطاعة وآيات الولاء ، فسر منه (ديسم) واتخذ له أمينا ، ولما توجه (ديسم) لمحاربة (محمد بن عبد الرزاق) أرسل جميع مقتنياته من النقود والاموال مع (ابن محمود) إلى جبال (موقان) ، فخانه (ابن محمود) وأنبا (محمد بن عبد الرزاق) ، وما أن وصل هذا النبا إلى مسامع (ديسم) وهو يخوض غمار المعركة حتى بدا عليه التأثر وتغلب عليه الحزن مما أدى إلى اندحاره في المعركة وفشله .

(أبو عبد الله النعمي) يتلمس الفرص بل يتحسسها لحياة سيده تخلصا من جشعه فأخذ يوغر صدر ابن أخته المدعو (غانم) ضده ويحرضه عليه حتى ثار في وجهه وكتب إليه ملوحا له بقوته وقوة الديلم ، واغتم (أبو عبد الله النعمي) هذه الفرصة التي هيأها لنفسه بايقاع الخلف بين (غانم) الذي جاء من أردبيل إلى خاله (ديسم) وطالبه بأموال أبي عبد الله وكتبه ، ملوحا له بقوته وبقوة الديلم فقتل الكاتب (علي بن عيسى) واستولى على جميع أموال (ديسم) وفر هاربا إلى (ابن ميشكى) ، وكان (ديسم) إذ ذاك خارج أردبيل ، فما أن بلغه هذا النبأ ، حتى أسرع عائدا إليها ، وحشد جيشا كبيرا سار على رأسه لمنازلة (علي بن ميشكى) ،

وما أن دارت رحى المعركة حتى انسحبت الفرقة الديلمية من جيش (ديسم) وتسلفت إلى صفوف العدو فقررت هذه الخيانة مصير المعركة ، وحاقت الهزيمة بجيش (ديسم) الذي آثر هو والفريق الكردي من جيشه اللجوء والانسحاب إلى (أرمينية) حيث علم هنالك فقط ولأول مرة ، بنجاة (مرزبان) من الأسر ، ووصوله إلى (آذربيجان) وإرساله (علي بن ميشكى) ليحل محله .

إزاء ذلك اضطر (ديسم) إلى التوجه صوب الموصل ومنها يم نحو بغداد ولجأ إلى (معز الدولة) الذي أكرم وفادته ، وأجرى عليه راتبا سنويا مقداره خمسون ألف دينار ، فأخذ يرفل في حلق من الرفاهة والعيش الرغيد ، وأحبه (معز الدولة) حبا جما ، لدرجة أن أصبح يناديه باسم (أخي أبا سالم ديسم) ولكنه ما لبث أن هجر هذه الحياة الرغيدة غير آسف عليها ، إذ بعث إليه أصدقاؤه وخلصاؤه والأقربون في آذربيجان بكتب تنم عن علائق الولاء وصادق التشجيع ، ويطلبون إليه العودة للجهاد في سبيل استرداد آذربيجان ، فلبى النداء ، وترك بغداد على الفور ، بعد أن وثق من أن (معز الدولة) لن يمد

إليه يد المساعدة مرضاة لأخيه (ركن الدولة) الذي كان على وفاق مع (مرزبان) وبينهما مصاهرة ، وبعد أن غادر بغداد ، قصد الموصل عام (٣٤٣) من الهجرة مؤملا العون عند (ناصر الدولة الحمداني) ، وبذل محاولات جبارة للحصول على هذا العون ولكن ذهبت كلها أدراج الرياح ، وباءت بالفشل ، ولكن اليأس لم يحد إلى نفسه سيلا ، فيمم شطر « حلب » ملتصقا العون عند حاكمها (سيف الدولة) ولكن أيضا بدون جدوى .

وأخيرا انتهى به المطاف إلى « أرمينية » حيث قابل « خاجيك بن الديرائي » لنفس الغرض ، وما أن بلغ « مرزبان » نبأ وجوده لدى « خاجيك » حتى كتب إليه على الفور يطلب منه إلقاء القبض على « ديسم (١) » فتردد (خاجيك) بآدى الأمر في تنفيذ طلبته ولكن عاد فنفذ الأمر مضطرا وسلبه مقبوضا عليه إلى « مرزبان » الذي (سمل) فقأ عينيه وزج به في أعماق السجون . وبعد وفاة « مرزبان » قتلوه في سجنه عام ٣٤٥ من الهجرة .

(١) هو (ابوسالم ديسم بن ابراهيم الكردي) . قال ابن مسكويه ان ديسما كان يرى رأى الشراة وكذلك كان أبوه . إذ كان من اصحاب « هرون الشاري » الذي خرج بالموصل وقتل بها سنة ٢٨٣ هـ فهرب أبوه ابراهيم هذا الى آذربيجان وتزوج الى رئيس من اكرادها فولد (ديسم) فاصطنعه ابن ابى الساج وارتقى معه الى ما ارتقى اليه . حيث تغلب على آذربيجان بعد (يوسف بن ابى الساج) سنة ٣١٤ ودام حكمه لها حتى سنة ٣٣٠ هـ . المترجم

الفصل الثالث

٣ - الحكومة الحسنيئية^(١) بهمدان (٣٣٠ - ٥٤٠٥ هـ)

وضع أساس هذه الحكومة عام (٣٣٠) للهجرة في الدينور وشهرزور الأمير (حسين) زعيم العشيرة البرزيكانية ، وكان أخواه (٢) (ونداد) و(غانم) يتزعمان العشائر العيشانية وهكذا كانت كافة أرجاء الدينور ، وحمدان ، وناوند ، والصمغان ، وبضعة بلدان من إقليم آذربيجان تدين لهم بالخضوع والطاعة . وقد عاجلت المنية (ونداد) عام ٣٤٩ للهجرة وما أن أهل العام التالي أي عام ٣٥٠ حتى لحق به (غانم) وكانهما كانا على ميعاد ، وبموتهما انتقل حكم هذه البلاد جميعها إلى (حسنويه) ابن الأمير حسين الكردي .

« حسنويه »

اعتلى أريكة الحكم بعد وفاة والده ، وفي الحق إنه هو المؤسس الحقيقي لهذه الحكومة ، لأن مركز الحكومة على عهد والده لم يكن قد دعم أو استقر كما أنه لم يكن قد اتخذ شكلا نهائيا أو صبغة رسمية . على أن معلوماتنا

(١) يطلق الصديقي صاحب دول الاسلام (ج - ١ ص ٤٢٩) على هذه الحكومة اسم (الدولة الحسينية) المؤلف

(٢) في ابن الأثير ٨ - ١٥٥ أن وندادا وغانما ابني احمد كانا خالا حسنويه وكانا أميرين على صنف آخر من الكرد يسمون العيشانية المترجم

عن عهد حسنويه ، من القلة بمكان ، والمعروف أنه قد قام بتقديم مساعدة
جديدة لركن الدولة البويهى فى حرب خراسان .

وقد أسعفنا السيد حسين المكريانى فوافانا بموجز عن أحوال (حسنويه)
حيث يقول :

وجه (معز الدولة) جيشا بقيادة (ينال كوش) من الموصل إلى دشرور ،
فقطع د حسنويه بالطريق على أهذا الجيش فى غربى (أربل) وألحق به هزيمة
منكرة ، فأعاد معز الدولة الكرة وبعث بجيش آخر هاجم (الدينور)
وأزل بها الكثير من أعمال النهب والتدمير ، وفى هذه الأثناء هوجم (ركن
الدولة) أخو (معز الدولة) فى ناحية جرجان من قبل خصومه ، فطلب
النجدة من أخيه . وهنا اضطر (معز الدولة) إلى عقد صلح مع (حسنويه)
اشترط فيه أن يخطب باسم معز الدولة على المنابر . وهكذا تحسنت العلاقات
بين الحكومة البرزيكانية الكردية هذه وبين الدولة البويهية وساد بينهما
الصفاء والوثام وتبدد الجفاء .

وفى عام ٣٥٦ للهجرة نشب الخلاف بين (عز الدولة) بختيار بن معز
الدولة) وبين (حسنويه) واشتعلت بينهما نيران حروب طاحنة أسفرت
عن اندحار (بختيار) فى حين أن (حسنويه) ازداد قوة ونفوذا . وما أن
أهل عام (٣٥٧) للهجرة حتى انقشعت غيوم الجفاء وعادت بينهما المياه إلى
بجاريها فتم بينهما الصلح ، واتفقا سويا على أن يقفا جهة واحدة ضد (أبى تغلب
الهمدانى) ووافق (بختيار) على شد أزر (حسنويه) ومساعدته لتمتدح حدود
مملكته حتى الزاب الكبير ، وبفضل اتفاقهما وتأزرهما ألحقا الهزيمة بأبى تغلب
الهمدانى ، ثم عاد (حسنويه) عن طريق أربيل ، وشهرزور إلى الدينور .

وقد استشاط (ركن الدولة) غضبا وأبدي امتيائه من اتفاق (حسنويه)

مع ابن أخيه (بختيار) ولهذا جرد جيشا بقيادة وزيره أنى الفضل ابن العميد
على (حسنويه) في سنة ٣٥٩ هـ . حيث يقول الكامل (ج - ٨ ص ٢١٧)
إن سبب تجريد هذا الجيش إنما يرجع إلى سوء معاملة (حسنويه) لسهلان
ابن مسافر .

ويقول ابن مسكويه (ج - ٢ ص ٢٧٠) : إن (حسنويه) قد وسع حدود
مملكته بأحراره عدة انتصارات متوالية بفضل ما اكتسب من قوة نفوذ
وسطوة في البلاد ، وبفضل رضا (ركن الدولة) عنه وعظيم إعجاب به ، على
أثر المعونة الكبيرة التي قدمها له (حسنويه) في حروبه بخراسان . غير أن
(حسنويه) كان طموحا رغم ما أحرزه من فتوحات وانتصارات ، فكان
لا يفتأ يهاجم بلدانا وجهات أخرى طمعاً في بسط سلطانه عليها وإخضاعها لحكمه .
وكان ينجي الأموال من القوافل المارة في الطرق والمعابر العامة ، كما كان لا يألو
جهداً في تضيق الخناق على الأغنياء ، ورغم هذا كان (ركن الدولة) يفض
الطرف عنه ، ولا يعترض سبيله .

ثم حدث أن نشب الخلاف فجأة وعلى حين غرة ، بين (حسنويه) و(سهلان)
ابن مسافر (١) الديلمي فأعد (سهلان) جيشاً سار على رأسه للأجهاز على
(حسنويه) والفتك به ، غير أن هذا الجيش قد حاقت به هزيمة منكرة على
يد (حسنويه) الذي أحاط بمعسكر العدو إحاطة السوار بالمعصم وألقى عليه

(١) اختلفت المصادر القديمة كابن الأثير وابن مسكويه في ضبط اسم
(ابن مسافر) هل (محمد) أو (أحمد) وهل لقبه الكردي (ماملاق ، مهلاق
سهلان) ؟ وعلى كل فهو شخص واحد مشهور باسم (محمد الروادي الكردي)
تارة وباسم (محمد بن مسافر الديلمي) تارة أخرى وموصوف دائماً بصاحب الظرم
وشميران وأذربيجان . وهو جد (بني مسافر) مؤسس الدولة الكردية المسماة
السالارية والروادية اللتان قامتا بأذربيجان .

المترجم

حصاراً منيعاً وحال دون إيصال الزاد والذخيرة للعدو ، ولم يكتف (حسنويه) بذلك بل أمر بجمع الحطب حول المعسكر المحاصر وأشعل النار فيه فاندلعت النيران واشتد لهيبها حول العدو ، وهكذا أضحت الديالمة بين نارين : النار الموقدة من جهة ، وحرارة الصيف المحرقة من جهة أخرى ، فاضطروا إلى الكف عن القتال والميادرة إلى التسليم .

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع (ركن الدولة) حتى بادر على الفور بإرسال وزيره (أبي الفضل بن العميد) على رأس جيش عرمرم للتعرف على جلية الأمر ، غير أن المنية قد عاجلت (أبا الفضل) عندما وطئت قدماه مدينة (همدان) ، وقد خلفه على قيادة الجيش ابنه (أبو الفتح) الذي رأى في صالحه العودة إلى (الري) لتوطيد مركزه والمحافظة عليه هناك ، ولهذا بادر إلى عقد الصلح مع (حسنويه) ، وقد صادف ذلك هوى في نفس (حسنويه) وكان لهذا الموقف النبيل من جانب أبي الفتح أبلغ أثر في نفسه مما جعله يبادر بإرسال خمسين ألف دينار ، وهدايا متنوعة من الخيول وغيرها تقدر بمثل هذا المبلغ إلى (أبي الفتح) ، وهكذا قطع دابر الأعمال العدائية وتبددت الخصومة . أما (ابن الأثير) فقد بالغ في الثناء على (حسنويه) ثناء عاطفاً ، فيمدح حسن أخلاقه ، وعلو همته ، وحزمه في الأمور ، كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية : إنه قد تمكن من الحكم ، وازداد سلطانه على البلاد ازدياداً كبيراً بعد وفاة أخويه (١)

(١) في هذه العبارة اضطراب شديد في مقتضى ما سبق في أول البحث من أن الأمير حسين الكردي كان له أخوان (ونداد) و (غانم) ، ينبغي أن تكون العبارة هنا هكذا (بعد وفاة عميه ونداد وغانم) . وعلى كل فالنقل السابق من دول الإسلام والنقل هنا من دائرة المعارف لا يتفقان مع ما ذكره ابن الأثير من أن ونداد وغانم كانا خالا (حسنويه) لا عماء . حيث ذكر اسم والدهما فقال هما ابنا أحمد .. الخ اه من (ص ٢٥٥ - ٨ ج) المترجم

(ونداد وأبي الغنائم) ، حيث شمل سلطانه معظم بلاد كردستان ، فكانت الدينور ، وهمدان ونهاوند من المدن الشهيرة في هذه المملكة ، وكانت مدينة (سرماج) عاصمتها ،

وقد انحاز (حسنويه) في الحروب التي نشبت بين عضد الدولة وبختيار إلى جانب الأخير ويلوح أن سبب ذلك يرجع إلى خصومته الأخيرة مع ركن الدولة والد عضد الدولة ، وهذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يمكن القول بأنه سلك هذا المسلك خوفا من طمع (عضد الدولة) في بلاده ، وقد حدث في النهاية اتفاق بين (حسنويه) و (نخر الدولة) أخى (عضد الدولة) وانضم (حسنويه) إلى جانبه .

ويحدثنا صاحب كتاب (تجارب الأمم) عن هذا التحول في خطة (حسنويه) فيقول : « دخل (حسنويه) في مفاوضات مع (بختيار) عام سنة (٣٦٦) للهجرة واستعد لمساعدته . نعم ! إن (حسنويه) لم يتمكن من تقديم النجدة لبختيار في موقعة (رامهرمز) إلا أنه أرسل ابنه (عبد الرزاق وبدر) مع ألف فارس إلى بختيار أثناء عودته إلى (واسط) واعداء إياه بحضوره بنفسه إليه ، وقد أشار ابننا حسنويه على بختيار بالرحف على بغداد ومقاتلة عضد الدولة بها ، لكي يتمكن من الاستفادة من جيش الحمدانيين المرابط في الموصل ، ولكن بختياراً لم يكن في وعيه من جراء شدة تعلقه بغلام تركي كان يلزمه دائماً ولهذا لم يعر نصيحتهما آذانا صاغية ولا قلباً واعياً ، فلم يخف عبد الرزاق استيائه منه وبادر بالعودة إلى أبيه على الفور تاركاً أخاه (بدر) مع بختيار تفادياً للوم ، ولم يمض طويل وقت على ذلك حتى تنازل (بختيار) عن حقوقه خوفاً من عضد الدولة ، فاضطر (بدر) إلى تركه هو الآخر والعودة إلى والده . اهـ

وقد توفي حسنويه إلى رحمة الله في الثالث من ربيع الأول عام (٣٦٩)

للهجرة في مدينة (سرماج) (١).

« أبو النجم ناصر الدولة بدر »

اعتلى أريكة الحكم بعد وفاة والده في البلاد البرزكانية . وفي نفس العام الذي تولى فيه الحكم استولى على بعض القلاع الواقعة في غربى (اربيل) وضمها إلى رقعة بلاده .

وكانت وفاة (حسنويه) فرصة ثمينة اغتنمها عضد الدولة البويهى ، إذ أن أخاه (نجر الدولة) وابن عمه (بختيار) كانا يعتزان بصداقتهما لحسنويه ، ويستعينان به عليه ، مما استثار غضبه وأثار حفيظته وسخطه على حسنويه ، فلا عجب إذن أن زى عضد الدولة راغبا كل الرغبة في إزالة حكم الحسنويين وقطع دابرهم بعد وفاة عاهلهم الكبير ، وقد بدأ يمد لتنفيذ هذه الرغبة فبعث خازنه (أبا نصر خورشيد يزيديار) برسالة إلى كل من نجر الدولة ، ومؤيد الدولة ، وقابوس بن وشمكير ، أملا في التفاهم والاتفاق معهم ، في حين كان أبناء حسنويه وهم (أبو العلاء ، وعبد الرزاق ، وأبو النجم بدر ، وعاصم ، وأبو عدنان ، وبختيار ، وعبد الملك) - منذ وفاة أبيهم في شقاق دائم ونزاع مستمر وكان بعضهم يميل إلى الوقوف في جانب نجر الدولة ضد عضد الدولة بينما وقف البعض الآخر ضد هذا الاتجاه . وكان (بختيار) وحده يقيم دون إخوته في قلعة «سرماج» ، فنافرهم وبدأ في مخابرة (عضد الدولة) مظهرا استعداداه لتسليم القلعة له ، فانتهز عضد الدولة الفرصة الذهبية وعرف كيف

(١) أنشأها الأمير (حسنويه بن الحسين الكردي) وهى من أجل آثاره الشهيرة . (ياقوت)

يستغل هذه الفرقة بين الاخوة ، فجز جيشا ضخما وأغار به على إقليم الجبال مملكة آل حسويه وتحرك هذا الجيش ودخل همدان بسهولة ، ثم انحاز إليه الكثيرون من أمراء وقواد نجر الدولة والبرزكانية ، مما أدى أخيرا إلى تسليم (نهاوند) وقلعة (سرماج) إلى عضد الدولة الذي اغتشم من وراء هذه الفتوحات ، الاموال الطائلة والغنائم الكثيرة

وعلى أثر ذلك عرض أبناء (حسويه) على عضد الدولة عن طريق القائد (أبي النصر خواشاذه) أن يقدموا له فروض الطاعة ، وما لبثوا أن جاءوا إلى معسكر عضد الدولة بكامل هيئتهم وبعد أن قرر عضد الدولة وضعهم جميعا تحت المراقبة عاد فاعتقل كلا من عبد الرزاق ، وأبي العلاء ، وأبي عدنان وبختيار ، وعلى (١) ، وكذا بعض زعماء الاكراد .

أما (بدر) فقد استدعاه عضد الدولة وأنعم عليه بخلع سنية ، وهي سيف من ذهب ، وجواد بسرج مذهب ثم عينه أميراً على الاكراد البرزكانية ومن يجرى مجراهم ثم أنعم على كل من (عاصم) و (عبد الملك) بما يتناسب مقامهما أما الباقون من أبناء حسويه والزعماء الاكراد المعتقلين فقد عمد إلى قتلهم عن آخرهم ، وصادر أموالهم وممتلكاتهم .

ثم أرسل (أبا الوفاء طاهر بن محمد) على رأس جيش استولى به على قلعة (سرماج) ونهب كل ما للحسنويين فيها من خزائن وأموال . وكان ذلك في ذى الحجة من عام (٣٦٩) وبعد عودة عضد الدولة إلى بغداد ، شق (عاصم) ومن معه من الزعماء الاكراد عصا الطاعة على أخيه (بدر) ، فاضطر (بدر) إلى الزحف والهجوم على (عاصم) هو ومن معه من إخوته وتمكن من

(١) كذا في الاصل . ويظهر انه مقحم إذ لم يسبق له ذكر ولم يذكره

القضاء عليهم وبذلك خلاله الجو ودانت له البلاد واستطاب له حكم الكرد دون رقيب وبلا منازع .

وبعد ذلك بدأ يصلح من شئون البلاد كما أخذ في توسيع حدوده ، ولبث مخلصا لعضد الدولة وفيأله حتى مماته ، وقد اشترك في حروب ، فخر الدولة ، اشترا كما فعليا مرضاة لعضد الدولة . وقد تم الصلح بين الأمير بدر ، وبين (فخر الدولة) بعد وفاة (عضد الدولة) . فأدى هذا الصلح إلى نشوب الخلاف بين (بدر) وبين (شرف الدولة بن عضد الدولة) وبعد أن استقرت الأمور لشرف الدولة في بغداد أعد جيشا كامل العتاد والعدد وأسند قيادته إلى (قره تكين الجوهشيارى) وأمره في سنة (٥٢٧٧هـ) بالزحف للأجهاز على الأمير (بدر بن حسنويه) والتحم الجيشان على مقربة من (قرمسين = كرمشاه) وبعد قتال يسير تظاهر الأمير (بدر) بالهزيمة وأخذ يتراجع تاركا وراءه أثقاله ، فلم يفتن (قره تكين) لهذه الخدعة البارعة ، وظن أنه دحر عدوه وغلب خصمه ، وأرغل هو ورجاله في نهب معسكر الأمير (بدر) وسلبه ، وانشغلوا في اقتسام الغنائم والأموال وبيناهم كذلك وإذا بالأمير (بدر) يعود بجيشه وينقض عليهم انقضاض من الصاعقة فقتل الكثيرين منهم ، واسترد جميع الغنائم والأموال المسلوقة ، واستولى على كل ما يهتملون من عتاد وأثقال ، ولم ينج من هذه المعركة الطاحنة إلا نفر قليلون ومن بينهم (قره تكين) فقد نجوا بأعجوبة حيث أطلقوا الخيولهم العنان لا يلوون على شيء حتى وصلوا (جسر النهران) بعد يومين ، وظلوا هنالك بضعة أيام حتى تجمعت لديهم فلول جيشهم الممزق المبعثر ، ثم عادوا أدراجهم إلى بغداد عام ٣٧٧ للهجرة يجررون أذيال الهزيمة ، وفي الواقع كان هذا النصر المبين بداية موفقة بل ومقدمة لازدياد نفوذ الحكام البركانيين وآل حسنويه واستقلالهم ، إذ تمكن الأمير (بدر بن حسنويه) من استغلال هذا الانتصار الباهر استغلالا واسع المدى ، فقد نفوذه وبسط سلطانه على إقليم الجبال كله .

وفي عام (٣٧٩ هـ) سار الأمير (بدر) بأربعة آلاف من الفرسان لمساعدة فخر الدولة حين زحفه من العراق الى الأهواز للقاء عسكر بها. الدولة الزاحف عليه ، فهزم (١) .

وفي الحق ، أبدى الحكام البرزكانيون وآل حسنويه نشاطا ملحوظا. وتعقلا وروية أثناء الحروب التي دارت رحاها بين الأمراء البويهيين حيث استفادوا على حساب هذا التناحر والتناهد بين البويهيين واستغلوا هذا التدهور السياسي فأخذوا يوسعون في رقعة مملكتهم حتى أوصلوا حدودها إلى نهر (كرخا) فأصبح في حوزتهم مدينة (شابورخواست = خرم آباد) ، وكذا إقليم الجبال الذي هو بلاد كرمشاه الحالية ، وشهرزور .

كان الضعف قد خيم على الأمراء البويهيين نتيجة التناحر والقتال، وفسدت أمورهم ، واضطربت أحوال بلادهم بما كان يضطرهم إلى طلب مساعدة البرزكانيين الفنية بعد الفنية لكي يحولوا دون توسعهم ؛ في حين أن قوة الأمير (بدر) كانت في نمو وازدياد وأسهمه في ارتفاع ، مما حمل الخليفة العباسي إلى الأنعام عليه بلقب (ناصر الدين والدولة) في عام ٣٨٨ للهجرة (٢) .

والذي لاشك فيه هو أن الأمير (بدر) كان نسيج وحده ، فكان رجلا على الهمة ، عادلا مطبوعا على حب الخير ، ولم تكن شهرته قاصرة على الأمور العسكرية والحربية فحسب ، بل ترك أثارا تدل عليه في الناحية العمرانية، فمن إصلاح في شئون الإدارة إلى تقدم في ميدان الزراعة إلى نشر التعليم وازهاره .

(١) في الاصل خلاف هذا والتصحيح من ذيل التجارب (ص ١٦٩) . المترجم

(٢) في الاصل (٣٣٨ هـ) ولاشك أنه خطأ مطبعي والتصحيح من ابن

الاثير (ج - ٩ ص ٥٤) حيث قال : وفي سنة ٣٨٨ هـ عظم أمر بدر بن حسنويه وعلا شأنه ولقب من ديوان الخليفة (ناصر الدين والدولة) وكان كثير الصدقات

وكانت له أباد بيضاء على العلم وأهله . ويثنى عليه صاحب ذيل كتاب (تجارب الأمم) ثناءً عاطفاً ، ويشيد بفضله وخصاله الحميدة .

ظل (ناصر الدين بدر) معتلياً أريكة الحكم دون منازع حتى عام (٤٠٠) للهجرة والبلاد مستقلة استقلالاً تاماً ، فانقضت معظم أيام حكمه من غير حرب ولا قتال ، مما عاد على البلاد باليمن والخيرات ، وبات الناس في رغد من العيش والرفاهة ، آمنين على أنفسهم وأموالهم . غير أنه ابتداءً من هذا العام (٥٤٠) اضطرب جبل الأمن واختل زمام الأمور بسبب ثورة دبرها ابنه (هلال) ضد أبيه . وقد تعرض (ابن الأثير) لذكر هذه الحرب التي نشبت بين هلال ، وأبيه ، بدر ، حيث قال : كانت والدته هلال من قبيلة « الشاذنجان » الكردية وكان « بدر » قد جانبها بعد مولد (هلال) مجانبةً أفضت إلى عدم التفات « بدر » إلى ولده ، والعطف عليه ، ثم تفضيل ابنه الآخر « أبي عيسى » عليه . ولما كبر « هلال » وترعرع واشتد عوده خرج مع والده في بعض الأيام إلى الصيد والقنص . . . وكان من عادة « ناصر الدين بدر » إذا صادف أسداً يقتله بيده ولا يرغب عن ذلك ، وحدث ذات مرة أن « هلالاً » لم يدع الفرصة لأبيه وصال هو على الأسد فقتله ؛ إلا أن هذه الجراءة النادرة من الشاب لم تعجب الأب ! فقال له : « أظنك تعتقد أنك قد أوتيت نصراً مميّناً ! ! فما الفرق بين الأسد والكلب ؟ . وهكذا لم يخف استيائه من ولده ! وأخذ يفكر في إبعاده عنه حتى هداه تفكيره إلى أن يقطعه اقليم « الصمغان » فأرسله إليه ، وقد صادف ذلك هوى في نفس « هلال » وامتلاً سروراً لبعده عن أبيه .

ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى اختلف « هلال » مع « ابن الماضي » حاكم « شهرزور » من قبل والده « بدر » الذي كتب لابنه هلال — بمجرد أن بلغه نبأ اختلافهما — يحذره من قتال « ابن الماضي » ، غير أن « هلالاً » لم يصغ لأمر والده ، وأخذ يتحرش بابن الماضي ، فكتب « ناصر الدين بدر » مرتين إلى هلال يحذره ثانية من التعرض لابن الماضي قائلاً له : « ان كل عمل

سىء يصدر منك في حق ابن الماضي ثق أنه يعتبر موجهاً لي .

فما كان من (هلال) بعد هذا التحذير أيضا العمل على عكس ما طلب أبوه منه وعمد الى حشد جيش كبير زحف به على شهرزور ، وبعد حصار لم يدم طويلا تمكن من الاستيلاء عليها ، ولم يكتف بذلك بل قتل ابن الماضي وأبناءه وصادر أموالهم جميعا . وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (ناصر الدين بدر) حتى استشاط غضبا على (هلال) وآلى على نفسه أن يقسو عليه ، فأخذ (هلال) إزاء هذه المعاملة الجافة يدس لوالده لدى رجاله من قواد وزعماء ويستولى على ضيائهم بالرشوة والهدايا ، وهكذا ازداد نفوذ الشاب وقويت شوكرته ، وكان لسبخاته وكرمه الحائمي أكبر الأثر في علو قدره وسمو شأنه لاسيما وأن والده كان ممسكا في أغلب المناسبات التي كانت تتطلب البذل والسخاء ، مما أدى إلى انفضاض الناس من حوله .

ثم تطور الخلاف بين الأب وابنه إلى اشتعال نيران الحرب بينهما وتقابل جيشاهما على باب (الدينور) ، وكانت مفاجأة غير سارة لناصر الدين ، أن ينضم الفريق الأكبر من جيشه وهم الأكراد إلى صفوف ابنه (هلال) ثم ما لبث أن وقع هو نفسه أسيرا في قبضة ابنه ، وبما زاد الطين بلة أن بعض القواد قد ألحوا في إغراء (هلال) بضرورة قتل أبيه ، ولكن (هلال) قد أوى عليهم ذلك ، وأبدي كثيرا من النبل وكريم العاطفة نحو أبيه ، ثم تقدم إلى والده قائلاً : أنت لا زلت أميراً ، وما أنا إلا قائد جيشك !

فخادعه والده على الفور فأجابه : (حذار أن يسمع أحد هذا الكلام ، لأنه يؤدي إلى مقتلنا كلينا ! وهذه القلعة لك ، وهاك إشارة تسليمها إليك ، وكل ما فيها من الخزائن والأموال ملك لك ، تحافظ عليها ، وما دام الناس يريدونك عليهم أميراً فكن أنت أميرهم ، وأعطني قلعة آوى إليها وأمضي فيها

بقية عمرى فى العبادة وطاعة الله) وما أن سمع (هلال) ذلك من أبيه حتى سارع إلى تلبية رجائه وتنفيذ طلبته فأعطاه القلعة ، ونقده حفنة من المال (١) .

غير أن (ناصر الدين بدر) قد أثبت فيما بعد أنه كان يضمر ويبتطن لابنه (هلال) خلاف ما أظهر . وما كان فى مكنته أن يتناسى أو يزيل ما علق فى نفسه من سىء الأثر نتيجة ما ارتكبت يدا ابنه ، فما أن استقر به المقام فى القلعة حتى كتب إلى (أبى الفتح بن عناز) وإلى (أبى عيسى شاذى بن محمد) فى (أسد آباد) يستثيرهما ويحفزهما لمنازلة (هلال) . وقد زحف أبو الفتح فعلا واستولى على (قرمىسين) كما زحف أبو عيسى ونهب (سابورخواست) إلا أنه ما أن سمع بقدم (هلال) حتى غادرها وعاد أدراجه صوب (نهاوند) التى كانت فى قبضة (أبى بكر بن رافع) وهنالك أدركه (هلال) ، وانقض عليه كالصاعقة ، وقتل من الديلمة أربعمائة نفس منهم تسعون من الأمراء وألحق (ابن رافع) القبض على ضيفه أبى عيسى وأسليه إلى هلال ، ولكن هلالا قد أبى عليه نبهه إلا أن يعفو عنه ، ويصطحبه فى ركابه .

وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (ناصر الدين بدر) حتى بادر إلى طلب النجدة من الملك (بهاء الدولة) الديلمى الذى نفذ طلبته على الفور وبعث إليه بجيش يقوده (فخر الملك أبو غالب) وحينما وصل هذا الجيش إلى (سابورخواست) ، خاطب الأمير هلال

(١) ورد فى ذيل ابن مسكويه، أنه كان لأبى سعد ابن الفضل وزير مملكة الري ، يد فعالة فى النفرقة بين بدر وابنه . (المؤلف) ولا ندرى أى ذيل يقصده المؤلف ؟ فإن الذيل المطبوع ينتهى فى سنة (٣٨٩ هـ) والخلف حصل بينهما فى سنة (٤٠٠) . فليحذر .
المترجم

أبا عيسى شاذى قائلاً ؟ ها هوذا جيش بهاء الدولة قادم ! فإذا ترى ؟ فأجابه أبو عيسى : يجب أن تسارع إلى لقاء هذا الجيش وتقدم فروض الطاعة لبهاء الدولة محاولاً إغراءه بالمال ! فإذا لم تجد هذه المحاولة نفعاً ، فلا يحص إذن عن مضايقته هو ورجاله ، ثم تعيد الكرة ثانية ، لأن هذا الجيش ليس في مكنتك منازلته إذ هو غير ذلك الجيش الذى ألحقت به الهزيمة أمام الدينور ^(٢) ، مع العلم بأنه زاحف عليك كطلب والدك .

ولكن (هلالاً) قد خامره الشك وأخذته الريبة في أن هذه النصيحة بريئة ، بل تخيل إليه أنها مجرد خدعة ، فما كان منه إلا أن قتل أبا عيسى هذا . ثم عزم على الانقضاض على خصمه (فخر الملك) ليلاً وفي جنح الظلام مباغتة ، ولكن (فخر الملك) علم بما يدبره له خصمه اللدود في الخفاء فبادر على الفور إلى حشد جيشه وترك قوة صغيرة وراءه للحفاظ على العتاد والمهمات في المعسكر ثم تقدم بخطى سريعة لمنازلة العدو ، هنا . وهنا فقط استيقظ (هلال) فقد أيقن عندما وقعت عيناه على هذا الجيش الحافل ، أن نصيحة أبا عيسى بن شاذى لم تكن كما تخيل ، بل كانت بريئة وسديدة ، فعرض بنان الندم ولات حين مندم . وأرسل إلى (فخر الملك) يقول له : . . . إننى لم أحضر للحرب ، فإذا لم تحاربنى ، فأنا مستعد لتقديم فروض الطاعة ، فوافق فخر الملك على هذا العرض ، وبعث بالرسول إلى (ناصر الدين بدر) ليطلعته على جلية الأمر ، غير أن بدراً قد أساء معاملة الرسول الموفد إليه وقابله بجفاء بل طرده شر طردة ، ثم بعث هو رسولا من قبله إلى فخر الملك يقول له : . إن هذا الذى يعرضه عليك (هلال) إن هو إلا حيلة ماكرة وخدعة

(٢) هذا هو الظاهر واسكن ابن الاثير يقول باب نهاوند (ج ٩ ص ٨٠)

المترجم

بارعة ، لأنه واثق من عدم قدرته على الحرب ، فلذلك لا يجوز أن تترك له الفرصة اوعلى ضوء هذه الرسالة أيقن (فخر الملك) أن بدرا يضر لابنه عدا ما مستحكما ، فأصدر أمره بإشعال نيران الحرب . وبعد اشتعالها بقليل ألقى القبض على (هلال) وسلم لفخر الدولة ، وقد ألح هلال في رجائه كيلا يسلبه إلى والده ، فلبى (فخر الدولة) رجاءه وحققه ، ثم طلب إليه اطلاعه على الرمز الذي تسلم القلعة بوجهه ، فنفذ (هلال) طلبه وأطلعته عليه . ولكن والدة (هلال) والحامية التي كانت قائمة على حراسة القلعة رفضوا تسليم القلعة ، وطلبوا الأمان من فخر الملك فأمنهم . ثم دخل القلعة وسلمها لبدر بعد أن صادر جميع ما حوت من خزائن وأموال وعنائم لا تحصى وأكدا من الذهب والفضة والمجوهرات والملابس والأسلحة وغير ذلك . (ج ٩ ص ٧٩ ، ٨٠ من الكامل) هذا وما أن استعاد (ناصر الدين) مجده وبلاده من بين يرائ ابنه (هلال) بفضل مساعدة بهاء الدولة الجديدة ، حتى بادر باعطاء بلاد (شهرزور) إلى عميد الجيوش وزير بهاء الدولة ، ومنذ هذا التاريخ أصبح يتعاقب على حكم بلاد (شهرزور) نواب من قبل عميد الجيوش وزال سلطان البرزكانيين عليها وخرجت من حوزتهم .

أما (هلال) فقد ألقى به في غياهب السجن ولبث سجينا طيلة عهد كل من (بهاء الدولة) وخلفه (سلطان الدولة) في العراق إلى أن ظهر فجأة (طاهر بن هلال) في الميدان وتمكن من تخليص شهرزور ، وانتزاعها من يد نائب عميد الجيوش عام (٤٠٤) .

هذا وفي عام (٤٠٣ هـ) أعد ناصر الدين بدر جيشا زحف على رأسه والتي حصارا منيعا على (حسين بن مسعود الكردي) في قلعة (كوسجد) ، وكان البرد وقتذاك قارسا فلاقى رجاله الأهوال وقاسوا مرارة البرد ولكن العدو قد استمات في الدفاع عن القلعة فطالت مدة الحصار دون جدوى ولهذا تملك

اليأس رجال (بدر) فقررُوا فيما بينهم اغتيال أميرهم (ناصر الدين بدر) ،
وعلى الرغم من أن رجاله المخلصين قد أحاطوه علماً بأسرار هذه المؤامرة
فلم يعرّها أية أهمية وقال لهم : وكيف يتسنى لهؤلاء الكلاب الاقدام على عمل
كهذا ؟ ، ولكن رجاله وأنصاره قد عادوا وأذروه بأن اغتياله قد تقرر
فلم يأبه لهم وأصم أذنيه عن سماع أقوالهم .

وبينما كان يجلس ذات يوم على باب معسكره القائم على ربوة ، انقض
عليه بغمّة رجال من عشيرة (الجوزكان = الجوزقان) وأردوه قتيلاً يتخبط
في دمايته ونهبوا عسكره وتركوه وعادوا أدراجهم . ولما خرج الأمير حسين
ابن مسعود ، من القلعة ووقع نظره على الجثة الهامدة ، أمر بتجهيزها وتكفينها
ثم شيعها إلى مشهد (على رضى الله عنه) حيث دفنت به . وهكذا قضى ناصر الدين
والدولة نخبه بعد عمر طويل وحكم دام ثلاثين عاماً ، وقد تمتعت البلاد في
ظل حكمه باستقلال تام وعدالة مطلقة لا تشوبها شائبة وحسن تدبير للامور
وحزم وعزم في إدارة دفة شئونها مدة ثمانية وعشرين عاماً أي منذ وفاة
عضد الدولة عام (٣٧٢) للهجرة إلى أن أنشب الخلاف أظفاره بينه وبين ابنه
هلال عام (٤٠٠) (١) .

ويذكر لنا مؤلف ذيل تجارب الأمم - وهو الوزير أبو الشجاع - الكثير
عن صفات هذا الملك وبميزاته الفريدة النادرة ومحاسنه :

كان الملوك البزركانيون قد خصصوا خمسة آلاف دينار لمحافظة الحجاج
تصرف سنوياً لرؤساء القافلة التي تصحب الحجاج على شريطة ألا يأخذوا
شيئاً من الحجاج . كما كانوا قد خصصوا عشرين ألف دينار أخرى لتطهير

الآبار وتعمير المنازل الواقعة في طريق الحاج ، وتوزيع جزء منه على الفقراء من المهاجرين والأنصار في الحجاز . وقد ظلت هذه القاعدة متبعة ، وهذه المخصصات تبذل طيلة عهد هذا الملك ثم أوقف صرفها إثر وفاته .

سياسته المالية :

كان (بدر) يوجه كل عنايته نحو المسائل المالية وكان له بصدد آراء سديدة وتدابير صائبة وتوجيهات حكيمة جعلت خزائنه تفيض دائما بالمال ولولا استيلاء نحر الملك - كما أسلفنا - على خزائنه المكدسة وعلى أمواله الطائلة في سابور خواست ، لكانت خزائنه تحوى ما لا يحصى من أموال ونفائس . ومن مفاخره التي سجلها له التاريخ من الناحية المالية منعه الاحتكار منعاً باتاً ومجازاة كل من يقدم على ارتكابه ، ولا غرو فقد كان يعده خيانة كبرى . وكان في حالة ظهور عجز في الإيراد العام نتيجة كوارث حقيقية - لا بفعل الملتزمين لمرافق الدولة - يعرض الملتزم عن الأضرار التي لحقت به من أموال الصدقة أو يؤجل بدل الالتزام مع تقسيطه عليه ، ولهذا كان كل فرد يسارع إلى توريد ما تعهد به من المال ولا يمكنه الامتناع عن التوريد أو التكاسل في تحصيل الأموال . وكان يبذل سنويا مبلغا كبيرا من المال على الأعمال الخيرية ووجوه البر في داخلية المدن . وما كان يألو جهدا في إنشاء المعامل وإقامة المصانع وإنشاء الطرق التجارية وتمهيدها وإصلاح القائم منها . وكم بذل وأنفق عن سعة في هذا المضمار ، مما أدى إلى نهضة بلاده نهضة شاملة ، والى تقدم تجارتها تقدم محسوسا ورواجها ، وكان - من رائع تديره - إذا أراد إقامة طريق مهم على سبيل المثال ، جلب جميع ما يلزم من معدات ، وموّن ثم يفتح سوقا مؤقتة يساع فيها وبشرى كل ما في المدن من سلع ، فيؤمها العمال والصناع العاملون في إنشاء الطريق لشراء ما يحتاجونه بأثمان معتدلة تعود على الطرفين بالخير الوفير .

مميزاته الشخصية :

كان (بدر) من دهاة السياسة في زمنه ، وكان نافذا الكلمة بين بني قومه ، قوى السلطة على جيشه ، كما كان في نفس الوقت عادلا . رحما ومجبال رعيته ، وكانت له في الشئون المالية آراء سديدة ، وكان ثاقب الفكر في جمع الإيرادات وأوجه صرفها ، وكان خيرا يميل بطبعه إلى فعل الخير ، وكان صائب الرأي مدبرا ، حازما ، لا يفهم معنى التردد ولا سيما في وقت الحروب وحال الملل ، وكان حاسما وحاسما قديرا . إذ استطاع حكم العشائر البرزكانية بكل حزم وعزم ففضى على روح الفساد ، وحب الغارات والرغبة في الغزو التي كانت تسيطر على هذه العشائر ، فساد الأمن وعم الإصلاح كل المرافق ، وأقبل الشعب على تعلم القراءة والكتابة ، وتنهت الأذهان إلى الاستزادة من مناهل العلوم والفنون كما أنه أمن الزراع والفلاحين وحماهم من الأشرار والمستبدين ووقاهم شرهم كما أمكنه القضاء على تلك العادة السيئة القديمة التي كانت منتشرة بين الفلاحين ألا وهي إحراقهم يبادر بعضهم البعض .

ويؤخذ من رواية صاحب ذيل تجارب الأمم ، أن هذا الملك وقدر رأى الفساد والحزاب قد أخذوا ينشبان أظفارهما في البلاد ، صمم في دخيلة نفسه على استئصال تلك الروح الشريرة بالسياسة والكياسة ، فأولم وليمة كبرى تزخر بكافة الأصناف من مأكول ومشرب ولكنها خلت من الحزب فتوقف المدعوون وهم رؤساء العشائر عن تناول الطعام حتى تزود الموائد بالحزب وبينما هم في انتظار الحزب وإذا بناصر الدين يخاطبهم قائلا : يظهر أنكم لا يمكنكم الطعام دون الحزب ! فإذا كان الأمر كذلك فلماذا تستيحون لأنفسكم الاغارة على زرع الناس وضرعهم وتقضون على معاشهم ! سود الله وجوهكم وقبح أفعالكم !!! وأنى لأشهد الله على أنى سأهدر دم كل من تسول له نفسه من الآن فصاعدا التعدي على مزروعات الغير ، وظلم أخيه من بني الانسان .

والثابت المحقق أنه قد نفذ قسمه وبر يمينه حيث سفك دماء الكثيرين من المعتدين بغير حق ، وكان هذا عبرة لكل معتبر ودرسا قاسيا لكل مزدجر بل ولجميع العشار . حيث لم يكن أحد يجسر بعد ذلك على إلحاق الضرر بالمزروعات أو الزراع . وبذلك سادت الطمأنينة وانصرف الفلاحون إلى مزارعهم يعملون ويكدون في أمان وسلام .
وهاك أنموذجا آخر من آيات عدله :

وخرج ذات يوم بصحبة بضعة من رجال جيشه متفقدا أحوال الرعية !! فصادف أفلاحا يحمل أحطبا ، وكان فارس من فرسان الجيش قد اغتصب رغيفين من هذا الفلاح ، فلما أن أبصر (ناصر الدين بدر) صاح به قائلا : أيها الملك أنا حطاب فقير كان معي رغيفان أسد بهما رمقى ، وأستعين بثمر الحطب على إطعام أولادى وعيالى ، فاعترضنى فى الطريق فرسان جيشك وسلبنى أحدهم خبزى . فسأله ناصر الدين : أتعرف ذلك الفارس ؟ فأجاب الرجل : نعم أعرفه إذا وقع نظرى عليه !!

وعلى أثر هذه المناقشة بين الملك والحطاب ، وقف فى أحد مضائق الجبال وأمر برجال الجيش أن يمرؤا أمامه واحدا واحدا وإلى جانبه الحطاب ، ولم يمض طویل وقت على مرور الجند حتى تعرف الحطاب على الفارس المقصود وأرشد الأمير إليه ، فأمر (ناصر الدين) بالفارس فأنزل عن فرسه ، وقال له مشيرا إلى الحطب : إحمل هذا الحطب ، واذهب به إلى المدينة وبعه ، ثم اعط ثمنه لهذا الرجل الحطاب الذى سلبت رغيفه اغتصابا ، وكان هذا الفارس رجلا معروفا وذا مال وثناء ، فأراد أن يتفادى العقوبة بتقديم مبلغ من المال يزن الحطب المراد بيعه ، ولكن ناصر الدين قد رفض ملتصمه ، وحمله الحطب وأبى إلا أن ينفذ أمره وكان له ما أراد . وما كان ينبغى من وراء ذلك إلا أن يتخذ العدل مجراه ويشعر الجميع بأنه لا يراعى فى إقامة صرح

العدل كبيرا وصغيرا ، وكان لهذا أوضح الأثر في تقويم الأخلاق .

ويقال إن ملكة الري كانت عظيمة الثقة برجاحة عقل الأمير (بدر)
وحسن تدبيره وكانت لا تفتأ تستشيره في الملئات وتستعين برأيه الصائب في
تصريف شؤون الدولة .

وحدث أن أوفد الأمير (نوح بن محمود بن سبكتكين ^(١)) حاكم خراسان
رسولا إلى الملكة يتهددها ويتوعدها بل ويتحرش بها ، فما كان منها إلا أن
أسرعت بمكاتبة (ناصر الدين) تسأله رأيه ، فأجابها على الفور طالبا اليها أن توفد
إليه هذا الرسول الذي يتحرش بها وما أن وصل هذا الرسول حتى كان
(ناصر الدين) قد حشد جيشا كامل العدة والعدد لدرجة أن صفوفه قد امتدت
من باب الري إلى (سابورخوامت) ، وما أن وقع نظر الرسول على هذا
الجيش الحافل ، وما أن رأى ما عليه الملك من مظاهر القوة والمنعة والثراء
حتى اعترته الدهشة وأخذته الحيرة ، ولكن ناصر الدين قد هدأ من روعه
وأكرم وفادته واحتقق به ، ثم زوده بالنصيحة التالية : انه ينبغي للأمير نوح
ابن محمود أن يسلك مع الملكة مسلك الوئام والتفاهم ، ثم ودعه بمثل ما قبل
به من الحفاوة والتكريم .

ولما عاد الرسول وألقى بهذه النصيحة الغالية على مسامع الأمير نوح
ابن محمود وجد لديه قبولا حسنا واقتناعا بوجاهتها ، وأبدى استعدادا للصلح
وتجنب إثارة الحرب . هذا ، وكانت الخدعة الحربية التي مثلها مع (قره تكين
الجهشياري) تعد أبرع مثال يدل على مقدرته الحربية .

وما أن لحق ناصر الدين بدر ، بالرفيق الأعلى ، وانقضت أيامه حتى بدأ
الضعف ينخر في كيان الحكومة البرزكانية ، فنبت بالتهور والانحلال

(١) في ذيل التجارب ، يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين . المترجم

وساءت أمورها ، وفقدت سطوتها كحكومة منظمة ، وأضحت إمارة يحيم عليها الضعف ، ويضطرب جبل الأمن ويختل في جميع أرجائها .

ويقول ابن الاثير في (١) الكامل : حدث بعدمقتل الأمير بدر ، أن انحازت العشيبة الجوزكانية إلى جانب « شمس الدولة أبي طاهر بن فخر الدولة البويهى » ثم قام « طاهر بن هلال » حفيد « ناصر الدين بدر » مطالباً لنفسه بالملك ، ومن أجل هذا اشتبك مع شمس الدولة في حروب طاحنة . غير أن الحظ قد تنكر له ، فوقع في يد خصمه أسيراً ، ونهبت كل أمواله ، وألقي به في غياهب سجن « همدان » ، مما أدى إلى انضمام العشائر اللورية والشاذنجان إلى « أبي الشوك » أبي الفتح محمد بن عنان ، كما استولى شمس الدولة على البقية الباقية من الممتلكات البرزكانية .

وفي هذه الأثناء كان « هلال بن بدر » يعاني آلام السجن لدى « سلطان الدولة » فأطلق سراحه على أثر استيلاء شمس الدولة على البلاد ، وما أن غادر السجن حتى عمد إلى إعداد جيش ضخم حافل ، عزم على أن يسترد به ملك والده ، فتقدم على رأسه واشتبك مع شمس الدولة في عدة معارك ، ولكن هذا الجيش لم يخلص له إذ لم يكن راغباً في القتال مما أدى إلى خذلانه وقتله في ذى القعدة عام (٤٠٥) .

وفي عام (٤٠٦) للهجرة قطع « طاهر بن هلال بن بدر » على نفسه العهود والمواثيق بالولاء والطاعة لشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه ، وتم التفاهم بينهما ، وعلى أثر ذلك زوده شمس الدولة بجيش توجه على رأسه شطر البلاد البرزكانية حيث اجتمع معه طوائف ، وما لبث أن اشتبك مع « أبي الشوك »

(١) انظر ابن الاثير (٩ ص ٩٢) حيث ورد: كانت مملكة بدر ، سا بورخواست والدينور وبروجرد ونهاوند واسد اباد وقطعة من أعمال الاهواز وما بين ذلك من القلاع والولايات .
المترجم

في حرب طاحنة أسفرت عن اندحار أبي الشوك وقواته ، وقتل (سعدى) أخي
أبي الشوك في المعركة ، ورغم ذلك تم الصلح بينهما ، وتمكيننا لأواصر هذا
الصلح عقد ظاهر على أخت أبي الشوك ، « الكامل ٩ ص ٩٧ » .

ولكن أبا الشوك ظل يضم له السوء ويتحين الفرصة للأخذ بثأر أخيه
حتى تم له ما أراد بفضل مكيدة دبرها له فقضت على حياته ، وبموته دالت
دولة أسرة (حسنويه) وانقضت أيامهم ، وانقضت حكومتهم ، وخضع
شطر كبير من البلدان التي كانت في حوزتهم وخاضعة لسلطانهم ، وكذا جزء
من منطقة « شهرزور » ، لامارة « بني عناز (١) » ، الأكراد .

وكان آخر أمراء أسرة (حسنويه) هو الأمير « أبو سالم ديسم بن أبي الغنائم
أخي حسنويه الذي كان قد أقام حكومة في قلعة « كاسان » ، في منطقة (زهاو
= زهاب) على مقربة من « بابا يادكار » ، وهي آخر حصن أوى إليه ، ولكن
أيام هذا الأمير لم تعمر طويلا ، فانهارت بعد وفاة طاهر بمدة قليلة .

(١) هكذا ورد في ابن الاثير بالزاي (عناز) ويذكرها شرفنامه (عيار)
بالياء والراء في الآخر . وقد خالفهما المرحوم سعيد باشا الديار بكري في
كتابه مرآة العبر بالتركية فذكرها (عنان) بالنون في الأول والآخر . وتبعه
المؤلف كما سيأتي في مبحث الحكومة العنانية أو العنازية . المترجم

الفصل الرابع

٤ - الحكومة الشدادية « بأران (٣٤٠ - ٤٦٨ هـ)

إن التاريخ ليفتقر إلى معلومات مسهبة شافية عن (بنى شداد) الذين أسسوا حكومتهم في (أران) في عام (٣٤٠) (١) للهجرة ، تلك الحكومة التي عمرت حتى عام (٤٦٨) للهجرة حيث استولى ملكشاه السلجوقي على معظم أملاك هذه الدولة ، وضمها إلى رقعة إمبراطوريته المترامية الأطراف . . . ورغم ذلك ظل بعض أبناء تلك الأسرة الحاكمة محتفظين بالسيادة في بعض الجهات مثل (كنجة - جنزه) و (آفي) تحت الحماية السلجوقية .

فمن المرجح جدا أن تكون هذه الأسرة كردية (٢) ولقد كانت مدن نخجوان ، كنجه ، تفليس ، دميرقبو ، قره باغ - من المدن الشهيرة التي كانت داخلة في نطاق هذه الحكومة الأرانية التي كان معظم أهلها ورعاياها من (اللكز - لوكي) . وفي عام ٣٣٧ للهجرة (٩٤٨ م) حينما وقع فيه (السالار مرزبان بن محمد) حاكم أذربيجان أسيرا في مضيق الري ، انفرط عقد حكومته ونادى كل أمراء الأطراف في المدن والقلاع بالاستقلال والانفراد بالحكم

(١) كذا في الأصل . والظاهر انه تصحيف من (٣٤٠) هجرية كما في جميع المصادر الأخرى (مثل منجم باشي) و (دول اسلاميه) .
(٢) تنص اغلب المصادر على كردية هذه الأسرة مثل (الدول الاسلاميه) ل (إستنلي لين بول) و (دائرة المعارف الاسلاميه) . المترجم .

وكان من بين هؤلاء الأمراء أمير يدعى (محمد بن شداد بن كارعو) قد بادر قبل غيره من الأمراء إلى اعلان استقلاله في (ديبل) ثم ما لبث أن سطع نجمه ، وعلا شأنه حتى وازى نفوذه وضاهى ، نفوذ حاكم آذربيجان . وظل يرفل وينعم بالسطوة والسلطان ، حتى عام ٣٤٤ للهجرة (٩٥٥ م) دون منافس أو منازع . . . وبعد ذلك أخذ نفوذه يتضاءل ويضمحل كما أخذ نجمه في الأفول حتى تقلص سلطان الدولة ولم يعد يعدو في عهد ابنه منطقة (آران) .

كان يحكم (كنجة) وقتذاك أمير يدعى (فضلون) يلوح أنه كان أخا لمحمد بن شداد . وكان لمحمد بن شداد هذا ، ولد يدعى (أبو الحسن علي بن جعفر لشكري) (١) ظل يحكم البلاد ثماني سنوات ، ثم خلفه في الحكم أخوه (مرزبان) الذي لبث في الحكم سبع سنين ، (٣٦٨ - ٣٧٥) ثم قتله أخ له آخر يدعى (فضل بن محمد) أثناء الطراد والقنص ، واعتلى أريكة الحكم مكانه وقد قرب الناس اليه واكتسب محبة الجميع وحاز ثقتهم بفضل إدارته الحازمة لدقة شئون البلاد ، وعمله المتواصل لرفع مستوى البلاد ورفقها ، من نشر العلوم والمعارف إلى تنفيذ سلسلة من المشروعات العمرانية التي كان من بينها إقامة جسر كبير على نهر (الرس - آراكس) الشهير إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة النافعة . وظل هذا الأمير متربعا على أريكة الحكم ، وقابضا على زمام الأمور سبعة وأربعين عاما إلى أن توفاه الله إلى رحمته في عام ٤٤٢ للهجرة

وقد خلفه في الحكم ابنه (أبو الفتح موسى) الذي لم يلبث في الحكم سوى ثلاث سنوات ، ثم خلفه بعده على أريكة الحكم ابنه (أبو الحسن

(١) كذا . وهذا ولا شك تصحيف . فالظاهر المعقول هو ماورد في الدول الإسلامية هكذا «الشكري أبو الحسن علي بن محمد . حكم ٢٤ سنة المترجم

علي بن موسى الشهير بالشكري) الذي امتد حكمه حتى عام ٤٤٠ للهجرة. وقد أظنبت الشاعر الشهير (قطران) في مديح هذا الأمير الذي قام بحمايته في مدينة (كنجه) وجاء بعده في الحكم ابنه (نوشيروان) الذي لم يلبث في الحكم سوى ثلاثة أشهر لحق بعدها إلى الرفيق الأعلى. وتولى الحكم من بعده (أبو الأسوار شاور بن فضل) الذي تزخر الروايات وكتب التاريخ بتفاصيل مسهبة عن أيام حكمه تفوق كثيرا ما أثر وكتب عن أسلافه من الأمراء، ولقد أسهب (قطران) الشاعر صاحب كتاب (قابوسنامه) في سرد أعماله ومشروعاته وذكره كثيرا بالخير كما تحدث عنه ابن الأثير المؤرخ حيث يقول: إن أرطغرل بك حينما قدم (كنجة) بعد غزوه لتبريز (١) في عام ٤٤٦ للهجرة، تقدم إليه الأمير (أبو الأسوار) صاحب كنجة وقدم له فروض الطاعة والولاء (٢).

وفي عام (٤٥٦) للهجرة لحق (أبو الأسوار) بالرفيق الأعلى، وخلفه في الحكم ابنه (منوجهر) الشهير بالفضل الثاني. وحيث أن كتاب (قابوسنامه) الذي كتب في عام ٤٦٨ كان باسم (فضلون بن أبي الأسوار) فالظاهر أن استقلال بني شداد قد ألقى عليه الستار بوقاة فضلون هذا، وضمنت مملكة (أران) إلى الامبراطورية السلجوقية في عهد ملكشاه.

ولأنه لمن العسير بل ومن المتعذر جدا تتبع أخبار هذه الأسرة بعد ذلك. وقصارى القول، نستطيع أن نقول أن (فضلون) إن هو إلا هو إلا صاحب هذا الاسم الرسمي (الفضل الثاني منوجهر) الذي كاتب به مادحه ومحبه الشاعر (قطران) ثم انه بطل جميع الروايات والقصص والأمثال التي ضمنها

(١) وكان أميرها حينذاك الأمير منصور وهو ذان بن محمد الروادى. المترجم
(٢) قد ذكر « منجم العمران » خبر تقديم هذه الطاعة (ج ٩ ص ١٩٠) المؤلف

الشاعر كتابه الشهير (كابوسنامه - قابوسنامه) . ويظهر أن حكم هذا الأمير
البطل كان سائدا في منطقة (كنجة) و (آني) و (وتوين - دوين) . ويؤخذ
من بحوث (خانيكوف) أن (الفضل منوجهر) كان له ابنان ، وأنه كان
حاكما على (كنجه) حين استولى عليها ملكشاه في عام ٤٨١ للهجرة . كما كان
(أبو الأسوار الثاني شاور) حاكما على (آني (١)) حينما استولى عليها
الملك (داويد - داوود) في عام ٥١٨ للهجرة . وكان لأبي الأسوار هذا ولد
يدعى (محمود) وكان لمحمود هذا ولد يدعى (قاي سلطان) . وتتضمن لوحة
أثرية كشفت أخيرا في (آني) معلومات هامة عن هذا الشخص إذ وجد منقوشا
عليها عام ٤٩٥ للهجرة إلى جانب عبارة (قاي سلطان بن محمود بن شاور بن
منوجهر الشدادي) .

وعلى ضوء ما ورد في هذه اللوحة الأثرية من المعلومات يتسنى لنا ترتيب
أسماء وسنى حكام بني شداد كالتالي :

- ١ — محمد بن شداد بن كارعو (قرطق = قرطو) : تولى الحكم في كنجه سنة
٣٤٠ هجرية باسم (فضلون الأول) .
- ٢ — أبو الحسن علي بن جعفر لشكري (٣٦٠ - ٣٦٨ هجرية)
- ٣ — مرزبان ٣٦٨ هجرية .
- ٤ — الفضل بن محمد (٣٧٥ - ٤٢٢ هجرية)
- ٥ — أبو الفتح موسى بن فضل (٤٢٢ - ٤٢٥ هجرية) .
- ٦ — أبو الحسن علي بن موسى لشكري (٤٢٥ هجرية) .
- ٧ — نوشيروان بن علي بن موسى (٤٤٠ هجرية) .

(١) استولى الكرج ويقودهم (داويد الثاني) على (آني) سنة ١١٢٤ م
(٥١٨ هـ) ومنذ هذا التاريخ أضحت المدينة كرجية بحتة .
المؤلف

- ٨ - أبو الأساور شاور بن الفضل بن محمد (٤٤٠ - ٤٥٦ هجرية .)
- ٩ - الفضل منو جهر بن شاور (فضلون الثاني) في (كنجه)
- ١٠ - أبو المظفر فضلون الثالث في (كنجه) .
- ١١ - أبو الأسوار شاور بن منو جهر في (آني) .
- ١٢ - أبو الفتح جعفر بن علي بن موسى (آلان ؟ ٤٧٠ هجرية .)
- ١٣ - محمد بن شاور بن منو جهر بن شاور بن الفضل في (آني) .
- ١٤ - قاي سلطان بن محمود بن شاور (آني - ٤٩٥ هجرية .)



(٥٧٦ - ٦٦١) ...
 (٦٦١ - ٥١١) ...
 (٥١١ - ٥١٢) ...
 (٥١٢ - ٥١٣) ...
 (٥١٣ - ٥١٤) ...
 (٥١٤ - ٥١٥) ...
 (٥١٥ - ٥١٦) ...
 (٥١٦ - ٥١٧) ...
 (٥١٧ - ٥١٨) ...
 (٥١٨ - ٥١٩) ...
 (٥١٩ - ٥٢٠) ...

الفصل الخامس

٥ - « الحكومة الدوستكية والمروانية » بديار بكر (٣٥٠ - ٣٧٠ - ٤٧٦)

أ) الدوستكية

إن مؤسس هذه الحكومة هو (باز) أبو شجاع ابن دوستك . ويقول صاحب تاريخ الموصل : إن (باز) الكردي أبا عبد الله حسين هو ابن دوستك الذي كان أميراً للعشيرة الحميدية ، وكانت كنيته (أبا شجاع) في حين يرى (ابن خلدون) أن أبا عبد الله حسين هو أخوه ، وليس هو نفسه ، هذا وكان (باز) أو (باز) في أول أمره يرعى غنما ، وكان على جانب عظيم من رجاحة العقل وحرية الفكر ، تبدو عليه مخايل الفطنة وعلام الذكاء والدهاء ، كما كان كريم الطبع جوادا ، يجود بكل ماملكت يدها على الفقراء واليتامى والمساكين ، حتى ذاع أمر كرمه الحاتمي وانتشر بين الناس . وكان يقوم بين الفينة والفينة بشن غارات على بلدان الثغور حيث يعود منها محملا بالكثير الوافر من الغنائم التي كان يقسمها قسمة عادلة بين رجاله ورفاقه ، مما حجب فيه الكثيرين وأدى إلى التفافهم حوله فقوى نفوذه وعلا شأنه وأخذ نجمه يتلألأ .

وهذه الرواية - على ما اعتقد - مخلقة لا نصيب لها من الصحة ، لأن العقل لا يمكن أن يستسيغ أن سليل أمير عشيرة كبيرة يقوم برعى الغنم وقطع الطرق وهي أعمال لا يلجأ إليها إلا أفراد عصبهم الدهر بناه فأتاهم بفقير مدقع أو دفعتمهم إلى ارتكابها حاجة ملحة ، والطبع الذي يتمشى مع المنطق أن ابن سيد العشيرة لامندوحة في أن يكون أبعد الناس عن الفقر والعوز .
والحقيقة التي لا مراء فيها أن (أبا شجاع) قد قويت شوكته وأخذت

دائرة نفوذه تتسع رويدا رويدا حتى تتمكن من تعبئة جيش فرض به سلطانه على من حوله من أمراء البلدان .

وما مضى على ذلك طويل وقت حتى واصل الزحف على إقليم « أرمينية » ونجح في الاستيلاء على « أرجيش » وكانت هذه أول مدينة دانت لسلطانه ، وكما يقولون : أول الغيث قطر ثم ينهمر ، إذ كان لاستيلائه على هذه المدينة أثر واضح في تقوية الروح المعنوية بين رجاله ، فازداد بذلك قوة على قوة ، وأغرته نشوة النصر على مواصلة الزحف حتى طرق أبواب «ديار بكر» واستولى على مدينتها « آمد » ثم على مدينة «ميفارقين» وما حوالها من القرى والديساكر (١٠) .

وكان (باذ) على الهمة طموحا ، لا يألو جهدا في سبيل الرفعة والمجد والوصول إلى الذروة . ومن المحتمل — كما يقول السيد حسين المسكرياني — أنه تمشيا مع التقاليد المتوارثة المرعية وقتذاك ، قد أقدم على تكوين علاقات ودية مع عضد الدولة ، وأنه — توكلدا هذه العلاقات — قدم مساعدة جدية للجيش البويهى لكسر شوكة الأمير (أبى تغلب) الحمدانى .

وما أن استولى البويهيون على الموصل ، وما أن دخل (عضد الدولة) المدينة حتى خف (باذ أبو شجاع) للقاءه ، وأسرع لمقابلته ، ولكنه ما كاد يغادر مجلسه حتى بادر (عضد الدولة) الحاضرين وفاجأهم بقوله : إن هذا الأمير ممتلىء شجاعة ومهابة ، وإنه لمن الخطورة بمكان على الدولة أن يبقى حيا بين الأحياء ويظل على قيد الحياة ، فأصدر أمرا بإلقاء القبض عليه لولا أن (باذ) كان قد فطن إلى ما بيت له من شر وما نصب له من شباك فغادر المدينة سرا وعلى الفور ، حيث لحق بجيشه . (ذيل تجارب الأمم ج ٣٠ . ص ٨٤ — ٨٧) .
وما أن لقي عضد الدولة ربه عام ٣٧٣ للهجرة حتى استطاع (أبو شجاع)

ضم نصيبين ، إلى رقعة ممتلكاته ، فامتد سلطانه إلى أطراف الموصل ، الأمر الذي شغل بال (صمصام الدولة) وأدى إلى استيائه وإشاعة القلق في نفسه فبادر إلى إعداد حملة عسكرية بقيادة (أبي سعيد بهرام بن أردشير) وأعلن الحرب على الأمير (باذ) الذي عبأ جيشه للدفاع ، ثم تلاقى الجمعان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس ، أسفرت عن هزيمة (أبي سعد بهرام) هزيمة منكرة ، ووقع الكثيرون من قواد الجيش البويهى وزعمائه أسرى حرب .

وفي نفس العام عبأ (صمصام الدولة) جيشا عرمرما بقيادة (أبي القاسم سعد بن محمد الحاحب) وبعث به لمحاربة (أبو شجاع) واشتبك الجيشان في مكان يدعى (باجلايا) على وادى خابور الحسينية^(١) على مقربة من بلدة كواشى وأسفر القتال عن اندحار البويهيين وتمزيق صفوفهم شرمزق ، وأسر وقتل من رجالهم الكثيرون ، أما من نجا منهم وهم قليلون فقد عادوا إلى الموصل وقد تملكهم النصب وأخذ منهم الاعياء كل مأخذ لما صادفهم من صعاب وما حف بهم من متاعب .

وبعد أن بعث أبو شجاع بالأسرى إلى المؤخرة ، واصل التقدم بجيشه متعقبا ومطاردا الذين لبستهم الهزيمة من الديالمة حتى بلغ أطراف الموصل وطرق أبوابها ، فما كان من أهلها إلا أن انفجروا ثائرين في وجه حكامهم الديالمة ، لما لاقوا على أيديهم وفي أيام حكمهم من ظلم فادح وعسف بالغ وجور فاضح ، وسلموا المدينة لأبي شجاع .

وبعد أن استقر بأبي شجاع المقام في الموصل ، وبعد أن أصلح شئونها ودبر أمورها ، أخذ يعي الجيوش ويعد العدة لأنفاذ (بغداد) مركز الخلافة

من بين برائن الديلمة وتخليصها من تحت فيرهم . وما أن بلغت (صمصام الدولة) أنباء هذه الاستعدادات التي كانت قائمة على قدم وساق حتى يادر إلى حشد جيش ضخيم أسلم قيادته إلى (زيار بن شهر اكويه) أكبر القواد الديلمة ، فزحف (زيار) على رأس جيشه إلى الموصل ، فانبرى له (أبو شجاع) بجيشه والتحم الجيشان ودارت بينهما معركة دامية أسفرت عن خذلان أبي شجاع وانزاعه هزيمة شنعاء ومنى جيشه بخسائر فادحة ووقع الكثيرون من رجاله أسرى حرب ، ثم قفل راجعا إلى (ديار بكر) يجر أذيال الهزيمة . وشرع في حشد الرجال والمقاتلة . أما (زيار) فكان مهزوا بما أحرزه من نصر مؤزر ، وقد شطر جيشه إلى فريقين بعث بأحدهما تحت قيادة سعد الحاحب ، على بلدة الجزيرة ، وزحف الآخر صوب نصيبين ، والذي بيعت على الدهش أن كليهما قد شق عليه عصا الطاعة ، وما نفذ له ما أمرهما به ، بل عرفا عن قتال ، أبي شجاع ، وتفاديا الاصطدام به .

وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (صمصام الدولة) حتى دخل على الفور في مفاوضات مع (سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان) وتم الاتفاق بينهما على أن يزحف (سعد الدولة) بجيش يستأصل به شأفة (أبي شجاع) وتعطى له (ديار بكر) نظير قيامه بهذه المهمة . ولكن قد جانب النصر جيش سعد الدولة ، فباء بفشل ذريع ، وعاد أدراجه إلى حلب يجر ذيل الفشل . ولما علم (سعد الدولة) بنياً هذا الاخفاق حتى صمم على التخلص من (أبي شجاع) بسفك دمه ، وأوفد من يقوم على تنفيذ هذه المكيدة ، وتمكن الموفد من اقتحام معسكر (أبي شجاع) واندس بين جنوده ، وفي ليلة حالكة السواد وتحت جنح الظلام تسرب خفية إلى فسطاط (باز) — الذي كان راقدا في فراشه — وطعنه بسيفه طعنة لم تكن القاضية وإن كانت قد سببت له بعض جراح ثخينة ، ثم ولى النذل الغادر أدباره .

وبعد ربح من الزمن اندمكت هذه الجراح وعوفي من آثارها ، وسرعان
مادخل في مفاوضات مع (زيار) و (سعد) وعقد بينهم صلح اشترط فيه أن
يبقى (باذ) حاكما على (ديار بكر) كلها ونصف منطقة (طور عابدين) الجبلية ،
ثم عاد (زيار) على أثر ذلك إلى بغداد ، تاركاً شطرا من جيشه في الموصل (١) ،
بقيادة سعد الحاجب . وفي عام ٣٧٧ هـ (٩٨٨ م) ، حشد (باذ) جيشا كبيرا
زحف به على الموصل ، - وكان (شرف الدولة) ملك بغداد قد أقام ، أبانصر
خواشاده ، حاكما عليها ، خلفا لسعد الحاجب الذي كان قد توفي ، ، وما كاد
(أبو نصر) يحط رحاله في الموصل ويقف على حقيقة ما عليه جيش ، باذ ،
من قوة و سطوة وبسالة ، حتى بادر إلى طلب النجدة من شرف الدولة ، ، ولكن
وباذ لم يعط له فرصة ، بل أخذه على غرة ، وضيق عليه الخناق بما اضطره إلى
طلب معونة عاجلة من لدن عرب قبيلتي ، بني عقيل ، و ، بني نمير ، ، اللتين
شارك الكثيرون من رجالهما وفرسانهما - الديلمة القتال . ، فاندبرى لهم
، أبو شجاع ، بقوة مختارة من صفوة رجاله تحت قيادة أخيه الذي لقي حتفه
صريعا في هذه المعركة وحقا بقوته فشل ذريع وخسران مبین . (راجع
ابن الأثير - المترجم) وفي (٣٧٩ هـ) وفداثنان من أبناء ناصر الدولة بن حمدان

- (١) لم يتعرض تاريخ الموصل لبحث مساعدة سعد الدولة ، ويقول إن
فدائيا كان قد ارسل من قبل (زيار) لاغتيال (باذ) . المؤلف
- (٢) يذكر كتاب تجارب الأمم (ج - ٣ ص ١٤٥) ان (باذ) قد دبر حيلة
بارعة في هذه الموقعة قد بهرت الأعين وبعثت الرهبة في المحيطين به ، وهي
انه كان يضع البقر على رؤوس الجبال وبينها رجال بيدهم سيوف تبرق وحراب
تتلاها فإذا شوهدوا عن بعد ظنوا رجالا فلا يتجاسر الجنود على السمود
إليهم .. ولكن حدث ان نزل اخ لباذ وقاتل قوما من العرب فقتل وبلغ قتله
من باذ كل مبلغ الخ (المؤلف)

من بغداد وهما (ابو طاهر ابراهيم) و (ابو عبدالله الحسين) واستطاعا تعبئة جيش من بين عرب بني عقيل وبنى نمير استعدادا للزحف به على الموصل ولكنها لم يتجاسرا على تنفيذ خطة الزحف هذه ، ولجئا إلى محمد بن المسيب ، أمير بني عقيل ، وكان أهل الموصل قد عقدوا — وقتذاك — اتفاقا سريا مع أبي طاهر ابراهيم الحمداني ، في حين نص في الاتفاق الذي تم بين « ابن المسيب » ، و « أبناء الحمداني » ، على أن تكون الموصل وأطرافها للحمداني ، ومدينتا نصيبين ، و « الجزيرة » ، لابن المسيب . بعد ذلك زحف جيش الحمدانيين من الشرق ، وعرب بني عقيل من الغرب على أن يطبقا سويا وفي وقت واحد على « الموصل » التي كانت نيران ثورة قام بها الأهلون مشتعلة بين جنباها — فسارع جيش « باذ » ، للقاء الحمدانيين الزاحفين من الشرق فالتقى الجمعان ودارت بينهما معركة دامية سفك فيها دماء الكثيرين ، ثم تقدم جيشه وتصدى للزاحفين من الغرب وبينما هو وجيشه مستميتان في القتال ومطاردة العدو ، وإذا بأهل الموصل يعمدون إلى فتح أبواب المدينة على مصاريعها لحنود ابن المسيب ، ويطعنون الجيش الكردي من الخلف طعنة قاصمة ، فانعكس تيار المعركة ، وتحطمت الروح المعنوية بين رجال « باذ » ، وجرح هو نفسه جرحا بليغا ثم مال بث أن فاضت روحه وصعدت إلى بارئها في اليوم الثاني من شهر جماد الثاني عام (٣٨٠) للهجرة متأثرا بجراحه ، وبموته أضحى جيشه أعزل دون قائد فعاد الفهقري إلى « ديار بكر » ، يجرر أذيال الهزيمة (١) .

(١) يذكر صاحب كتاب الكامل (ج - ٩ ص ٢٦) سنة ٣٨٠ وكذا (ذيل تجارب الأمم) حوادث هذه الواقعة الأخيرة على منوال آخر وهناك ملخصها :- كانت الموصل قد وقعت في أيدي الحمدانيين ، وأراد (باذ) أن ينتهز هذه الفرصة ويستولي عليها فحشد جيشا عرمرما من الأكراد ، وكان يشد أزره =

في مهمته هذا الأكراد البشوية أصحاب قلعة (فلك) وكانوا كثيرا . ففي ذلك يقول
الحسين البشوي الشاعر لبني مروان ويعتمد عليهم بنجدتهم خالهم باذا من قصيدة
البشوية أنصار لدولتكم وليس في ذاخفا في المعجم والعرب
أنصار (باذ) بأرجيش وشيعته بظاهر الموصل الحدباء في العطب
يا جلايا جلونا عنه غمغمة ونحن في الروع جلاؤن في الكرب
فتوجه باذ بهذا الجيش الضخم تجاه الموصل من الجهة الشرقية ، فانبرى له فريق
من جيش الحمدانيين و(أبي الذواد محمد بن المسيب) بداخل المدينة بعد أن
عبروا دجلة ، بينما زحف الفريق الآخر وقوامه (٢٠٠٠) من فرسان من عرب
بني عقيل واجتازوا النهر أيضا من شمال المدينة لمناهضة العدو والاجهاز عليه
ولما علم (ابو شجاع) بهذه الأنباء أراد أن يحسن موقفه الحربي ويقترب من
الجبال ولكن الوقت لم يسعفه ، فاضطر ان يطلق لجواده العنان فكبا
الجواد وسقط ابو شجاع على الارض طريحا يتقاطر الدم من جرح بليغ قد
أصابه ، وتقدم إليه ابن اخته (ابو علي الحسن بن مروان) وطلب إليه ان يمتطي
صهوة جواده ويلحق بالجيش ، فرفض وقال له : اذهبوا انتم ودعوني وحالي
فأني قد انتهيت ، فاضطر (ابو علي) ان يتركه مرغما واعنصم مع خمسمائة من
رجال الجيش بالجبال .

بعد ذلك عثر رجل من بني عقيل على (باذ) ملقى على الارض بين القتلى
والجرحى ولم يكن قد فارق الحياة فقطع رقبته وقضى عليه وحمل رأسه إلى
الحمدانيين الذين لم يكتفوا برقبته بل قطعوا يديه وبتروا رجله وجاؤا
بها إلى بغداد وعلقوا ما تبقى من الجثة على باب الامارة في الموصل .

وقد استثار هذا العمل الشنيع اهل الموصل واثار مكائهم فضجوا بالشكوى
وابدوا عظيم استيائهم من هذا الظلم الصارخ والوحشية المتناهية قائلين : كيف
يجوز ارتكاب مثل هذه الأعمال مع من له الايادي البيض في الدفاع والدود
عن الاسلام والجهاد في سبيله ، ثم عمدوا إلى جثته المعلقة فأخذوها واحتفلوا
بدفنها احتفالا يليق بما لها من تجلة وإكرام وهذا دليل ساطع على ما كان
يكنه الشعب من محبة وتقدير لصاحب الجثة .

ب - « الحكومة المروانية »

ان « أبا علي حسن » الذي هو ابن مروان بن دوستك كما في الجزء الثاني من وفيات الأعيان ، قد تخلى عن عمه ^(١) (باذ أبي شجاع) حين جاءه نبأ إصابة خاله (كذا) واندحار جيشه في المعركة ، ويم شطر وحصن كيف ، القلعة المنيعة على ضفاف دجلة معتصما بها ومستهدفا بسطرا مطاونه على البلاد من غير إثارة فتنة . وكانت زوج عمه الديلمية تقيم في هذه القلعة ، فالتبس بمقابلتها بحجة أنه يحمل من لدن عمه بعض وصايا يريد الأفضاء بها إليها ، فصدقت زعمه وسمحت له بمقابلتها ، وأمرت بأن تفتح له أبواب القلعة على مصاريحها ، فلما مثل بين يديها ، أسر لها بحقيقة أمره وألقى على سمعها بما دبره في نفسه ، فلما وجد قلبها قد تفتح أمامه كاشفها برغبته في الزواج بها فقبلت عرضه راضية مرضية ، وهكذا ضمن الاستيلاء على القلعة دون سفك دماء وبغير قتال .

ولكن مطامعه ما كانت لتقف به عند هذا الحد ، بل أخذ يجند الجند ويعد العدة ويجمع شتات جيش عمه حتى عبا قوة خارقة يخشى بأسها ويحسب حسابها وقد بعثت فيه هذه القوة روحا وثابة ، فأخذ بها يناضل ويكافح حتى أسس الدولة الدستكية من جديد وانعقد له لواء زعامتها . وعلى أثر ذلك سارع زعماء

(١) اختلفت المصادر في هل (باذ) خال (أبي علي) فقط ، كما هو المتبادر من الشائع في ابن مسكويه وابن الأثير . أم أنه عمه أيضا ، كما يؤخذ من مصادر أخرى ، بدليل كون اسم والد (باذ) هو دوستك واسم والد (مروان) والد (أبي علي) أيضا (دوستك) وغاية ما هنالك يجب فرض أن باذ ومروان كانا أخوين لأب وأن مروان تزوج بأخت باذ من أم فاولدأبا علي الحسن الذي صار (باذ) خاله وعمه في آن واحد . وبهذا زال الخلاف بين المصادر وصارت تسمية هذه الدولة كلها دوستكية أصح من التسمية بالدوستكية والمروانية . المترجم

کردستان وقدموا له فروض الطاعة دون قتال ، فازداد بذلك قوة على قوة ، واضحى واسع النفوذ ، عريض السلطان .

وحدث أن رغب أبو طاهر وأبو عبد الله الحمدانيان - بعد أن تم لهما الاستيلاء على الموصل - في مد سلطانهما على ما تبقى من البلدان التي كانت تدين بالخضوع للحكومة الدوستكية فعبثا جيشا كبيرا زحف به - ومعهما رأس و باذ - صوب ديار بكر ، ظانين أن البلاد خاوية على عروشها تفتقر إلى من يدفع عنها غائلة العدو أو يرد عنها كيد الكائدين ، ولكن ثبت قصر نظرهما ، بل طاش سهمهما وخاب ظنهما ، لأن (أبا علي) كان قد جمع شتاته ، وسما مركزه وعلا ، فتمكن من إعداد قوة حربية ضخمة ومنظمة يضاف إلى ذلك انفجار الأهالي ثائرين على مظالم الحمدانيين ، وسوء إدارتهم وتعسفهم ، مما قوى ساعد (أبي علي) وحفزه على العمل ... فزحف بجيشه والتحم مع جيش الحمدانيين في معركة دامية أريقت فيها دماء الكثيرين من الحمدانيين وسقطوا صرعى يتخبطون في دمائهم وانعقد لواء النصر ، لأبي علي ، ووقع « أبو عبد الله » الحمداني في يده أسيرا ولكنه أحسن له المعاملة ، ولم ينظر إليه كأسير حرب وما جعله يحس ذل الإسار بل بالغ في إكرامه ثم ما لبث أن أطلق سراحه ، فتوجه على الفور للقاء أخيه « طاهر الحمداني » الذي كان قائما على حصار قلعة آمد (ديار بكر) وقتذاك ، فأنبأه بما حدث له وأظهره على جليلة الأمر ، ونصح له أن يعقد صلحا مع الروانيين وأن يكف عن الاشتباك بهم ، وألا يلج في خصامهم . . . ولكن أبا طاهر لم يعره آذانا صاغية بل أبدى تصميمه على مواصلة القتال ، واستطاع حشد قوة هائلة من أبناء عرب بني عقيل وبني نمير ، كما اضطر أبو عبد الله مرغما أن يقف إلى جانب أخيه ويمد له يد المعونة رغم أنه لم يطع له أمرا وما قبل له نصيحة . وفي اليوم الحادي عشر من صفر من عام ٣٨١ للهجرة سار (أبو علي) على رأس جيشه الضخم لمنازلة خصومه الحمدانيين ودارت بين الجيشين رحى

معركة حامية الوطيس انعقد فيها لواء النصر لجيش أبي علي ، وباء الحمدانيون
بفشل ذريع وخسران مبین ، ووقع أبو عبد الله - لسوء الحظ - أسيرا للمرة
الثانية ولكنه عومل في أسره هذه المرة معاملة كلها قسوة وغلظة ، وعوقب
عقابا صارما جزاء ما قدمت يداه ، وزج به في أعماق السجون في (آمد =
ديار بكر) حيث انه لم يرح ضميرا ولا ذمة ، ولم يحفظ عهدا ، وأبي إلا الغدر
والسكران جزاء ما لقي من عفو وإحسان .

ولما اشتدت الحصارمة بين الروانين والحمدانيين واستطال بينهما القتال
رأى خليفة مصر أن يبذل وساطته بينهما لحسم النزاع وحقنا للدماء ، فأوفد
من قبله جماعة من العلماء يطلبون إلى (أبي علي) الأفراج عن أبي عبد الله ،
ففند طلبتهم وحقق رجاءهم ، وقبل الأفراج عنه وفك إيساره على شريطة أن
يقادر على الفور أراضى السكرد والعراق ، فقتله العسااء واصطحبوه معهم
إلى حلب (١) .

أما (أبو طاهر) الحمداني فقد يم شطر نصيبين بعد اندحاره وفشله الذريع
وهناك رآه صديقه القديم (أبو الذواد محمد بن المسيب) أمير بني عقيل ورأى
ما آل إليه أمره من ضعف وخذلان ، وما منى به الحمدانيون من سوء المآل ،
فاغتتم هذه الفرصة الذهبية ، فانقض عليه وعلى ابنه (علي) وعلى (المزعفر) (٢)
أمير بني نمير واغتالهم جميعا ، وبذلك قضى على حلفائه بالأمس . . . ثم خلا
له الجو فزحف على الموصل واحتلها ثم كتب إلى (بهاء الدولة) سلطان بغداد
طالباً إليه تعيين حاكم على الموصل ، فعين عليها (أبا الحسن عبد الله) وكان
هذا الحاكم مسلوب السلطة ، مشلول النفوذ في كل ناحية اللهم إلا جمع

(١) هكذا في الأصل . والصحيح كما في (ابن الأثير) مضى إلى مصر ومنها
تقلد ولاية حلب واقام في تلك الديار إلى ان توفي . (٢) وكذا في ابن
الأثير . ولكن في ذيل تجارب الأمم - والزعفر أمير بني نمير (المترجم)

الضرائب وجباية الأموال ، حيث كان (ابن المسيب) قابضا على زمام الأمور ومهيمننا على كافة الشؤون .

هذا وكان الملك (أبو علي) كريم الأخلاق سمحها وقد اشتهر بين الناس بالبشاشة واللطف وإقامة العدل بينهم بالقسطاس المستقيم ، فأحبه الرعية ؛ ومنحته ثقتها وأحاطت به إحاطة السوار بالمعصم . ما عدا أهالي (ميفارقين) الذين انفجروا ثأرين في وجهه وشقوا عليه وعلى رجاله عصا الطاعة ، فأطبق عليهم بحيشه صبيحة يوم العيد ، وكانوا مجتمعين خارج المدينة في (المصلى) فانتزح فرصة خلو المدينة منهم واقتحمها من أحد أبوابها بينما كان (أبو الصقر) أحد قواده قد اقتحم المدينة من الداخل ٥٠ (الكامل ج — ٩ ص ٢٧)

وتقول دائرة المعارف الإسلامية ان (أبا علي) قد بسط حكمه ومد سلطانه حتى بلاد (أخلاط) و (ملازكرد) و (أرجيش) وحتى المناطق الضاربة في الشمال الشرقي لبحيرة (وان) ، كما امتد هذا السلطان غربا في وقت ما ، حتى (الرها) التي انتزعها في عام ٣٨١ للهجرة من بين برائن (باسيلي الثاني) امبراطور الروم أثناء حروبه في بلاد الشام ، وظلت هذه المدينة خاضعة لحكمه ردحا من الزمن .

وفي عام ٣٨٧ (١) للهجرة عقد قران الملك أبي علي حسن علي ابنة سعد الدولة ابن سيف الدولة الحمداني حاكم حلب وكانت تدعى (ست الناس) وسار موكب زفافها من « حلب » إلى « ديار بكر » حيث تقام الأفراح والحفلات ، فأوجس أهالي « ديار بكر » خيفة من وراء هذه الزيجة ، وخشى زعيمهم « عبد البر » طغيان المروانيين على نفوذه إذ ربما يفعلون بها مثلما فعلوا في ميفارقين فعهد

(١) ذكر (ابن الأثير) هذا البحث ، ضمن وقائع عام ٣٨٠ في حين تذكره (دائرة المعارف الإسلامية) ضمن وقائع عام ٣٨٧ وتجعل وقاته أيضا في حوادث هذا العام . (المؤلف)

إلى تدير مكيذة لاغتياال الملك المرواني حالما تطأ قدماه المدينة ، وعهد بذلك إلى شريب يدعى « ابن دمنة » ، الذي أودى بحياة الملك ، فساد الهرج والمرج (١) وأخذت جموع غفيرة من أتباع الملك والمرافقين له يتدفقون كالسيل الجارف شطر (ميافارقين) ، وكان بعض من دبروا هذه المؤامرة يبتغون من ورائها الوصول إلى الحكم واعتلاء الملك ، لولا أن محافظ المدينة قد فطن لما يضررون في أنفسهم فأفسد عليهم تديرهم ، فقد اتصل بالمستوليين من رجال الدولة ، فقالوا له : إن كان الملك لا زال على قيد الحياة فليصعد إلى القلعة وإن كان قد لحق بالرفيق الأعلى فليخلفه من هو أحق بالملك وهو أخوه « ممد الدولة أبو منصور » الذي وصل إلى مقر الحكم على عجل ، واعتلى عرش أخيه

« أبو سعيد المنصور ممد الدولة »

كان أبو سعيد المنصور قد عاد إلى ميافارقين بعد وفاة الشاه « باذ » وظل حاكما عليها حتى لحق « أبو علي » بالرفيق الأعلى : وعلى أثر اغتيال « أبي علي الحسن » بميافارقين سارع إليها حيث نودي به ملكا على المملكة المروانية ... ويرى (أبو الفداء) أن حكمه قد امتد إلى عام ٤٠٣ للهجرة . وعلى كل فنحن نفتقر إلى معارمات شافية عن عهد هذا الملك ، اللهم إذا استثنينا ما أسعفنا به « الكامل » ، من تلف مبعثرة وموجزة عن آخر سنة من عهده . وكيف دالت دولته وتقوض عرشه إذ يقول :

(١) جاء في الكامل أن (عبد البر) هذا - بعد ارتكاب هذه الجناية الشنيعة - عقد قران ابن دمنة على ابنته مكافأة له على ما ارتكبه من جرم ، غير أن هذا الصهر القاتل قد عهد بعد مدة إلى نسيبه المنحوس الذي كان يعمل ليله ونهاره للوصول إلى الحكم فاغتاله ، وصقاله الجو ودحا من الزمن في (ديار بكر) حيث بنى بها لنفسه قصرا ، وحسن علاقته مع (ممد الدولة) وسائر الحكومات المجاورة ، ودام حكمه فيها حتى عهد نصر الدولة . المؤلف

و كانت النقود تسك باسم أبي منصور محمد الدولة ، وتلقى الخطب على المنابر باسمه ، وكان له صديق يدعى شروده بن مامه ، حاكم البلدة . وكان لهذا الصديق غلام يتولى منصب رئيس الشرطة ، وكان محمد الدولة يفر منه ويزدر به وهو غير راغب في بقاءه بل كان يسعى جاهدا لاغتيااله ، لولا أنه عاد فعدل عن سفك دمه إرضاء لسيدته ومراعاة لحاظه . ولكن الغلام كان قد فطن لما دبر له ، وتبين ما يمكنه الملك له من السخط والازدراء فأخذ يسعى ويبذر بذور الفساد بين الملك وسيدته حتى عكر صفو العلاقات بينهما وأزال ما بينهما من ود وصفاء ، وظل يوغر صدر سيده ويستثير مكانته ضد الملك حتى صمم سيده على التخلص من الملك وكان أن أقام وليمة في قلعة (هتاغ = أتاق (١) ، للملك أبي منصور ، وكانت هذه القلعة ضمن اقطاعاته .

وما كاد الملك أبو منصور تطأ قدماه أرض القلعة حتى فوجيء بجنود من الكرج من حامية القلعة ينطلقون من مكنتهم ويقتالونه في عام (٤٠٢) للهجرة وما أن تأكد (شروده) من نجاح مؤامراته الاجرامية حتى غادر القلعة على الفور ميمما شطر ابناء عم (محمد الدولة) وألقى القبض عليهم مدعيا بأن هذا الاجراء تنفيذ لأمر (محمد الدولة) ثم توجه إلى (ميافارقين) وتقدم نحو أبوابها حسب الأصول المرعية والمتبعة في المواكب الملكية ويده المشاعل بما أدخل في روع حفاظ الأمن وحراس المدينة أن الملك قادم من رحلته ويقصد الصعود إلى القلعة ، ففتحت أمامه موكبة الأبواب على مصاريعها ودخلها آمنة مطمئنا . ولما دانت له الأمور على هذه الصورة وتوطد مركزه كتب إلى

(١) هي قلعة الهتاخ التي يطلق عليها الآن (ايجه) بولاية (ديار بكر) كما نص على ذلك المرحوم سعيد باشا الديار بكرى في كتابه مرآة العبر . باللغة التركية . المترجم .

محافظة القلاع الأخرى يدعوهم إلى طاعته ، وأوفد رجلا من رجاله إلى قلعة « أرزن = غرزان الحالية » طالبا إلى محافظها الأستاذ أبي القاسم المبادرة بالتسليم إلا أن أبا القاسم قد رفض التسليم بآباء وشتم فنهض متوجها إلى (ميافارقين) . وما أن بلغ به المسير منتصف الطريق حتى علم بخبر مقتل ممد الدولة فعدل عن مواصلة السير ، وعاد أدراجه إلى (أرزن) حيث بعث على جناح السرعة بمن ينبي . (أبا النصر بن مروان) أخا ممد الدولة وحاكم قلعة (سعرد) بالخبر وكان أبو النصر هذا مبعدا بأمر أخيه لأنه كان يكن له البغضاء ولا يوده (١) .

« الملك العادل نصر الدولة أحمد »

امتد حكم هذا الملك من عام ٤٠٢ حتى عام (٤٥٣) للهجرة . . . وقد اتفق المؤرخون على أنه كان ملكا يتحدث بعظمته الركبان وتضرب بعدله وحزمه الأمثال ، وبالاختصار فقد كان ، لا ككل ملوك بني مروان بل كان أشهرهم بل ونسبح وحده بينهم ، ولا غرو فقد اشتهر بلقب العادل .

يقول ابن الأثير^(٢) : إن الخواجة (الأستاذ) أبا القاسم حاكم (أرزن) حينما أرسل إلى الأمير (أحمد) يعرض عليه الأمر فسأله كاتبه عما إذا كان في مكنته القيام بأعباء هذا المركز الخطير فأجاب الأمير بالإيجاب أي بنعم !! وحينذاك كان (شروه) قد جرد حملة على الأمير (أحمد) ، ولكن قبل أن تطرق هذه الحملة أبواب (سعرد) كان الأمير (أحمد) قد غادر إلى (أرزن) ، وهناك علم (شروه) أن الموقف جد خطير .

(١) يقول الكامل (ج ٩ - ص - ٢٨) ان سبب الجفاء بين الأخوين هو أن ممد الدولة رأى في المنام أنه يحترق الشمس وأن أخاه أبا النصر قد هاجمه وانتزعها منه .

المؤلف

المترجم

(٢) أنظر ٥ في (ص ٢٨ ج - ٩) الطبعة المصرية

وتصادف وقتذاك أيضا أن (مروان) والد (محمد الدولة) كان مع امرأته في (أرزن) وكانا جاثمين أمام قبر (أبي علي) ، فجاء الخواجة أبو القاسم بأبي النصر أحمد إليهما وطلب إليه على مرأى ومسمع من قاضي (أرزن) وآخرين : أن يقسم يمينا بالله العظيم بأنه سيحكم البلاد متوخيا العدل والقسطاس المستقيم ، وعلى أثر تأديته اليمين سلمت إليه مفاتيح قلعة (أرزن) . ثم تلا ذلك خضوع سائر البلدان والقلاع المروانية بديار بكر الواحدة تلو الأخرى وبعد أن دانت الأمور للملك ناصر الدولة داخل الحدود المروانية واستقرت له الأحوال وتوطد سلطانه وعم البلاد موجة من الرخاء وانتشر العدل بين أرجائها^(١) ، سعى إلى تقوية أواصر الروابط وتوثيق العلاقات مع البلدان المجاورة فأوفد عام (٤١٠) للهجرة الرسل والسفراء إلى القسطنطينية وبغداد ومصر .

ثم نادى يابنه الأمير (سليمان) وليا لعهد المملكة المروانية وعينه حاكما على جزيرة بوهتان (جزيرة ابن عمر) واختار مدينة (ميفارقين = سليوان) حاضرة لدولته ، وقد استن سنة حميدة ليشرّف بنفسه على شئون رعاياه وهي زيارة المدن بين الفينة والفينة لهذا الغرض ، وكان يقضى في (ديار بكر) قرابة شهر كلما زارها ، كما أنه لم ييخل بزيارته الملكية على مدينتي (وان) و (أرجيش) وبقية مدن كردستان الأخرى .

(١) إلى أن قال ابن الأثير ، فدامت أيامه وأحسن السيرة وكان مقصداً للعلماء من سائر الآفاق وكثروا ببلادهم . ومن قصده أبو عبد الله الكازروني وعنه انتشر مذهب الشافعي بديار بكر وقصده الشعراء وأكثروا مدحه وأجزل جوائزهم وبقي كذلك من سنة ٤٠٢ هـ إلى سنة ٤٥٠ هـ فتوفي فيها وكان عمره نيفا وثمانين سنة وكانت الثغور معه آمنة وسيرته في رعيته أحسن سيرة . فلما مات ملك بلاده ، ولده ٥١ هـ

المترجم

ولما سمع الخليفة العباسي القادر بالله ، نبأ هذا الملك الذي نشر لواء العدل بين رعيته وساس أمور دولته بحزم وعزم ، أكبر فيه هذه الصفات الفريدة وأنعم عليه بلقب (نصر الدولة) في عام ٤٠٨ للهجرة .

ولكن هذه العلاقات التي قامت على الود والإكبار بين الخليفة العباسي والملك المرواني ما لبثت أن ساءت وتعكر صفوها بسبب التجاء أبي القاسم المغربي إلى الملك (نصر الدولة) عام ٤١٥ للهجرة ووزراته له ، وظلت العلاقات بينهما متوترة حتى لقي أبو القاسم ربه عام ٤١٨ للهجرة عن عمر يناهز ستا وأربعين بمدينة (ميفارقين) ، حيث عادت بينهما المياه إلى مجاريها ، فاستؤنفت العلاقات الودية وساد بينهما الصفاء والوئام ^(١) .

واستولى (نصر الدولة) على مدينة الرها ، عام (٤١٦) للهجرة ، وكان حاكم هذه المدينة وهو شيخ من نمير يدعى (عطير) وفيه شر وجمل وقد وكل شئون إدارتها إلى نائب عنه يدعى (أحمد بن محمد) فأحسن السيرة وبسط العدل بين ربوعها ، ولكن حدث أن قتل الشيخ (عطير) نائبه هذا بحجة سوء سيرته ، فاستاء الأهالي وأعلنوا سحقهم على الشيخ لا تدمامه على ارتكاب هذا الجرم الشنيع ، واتصلوا سرا بالملك (نصر الدولة) طالبين إليه تعيين حاكم للمدينة من قبله ليحكمها باسمه ، فلبى الملك نداءهم ، وبعث إليهم برجل من رجاله - كان نائبا عنه في (ديار بكر) - يدعى (زنك) . وما أن وصل هذا الحاكم الجديد إلى الرها حتى تسلم مقاليد أمورها باسم الملك .

ولكن الشيخ (عطير) النميري ما كان لينام بل جفونه مستسلما لمشية أهل المدينة ، بل سارع إلى تقديم ملتزم إلى نصر الدولة بوساطة الصالح ابن مرداس ، فقبل ناصر الدولة ملتزمه وأعاد إليه نصف مقاطعة (الرها)

(١) من الكامل لابن الأثير ج - ٩ ص ١٣٥ و ١٣٥ . المترجم

فسر الشيخ ويهم شطر ، ميفارقين ، لتأدية واجب الشكر للملك وزيارته ،
وهناك أشار الوزراء على الملك بضرورة المبادرة بقتله والخلاص منه ،
ولكن الملك رفض الاستجابة لمشورتهم وعزف عن اغتياله ، فقال أتق
شره بالوفاء لا بالغدر ، فعاد الشيخ إلى الرها ، وعين فيها وكيلاً عنه ، وحدث
أن أولم ، زنك ، ولحمة دعاه إليها ، وفي طريق عودته من الوليمة ، تصدى له
ابن الوكيل السابق المقتول « أحمد بن محمد » وقتله ، مما أدى إلى نشوب حرب
بين بني نمير للائخذ بالتأر ، واضطرار « زنك » وكيل ناصر الدولة إلى الزحف
بجيشه والاشتباك معهم في معركة دامية لقي فيها « زنك » حتفه في أوائل سنة (٤١٨)
ومزقت صفوف قوته شر ممزق . وهكذا فقدت قلعة الرها وانقرض حكم
المروانيين فيها إذ عدل نصر الدولة نهائياً عن استردادها استجابة لرغبة وشفاعة
صالح بن مرداس (١) .

وفي عام (٤١٩) للهجرة زحف « بدران بن مقلد » العقيلي على رأس جيش
ضخم كامل العتاد للاستيلاء على « نصيبين » فأنبرت له حاميتها من جنود
« نصر الدولة » ورغم أنها أبليت بلاءاً حسناً واستماتت في الدفاع عن المدينة
لكنها لم تستطع الصمود أمام جحافل جيش العدو المغير وسرعان ما حاق
بها فشل ذريع ، فبعث (نصر الدولة) بمدد جديد ولكن دون جدوى إذ كانت
الغلبة لقوات « بدران » الحاشدة ، ولما علم « نصر الدولة » بنباء اندحار المدد
الجديد تملكه الغضب وبعث للمرة الثالثة بنجدة هائلة قوامها ثلاثة آلاف من
الفرسان انضمت إلى صفوف المدافعين عن المدينة وقام الجميع بشن هجوم
عنيف مضاد على قوات « بدران » حتى أخذت تتضاءل وتنكمش أمامهم

(١) - تقول (دائرة المعارف الإسلامية) على خلاف (ابن الاثير) في
الكامل ص ١٣٠ : ان ناصر الدولة استولى على الرها من البيزنطيين . المؤلف

وأخيرا ألحقوا بها هزيمة منكرة وأخذوا يتعقبون فلولها ويطاردونهم حتى أبعدهم وبذلك حازوا نصرا مينا وأنقذوا القلعة بعد أن كان وقوعها قد أضحى قاب قوسين أو أدنى في يد العدو .

ولكن العدو العنيد لم يستسلم لما حاق به من هزيمة وما لحق به من خذلان فقد انتهز فرصة انشغال قوات نصر الدولة ، في السلب والنهب وأعاد الكرة وانقض على القلعة بهجوم عنيف وألحق بقوات (نصر الدولة) هزيمة شنعاء وطاردها حتى أبواب نصيبين ، وحينذاك بلغه أن أخاه « قرواش » زاحف للاغارة على الموصل ، فاضطر مرغما إلى مغادرة (نصيبين) على جناح السرعة لما كان بينه وبين أخيه من جناء ونفور

ولم يمض طويل وقت حتى تبدد هذا الجفاء وساد الصفاء والوثام بين (بدران) وأخيه (قرواش) حاكم الموصل ، في حين كانت العلاقات قد توترت بل وساءت جدا بين (نصر الدولة) و (قرواش) ، لأن العلاقة الزوجية بين نصر الدولة وزوجته وهي ابنة (قرواش) لم تكن على مايرام ، مما أدى إلى إعادتها إلى أبيها في الموصل فاتخذ (قرواش) من هذا دعامة يتكئ عليها لمطالبة نصر الدولة بمهر ابنته البالغ عشرين ألف دينار ، وبقلعة (نصيبين) لأخيه (بدران) وبقلعة (جزيرة ابن عمر) مقابل نفقة لابنته . ولكن نصر الدولة لم يعر هذه المطالب التفاتا ، مما أدى إلى استشاطة (قرواش) غضبا وتصميما الاستيلاء بالقوة على ما فشل في الحصول عليه عن طريق السياسة والملاينة ، ووجه بالفعل جيشا للاستيلاء على الجزيرة ، كما بعث بآخر يقوده أخوه (بدران) إلى نصيبين فحاصرها ، ولكن الفشل كان حليف الجيشين ، والخذلان المبين رائدهما ، مما دفع (بدران) إلى الذهاب إلى (ميفارقين) حيث التمس من نصر الدولة منحه (نصيبين) فاستجاب نصر الدولة الرغبة وأجاب طلبته حسما للنزاع وحقنا للدماء ، فأعطاه (نصيبين) ، كما بعث بخمسة عشر ألف دينار إلى

(قرواش) مهرا لابنته ، وهكذا زالت أسباب الجفاء وتلاشت العوامل المحركة للقتال وسفك الدماء . وفي عام (٤٢١) للهجرة كان يحكم مدينة (الرها) كل من (ابن عطير) و(ابن شبل) مناصفة ، فباع (ابن عطير) نصيبه لملك الروم مما أدى إلى زحف الجيش الرومي واحتلاله المدينة بأكملها وقتل الكثيرين من مسلمي المدينة . ولما سمع (نصر الدولة) بهذه الأنباء وجه جيشا إلى (الرها) وضرب عليها حصارا شديدا ، وأخذ يضيق الخناق على الروم ويسدد اليهم ضرباته القاصمة حتى ألبسهم هزيمة منكرة . ودخل المدينة وطهرها من أشلائهم وأنقذها من وبائهم المستطير . ولسكن الروم أبوا السكوت على هذه الهزيمة فعادوا بعد قليل وشنوا هجوما عنيفا على المدينة وتمكنوا من استردادها .

وفي عام (٤٢٦) للهجرة حشد (ابن الوثاب النخعي) جيشا كثيفا من العرب ومن غيرهم مستنجدا بأروام الرها أيضا وزحف به على المملكة الرومانية . ، وكان نصر الدولة ، قد استعد للقاءه على رأس جيش عرمرم تشد أزره نجات أخرى تقاطرت عليه من الأطراف ، ، وما أن علم ابن الوثاب ، نبأ ما أعده (نصر الدولة) من استعدادات هائلة وقوات عاتية حتى تملكه الرعب وخشى سوء المصير فاختصر الطريق عائدا القهقري دون قتال . أما نصر الدولة فقد كتب إلى ملك الروم بوجه إليه اللوم ويعتب عليه نقضه لمعاهدة الصلح والصدقة المبرمة بينهما . ثم هدده بمحاصرة الرها ، . ورد عليه ملك الروم معتذرا عما حدث قائلا إنه حدث دون عليه ، وأمطره بوابل من الهدايا لإظهارا وتوكيدا للصدقة التي بينهما ، ، فقبل (نصر الدولة) هذا الاعتذار واعتبر ما حدث كأنه لم يكن ، وفي رجب عام (٤٢٧) للهجرة أرسل (نصر الدولة) جيشا على (السويداء (١)) بقياده أحد قواده لمساعدة ابن عطير وابن الوثاب ، فاستولى

(١) الظاهر أن (السويداء) هذه هي قلعة (سورك = سيورك) الحالية بين آمد والرها ، سميت بهذا الاسم باللغة المحامية الكردية لأن لون أراضيها أحمر حمرة تضرب إلى السواد بخلاف الرها التي لون أرضها أبيض المترجم

عليها، ثم واصل الجيش زحفه وضرب حصارا شديدا حول مدينة الرها، فسارع ملك الروم بإرسال نجدة لإنقاذ المدينة والدفاع عنها ولكن الجيش الرومي قد منى بفشل ذريع، وولى مدحورا مخذولا، واقترح ابن الوثاب والقائد المرواني المدينة وقبضا على زمام الحكم فيها (١). وفي عام ٣٢٢ هـ (٢) أغار الغز - الذين أغرقوا منذ سنوات بلاد إيران المركزية وبلاد ذريجان في بحار من الدماء وأعملوا فيها السلب والنهب - على البلاد الكردية وأقليم كردستان، فهرعت العشائر الهذيبانية عن بكرة أبيها لمقاومة الغز واستنصال شأفتهم ولكن رغم دفاعهم المجيد واستماتتهم في القتال، أفلح المغيرون في التقدم بخطى واسعة والتوغل في داخلية البلاد والانتشار في سرايينها. وتوجه فريق من الغز - كان في (أرمية) - شطر البلاد الحكارية، واشتبك رجال هذا الفريق في قتال عنيف مع أكراد تلك الناحية، وكان هؤلاء الغز مجبولين على الوحشية والغلظة والقسوة فاستحلوا لأنفسهم قتل النساء وسفك دم الأطفال الأبرياء، مما أفضى إلى اعتصام الكرد بين شعاب جبالهم الشامخة وبين ثنايا وهادهم السحيقة، والترصد لعدوهم في المضائق والمعابر حتى تمكنوا منه وقتلوا برجاله فتكا ذريعا وقتلوا منهم ألفا وخمسمائة وقعوا صرعى في حومة الوغى يتخبطون في دمائهم وأسرؤا منهم كثيرين من بينهم سبعة من القواد ومائة من الزعماء، واستولوا على غنائم وأسلاب تجمل عن الوصف ولا حصر لها ولا عد، فضلا عما تركوه من أسلحة ومهمات. أما أولئك الذين تبقوا منهم على قيد الحياة فقد تفرقوا شذر مذر بين الوهاد وحنايا الجبال.

(٢) راجع ابن الاثير (ص ١٦٧ ج - ٩) وفيها ذكر غدر السناسنة وأخذ الحاج واعادة ما أخذوه، بفضل (نصر الدولة) الذي عزم على محاربة الارمن عموما والسناسنة خصوصا. (٢) انظر ص ١٤٤ المترجم

وفي نفس هذا العام زحف (ابراهيم بنال) - أخو السلطان طغرل - صوب
 (الري) فأوجس الغز الضاربون في تلك البقاع منه خيفة وتركوا الري وبلاد
 الجبل وتوجهوا عام ٤٢٣ للهجرة شطر بلاد (ديار بكر) و (الموصل) وفي
 الطريق اليهما ارتكبوا الكثير من أعمال العنف والتدمير والثقتيل ،
 وأخيرا وصلوا عن طريق الزوزان إلى (جزيرة ابن عمر) . وتوجه فريق
 الغز الذي كان بقيادة (بوقا) و (ناصغلي) وبعض زعمائهم إلى (ديار بكر)
 ونهبوا (قردى) و (بازبدا) و (الحسينية) و (فيشخابور = فيشاور)
 ودمروا هذه البلاد تدميرا ، أما أولئك الغز الذين كانوا في شرقي الجزيرة تحت
 قيادة (منصور بن غزغلي) فقد كتب اليهم (الأمير سليمان أبو الحرب) ابن
 ناصر الدولة يعرض عليهم الصلح على أن يظلوا في أماكنهم حتى يقبل الربيع
 على أن يرحلوا بعد ذلك إلى الشام (١) ، فقبل قائدهم (منصور بن غزغلي)
 هذا العرض وأبدى موافقته على عقد الصلح . وبعد مدة أولم ، أبو الحرب ،
 وليمة دعا إليها هذا القائد ، وما أن حضرها حتى ألقى عليه القبض ، وبذلك
 تمكن من نشيت شمال جيش الغز وتمزيق صفوفهم وقطع دابرهم . إذ كان القبض
 على قائدهم صدمة عنيفة وطعنة نجلاء صوبت إلى نحورهم وقصمت ظهورهم .
 ثم وجه كل من (قرواش) حاكم الموصل والملك (ناصر الدولة) وكذا
 الأكراد البشنوبية أصحاب قلعة (فك) قوات عسكرية عاتية طاردت الغز وألحت
 في مضايقتهم حتى فروا تاركين وراءهم جميع أثقالهم وما كانوا يمتلكون من
 الأموال والدواب غنيمة باردة ، وقتل منهم كثيرون . وفي هذه الأثناء عاد
 فريق من الغز - الذين كانوا قد أغاروا على أطراف (نصيبين) و (سنجار)
 بغية النهب والسلب - إلى الجزيرة وحاصروها ولكنهم سرعان ما رفعوا
 عنها الحصار متجهين صوب (ديار بكر) حيث خربوا البلاد وسلبوا العباد .

(١) انظر ص ١٤٥ - ج من ابن الأثير . المترجم

وبعد ذلك أطلق (نصر الدولة) سراح قائد الغز (منصور بن غزغلي) -
 الذي كان أسيرا لدى ابنه الأمير (أبي الحرب سليمان) على شريطة أن يخلو
 هو وجميع الغز عن البلاد المروانية ، وزوده بحفنة من المال ، ولكن رغم
 ذلك لم يحجم هؤلاء القوم المخربون عن السلب والنهب وتدمير البلاد حين
 جلوا عنها ، فدمروا أطراف (سنجار) و (نصيين) تدميرا . وكان فريق
 آخر من الغز قد أغار على (الموصل) واحتلها واكثر فيها القتل والفساد .
 وقد كتب الملك (ناصر الدولة احمد) كتابا بعث به إلى السلطان (طغرل)
 يضح فيه بالشكوى (١) ، ويندد بما ارتكبه الغز في البلاد من فظائع وأعمال
 وحشية وبربرية . وفي عام (٤٣٩) للهجرة ظهر « الأصغر التغلبي » في أطراف
 (رأس عين) وادعى أنه من المذكورين في الكتب واستغوى قوما بمخاريق
 وضعها وجمع جموعا زاخرة ، وبدأ يشن الغارات على أطراف بلاد الروم
 بغية السلب والنهب والتدمير ، ولكن « ناصر الدولة » لم يمهله بل سارع بالقاء
 القبض عليه وزج به في أعماق السجن ... (٢) وفي عام (٤٤٠) للهجرة ساءت
 العلاقات بين عشيرتي الحميدية والهدبانية الكرديتين من جهة وبين (قرواش)
 وأخيه من جهة أخرى واشتد بينهما النضال ، وأوغلا في الخصام ، الذي يروى
 لنا الكامل ، (٣) سببه فيما يلي :- « كان على مقربة من الموصل عدة فلاع
 للأكراد الهمودية (الحميدية) مثل (عقره = اكر) ، وكان زعيمهم يدعى
 (أبو الحسن بن العيسكاني الهمودي) ، وكان زعيم العشيرة الهدبانية يدعى
 (أبو الحسن بن موسك) صاحب قلعة هوليرة اربيل ، وأطرافها ، وكان لحاكم

(١) ابن الأثير (ص ١٤٦) وفيها ان الغز هم التركمان عبيد وأتباع الساجوق

(٢) انظر ابن الأثير ص ٢٠١ ج ٩ -

(٣) ص ٢٠٤ ج ٩ -

، ارييل ، هذا ، أخ يدعى ، أبو علي بن موسك ، يناوىء أخاه ، فساعده أبو الحسن العيسكاني على أخيه لا تتزاع ، ارييل ، منه ، واستولى عليها فعلا ، وقبض على أخيه « أبي الحسن » .. ثم جاءه قرواش ، حاكم الموصل وطلب إلى كل من أبي الحسن العيسكاني وأبي علي الهذبانى أن يعاوناه فى الزحف على ناصر الدولة ، فلبى ، أبو الحسن بن عيسكان ، الحميدى الدعوة بنفسه فى حين أوفد (أبو علي الهذبانى) أخاه وقد صادف ذلك وقت تحسن العلاقات بين ناصر الدولة وقرواش وعودة المياه إلى مجاريها .

وفى عام (٤٤١) للهجرة نشبت الخصومة بين (ممتد الدولة أبي المنيع قرواش بن المقلد العقيلى المتوفى سنة ٤٤٤ بالموصل) وبين أخيه (زعيم الدولة أبي كامل بركة بن المقلد المتوفى سنة ٤٤٣ بتكريت) فأوعز قرواش إلى ابن أخيهما (قريش بن بدران بن المقلد) أن يشن هجوما عنيفا على أبي كامل ، فأطبق عليه وقهره ، مما أدى إلى التجاء ، أبي كامل ، إلى رحاب (أبي الحرب سليمان) ابن نصر الدولة ، المروانى ، فأصدر (نصر الدولة) أوامره إلى ابنه (أبي الحرب) أن يشنها حربا عوانا لاهوادة فيها على (قرواش) انتقاما منه ، كما كتب فى هذا المعنى إلى الأمير أبي الحسن العيسكاني ، وسرعان ما زحف الجيشان صوب (الموصل) ، فتصدى لهما (قرواش) على رأس جيشه على مقربة من المدينة ، واشتبك الفريقان فى معركة دامية أسفرت عن اندحار ذريع وخذلان مبين لجيش (قرواش) ووقوع قرواش نفسه أسيرا فى قبضة (أبي الحرب) الذى سلمه بدوره لأخيه (زعيم الدولة أبي كامل)

ولسكن (أبا كامل) الذى استفز الجيوش وحركها ضد أخيه عاد وتملكه الخوف وسرى فى أوصاله الرعب من تقاوم قوة الكرد ، وازدياد نفوذهم ، وخشى ضياع (الموصل) من أسرته ، فأطلق سراح أخيه (قرواش) وبعث إلى (الموصل) . وكان لهذا التصرف أسوأ الأثر فى نفس (أبي الحرب) فعاد

إلى بلده نائراغاضبا (١)، وفي نفس هذا العام (٥٤٤١هـ) طلب السلطان (طغرل) إلى الملك (ناصر الدولة) أن يأمر بذكر اسمه في الخطب التي تلقى على المنابر في أنحاء مملكته فاستجاب لطلبته وأمر بتنفيذ رغبته (٢).

وفي نفس هذا العام أيضا طلب ملك الروم إلى الملك ناصر الدولة أن يبذل وساطته لدى السلطان (طغرل) ليطلق سراح ملك (ابنخاز)، فعهد ناصر الدولة بهذه المهمة إلى شيخ الإسلام أبي عبد الله بن المرواني وأوفده إلى السلطان طغرل لهذا الغرض، ليعمل على تحقيق رجاء ملك الروم... فما كان من السلطان طغرل إلا أن أطلق سراح هذا الملك الأسير على الفور ومن غير فدية مرضاة لناصر الدولة ومراعاة لحاظه، فارتفع بذلك قدر ناصر الدولة، وعلا شأنه وأمطره ملك الروم بفيض من الهدايا القيمة..

(١) يقول الكامل في هذا الصدد ما خلاصته: نشب خصام بين (قرواش) وأخيه (أبي كامل) فجرد كل منهما جيشا على الآخر، وفي هذه الأثناء جاء كل من الأمير سليمان بن نصر الدولة وأبي الحسن العيسكاني الحميدي وبعض عشائر كردية أخرى نجدة لقرواش وساروا إلى بلدة «معلثايا» ودمروها، ثم واصلوا الزحف إلى «المغيثة» ونزلوا بها، وزحف أبو كامل بحمسه العربي مع ابن المسيب إلى مرج «باننيا» - له باب نينوى - وبعديومين من بدء القتال بين الجيشين انضم الأمير سليمان وغيره من قواد الكرد بجيوشهم وكذلك انحاز فريق من العرب في جيش قرواش إلى صفوف أبي كامل مما أدى إلى ضعف قرواش فكاد يعتسلم لولا أن أمراء الجيش العربي قد توجهوا إلى أبي كامل بطلبات تعذر عليه الاستجابة لها، فأسرع بنفسه إلى أخيه - خوفا من أن يغدروا به لاستحالة تنفيذ مطالبهم وينضموا إلى صفوف قرواش وقدم لأخيه المعذرة وطلب منه العفو عما بدر منه... وهكذا تبدد الخصام وساد بين الأخوين الصفاء والوثاق. (ج ٩ ص ٢٠٦) المؤلف

(٢) هذه الفقرة وما بعدها من طلب الوساطة غير موجودة في ابن الأثير. المترجم

وليبالغ في ارضائه أمر بفتح جامع القسطنطينية على مصر اعياه كما أمر بتجديده .
وفي عام (٤٤٦) للهجرة زحف السلطان طغرل على رأس جيش عرمرم
صوب (ملاذكرد = ملاذجرد) وكانت خاضعة لسلطان الروم . وضرب
عليها الحصار ، وبهذه المناسبة بعث إليه نصر الدولة بجيش يشد أزره ،
وبفيض من الهدايا القيمة (١)

وأثناء اشتباك السلطان طغرل مع الروم ، ساءت العلاقات وتوترت بين
الأمير (أبو حرب سليمان بن نصر الدولة) الذي كان حاكما من قبل والده على
الجزيرة ، وبين الأمير (موسك بن المجلي) زعيم الأكراد البختية وصاحب
بعض القلاع المنيعه الواقعة شرقي الجزيرة ، واستحكم بينهما الخلاف وأوغلا
في العداوة ، إلا أن (أبا حرب) رغم أصراره بينه وبين نفسه على الخلاص منه
قد تظاهر برغبته في إزالة الجفاء وتصفية ما بينهما من عداوة وخلاف ، فوقع
الأمير (موسك) في حباله وعقد معه صلحا ، ولكي يبعث أبو الحرب
الطمأنينة في قلبه سعى في زواجه من ابنة الأمير (أبي طاهر البشنوي) صاحب
قلعة (فنك) وابن أخت (نصر الدولة) ، فوافق أبو طاهر على هذه الزيجة
مرضاة لابن خاله ، وزفت العروس إلى الأمير (موسك) في حفل رائع مهيب
وهكذا ظن الأمير أنه قد أمن جانب عدوه (أبي حرب) وأقبل عليه ، غير
أن أبا حرب قد أبنى إلا إظهار ما أبطن وأضمر ، فألقى القبض على (موسك)
وزج به في أعماق السجن . .

(١) ورد في ابن الأثير (٩ - ج ص ٢٢٣) في هذه السنة سار (طغرل بك)
إلى أذربيجان فقصده تبريز وصاحبها الأمير (أبو منصور وهو ذان بن محمد
الروادي) فأطاعه وخطب له وحمل إليه ما أرضاه وأعطاه ولده رهينة فسار
طغرل بك عنه إلى الأمير (أبي الأسوار صاحب جنزة) فأطاعه أيضا وكذا غيرها
فأبقى بلادهم عليهم وسار إلى أرمينية وقصد ملاذكرد . إلى أن قال فأرسل
إليه نصر الدولة الهدايا والعساكر وقد كان خطب له قبل هذا وأطاعه (المترجم)

وما أن ترامى هذا النبا إلى مسامع السلطان (طغرل) في ميدان القتال حتى بعث بخطاب إلى (نصر الدولة) يشفع في الأمير (موسك) يرجوه فك إيساره، ولكن السيف قد سبق العذل إذ أظهر نصر الدولة أن الأمير الأسير قد توفى. فشق ذلك على أبي طاهر وطار لبه من هول الفاجعة ، وثارت ثأرته وتملكه الغضب ولم يخف استيائه من ناصر الدولة وولده الأمير أبي حرب سليمان وأرسل اليهما كتابا يقول فيه : « بما أنكما كنتما راغبين في مقتل الأمير (موسك) لماذا اتخذتما من كريمي تكأة ووسيلة لتحقيق مأربكما . فألحقني العار والشنار ، ؟؟

وقد أوقع هذا العتب المرير الصارم الأمير أبا حرب سليمان في حيص ويص بل وأفض مضجعه وأقلق باله . وما هدأ روعه . إلا بعد أن دس لأبي طاهر السم الزعاف فقتل عليه وألحقه بزواج كريمته ، وخلف (أبا طاهر) ابنه (عبيد الله) ، فأظهر الأمير سليمان نحو هذا الأمير الشاب الكثير من علائم الود وسابغ العطف . وأخذ يمهّد للوفاق والوثام وإعادة المياه إلى مجاريها حتى تقرر عقدا اجتماع بينهما في مكان ما بين قلعتي (فنك) و (الجزيرة) وما أن التأم عقد هذا الاجتماع حتى نهض الأمير عبيد الله وفاجأ الأمير أبا حرب سليمان بضربة قاضية اردته قتيلًا .

وعلى أثر تلك الحادثة المفجعة والنكبة القاصمة، عين (نصر الدولة) ابنه الأمير (نصرا) حاكما على الجزيرة وزوده بجيش ضخم كامل العتاد والعدد ليأخذ بثأر أخيه ، وفي هذه الأثناء كان الأمير (قريش بن بدران) حاكم الموصل قد اغتتم الفرصة وزحف على رأس جيشه صوب الجزيرة ، ولكي يضمن الاستيلاء عليها كاتب البختية والبشرية ، وأبرم معها اتفاقا وبذلك وقف الجميع جبهة متراصة في وجه الأمير (نصر) وقطعوا عليه الطريق إلى الجزيرة مما اضطره إلى أن يخوض معهم غمار حرب طاحنة وقع فيها الكثيرون

من الفريقين صرعى في ساحة الوغى يتخبطون في دماهم، وأسفرت في النهاية عن نصر مبین ومؤزر للامير نصر المروانى، وهزيمة منكرة لجيش (قريش) وحلفائه، ثم عاد (قريش) مشنخ الجراح إلى (الموصل) عام ٤٤٧ هـ للهجرة (١) وهكذا أدت سياسة (أبي الحرب) الخاطئة الخرقاء، وسوء تديره، وقصر نظره إلى هذه الحوادث الدامية والأعمال المهينة التي أفضت إلى بذور بذور الشقاق والخصام في البلاد، وتمزيق أوصالها مما أفضى إلى خروج البشوية والبختية الأكراد عليه ومما شتم الطامعين في البلاد من الأجانب، ولم يعمر (ناصر الدولة أحمد) بمد ذلك طويلا بل وافاه الأجل المحتوم ولحق بالرفيق الأعلى في عام ٤٥٢ هـ (٢) للهجرة عن أكثر من ثمانين عام حكم منها اثنين وخمسين عاما... وكان يحمل لقب (نصر الدولة) الذي انعم به عليه الخليفة العباسي (القادر بالله).

هذا وكانت المملكة المروانية في عهده تسودها الطمأنينة وترفل في حلال من الرخاء وكان العدل ميسوطا بين ربوعها والأمن مستتبا في أنحائها، وانتشرت العلوم كما ازدهرت الفنون، مما هيا لها مكانا عليا، وشأنا رفيعا بين الممالك الاسلامية، وقد تمتع هذا الملك بأبهى مظاهر الملك ومقتضياته وشرب كأس السعادة حتى ثمالتها إلى غير ذلك مما لم يتسن لملك غيره وقتذاك، وكان قصره يعج بالعدد الوفير من الجوارى الحسان والسرارى، بين مغنيات ومطربات يفوق عددهن الخمسةائة جارية. وكانت الأدوات التي تستخدم في مجلس طربه تقدر بأكثر من مائة ألف دينار. وكان مطبخه يضم بين جدرانها الكثيرين من مشاهير وأمهـر الطهاة الذين أرسل بعضهم خصيصا إلى مصر لتعلم فن طهى

المترجم

(١) الكامل (ص ٢٢٦ ج ٩ - ٩)

(٢) في ابن الأثير سنة ٤٥٣ هـ (ص ١٠ - ١٠)

بعض أصناف الطعام وإجادة طيها . وكان حرمه الملكي يضم الكثيرات من بنات الملوك والأمراء . وكان يمتلك جوهرة نادرة المثال كانت تسمى (جبل الياقوت) كان قد اشتراها من الملك العزيز أبي منصور جلال الدولة البويهى (١) ثم قدمها أخيراً مدية للسلطان (طغرل) . وكان من وزرائه أبو (القاسم المغربي) و (فخر الدولة) ابن جهير . ويقول الكامل : إن عهده كان عهداً زاهراً شهدت البلاد على يديه نهضة شاملة رائعة عمت جميع المرافق ، وبرز الكثيرون من العلماء والشعراء والفضلاء ، (ج ١٠ ص ٦ و ٧)

ويقول تاريخ الأمم الإسلامية : إن قصر (نصر الدولة) كان كعبة أهل العلم وذوى الفضل فيه يجتمع شملهم ويحججون إليه من كل صوب و حدب ، ومن بين هؤلاء العلماء المشاهير (أبو عبد الله الكازرونى) العالم الشافعى الذائع الصيت والذي انتشر بفضلته وبمجهوداته المذهب الشافعى فى البلاد الكردية .. وكان ناصر الدولة يباليغ فى إكرام الشعراء والعلماء والأدباء ويغدق عليهم من نعمه ومن فيض كرمه وماله ، وكان دمث الخلق ، عالى الهمة ، كريم النفس سمحها . (ج ٣٠ ص ٤٥٠)

وتقول دائرة المعارف الإسلامية انه كان يدعى بأبى ناصر العادل ، خدم البلاد خدمة عظيمة فأحبته الرعية حبا جما .

وقصارى القول ان لهذا الملك الحمام أيدى يبضاء على البلاد: فمن نشر المعارف والعلوم إلى نهضة عمرانية شاملة ، إلى إنشاء القلاع والمستشفيات

(١) الملك العزيز هذا هو ابن جلال الدولة بن بهاء الدولة البويهى ، نودى به ملكاً على بغداد عام (٣٥٠ هـ = ١٠٤٣ م) وأثناء حربه مع الملك أبى كاليبجار التجا إلى رحاب (نصر الدولة) وبقي فى (ميفارقين) حتى وفاته حيث دفن بها . (تاريخ الموصل ص ١٤٢) .
المؤلف

والحمامات والمساجد والمكاتب في (ميفارقين) إلى توصيل المياه إلى داخل شرايين المدينة ، إلى إنشاء الحدائق الغناء بين أرجائها يؤمها الأهلون دون ما تميز أو فارق ، كما خاف في المدن الأخرى آثارا كثيرة تدل عليه ، ومن آثاره الخالدة كذلك تلك المدينة التي كانت تدعى (الناصرية) على أربعة فراسخ من ميفارقين .

« قاسم أبو ناصر » (١)

تولى الملك بعد وفاة والده ، بفضل الوزير (فخر الدولة) وتعضيده إياه واستمر يحكم البلاد من عام (٤٥٣) حتى عام (٤٧٢) للهجرة ، وقد صادفته في أول عهده عقبة كأداء ولكنه سرعان ما تغلب عليها ، ألا وهي مناوأة أخيه الأمير سعيد بن نصر الدولة له - وقد توفي سنة (٥٤٥ هـ) - وشقه عليه عصا الطاعة وإعلانه العصيان مما أدى إلى تأجيج نيران حروب داخلية أفرقت عن تغلبه على أخيه وتحطيم راية عصيانه ، وبهذا دانت له الأمور وذهلت العقبات ، ومرضاة لأخيه المغلوب أعطاه قلعة (آمد = ديار بكر) .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية انه ضم إلى بلاده في عام ٤٥٧ للهجرة كلا من بلدتي (حران) و (السويداء = سورك) ، وقد نال من مقام الخلافة لقب نظام الدولة .

(١) ورد في وفيات الأعيان هكذا (أبو القاسم نظام الدين نصر) ج ١ ص ٥٧ - المؤلف [والصحيح كما في ابن الأثير أيضا (نصر) لا (أبو ناصر) اه من ابن الأثير ج - ١٩ ص ٧ و ١١ . المترجم

« منصور »

هو ابن الأمير سعيد (١) ، وقد تولى حكم جميع البلاد المروانية بعد والده وعمه وأخضعها كلها لحكمه المباشر وقد ورد في رواية أنه خطب في بلاده باسمه وباسم الخليفة الفاطمي بمصر على المنابر ، مما أدى إلى استياء الخليفة العباسي وغضبه عليه لأن ذلك قد أثار حفيظته .

وفي عام ٤٧٦ (٢) للهجرة أقطع ملكشاه السلجوقي بلاد (ديار بكر) (لفخر الدولة ابن جهير) الذي كان وزيراً سابقاً للملك (نصر الدولة أحمد) وزوده بقوة عسكرية كبيرة زحف على رأسها إلى (ديار بكر = آمد) فاضطر المنصور ، إلى طلب النجدة والمعونة من جيرانه الأمراء فلبوا نداءه وخف إلى نجدة (شرف الدولة مسلم بن قريش) حاكم الموصل بجيش لجب ، فلما رأى فخر الدولة التضامن بين خصومه ووقوفهم جهة متحدة للأجهاز عليه وما معه من قوة ، مال إلى الصلح ، لأنه كان كارهاً للاشتباك في حرب بني قومه ، ولكن الجنود الترك قد فطنوا لما تنطوى عليه سريرته ، فبدأوا القتال ليلاً ، تحت جناح الظلام بعد أن تكتموا أسرار هجومهم وأخذوا جيش الموصل على غرة فقتلوا من رجاله الكثيرين واغتنموا منه غنائم وأسلاب كثيرة وأموالاً طائلة ، وانسحب (شرف الدولة) من الميدان بعد جهد جهيد ، وبكل صعوبة سار إلى (ديار بكر = آمد) فلحق به فخر الدولة على رأس جيشه وحاصر المدينة ، وتمكن شرف الدولة من انقاذ نفسه بفضل وساطة القائد التركي (أرتق بن أكسب) . وكان ذلك في سنة (٤٧٢ هـ)

(١) ورد في وفيات الاعيان (٢ ص ٦٦) في سيرة (فخر الدولة أبي نصر محمد بن جهير الموصلى التغلبي) أن ناصر الدولة أبا المظفر منصوراً هذا ، هو ابن نظام الدين أبي القاسم نصر . وهذا هو الصحيح
(٢) أنظر ابن الأثير ج ١٠ ص ٤٧ و ص ٥٢ و ٥٣

أما فخر الدولة فقد ترك (آمد) محاصرة وتوجه شطر (ميفارقين) وأسعفه (ملكشاه) بنجدة فاستطاع الاستيلاء عليها ، ثم عاد ثانية إلى (آمد) عام (٤٧٨) للهجرة حيث كانت حاميتها قد تملكها اليأس وضعفت روحها المعنوية وسئمت الحرب ودبت روح الثورة والانتفاض بين الأهالي فتأروا في وجه رجال الحكم والادارة ، وكان معظمهم من النصارى ، اذ كان بنو مروان يقر بونهم ويساوون بينهم وبين المسلمين في توزيع المناصب والعدل ، وهكذا وقعت (آمد) في قبضة « فخر الدولة بن جهير » بسهولة حيث أخذها من ناصر الدولة ابى المظفر منصور بن نظام الدين سنة (٤٧٩ هـ) . أما الملك « المنصور » فقد تمكن من الوصول إلى الجزيرة وهناك استقر به المقام ، واستولى على بضعة قلاع بها وبالبلاد البختية . ولكن فخر الدولة بن جهير (١) الذى انغمس فى نعيم المروانيين وعاش سعيدا فى كنفهم قد تنكر لهم وأبى أن يترك الفرصة تسنح والمجد يعود ويتلا لا لآخر ملك من ملوكهم ، فجهز جيشا كبيرا هاجمه به الجزيرة وحاصرها ، وكان بالمدينة أسرة غنية قديمة وهى أسرة (بنو وهبان) وكان لهذه الأسرة باب خاص فى القلعة يدعى باب (البوييه) يسمح بمرور رجل واحد راجلا ، وكانوا يمررون منه إلى خارج المدينة . فكسر بنو وهبان وحطموه وبذلك استطاع فخر الدولة هو وجنوده اقتحام المدينة والتسلل إليها من هذه الثغرة . وهكذا تم له فتح المدينة وألقى القبض على الملك المنصور التمس آخر الملوک المروانيين فدالت دولته وأسدل الستار على حكومته .

(ابن الأثير (١٠ ص ٥٣) — أبو الفداء)

(١) كان فخر الدولة بن جهير وزيرا لدى (قريش بن بدران) فأوفده سفيرا من قبله إلى ملك الروم وتصادف أن (ناصر الدولة أحمد المروانى) كان قد أوفد فى هذا الوقت نفسه سفيرا إلى ملك الروم فاجتمع السفيران فى بلاط ملك الروم ، فأراد (ابن جهير) أن يتقدم سفيرا ناصر الدولة فى مقابلة ملك الروم =

الفصل السادس

٦ - حكومة بني عنان^(١) في حلوان (٣٨٠ - ٥١٠ هـ)

أول من وضع أساس هذه الحكومة الكردية، ودعم أركانها هو الأمير (أبر الفتح محمد بن عنان) أمير أكراد (الشاذنجان)، وكان ذلك في عام (٤٣٨١ هـ)

== فرفض سفير ناصر الدولة، ولما عاد ابن جهير إلى قریش بن بدران هم بالقاء القبض عليه وحبس، ولكنه نجح وتمكن من الوصول إلى حلب، ووزر لمصر الدولة أبي شمال بن صالح، ثم غادرها إلى ملطية ومنها التجأ إلى (ناصر الدولة) الذي سأله عن السبب فيما أقدم عليه من محاولته التقدم على سفيره لدى ملك الروم فأجابه بأنه قام بذلك تنفيذا لأمر سيده، فسر (ناصر الدولة) من هذا الجواب السديد واتخذ وزيراً له. وبعد وفاة (ناصر الدولة) كان وزيراً لابنه أيضاً، ولكنه عاد إلى بغداد بعد مدة ووزر للخليفة. ثم عزل من الوزارة، فأقطعه ملكشاه إقليم (ديار بكر) وهكذا كان سبباً في انقراض الدولة المروانية ولكن الله سبحانه وتعالى قد عجل بالانتقام منه حيث قبض عليه (آرتق) في (ديار بكر) وأرسله إلى الموصل حيث مات فيها في محرم أو رجب سنة (٤٨٣ هـ) هو جيداً في عزله التي فرضت عليه. (الكامل ج ١٠ ص ٤٨ و ٥٢ و ٥٣ و ٦٧)

المؤلف

(١) هذا ما ذهب إليه المرحوم سماعيل باشا الديار بكرى في تاريخه القيم المسمى (مرآت العبر) باللغة التركية ولكن ابن الأثير ومن بعده (منجم باشى) ذكره هكذا «عناز» بالنون والراء بخلاف «شرفنامه» فإنه ذكره «عيار» بالياء والراء وأظن أن هذا الأخير أقرب إلى الصواب وأبعد عن التصحيف.

المترجم

ولقد ظل متربعا على أريكة الحكم عشرين عاما دون منافس ولا منازع إلى ان توفاه الله إلى رحمته في سنة (٤٠٠ هـ)

وتولى الحكم من بعده ابنه (أبو الشوك = أبو الشوق) واسمه (فارس) ولقبه (حسام الدين) .. وكان بينه وبين (طاهر بن هلال) - ملك الحسنويين - نزاع مستحکم ، وعداء قديم ، فلا غرابة إذن أن يبادر (طاهر) على أثر إطلاق سراحه من السجن ، إلى تجريد حملة عسكرية على (أبي الشوك) دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس أسفرت عن اندحار ذريع وخذلان مبین لأبي الشوك ، وقضى على أخيه قضاء مبرما حيث ذهب ضحية المعركة ... ولبت الأمر وقف عند هذا الحد بل سقطت بضعة من بلدان (بنى عنان) فى أيدي الحسنويين ورغم ميل الطرفين كليهما - على أثر هذه الحرب - إلى التفاهم والصلح وإحلال السلام بينهما ، بدل التناحر والخصام ، ورغم تصاهرهما لتدعيم أركان المحبة وعلائم الود بينهما ، إلا أنه لم يمض على ذلك طويل وقت حتى ساءت بينهما العلاقات من جديد ، وعادت سيرتها الأولى .. فعمد أبو الشوك سرا إلى إعداد جيش شن به هجوما عنيفا على بلاد الحسنويين وتمكن من الاستيلاء عليها جميعها ، وفى عام (٤١٤ هـ) توجه (علاء الدولة كاكويه (١)) صوب هـ الدينور ، فاستولى عليها ، ولكنه ما لبث أن عاد فجلا عنها ورجع إلى همدان حين سمع وعلم بسطوة (شرف الدولة) وقوة شكيمته ببغداد . وفى عام (٤٢٠ هـ) شن الغز هجوما عنيفا على ولاية (الدينور) ، ولكن أبا الفتح بن أبي الشوك قد تصدى لمناواتهم ، واستمات فى مقاومتهم ، وقتل

(١) هو مؤسس (حكومة بنى كاكويه الكردية) التى قامت باصفهان

(٣٩٤ - ٤٣٧ هـ) كما فى الدول الاسلامية لاستنلى - لن بول . وفى منجم باشى .
(المترجم)

وأسر الكثيرين منهم ، فازداد نفوذه وعلا شأنه . هذا وفي عام (٤٣٠ هـ) تمكن من الاستيلاء على (قرميسن) ، وعلى كافة بلاد الجبال . وكان أبو الفتح هذا ، يدبر دفة شتون ولاية الدينور باسم والده ، فطمع وتطلع في وقت ما إلى غزو قلعة (بكورا) التي كان يحكمها عمه (مهلهل) ، ومالبت أن سار إليها ، واشتبك مع عمه في القتال ، ولكن الحظ قد خانته فوقع أسيرا ، فاضطر والده (أبو الشوك) إلى إعداد جيش زحف به لقتال (مهلهل) الذي سارع إلى طلب النجدة من (علاء الدولة ابن كاكويه) ، فجاء هذا الأمير ، واستولى على ولاية (الدينور) في نفس الوقت الذي زحف فيه (سرخاب) أخو أبي الشوك إلى (الداوق) واستولى عليها وجرّد أكراد تلك البقاع من أسلحتهم وعتادهم . واضطر (أبو الشوك) إزاء هذه الظروف الحرجة إلى الالتجاء إلى (بغداد) لكي يستعين بجلال الدولة على خصومه . ثم مالبت أن عاد إلى (حلوان) مع جيش بغداد .

أما (مهلهل) فكان قد لجأ إلى (علاء الدولة) الذي نصحه بأن يذهب هو الآخر إلى (بغداد) لعرض شكواه على مسامع (جلال الدولة) ، فقبل النصيحة . ولقد أدى تدخل بغداد ، إلى تواد الأخوين وتفاههما وعقد الصلح بينهما ، ولكنهما قد افتقدا ولاية الدينور التي خرجت عن أيديهما . وعلى أثر هذا الصلح ، توجه (أبو الشوك) إلى (شهرزور) ، وحاصر قلعة (بيزارشاه) التي وافق صاحبها (أبو القاسم بن عياض) على الصلح مع أبي الشوك على شريطة أن يعمل الأخير على إطلاق سراح (أبي الفتح) من السجن وعاد (أبو الشوك) إلى بلاده ، ورفع الحصار عن القلعة ؛ إلا أن (مهلهل) قد رفض إطلاق سراح أبي الفتح وأبى ؛ مما اضطر (أبا الشوك) إلى السير صوب (الصامغان) والاستيلاء على كافة بلاد (مهلهل) . وسرعان ما عادت المياه إلى مجاريها بين الأخوين ، وتبدد التناحر و زال الخصام وتم التفاهم والصلح .

وفي تلك الأثناء زحف (إبراهيم ينال) - أخو السلطان طغرل السلجوقي - بجيش لجب إلى (الدينور) فاستولى عليها ، كما استولى على مدينة (قرميسن = كرمانشاه) فلم يجد « أبو الشوك » مندوحة من الإنسحاب إلى (حلوان) وهناك أيضا لم يستطع الصمود ولا الثبات أمام جحافل الزاحفين مما اضطره إلى الالتجاء هو ورجاله وأبناء أسرته ، إلى قلعة (سيروان) حيث أخذ من هناك يخبر أخاه (مهلهل) ويستحثه على القيام بدفاع مشترك عن حوزة البلاد .

وعلى الرغم من وفاة أبي الفتح في السجن في هذه الأثناء ، فقد تم الاتفاق بين الأخوين ، وأخذوا سويا في إعداد العدة لدفع خطر العدو عن البلاد ، وقد قام (سرخاب) وقتذاك بغزو (بنديجين) ونهبها .

وفي عام (٤٢٧) توفي أبو الشوك بقلعة (سيروان) فخلفه في الإمارة أخوه (مهلهل) وحرّم منها ابنة (سعد) الذي لجأ إلى (إبراهيم ينال) طالبا إليه إسناد إمارة والده إليه . وكان (إبراهيم ينال) قد عهد بإدارة (قرميسن) إلى (بدر) الحسنوئي ، فزحف (مهلهل) على (بدر) هذا ، عام ٤٣٨ للهجرة وانتزع منه (قرميسن) كما ألحق هزيمة منكرة بجيش (إبراهيم ينال) الذي اضطر أخيرا إلى تجريد حملة أخرى من الغز بقيادة « سعد بن أبي الشوك » على (حلوان) فاستولت عليها . وإن هي إلا فترة وجيزة حتى عاد (مهلهل) فاستولى عليها من جديد وقهر أعداءه وأجلاهم عنها . وهكذا قضى (سعد) حقبة من الزمن في النزال والقتال مع عميه ، حتى وقع أسيرا في يد (سرخاب) وأخيرا شق (أبو العسكر) عصا الطاعة على أبيه (سرخاب) وقلب له ظهر المجن ، وعاونه أكراد تلك البقاع ومدوا له يد المساعدة ، وبهذا تمكن من أسر والده ، وارساله إلى (إبراهيم ينال) فأقدم هذا الأمير السلجوقي على سمل عيني (سرخاب) ، وأطلق سراح (سعد) الذي اقتنص الفرصة

واستولى على (حلوان) بعد ذلك . وبعد أن استتات (مهلهل) في محاربة الغز
تصد إلى بغداد في عام ٤٤٣ هـ لاجئا إلى السلطان (طغرل) الذي أعطاه الداوقا
و (شهر زور) و (الصامغان) . كما أعطى قلعة (ماهكي) لسرخاب ،
و (رادندين) لسعد .

ولقد استمرت القلاقل والفتن قائمة بين (سعد) و (مهلهل) بعد ذلك
إلى أن وقع (مهلهل) في قبضة سعد ، ثم توسط السلطان طغرل في إطلاق
سراح (مهلهل) فرفض سعد . وزحف (بدر بن مهلهل) إلى سعد بجيش
جرار في عام ٤٤٦ هـ وقضى عليه .

وهكذا انتقلت الحكومة (العنانية - العنازية) هي الأخرى إلى مقبرة التاريخ
اه من (مرآة العبرج - ٧ ص ٣٧٤ - ٣٨٠)

الفصل السابع

٧ - حكومة الشبانكاره (شوانكاره) بفارس (٤١٢ - ٦٥٨ هـ)

كان الأمير (فضلوويه بن علي بن حسن بن أيوب) من فرقة الراماني من أكراد الشبانكاره ، رئيسا لعشيرته وزعيما لقومه ، وقد عين سهسالارا للجيش في عهد صاحب (عادل) الوزير البويهى بفارس ، وكان البويهيون قبل هذا التعيين يضيقون ذرعا بغارات الشبانكاريين عليهم وغزوهم لبلادهم ، ويألمون لذلك أشد الألم .

وقد جاء في تاريخه كزیده ، الفارسي أن زعيما شبانكاريا يدعى (اسماعيل) كان معاصرا للحاكم فارس المدعو (عماد الدين أبو كاليبجار) سنة (٤١٦ - ٥٤٤٠ هـ) ثم خلف هذا الحاكم ابنه الأكبر الذي توفي عام (٤٤٧) فاحتل مكانه أخوه الأصغر ، أبو منصور فلاستون ، وكان صاحب (عادل) ، وزيرا لهذا الأمير الأخير . وقد أعلن ، فضلوويه ، عصيانه على هذا الأخير بل إنه قد تمكن عن أسرهِ هو ووالدته السيدة ، خوراسويه ، واستولى على كل بلاده استيلاء تاما ، وسجنه في قلعة على مقربة من (شيران) ثم قتله في عام (٤٤٨) وخنقت والدته في الحمام بأمر من فضلوويه ، . وهكذا دان الحكم لأمراء (الشبانكاره) في بلاد فارس أيضا ، ولكن لم يمض على ذلك طويل وقت حتى اشتبك ، فضلوويه ، في قتال مع السلاجقة بقيادة (قاوورت) أخى ، آلب أرسلان ، أسفر عن إرغامه على الاعتراف بسُلطان آلب أرسلان عليه مع بقاءه حاكما لفارس من قبله

ومضت أيام علي ذلك . ثم عاد (فضلوويه) فنشق عصا الطاعة على (آلب أرسلان) .

واعتصم بقلعة (خورشاه) حيث حاصره فيها (نظام الملك) الوزير الشهير ، واستولى عليها ، ثم أسره بعد أن أبدى مقاومة عنيفة ثم ما لبث أن أعدمه . وكان ذلك في عام ٤٦٤ هـ (١) . هذا وقد كانت العشائر الشبانكارية مبعث قلق ومصدر فتن في إقليمي (كرمان) و (فارس) فترة طويلة ، ففي عام ٤٩٢ للهجرة - ١٠٩٩ م) تمكن الشبانكاريون بعضهم من ايرانشاه ، بن قاورورت ، حاكم كرمان من هزيمة (أنز) والي فارس الذي كان معينا من قبل السلطان (بركياروق) .

وبعد هذه الحوادث بقليل نشبت الحروب بين الشبانكارية وبين (فخر الدين جاولي) المتوفى عام ٥١٠ للهجرة ، وهو الذي كان يحكم فارس من قبل السلطان محمد بن ملكشاه حاكم العراق . وسبب ذلك عدم اعتراف (حسن بن المبارز خسرو) أمير الشبانكارية بسلطان (جاولي) على فارس ، فشن عليه جاولي هجوما عنيفا فتمكن خسرو من صدّه في البداية بمساعدة أخيه (فضلوى) ، ولكن اليأس لم يجد إلى قلب (جاولي) سيلا فعاد بعد فترة وعاود الكرة وحاصر (خسرو) في قلعته ، ولما أيقن خسرو أن الحصار سيشتد وقد يطول أمده اتفق مع (جاولي) ، بل ورافقه في حرب (كرمان) التي نشبت بسبب التجاء (اسماعيل) أحد زعماء الشبانكارية وحاكم (دارا بجرد) إلى ملك كرمان ومطالبة (جاولي) بتسليمه له دون جدوى .

ويؤخذ من مجريات الحوادث بعد ذلك أن عشيرة الشبانكارية قد جنحت إلى السلم في عهد السلطان محمد بن ملكشاه ، بيد أنها أوقعت نفسها في خضم من القلاقل والفتن في عهد السلطان محمود ابن السلطان محمد نتيجة لسوء تصرف وزيره (ناصر بن علي الدر كزيني) تلك القلاقل والاضطرابات التي عرضت

(١) هذا هو مارواه ابن البلخي صاحب (فارسنامه) الذي كان معاصرا لهذه الحوادث .
المؤلف

تلك الجهات لألوان شتى من الولايات بل ودمرتها تدميرا . إذ عمت البلاد
الفن وسادها الاضطراب ولاسيما خلال حرب (كرمان) . وحدث في تلك
الفترة أيضا حدث تاريخي هام جدير بالذكر ، ألا وهو انتصار (أبي طاهر محمد
الكردي) الذي كان في معية الأتابك (سنقر) السلغري ، والذي صار فيما
بعد حاكما مستقلا للركبير (على الشبانكاره في معركة حاسمه ؛ وبعد أن
انتصر عليها فرض عليها سلطانه ، وكان ذلك بسبب التجاء (زكي بن تكلا)
إلى حمى تلك العشيرة . ولنستعرض الآن العهد الذهبي لعشيرة الشبانكاره .
ذلك العهد الذي لم يعمر طويلا فنقول :-

استغل (قطب الدين مبارز) رئيس الشبانكاره وأخوه (قطب الدين محمد)
الذي كان أمير (ايغ = إيغ) الموقف الذي نشأ عن حالة الاضطراب والفن
التي برزت عقب زوال حكومة سلاجقة كرمان وماترتب على ذلك من انتشار
الفوضى واختلال جبل الأمن في تلك الأثناء ؛ حيث استنجد بهما الوزير
(ناصر الدين) ضد الغز فلبيا بجدته واستجابا لندائه ؛ ولكنهما قد بادرا إلى
احتلال مركز (برده سير) قبل أن يشتبك في قتال مع الغز وكان ذلك تنفيذا
لرغبة الأهالي وإن كان خلافا لرأي الوزير . وباستيلائهما على هذا المركز ، ضمنا
لنفسهما حكم بلاد كرمان أيضا في سنة (١٢٠٠م - ٥٩٧هـ) ؛ ثم اشتبك هذان
الأميران في حرب ضروس مع الغز ؛ وفي تلك الأثناء ساءت العلاقات بينهما
وبين أتابك فارس ؛ الأمر الذي اضطرهما إلى العودة سراعا إلى بلادهما تاركين
في كرمان نائبا عنهما من إحدى أسر كرمان القديمة ليدير دفة شئونها نيابة عنهم
فعاد الغز إلى النهب والسلب وتدمير البلاد ؛ وبما زاد الطين بلة أن أحد أمراء
كرمان المدعو (هرمز تاج الدين شهنشاه) قد اتفق مع الغز ، وتواطأ معهم على
تثبيت أقدامهم في البلاد ، فاضطر نظام الدين (١) إلى التحرك من (ايغ) والتوجه

لمقاتلة هذا الأمير وظل يقاتله حتى قضى عليه ؛ ثم أخذ في مطاردة الترك (الغز) حتى شئت شملهم شذر مذر .

ولم يمض على هذا طويل وقت حتى دخل نظام الدين بلدة (برده سير) ثانية وقد تملكه الزهو وداخله التيه والاستخفاف بالأمور ، فما كان من أعدائه إلا أن تربصوا له حتى باغتوه ذات ليلة ، وألقوا القبض عليه وعلى أولاده ، وكان ذلك في عام (٦٠٠) للهجرة . ثم هاجموا أمراء المبارزية جميعهم وضيقوا عليهم الحصار . وفي خلال هذه الحوادث ظهر على مسرح السياسة رجل آخر ، ألا وهو (عجمشاه) ابن الملك (دينار) الذي كان مؤيدا ومحميا من قبل (خوارزمشاه) ، والذي اتفق مع الغز وزحف معهم إلى بلاد كرمان ، وما أن تمكن منها حتى بعث بنظام الدين مقبوضا عليه إلى أتاك فارس ظنا منه أن عمله هذا سيقربه ، ويعجل به إلى القبض على زمام الأمور طواعية وبكل سهولة ، وأنه سيؤدي حتما إلى سقوط كرمان في يده سائغة خالصة له ولكن (سعد بن زنكي) أتاك فارس قد خيب ظنه ، وأرسل إليه يقول : قد أرسلت لك جيشا يقوده (عز الدين فضلون) قائد جيش فارس كي تسارع حامية كرمان إلى التسليم . وجاء هذا الجيش فعلا واستولى على مدينة (كرمان) وانتزعها من أيدي الشبانكاره . وقد قدم في هذه الأثناء (المبارز) أخو (قطب الدين) للنجدة والانقاذ ولكن دون جدوى ومن غير ظائل اللهم إلا إحداث الدمار والحراب في شرايين البلاد وبين أنحائها .

وفي (٦٥٨) للهجرة حينما أغار ، هلاكوا ، على تلك البلاد ، واستولى على ، وابتغ ، وقتل أمير الشبانكاره ، خضعت حكومة الشبانكاره ردحا من الزمن لسلطان الايلخانيين ثم لآل المظفر الذين قام ملكهم بفارس .

الفصل الثامن

٨ - « حكومة أتابكية اللر الكبير » (٥٥٠ - ٨٢٧ هـ)

أو

الحكومة الفضلوية

قامت هذه الحكومة في جنوب شرقي لرستان بإيران ، وعمرت مائتين وسبعة وسبعين عاما ، أي من عام (٥٥٠) حتى عام (٨٢٧) للهجرة . وكان إقليم (لرستان) يتألف منذ أواخر القرن الثالث الهجري من قسمين : (اللر الكبير ، واللر الصغير) حيث كان هناك أخوان يحكمان ذينك القسمين وهما (بدر) و (أبو منصور) وقد خلف بدر في اللر الكبير ، حفيده (نصر الدين) في الوقت الذي كان النصف من هذه البلاد يدين بالخضوع لأسرة من أكراد « الشول » كان زعيمها يدعى « سيف الدين » ، وهي الأسرة التي ترجع الروايات القديمة والأساطير حكمها لهذه البلاد إلى عهد الساسانيين .

هذا وفي أواخر القرن الخامس جاءت مائة أسرة كردية ، من موطنها الأول بجبل السحاق بشمالى سورية إلى لرستان ، وأقامت بجبل (أمعاد ؟) لدى (محمد خورشيد) وزير الملك نصير الدين (١) وكان زعيم هذه العشيرة الكردية يدعى (أبو الحسن فضلوى) .

(١) تقول دائرة المعارف الاسلامية (ج - ٣) ان هذه العشيرة الكردية بزعامة (فضلوى) وصلت أولا إلى (ميافارقين) ثم غادرتها إلى (آذربيجان و كيلان) وهناك اتفقت مع (ديباجى) حاكم (كيلان) واستقر بها المقام إلى أن كان عام (٥٠٠) للهجرة حيث عادت فغادرت تلك البلاد إلى الهضبة الشمالية (شتران كوه) بلرستان .

(١) - « أبو طاهر محمد »

كانت فارس تخضع للحكام السلغريين (١) في تلك الاثناء ، فدخل (أبو طاهر محمد) حفيد « أبي الحسن فضلوى » هذا - وهو متصف بالبسالة الفائقة - في خدمة حكام فارس الذين كان بينهم وبين ولاية « الشبانكاره » عداً مستحكما ونزاع شديداً فعمد حاكم فارس الى تجريد حملة عسكرية قوية بقيادة ابى طاهر محمد بن على بن ابى الحسن فضلوى ، على حكومة الشبانكاره . فانتصر أبو طاهر في حملته انتصارا باهرا ، وعاد ظافرا منصورا ، فأعجب به حاكم فارس « أتابك سنقر » وسر منه أيما سرور ، وأسبغ عليه من فيض عطفه حيث أقطعه - بناء على طلبه - ناحية « كوه كلوى = كوهجيلويه » وأصبحه جيشا لغزو لرستان ، في عام ٥٥٤٣م وقد أخذ أبو طاهر يعمل بالتدريج على بسط سلطانه على لرستان بالحرب والقتال تارة ، وبالسلم وإتباع أساليب الدهاء والسياسة تارة أخرى ، حتى انتهى به المطاف إلى إعلان استقلاله وانفراذه بالحكم في غير ماخضوع لأحد .

وهكذا تم وضع أساس الحكومة الفضلوية بفضـل مهارة وبسالة « أبى طاهر محمد » الذى عاش حتى عام « ٥٥٥ » حيث وافاه الأجل المحتوم فمات تاركا من ورائه خمسة أولاد ذكور وهم : هزار أسب ، بهمن ، عماد الدين بهلوان ، نصره الدين أيلواكوش ، قزل بچم . وقد تم الاتفاق بين الابن الأكبر وأخواته على أن يتولى هو الحكم بعد أبيه .

(١) مؤسس هذه الحكومة هو (سنقر) أحد القواد السلجوقيين ، وضع أساس حكومته عام ٥٤٢ للهجرة ، وقد عمرت حتى عام ٦٨٦ للهجرة حيث نالت أخيرا لقب أتابك من السلطنة السلجوقية .
المؤلف

(٢) - « أتابك هزار أسب »

كان حاكما عاقلا وعادلا ، تقدمت البلاد في عهده تقدما محسوسا نحو
ال عمران والرخاء ، وقد وفدت إلى لرستان ، في عهده بضع عشائر كردية من
جبل السحاق بشمال سورية ، وكان من بين هذه العشائر بعض عشائر عربية
أيضا . وفيما يلي أسماء هذه العشائر حسبما ذكرت في تاريخ « كزیده » الفارسي :
آسوكي ، مما كونه ، لعله مما كويه ، بختاري (١) ، هراسلي ، سداسان ،
زاهدیان ، علاني = آلاني ، كونوند ، بي وند ، بدائي ، بوازي ، شنويد ،
راكي ، جاكبي (٢) ، هارمي (٣) ، أسبكي (٤) ، كفي (٥) ، شمس (٦) ، نخوتي ،
كما كشي (٧) ، مامهسي (٨) ، أوبلكي (٩) ، ليراوي ، دلكي ، تواني كيا ،
مديحا كورد ، كولارد . . الخ

ولقد ازداد موقف « هزار أسب » قوة بفضل تأييد هذه العشائر له ، وبهذا
تمكن من طرد الأسيرة الشولية من لرستان نهائيا ، واستخلاص البلاد بأسرها
لأسرته ، كما اتسعت رقعة بلاده حتى بلغ امتدادها إلى مسافة أربعة فراسخ من
« أصهان » ، مما حدا بأتابك تكاه السلغري إلى تجريد بضع حملات عسكرية
عليه للحد من نفوذه والقضاء على قوته ، بيد أنه أخفق في جميع محاولاته
فكان الفشل حليف كل ما وجهه من حملات .

وهكذا كان يعلو شأن (هزار أسب) يوما بعد يوم . وقد تقدمت
في عهده التجارة والزراعة في البلاد ، واتسعت معالم النهضة العمرانية ، فمن
إنشاء القرى والمدن والمؤسسات الخيرية إلى تنفيذ مشاريع عامة في طول

(١) بختياري (٢) خاكي (٣) هاروني (٤) أشكي (٥) كوبي (٦) تحسفي
(٧) كما نكش (٨) مامهسي (٩) أوملكي ه من (كتاب كردل ص ٩٧ ، ٩٨)
المؤلف

البلاد وعرضها ، وأخيرا أوفد (هزارأسب) ابنه إلى بلاط الخليفة العباسي
الناصر لدين الله ، ملتصقا بمنحه لقب « أتابك » ، فتكرم الخليفة ومنحه هذا
اللقب وبعث اليه بالخلع وبرائة اللقب ، ولم يقتصر عمل (هزارأسب)
السياسي على هذا فقط ، بل نجح أيضا في توطيد دعائم الصداقة وصلات
المودة مع السلطان محمد الخوارزمي بمصاهرة كريمة حيث زوج ابنته للامير
(غياث الدين) ابن السلطان الخوارزمي .

وقد لحق (هزارأسب) بالرفيق الأعلى في عام (٦٥٥) (١) بعد قرن
من الزمان قضاه في الجهاد وبث روح العمران ونشر ألوية السلام في كافة
شرايين البلاد (ويبدأ هذا القرن من عام (٥٥٥ هـ) حتى عام (٦٥٥ هـ) (٢)
إذا كان تاريخ الوفاة هذا صحيحا)

(٣) — « أتابك تيكاه »

هو ابن « هزارأسب » ، وأمه من أسرة « السلغريين » ، حكام فارس . وما
أن ترامى نبأ وفاة (هزارأسب) إلى فارس حتى سارع الأتابك (سعد)
السلغري إلى تجريد حملة عسكرية على (تيكاه) قوامها ألفان من الجنود تحت
قيادة ابن عم هزارأسب يدعى « جمال الدين عمر » ، لاسترداد حق الأسرة
الشولية المسلوب ، وعلى مقربة من قلعة (يروته) ، اصطدمت هذه الحملة

-
- (١) في دول اسلامية — أنه توفي سنة ٦٥٠ تقريبا . المترجم
(٢) تذكر (دائرة المعارف الاسلامية) هذا التاريخ مبدأ لجلوس الأتابك
(تيكاه) وتاريخا لوفاة سلفه (هزارأسب) ، ويظهر أنه غير صحيح لأن (تيكاه)
كان بعد بضع سنوات من قيام حكومته وخوضه غمار حروب كثيرة ، في
معية (هلاكو) حين اقتحامه بغداد في شهر المحرم من عام ٦٥٦ للهجرة .
(١٦ كانون الثاني سنة ١٢٥٨)
المؤلف

بقوات (تيكله) التي لم يكن يربو عددها على الخمسمائة فارس ، ودارت بين الفريقين رحى معارك دامية أسفرت عن اندحار (تيكله) في بادىء الأمر ، ولكن القدر ساعده أخيرا فجعل الظفر يتحول في النهاية إلى جانبه ، وقد ساعده على هذا إصابة قائد جيش خصمه ، بسهم في مقتله فخر صربعا يتخبط في دمه ، الأمر الذي أدى إلى اندحار خصمه بعد أن كان النصر حليفه في بداية المعركة . ولقد جرد السلغريون - بعد هذه المعركة - ثلاث حملات عسكرية أخرى على (تيكله) ولكن واحدة منها لم تكمل بالنجاح .

وبعد ذلك استقرت الأمور للاتابك (تيكله) ، فشرع في توسيع حدود بلاده ، وزحف على مقاطعة اللر الصغير ، وانتزع بعض النواحي من أيدي حاكمها (حسام الدين خليل) . ثم حدث بعد ذلك - لأسباب مجهلة - أن بعث خليفة بغداد بحملة عسكرية على لرستان ، تحت قيادة كل من (بهاء الدين كرشاسب) و (عماد الدين يونس) ، فأنزل هذا الجيش اللجب الدمار ببعض بلدان هذا الاقليم العامر ، وأسر أخا تيكله في حومة الوغى وألقى به سجينا في قلعة (لاهوج) ، وفي تلك الأثناء كان (تيكله) يعيد تنظيم جيشه ويلم شعثه ، حتى إذا فرغ من إعداده ، سار على رأسه لمقابلة العدو المغير على بلاده ، وقد أسفر القتال الذي نشب بينهما عن اندحار الجيش المغير وخذلانه ومقتل (عماد الدين يونس) وأمر (بهاء الدين كرشاسب) الذي أطلق (تيكله) سراحه أخيرا على شريطة إطلاق سراح أخيه .

وفي عام (٥٦٥٥) حينما زحف ملك المغول (هلاكو) بسبيله الجارفة وجحافله المدمرة على بغداد عاصمة الدولة العباسية ، كان أتابك (تيكله) يصحب هذه الجيوش الجرارة في معية (هلاكو) حيث أدخله في تومان = فرقة (كيتوقابوس = كيتموقا) ، وذلك كي يضمن (تيكله) حماية أملاكه والمحافظة على كيان دولته . بيد أن فاجعة (بغداد) قد كان لها أسوأ الأثر في نفسه ولا سيما

قتل الخليفة والاسراف في سفك دماء المسلمين ، وقد أبدى استيائه وبالغ تأثيره من ارتكاب تلك المآسي في شتى المناسبات ، فترامى نبأ ذلك إلى مسامع (هلاكو) فغضب أشد الغضب ، وأسره في نفسه ، ولكن أتاك ، تيكاه ، كان على علم بغدر (هلاكو) وشديد بطشه ، وبأنه لا يرعى إلا ولا ذمة فانتهر الفرصة وفر هاربا إلى (لرستان) مقر ملكه ، ولكن (هلاكو) كان له بالمرصاد فأرسل في أعقابه حملة عسكرية يقودها (كيتو قابوس) لالقاء القبض عليه في عقر داره . وما أن سرى نبأ هذه الحملة إلى لرستان حتى تقدم (شمس الدين آلب أرغون) من أخيه قائلا له : إن المصلحة تقتضي أن ترسلني إلى هلاكو كي أسعى لديه حتى أوفق بينكما ليعود الجيش المغولي من حيث أتى ، فصادف هذا الاقتراح هوى في نفس (تيكاه) وتقبله قبولا حسنا ووعد أخاه بالآينبري لقتال المغول حتى يعود هو إلى لرستان . ولما وصل شمس الدين إلى مرج ، فهركه ، في حدود لرستان اعترض جيش المغول سبيله ، فحاول أن يفهم قواد الجيش مقصده وليكنهم أصموا آذانهم عن الاستماع إلى كلامه وقبضوا عليه وقيدوه بالسلاسل والأغلال وقتلوا جميع المرافقين له ثم استأنفوا الزحف على لرستان ولقد خشي تيكاه مغبة الأمر فأقلع عن مقاومة المغول خشية أن يقتلوا أخاه المعتقل ولجأ إلى قلعة « جاينخشت » رافضا الاستسلام إلى المغول على الرغم من وعودهم وعهودهم المتكررة بالابقاء عليه والمحافظة على حياته حتى جاءه خاتم الأمان من هلاكو نفسه فنزل من القلعة وسلم نفسه لقواد الحملة الذين أرسلوه بدورهم إلى (نبرين) وهناك صلبوه حائشين بوعودهم وبموثيقهم . وقد تمكن رجاله من أخذ جثته سرا وعادوا بها حيث دفنوها في لرستان .

(٤) - « أتاك شمس الدين آلب أرغون »

نصبه (هلاكو) أتاك وحاكما على لرستان بعد مقتل أخيه (تيكاه) ،

وأصدر أمره بعودة الجيش من لرستان ولما جاء الأتابك الجديد إلى البلاد ألفاها خرابا يبابا ، حيث كان المغول قد عاثوا فيها فسادا وعانت البلاد على أيديهم ألوانا من الظلم والبؤس والشقاء ؛ مما ألجأ الأهالي والسكان إلى الاعتصام بالجبال والوهاد . وقد عاد هؤلاء السكان إلى مواطنهم وأخذوا في تعمير البلاد وزراعتها وإنعاش التجارة ، فانتعشت البلاد في فترة وجيزة انتعاشا قل أن يتيسر مثله في البلاد المجاورة . وكان الأتابك يمضي أيام الشتاء في مدينة (ايدج = ايزاج) و (سوس) وفي أطراف (شستر = تستر) ، في حين كان يقضي أيام الصيف في الجبال الكائنة حوالى منابع نهري (شستر) و (زنده رود) الشهيرة بتدفق مياهها وغزارة غياضها وباسق أشجارها وحدائقها الغناء التي كانت تبدو كقطعة من جنة الخلد ومثلا مجسما للفردوس . وهكذا قضى (شمس الدين آلب أرغون) أيام حكمه في هدوء ودعة وسعادة وهناءة إلى أن توفاه الله إلى رحمته بعد أن تربع على أريكة الحكم خمسة عشر عاما .

(٥) - « أتابك يوسف شاه »

كان في بلاط (أبقاخان) عند ما توفي والده ، وبعد أن مضى شهر على هذه الوفاة أصدر (أبقاخان) مرسوما بتعيينه خلفا لأبيه على حكومة لرستان ولكنه لم يذهب إلى مقر ملكه بل آثر البقاء في عاصمة الأمبراطورية المغولية مع مائتي فارس من رجاله مكثفيا بتعيين وكيل عنه في (لرستان) . وقد اشترك بجيشه اللورى في حروب (أبقاخان) ضد (براق خان) فأبدى فيها شجاعة فائقة وبسالة نادرة ، كما أنه قد اصطحب (أبقاخان) ولازمه في حروبه في كيلان والديلم ، بل كان له الفضل في إنقاذه من ورطة كادت تودي بحياته : خلاصتها أن جماعة من الفدائيين من الديلم قد باغتت (أبقاخان) في إحدى المعارك الحامية الوطيس وأحاطت به من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، فما كان من (يوسف شاه) إلا أن انقض على هؤلاء المغيرين وردمهم

على أعقابهم خائبين مدحورين ، مما أثار إعجاب (أبقاخان) وسروره منه وجعله ينعم عليه بمقاطعات خوزستان بأكملها و (كوه كيلويه) ومدينة (فيروزان) و (جرباذقان) الواقعة على مسافة سبعة فراسخ من شمالى أصفهان وذلك مكافأة له على صنيعه وجزاهم وفاقا لما قدمت يداه . وقد أغار (يوسف شاه) بعد هذه المعركة بمدة على (كوه كيلويه) وشن هجوما على الشولية القاطنين بجهة « مامه ساني » وتمكن من قتل أخى حاكمها .

وبعد أن انقضت أيام « أبقاخان » ، وولت ، وخضع شرقي إيران لأحمد تكودار ، ساءت العلاقات بين « يوسف شاه » وبين « أرغون خان » خليفة « أبقاخان » ومع ذلك لم ينتقض عليه ، بل إنه قد اضطر إلى الاشتراك والمساهمة في حروب « خراسان » ضد « أحمد تكودار » بقوة من ألفى فارس وعشرة آلاف من المشاة . ولما أسفرت هذه الحروب عن إلحاق الهزيمة بجيش « أحمد تكودار » في عام (٦٨٣ هـ) ، عاد الجيش اللورى إلى لرستان عن طريق « تاباس » و « نوتانزا » محترقا الصحارى الشاسعة التى لا ماء فيها ولا أثر للحياة .. عاد هذا الجيش بعد أن مات الكثيرون من رجاله من شدة العطش والأعياء ، كما ذهب « يوسف شاه » إلى لرستان بأمر من « أرغون شاه » ليحل محل « صاحب الخواجه (شمس الدين) » وهنالك تزوج بكريمة « صاحب ثم التى قبض عليه وأرسله إلى « أرغون شاه » وقد عاد « يوسف شاه » إلى لرستان نائيا بعد شهادة الخواجه « شمس الدين » وظل بها مقبلا حتى توفاه الله إلى رحمته .

(٦) — « أتابلك أفراسياب »

وبعد وفاة « يوسف شاه » عين ابنه « أفراسياب » خلفا له ، وقد أرسل « أفراسياب » أخاه « أحمد » إلى عاصمة المغول ، وبقى هو فى لرستان يصرف شئون الحكم ، وكان ظالما فتاكا لا يخاف الله ولا يتقيه فى عمله ، حيث شرع

يصب جام غضبه وينزل المظالم والعقاب على رموس الذين يخالفون أهواءه
من رجاله هزاز أسب ، ، وألتي القبض على الوزراء أمثال ، الخواجه نظام الدين
وجلال الدين وصدر الدين ، ، وصادر أمواهم ، ثم ما لبث أن قتلهم ملتصا
أسباب ومعاذير ما أنزل الله بها من سلطان ؛ ثم نفى رجال هؤلاء المنكوبين
وذوى قرباهم إلى ، أصفهان ، ولكنهم لم يحدوا من نشاطهم ضده ، فأرسل
من ورائهم من يتعقبهم ويتتبع آثارهم . وفي هذه الأثناء هلك (أرغون خان)
فثار زعماء بعض البيوتات القديمة بأصفهان وقتلوا الوالي المغولي ، فاتهمز
، أفراسياب ، هذه الفرصة وعين من أقربائه ورجاله ولاية وحكاما للمقاطعات
الممتدة من همدان وفارس حتى الخليج الفارسي راميا من وراء ذلك إلى
القضاء على نفوذ المغول ، وقد أسند إلى جلال ابن الأتابك (تيكه) قيادة حملة
عسكرية جردها للمحافظة على ، كوه رود ، ، وهناك اشتبكت هذه الحملة في
قتال عنيف مع المغول أسفر في بادئ الأمر عن هزيمة المغول ، ولكن
انغماس جنود الحملة في أعمال النهب وإمعانهم في السلب قد أعطى الفرصة
للمغول المنهزمين فأعادوا تنظيم صفوفهم وكرروا عليهم بغتة فأنزلوا بهم هزيمة
منكرة . ولما ترمى نبأ هذه الحوادث إلى مسامع الامبراطور ، كيخاتوخان ،
أرسل قوة عسكرية يقودها الأمير ، طولداي ايداجي ، وتتألف من جيشي
المغول والبر الصغير لمناوأة ، أفراسياب ، وقتله ، فلم يستطع الأتابك
الصمود أمام المغيرين ولجأ إلى قلعة ، جايينخست ، وقتل الكثيرون من أهالي
، لرستان ، خلال هذه المعارك والحادثات ، كما لجأت جموع غفيرة منهم إلى
الجبال والوهاد فرارا من مظالم المغول الذين أسرفوا في القتل والنهب والتدمير
إلى أن أحاطوا بالقلعة وأرغموا أفراسياب على التسليم وأرسلوه إلى العاصمة
حيث تدخل هنالك في الأمر لصالحه كل من (أروك خان) و (بادشاه خاتون)
فعفا عنه الامبراطور وأعيد إلى مقر حكمه بلرستان ، فرجع إلى سابق عهده

من الظلم والجبروت ومصادرة الأموال والحريات والقضاء على كبار رجال الدولة وأبناء البيوتات الكبيرة .

ولما تولى (غازان خان) حكم الأمبراطورية ، عطف على (أفراسياب) في بادئ الأمر ، فأولاه ثقته ، ولسكنه عاد أخيرا فسحب هذه الثقة منه وقتله وكان ذلك في عام (٦٩٦) للهجرة على أثر اندحار (هوركوداك) أمير فارس في القتال الذي نشب .

(٧) - « أنابك نصره الدين أحمد »

تولى الحكم سنة (٦٩٦ هـ) بعد أخيه (أفراسياب) وظل متربعا على أريكته حتى عام (٧٣٠) للهجرة في رواية. أو عام (٧٣٣ هـ) في رواية أخرى ؛ وقد أمضى أكثر أيام حياته في بلاط الأيلخانيين ، وكان حاكما عاقلا مدبرا ومجبا لرعيته ، وفق في فترة وجيزة إلى خلق نهضة عمرانية في البلاد ، وإلى القضاء على آثار الخراب الذي كان قد أصابها في عهد سلفه ، فاستتب الأمن ، وعم الرخاء وازداد دخل الدولة وتحسنت حالتها المالية. وقد عين ابنه (عماد الدين بهلوان) نائبا عنه في حكم (لرستان) ، كما أنه نصب (خسرو شاه بن الملك حسام الدين) قائدا للجيش ، وهكذا نظم الأمور وساس البلاد بحكمة وأدار دفة شؤونها بحزم ، مما جعل البلاد كلها تشعر بالأمن التام والرفاهية الكاملة. وكان (نصره الدين) يحب العلم والعلماء ويقربهم إليه دائما ويشجعهم . ومن آثار ذلك تأليف « ملا فضل الله بن عبد الله القزويني » لكتابه (تاريخ المعجم في آثار ملوك المعجم (١)) باسمه واهدائه إليه . كما أن كتاب

(١) طبع بفارس سنة ١٢٨٠. وجود بدار الكتب المصرية المترجم

(بجمع الأنساب (١)) قد لقب هذا الحاكم العادل الحازم بلقب (بير) . ويقول الرحالة ابن بطوطة ان أتابك (نصره الدين) هذا قد أنشأ في عهده مائة وستين مدرسة ، كان أربع وأربعون منها في مدينة (ايزاج) بينما كان البعض منها منتشرا بين العشائر في أماكن مختلفة في الجبال (٢) .

(٨) - « أتابك ركن لدين يوسف شاه الثاني »

دام حكم هذا الاتابك من سنة (٧٣٣) حتى سنة (٧٤٠) وكان حاكما عادلا عاقلا مدبرا حازما . ويقول كتاب (مجمع الأنساب) إن سلطان هذا الاتابك كان يمتد حتى البصرة وخوزستان و (لاموستان = لارستان) وفيروزان

٩ - « مظفر الدين افراسياب الثاني »

كان اسمه أحمد ، وهو ابن يوسف شاه الثاني ، أخوه حسب رواية ابن بطوطة ، وكانت رحلة ابن بطوطة لهذه البلاد في عهد هذا الحاكم ، ويرى الشيخ محمد الحضري أن حكمه قد دام حتى عام ٧٥٦ للهجرة (٣) وليس في متناول أيدينا معلومات شافية عن حكام هذه الأسرة المتأخرين

(١) لمحمد بن علي شبانكاره . (مخطوط) المترجم

(٢) يوجد في تاريخ كزيده تفصيل عن هذه الحكومة حتى آخر عهد الاتابك (نصره الدين) ولكنني استقيمت المعلومات عنها بعد هذا التاريخ من دائرة المعارف الاسلامية وترجمة كتاب (كردلر) للدكتور فريج .

(٣) يقول الدكتور فريج ان هذا الاتابك كان معاصرا لتيمورلنك وإنه كان قائدا من قواده ، في حين تفصل بين عهد هذا الاتابك وبين عهد تيمورلنك ، فترة مداها أربعون سنة . المؤلف

فقد خلت المصادر من أخبارهم اللهم إلا ما ذكره « ميرزا اسكندر » معتمدا على روايات المؤرخين المعاصرين لذلك العهد وهو كما يلي :

(١٠) - « نور الودود »

لقد خلف هذا العاهل أفراسياب الثاني في الحكم ، وكان مسرفا متلافا مبددا للاموال لا يقف في سبيله شيء ، وهكذا قضى على خزينة الأتابكية في فترة وجيزة ، ويؤخذ من رواية رواها « جهان آرا » أنه اتخذ (محمد مظفر) حاكم فارس ولدا له ، ٧١٣ - ٧٦٠ .

(١١) - « شمس الدين بشنك »

المعروف أنه ابن يوسف شاه الثاني (١) وخلف (نور الودود) ، وقد استمر حكمه حتى عام (٧٨٠) للهجرة ، وقد أصيبت البلاد في عهده بأضرار جسيمة على أيدي « آل المظفر » بشيراز حيث اتخذ الشاه منصور المظفرى « شستر » قاعدة لأعماله الحربية ضد (لرستان) مما أدى الى قيام « الشاه شجاع » ببنجدة الأتابك بشنك وشد أزره ، لأنه كان ينافس الشاه منصور في الحكم وقد عثر في « إيزاج » على قطع من النقود باسم الشاه شجاع يرجع تاريخها إلى سنتي ٧٦٢ ، ٧٦٤ للهجرة

(١٢) - « بير أحمد »

تولى الحكم في لرستان بعد وفاة « بشنك » وقد حدث أن نشب قتال بينه وبين أحد أفراد أسرته المدعو « ملك هوشنك » أسفر عن قتله في المعركة

(١) يقول الشيخ محمد الحضري في محاضراته إنه كان يدعى شمس الدين هوشنك ، وإنه ابن ابن أفراسياب الثاني .
المؤلف

ويروى بعضهم أن كلا من بير احمد وهوشنك كانا أخوين وكانا ابنين لنور الودود ، وقد أخرج الشاه منصور المظفرى بير احمد هذا من لرستان وعين أحد زعماء اللور حاكما بدله وبهذا انتهت أيامه ودالت دولته

وفي عام (٧٩٥) للهجرة حين مر « تيمور » بلرستان ، خف اليه (بير احمد) واجتمع به في مدينة « رامهرمز » ثم في « شيراز » حيث قدم له فروض الولاء والطاعة فأكرمه تيمور وأضفى عليه سابغ عطفه حيث أبقاه على عرش آبائه وأجداده ، وسمح له بإعادة نقل ألفى أسرة لورية - كانت مبعدة بأمر من الشاه منصور - الى لرستان : ثم أخذ تيمور معه الى « سمرقند » كلا من « أفراسياب » أخى « بير احمد » و « الشاه منصور » كرهينة لديه

وبعد فترة من الزمن قسم « تيمور » لرستان الكبير بين بير احمد وأخيه أفراسياب وبعد وفاة تيمور أسر الميرزا بير محمد ، بير احمد هذا في (كوهان دز) وقد تمكن من أن ينتزع مقاليد أمر لرستان لنفسه في عام (٨١١) للهجرة ، ولكنه ما لبث أن قتل إبان ثورة داخلية اشتعل لهيها في البلاد بعد ذلك .

(١٣) - « أبو سعيد »

هو ابن (بير احمد) وقد لبث في شيراز عامين كرهينة ، ثم تولى الحكم بعد وفاة والده ، وقضى نحبه في عام ٨٢٠ للهجرة .

(١٤) - « الشاه حسين »

كان ابنا لأبى سعيد وخلفا له ، وقد حدث بعد توليه حكم لرستان أن نشب قتال عنيف بينه وبين (غياث الدين كاوس) أحد أفراد أسرته أسفر عن قتله أثناء المعركة ، وكان ذلك في عام (٨٢٧) للهجرة .

(١٥) - « غياث الدين كاوس »

كان ابنا لهوشنك ، وقد تمكن من انتزاع الحكم لنفسه من (شاه حسين)

ولكن لم يمض على حكمه طويل وقت حتى غزا (سلطان ابراهيم بن شاه رخ ابن تيمولنك) لرستان ، وقضى على الحكومة الفضلوية نهائيا ، فنتج عن ذلك انتقال الحكم إلى أيدي رجال العشيرة البختيارية .

ملحوظة :

إن كتاب الدكتور (فريج) الألماني الذي ترجمته إدارة المهاجرين العامة بتركيا وطبعته ونشرته باللغة التركية ، إذا كانت ترجمته صحيحة ومطابقة للاصل ، فالذي لا شك فيه أنه يحمل بين طياته أفكارا وآراء مغرضة عن الكرد لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، ويكاد العدا يظهر في ثنايا كل سطر من سطور ه فهو أبعد ما يكون عن التاريخ الذي يجب أن يكتب كما هو ، دون تحيز وبكل نزاهة ودقة ، لا بتغيير الحقائق فضلا عن تشويهها وقلبها رأسا على عقب ، كما حدث من استغلاله لمجرد مشابهة لفظية عثر عليها بأن جعل فضلوى من أسرة تركية لا كردية مخالفا بذلك روايات ونصوص المعاصرين من المؤرخين التي سجلها كتاب (كزيده) وغيره من الكتب التي يعول عليها ، والظاهر أنه تردد في القول بهذه النظرية الغريبة ، فاضطر أخيرا لأن ينسب غلبة (أبي طاهر) وانصاره إلى قائد جيش الترك ، وهكذا استرسل في العدا وطمس معالم الحقيقة بل وأنكر وجود الشعب الكردي وقوميته البارزة في مختلف عصور التاريخ .

ورغم ذلك فإن التاريخ ليعترف ويهتف بأعلى صوته بأن هذه الحكومة المحلية كانت كردية لحما ودما ، وأنها عاشت مستقلة مائة عام أو أكثر ، منذ ظهور (أبي طاهر) على مسرح التاريخ حتى ظهور شبح المغول في العالم الاسلامي . وبعده خضعت للمغول ثم للتيموريين شأنها في ذلك شأن سائر الحكومات الشرقية .

الفصل التاسع

٩ - حكومة اللر الصغير (٥٧٠ - ١٢٥٠ هـ)
أو

الأسرة الخورشيدية

كانت العشائر اللورية وغيرها من العشائر بشمال (لرستان) وشماله الغربي تعيش حتى أواسط القرن السادس الهجري عيشة قبلية، تستقل كل عشيرة وكل أسرة منها بشؤونها الخاصة. وفيما يلي بيان بأسماء عشائر ذلك العهد حسب رواية تاريخ (كزيده):

داوودي، عباسي، محمدكوماري، كروهي، جنكروني (هذه العشائر هي أصل اللر الصغير حيث كانت الإمارة فيهم، وهي من فرع السلغريين) وهنالك عشائر أخرى غير تلك التي ذكرناها مثل: كارندي، جنكردي، فضلي سنوندي، آلافي، كاهكاهي، رجواركي، دري، براوند، مابكي، داري آبادكي، أبو العباس، علومائي، كجائي، سلسكي، خودكي، بندوني، إلى غير ذلك، أما عشائر (ساهي، أرسان، أركي، يهي) فهي وإن كانت تنكلم اللهجة اللورية إلا أنها لم تكن من اللر، كما أن سكان القرى هم الآخرون فلم يكونوا يدخلون في عداد اللور.

هذا ولم يكن لهذه العشائر جميعها إدارة خاصة حتى منتصف القرن السادس الهجري بل كانت خاضعة للحكومة المركزية في بغداد مباشرة.

ففي عام (٥٥٠ هـ) عين تركي أفشاري يدعي (حسام الدين سوهلي) حاكما للر الصغير وخوزستان من قبل السلجوقيين، وكان أجداد الأسرة

الخورشيدية^(١) في معية هذا الحاكم الساجوقى ، وكانوا لورا من عشيرة الجنكروى ، وكان (شجاع الدين خورشيد بن أبى بكر بن محمد بن خورشيد) من آل خورشيد يحتل مع أخيه (نور الدين محمد) مكانة سامية لدى (حسام الدين سوهلى) ، فكان (شجاع الدين خورشيد) محافظا من قبله لقسم من اللرا الصغير .

(١) - « شجاع الدين خورشيد »

تولى حكم اللرا الصغير بأكمله على سبيل الاستقلال به ، بعد وفاة (حسام الدين سوهلى) فى عام (٥٧٠ هـ) وكان يرأس عشيرة (جنكروى) التى تنتمى إليها أسرة (شجاع الدين خورشيد) وقتذاك ، (سرخاب بن عيار) الذى كان منافسا وخصما لشجاع الدين ، ولهذا جرد عليه (شجاع الدين) جيشا حاصره فى (دزى سياه = القلعة السوداء) واضطر أهالى (مانرود) كلها للهجرة والرحيل ، مما أدى إلى تدخل خليفة بغداد فى الأمر ، وبذل وساطته لحسم النزاع فأمر (شجاع الدين) بأن ينازل عن قلعة (مانكاره) فقط ، وأن يرجع عن خصمه فأطاع (شجاع الدين) أمر الخليفة الذى كافأه على طاعته إياه باسناده حكم ناحية (طرازك — بخورستان) إليه^(٢)

-
- (١) تقول « دائرة المعارف الاسلامية » انه كان هنالك قبل تشكيل دولة « أتابكية اللرا الكبير » فى هذه البلاد ، حاكم له وزير يدعى « خورشيد » ويظهر أن لخورشيد هذا علاقة بخورشيد رأس الأسرة الخورشيدية .
- (٢) يذكر تاريخ « كزبده » هذه الواقعة بشكل آخر فيقول : ان شجاع الدين تمكن من سرخاب حتى سلم له بمحافظة « مانرود » ثم أرسل شجاع الدين =

ويحدثنا تاريخ (كزیده) عن البقية الباقية من أيام (شجاع الدين) فيقول بأن هذا الأمير كان طاعنا في السن ، ولهذا كان يلزمه دائما في غدوه ورواحه كل من ابنه (بدر) وابن أخيه (سيف الدين رستم) ، ويقومان بتنفيذ أوامره وفي هذه الأثناء كانت عشيرة (بيات) مستولية على أجزاء من بلاد لورستان فقام بدر وسيف الدين بمهاجمة هذه العشيرة وأخرجها من لرستان بعد قتال عنيف طال أمده . وكان (شجاع الدين) قد عين ابنه (بدر) وليا لعهد علي أن يكون (سيف الدين رستم) وليا للعهد من بعده ، بيد أن سيف الدين قد افتري فرية على (بدر) وتوسل بها لقتله . وقد علم شجاع الدين أخيرا بخفايا هذه الجناية المرعبة ولكن القدر لم يمهلها بعدها فتوفي إلى رحمة الله في عام (٦٢١ هـ) عن أكثر من مائة عام . وكان حاكما عادلا أحبه الناس في حياته وبعد مماته حيث أضحى قبره مزارا يحج إليه اللوريون بكل تجلته واحترام وله حرمة وقداسة وشهرة عظيمة . إذ كان رحمه الله يمضي أيامه في رحلات صيفية وشتوية

ابنيه « بدر و حيدرا » بجيش جرار إلى عشيرة جنكروى فنازلاها وحاصرا قلعة « دزسياه » وقتل « حيدر » في المعركة مما أثار نقمة « شجاع الدين » على أفراد هذه العشيرة وجعله يقتل كل من يقع في يده منهم حتى ثار جميع أهالي (مانرود) وأخذوا يجلبون عن أوطانهم ، وبعد مد دعاهم مركز الخلافة للشول بين يدي الخليفة فذهب إليه كل من (شجاع الدين) وأخيه (نور الدين) فطلب اليهما إخلاء قلعة مانكاره من رجالها فرفضا طلبه فزج بهما في غيابة السجن ، ومات نور الدين في السجن بعد أن أوصى أخاه بالأيترك القلعة لأحد قط ، ولكن شجاع الدين لما أيقن بالألأ نجاة له من السجن إلا بترك القلعة عرض على المسؤولين بدار الخلافة أن يتركها على أن يعوض عنها بقلعة « طرازك » ، فقبلوا طلبه . وأطلقوا سراجه ، فعاد إلى « لرستان » في عام (٥٩٠) للهجرة حيث حكم البلاد بعد ذلك مدة ثلاثين عاما أخرى . المؤلف

فكان يقيم صيفا في (كيرت) ، وشتاء في قرية (دهلوران) = دهلوران
في بشتكوه) ، ولكن العاصمة كانت مدينة (خرم آباد) .

٢ - « أتاك سيف الدين رسم »

هو ابن (نور الدين محمد) ، وقد نال لقب أتاك ، ونشر لواء العدل ،
وحقق المساواة بين الناس . وهناك قصص حية تدل على ما كان يسود البلاد
في عهده الزاهر من هناة ورفاهة . وهو الذي أصدر أمرا بمنع الاغارات
المشينة التي كانت القبائل دائبة على شنها دون هوادة ، مما أثار عليه نقمة بعض
الزعماء وغضبهم ، فالتفوا حول أخيه (شرف الدين أبو بكر) ، وتربصوا له
حتى دخل الحمام ذات يوم فانقضوا عليه انقضاض الصاعقة ، ولكنه تمكن
من الفرار من بين براثنهم بأعجوبة ، فتعقبوه وطاردوه حتى قتلوه هو وابن
أخيه (علي بن بدر) .

٣ - « شرف الدين أبو بكر »

كان عهد هذا الأمير مليئا بالدسائس والنزاع والمنافسة والعداء المستحکم
بين أعضاء الأسرة المالكة .

٤ - « عز الدين كرشاسب »

هو أخو (شرف الدين أبو بكر) ، وقد تزوج امرأة أخيه ، ملكة
خاتون ، أخت (سليمان شاه) قائد الخليفة المستحکم .
وما أن علم (حسام الدين خليل بن بدر) الذي كان مقيما منذ أمد في
بغداد ، بأن (عز الدين كرشاسب) أصبح حاكما لرستان حتى خف سراعا
إلى خوزستان ، وهناك حشد جيشا تقدم به نحو (لرستان) ، وكان (عز الدين

على يقين بأن لا قبل له بمقاومة هذا الجيش الجرار . إلا أنه اضطر لذلك اضطرارا تحت تأثير امرأته وأخته ، ولما رأى الجيش اللورى ، ألا طائل من وراء التصدى لهذا الجيش ، إنحاز إلى المغيرين ، فاضطر عز الدين للتسليم والتخلى عن الحكم ، فدانت أمور البلاد لحسام الدين وتربع على أريكة الحكم .

○ - « حسام الدين خليل »

هو ابن (بدر بن شجاع الدين خورشيد) ، كان قد لجأ إلى بغداد بعد مقتل والده . ولما دانت له الأمور واستولى على حكومة اللر الصغير كما بيناه ، عين (عز الدين كرشاسب) وليا لعهدده ، ولكنه عاد فدعاه إليه وقتله لأسباب ومعاذير انتحلها ما أنزل الله بها من سلطان : ولما ترامى نبا ذلك إلى مسامع امرأة عز الدين (ملكة خاتون) عمدت سرا إلى إرسال ثلاثة أبناء لعز الدين كانوا ما يزالون أطفالا - إلى أخيها شهاب الدين سليمان شاه (١) . ومن هنا بدأ العداء ينشب أخفاره بين حسام الدين وسليمان شاه لدرجة أنه حدث في خلال شهر واحد أن نشب بينهما قتال لعدة مرات لهذا السبب . وفي النهاية حاقت الهزيمة بسليمان شاه ، وأدى هذا الخذلان إلى دخول قلعة (بهار) وبضعة بلدان أخرى من مقاطعة (كردستان) في حوزة حسام الدين . وأخيرا قام سليمان شاه على رأس حملة عسكرية كبيرة ، تعضده دار الخلافة لمهاجمة (حسام الدين) ، فالتقى الجمعان بسهل (شاپورخواست) ودارت بينهما رحى معركة طاحنة أسفرت عن مقتل (حسام الدين خليل) وانتصار خصمه ، في عام (٦٢٠) للهجرة .

(١) هو سليمان بن برجم الايوأى مقدم الطائفة الايوأية التركمانية كما في ملحق تاريخ العراق للمازوى نقلا من نهج البلاغة .
المرجم

٦ — « بدر الدين مسعود »

كان أخا لحسام الدين . وقد ذهب إلى بلاط (منكوخان) بعد مقتل أخيه ورفع إليه شكايته وعرض عليه أمره ، ثم جاء إلى إيران مع (هلاكو) حين زحفه على بغداد . ولما قتل (سليمانشاه) في حادث استيلاء المغول على بغداد ، عمده (بدر الدين مسعود) إلى نقل أسرة سليمانشاه وذوي قرباه معه إلى لرستان . وبعد أن حكم البلاد ستة عشر عاما توفي إلى رحمة الله عام (٦٥٨ هـ) . وكان أميراً عادلاً عاقلاً عالماً تقياً رحماً باراً بالرعية ، وبارعاً في فقه الشافعية . وبعد وفاته ، دب ديب الخلف ونشب القتال بين اثنين من أبنائه وبين (تاج الدين شاه) ، وظل القتال محتدماً إلى أن جاء (أبقاخان) وتدخل بين الفريقين ، وأصدر أمراً بقتل ابني (بدر الدين مسعود) ، وبإسناد حكم البلاد إلى (تاج الدين) .

٧ — « تاج الدين شاه »

حكم هذا الأمير البلاد سبعة عشر عاماً ، وكان حازماً في إدارته وعادلاً في حكمه يقول صاحب كتاب (عالم آراي عباسي) في المجلد الثاني منه ان هذه الأسرة الخورشيدية كانت تلقب بالعباسية أيضاً ، وذلك راجع إلى أن بلادها كانت من أملاك الخلفاء العباسيين خاصة . وأخيراً في عام (٦٧٧) للهجرة قتل (أبقاخان) هذا الأمير أيضاً .

٨ — « فلك الدين وعز الدين »

بعد أن قتل (أبقاخان) ، الأمير (تاج الدين شاه) ، عمده إلى تنصيب (فلك الدين) و (عز الدين) ولدى (بدر الدين مسعود) حاكمين على البلاد

وتنفيذا للأرادة الايلخانية المغولية كانت إدارة الشؤون المالية مسندة إلى (فلك الدين) في حين كان يقوم أخوه (عز الدين) بإدارة شؤون الأملاك الخاصة بالحاقان (السلطان الأعظم). وقد قام هذان الأخوان بتصرف شؤون بلستان، خمسة عشر عاما بكل حكمة وجدارة، حتى أصبح للبلاد قوة عسكرية يعتد بها، قوامها سبعة عشر ألف مقاتل. كما نجحا في طرد البياتيين من بلستان، عن آخرهم، وفي توسيع حدود البلاد حتى بلغ امتدادها إلى (شستر) و(همدان) و(أصفهان) من ناحية، ثم إلى العراق العربي من الناحية الأخرى فكان الأمير (فلك الدين) عاقلا وعالما مطالعا، في حين كان الأمير (عز الدين) طاغيا جبارا قهارا، ومع ذلك لم يكن لهذا الاختلاف بين، بين الأخوين أية تأثير على إدارة شؤون البلاد، فقد حكما البلاد بالعدل والمساواة فكانت راية السلام ترفرف في الداخل على الجميع بلا استثناء، كما كانت العلاقات الخارجية طيبة، مع الدول المجاورة وتسودها المودة والصدقة.

ومن المصادفات العجيبة أن هذين الأخوين قد انتقلا سويا إلى رحمة الله في عام واحد هو (٦٩٣ هـ).

٩ - « جمال الدين خضر »

كان ابنا للأمير (تاج الدين شاه)، وقد أصدر (كيخاتوخان) مرسوما بتعيينه حاكما على البلاد، ولكن ظهر له منافسان قويا الشكيمة وهما (حسام الدين عمر) حفيد (بدر بن شجاع الدين خورشيد) و(شمس الدين الياس) فأخذا يعرقلان جهوده، ويناوآنه وينازعانه الحكم والسلطان حتى انتهزا بالتعاون مع المغول المحتلين للبلاد، خروجه ذات يوم للصيد والقنص فاغتالوه ومن معه من خدامه وهكذا انقرضت ذرية حسام الدين خليل، من البلاد في عام (٦٩٣) للهجرة.

١٠ - « حسام الدين عمر »

تولى هذا الأمير مقاليد الأمور قوة واغتصابا ، وقد نازعه الحكم وناصبه العدا ككل من « صمصام الدين محمود » ، و « نور الدين محمود » ، نجلى « عز الدين كرشاسب » ، وسائر أقاربه ، وكان « حسام الدين » يعتز بالمغول ويعتمد عليهم بينما كان كافة الأمراء من آل خورشيد يعضدون « صمصام الدين محمود » ويشدون أزره ، لأنه كان أميرا شجاعا راجح العقل . وقد استطاع في فترة وجيزة حشد جيش لجب زحف على رأسه من حدود « خوزستان » إلى ناحية « خرم آباد » ، مما أدى إلى تنازل (حسام الدين عمر) عن الحكم لصمصام الدين

١١ - « صمصام الدين محمود »

انقضى عهد هذا الأمير في فتن داخلية ومنازعات طاحنة بين الأقارب وذوى الرحم حول تولى الحكم . وقد قتله (غازان خان) في عام (٦٩٥) للهجرة .

١٢ - « عز الدين أحمد ^(١) »

كان ابنا للأمير محمد بن عز الدين حسين بدر الدين مسعود ، وقد عين حاكما على (لرستان) بعد صمصام الدين وهو ما يزال طفلا ، ولهذا أبي ابن عمه (بدر الدين مسعود بن فلك الدين حسن) أن يخضع له بحجة أنه أكبر منه سنا وأكثر شدا ، مما حمل (أولجايتو خان) ^(١) على تعيين ابن عمه هذا أتايكا وحاكما على (دلار) ^(١) . وترك قسم (انجو) من البلاد تحت حكم (عز الدين) الذي انفرد

(١) في (شرفنامه) « عز الدين محمد » لا « أحمد » والسلطان (محمد خداينده) لا (أولجايتو خان) و (ولاي) لا (دلار) .
المترجم

بحكم كافة بلاد المر الصغير بعد وفاة ابن عمه (بدر الدين) هذا .

١٢ - « دولت خاتون »

تولت الحكم في البلاد بعد وفاة زوجها الأمير (عز الدين أحمد) ، ولكنها لم تتمكن من مباشرة شئون الدولة كما يجب بسبب تدخل المغول (١) وتقول رواية من الروايات ان هذه الملكة تخلت عن الحكم بعد فترة ، لعز الدين حسين (ويروى شرفنامه أنه أخرها . المترجم) بسبب زواجها من يوسفشاه أتابك المر الكبير .

١٤ - « عز الدين حسين »

اعترف السلطان أبو سعيد بحكومة هذا الأمير التي عمرت أربعة عشر عاما

١٥ - « شجاع الدين محمود »

جاء في رواية للدكتور فريج أن هذا الأمير قد حاول الاستقلال بشؤون البلاد وعدم الاعتراف بسلطة المغول ، ولكن الشعب قد أبى أن يسايره في تحقيق هذه الرغبة ، وامتشق الحسام وقاومه حتى أزاله من الوجود .

ولكن كتاب (شرفنامه) يقول انه ابن الأمير السابق ويرجع مقتله إلى خلاف من نوع آخر نشب بينه وبين الأهالي . ومهما تعددت الأسباب وتباينت فالثابت أنه قد قضى عليه في عام ٧٥٠ للهجرة .

(١) يذكر تاريخ (كزیده) حوادث هذه الدولة حتى عهد (دولت خاتون) هذه ، أما الباقي فماخوذ من دائرة المعارف الاسلامية ، ومن مؤلف الدكتور فريج أي الترجمة التركية باسم (كردلر) . المؤلف

١٦ - « الملك عز الدين بن شجاع الدين »

كان ما يزال طفلا لم يتعد الثانية عشرة من عمره حين وفاة والده . وفي سنة ٨٧٥ للهجرة وصل (شاه شجاع) من آل مظفر بجيشه إلى (خرم آباد) وتزوج فيها من إحدى بنات الملك عز الدين ، وقد تزوج من الأخرى السلطان أحمد الجلايري حاكم بغداد . وفي عام (٧٨٨) للهجرة حينما وصل (تيمورلنك) إلى إيران كان لرستان الصغير يسوده اضطراب وقلق ، فبادر تيمور إلى الزحف من فيروزكوه إلى لرستان ، وحاصر خرم آباد أمدا قصيرا ثم ما لبث أن استولى عليها وخرّبها ، ثم أعمل السيف في رقاب الناس حتى قضى على جميع رؤساء اللرو على رجالهم البارزين ، فعم الخراب والدمار جميع البلاد من أقصاها إلى أقصاها .

وتقول بعض الروايات . ان الملك عز الدين وولده (سيد احمد) أسرا في قلعة (رميان) الواقعة على مقربة من (بروجرد) ، فاعتقل هو في (سمرقند) وإبنته في قلعة (أندكان) على مقربة من همذان . ثم أرسل إلى لرستان بعد ثلاث سنوات وقد أبدى الملك عز الدين هذا نشاطا محسوسا في أيام زين العابدين من آل المظفر . وفي عام (٧٩٥) عاد تيمورلنك إلى إيران ، وجعل البلاد في هذه المرة خرابا يبابا بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ ، كما أغرق لرستان في بحار من الدماء ودمرها تدميرا ، ومع ذلك لم يتمكن من القبض على الملك عز الدين ولا على إبنته انذى فر هاربا من البلاد . وقد استغل (محمد سلطان) حاكم فارس اضطراب جبل الامور في هذه البلاد في تلك الأثناء ، فجرد جيشا في عام (٧٩٨) للهجرة ، على خوزستان ولرستان واستولى عليهما . وتقول رواية أخرى ان تيمورلنك قد قبض على الملك عز الدين بن شجاع بعد مدة وقتله سنة (٨٠٤) .

١٧ - « الملك سيد أحمد »

كان مختفيا حين مقتل والده ، ثم خرج من مخبئه وظهر للعيان بعد أن انقضى زمن تيمورلنك وأسدل عليه الستار ، وأسس حكومته في لرستان من جديد عام (٨١٠) للهجرة ، وظل يحكم البلاد مستقلا حتى عام ٨١٥ للهجرة .

١٨ - « شاه حسين »

تولى زمام الحكم بعد وفاة أخيه (سيد أحمد) ، وانهز فرصة النزاع الناشب بين أحفاد (تيمور) وشرع في توسيع حدود مملكته حتى امتدت إلى (همدان) و (جرباذقان) و (أصفهان) . وقد غزا إقليم (شهرزور) أيضا ، بيد أن القدر قد قسا عليه فأوقعه أسيرا في أيدي عشيرة (بهارلو) فكانت هذه نهايته ، حيث قضى عليه في عام (٨٧١) للهجرة .

١٩ - « شاه رستم »

كان ابنا لشاه حسين ، وقد تولى الحكم بعد والده ، ولما رجع الشاه اسماعيل الصفوى من فتح بغداد إلى (حوزة) حشد جيشا مؤلفا من عشرة آلاف رجل بقيادة (حسن بك لالا) و (بيرام بك قرمانلو) ، وجرده على (شاه رستم) الذى اضطر إلى الاعتصام بالجبال لأنه لم يستطع الصمود أمام هذا الجيش العرمرم ، ولما ضاقت به السبل بادر إلى التسليم ، وجاء للقاء الشاه اسماعيل الذى منحه عنوه وأظهر تقديره له وأعاده حاكما على لرستان . (١)

(١) يقول (تاريخ عالم آراى عباسى) ان « شاه رستم » كان ذا حمية طويلة ، وقد أمره الشاه اسماعيل أن يزينها بالدرر والجواهر ويحضر إلى بلاط الشاه على هذه الصورة ، فنفذ أمر الشاه . (ج - ١) المؤلف

٢٠ - «أوغوزخان»

كان ابنا لشاه رستم ، أسند إليه الشاه (طهماسب) قيادة جيش إيران وفي الحق أنه كان قائدا مغورا وجنديا صنديدا ، وقد زحف في عام (٥٩٤٠) بجيش لجب إلى ماوراء النهر لمنازلة (عبد الله خان أذربك) الذي كان قد وصل وقتذاك إلى (خراسان) مهددا إيران كلها بالخطر الداهم والشر المستطير وكان أوغوزخان قد ترك أخاه (جهانكير) نائبا عنه في لرستان ، طيلة أيام حروبه في خراسان وماوراء النهر فما كان من هذا الأخ إلا أن انتهر فرصة تغيب أخيه عن البلاد وانشغاله في الحروب ، وسارع بإعلان استقلاله بلرستان بمساعدة الشعب الذي آزره وأيده بجميع قواه ، ولما عاد (أوغوزخان) من ميدان الحرب اشتبك مع أخيه في حروب داهية أسفرت عن قتله خلال إحدى المعارك .

٢١ - «جهانكير»

عالج هذا الأمير شئون الحكم مستقلا ودون منافس بعدمقتل أوغوزخان بضع سنين لم يحدث خلالها توتر في العلاقات بينه وبين الدولة الصفوية ، والسر في ذلك هو أنه لما وصل الشاه (طهماسب) إلى تلك البقاع عام ٩٤٨ لتأديب (علاء الدولة رعناش) والي (ديزفولي) فقد سارع (جهانكير) إلى بلاطه ، وقدم له فروض الولاء والانخلاص والاجلال .

ويقول (اسكندر منشي) في المجلد الثاني من كتابه ان (جهانكير) قد انقلب أخيرا وشق عصا الطاعة على إيران ، فجرد عليه الشاه (طهماسب) الأول جيشا لجبا بقيادة (عبد الله خان استاجلو) ، ودارت رحى معركة طاحنة بين الفريقين أسفرت عن قتل (جهانكير) واندحار جيشه ، وانطلق الجيش الإيراني في سرايين البلاد يعيث فيها فسادا ، وقتل الكثيرين من الأبرياء حتى جعل البلاد قاعا صفصفا .

وقد لجأ كل من (شاه رستم) وأخيه (محمدي) ولدي (جهانكير) إلى بلاطه

بغداد ، وبعد فترة توسط لهما (سيد أمير) لدى الشاه ، فعفا (١) عن شاه رستم ولكن رغبته الملحة في الاستقلال وسعيه الخيبي المتواصل لتحقيقه أدى في النهاية إلى إلقاء القبض عليه وقتله في عام ٩٤٩ للهجرة .

(٢٢) - « شاه رستم الثاني »

كان هذا الأمير ابنا لجهانكير ، وقد اعترف الشاه (طهماسب) بحكومته دون رغبة أو ارتياح ، لأن حكام (لرستان) ما كانوا ينقطعون أو يكفون عن أحداث القلاقل وإشعال نار الفتن في سبيل نزعتهم الاستقلالية ، الأمر الذي دفع الشاه (طهماسب) إلى القضاء على هذه الأسرة القديمة لاسيما وأن شاه (رستم) لم يكن له سوى أخ صغير وحيد . فأوعز في يوم ما إلى الأمير (مسلم كودرزي) أحد أمراء (شاه رستم) بأن يخدع سيده ويستدرجه إلى طهران . فحقق الأمير طلبه الشاه (طهماسب) الذي تمكن بتلك الحيلة الجهنمية من إلقاء القبض على (شاه رستم) والزج به في غياهب السجون . ولما أدرك الشعب اللوري الغرض الذي يرمى إليه الشاه (طهماسب) من وراء هذا العمل بادروا إلى نقل (محمدى) الصغير أخي (شاه رستم) إلى قلعة (چنكوله = شنكوله) وإخفائه فيها ، وتولت حراسته قوة عسكرية يعتد بها . وهكذا لبثت البلاد بغير حاكم بضع سنين . وإذا برجل يظهر فجأة مدعيًا بأنه (شاه رستم) وأنه تمكن من الفرار من السجن . وكان الرجل يبدي معرفة تامة بالبلاد ، فضلا عن أنه كان يشبه (شاه رستم) تمام الشبه لدرجة أن نساءه

(١) ولكن نفس المؤرخ (اسكندر منشى) يقول ان الشاه (طهماسب) بعد ان عفا عنهما ، قسم بلاد لرستان الصغير بين (شاه رستم) واخيه (محمدى) ، في حين أن دائرة المعارف الإسلامية تقول غير هذا القول . المؤلف

أنفسهن لم يفتن إلى كذب هذا الدعى الأفاك . وهكذا تم احياء حكم ومقرستان من جديد ولكن بشكل آخر .

ولما ترامى نبأ ذلك إلى مسامع الشاه (عباس) تملكه الغضب ، وأطلق سراح (شاه رستم) الحقيقى على الفور ، وسلمه مرسوما باسناد الامارة اليه وأمره بالعودة سراعا إلى لرستان ، وما أن وطئت قدماه أرض البلاد حتى انكشفت حقيقة الأمير الدعى الكذاب ، فقبض عليه وقتل . وهكذا عاد الحق إلى نصابه ، وتولى الأمر صاحبه الشرعى .

وفى خلال تلك الحقبة كان أخوه الأمير (محمدى) قد شب وكبر والتف حوله أنصار كثيرون ، يطالبون له بالامارة ، وكاد القتال ينشب بين الأخوين لهذا السبب لو لا تدخل بعض الزعماء بينهما ، وقد أدى تدخلهم إلى عقد صلح بين الأخوين أشرط فيه بقاء أربعة أسداس البلاد تحت إمرة (شاه رستم) وتسليم السدسين الباقين إلى أخيه (محمدى) وقد تلا عقد الصلح فترة سكون وهدوء ولكن الأمير (محمدى) لم يكن ليقنع بنصيبه ، وما فتئ يحدث القلاقل ويشير الاضطرابات ضد أخيه حتى دبر له أخوه (شاه رستم) مكيدة للتخلص من متاعبه ، فدعاه ورجاله ذات يوم إلى وليمة كبرى وما أن حضروها واجتمع شملهم حتى ألقى القبض عليهم وزج بهم فى غياهب السجن .

وكان للامير محمدى هذا ثلاثة أبناء ، ما أن علموا بما آل اليه أمر أيهم حتى شقوا عصا الطاعة ، وأقضوا مضاجع كل من (شاه رستم) والشاه (طهماسب) فأصبحت البلاد بالنكبات ولقى الناس الكثير من الولايات ولحققتهم الاضرار من جراء ذلك ، ولم يقف زعماء اللور مكتوفى الأيدي أمام هذه الحالة المثيرة

(١) يقول المصدر السابق انه قبض على (محمدى) من قبل أمير خان الموصلو وحبس فى قلعة آغوت . المؤلف

فاجتمعوا وفكروا في إيجاد وسيلة لاختتام نيران الثورة وقطع دابر الفساد من البلاد ، فما وجدوا وسيلة أنجع من إصدار قرار باعادة (محمدي) إلى الحكم وأرسلوا بمحضر اجتماعهم مشفوعا برأيهم إلى بلاط الشاه وقد وافق الشاه على هذا الرأي ونفذ طلبتهم بشرط إرسال أبناء (محمدي) إلى طهران كرهائن لديه ، وهكذا أطلق سراح (محمدي) ولكن لم يمض على اطلاق سراحه طويل وقت حتى انتهز أبناؤه فرصة سنحت لهم ففروا من طهران ورجعوا إلى أبيهم ، ثم أخذ محمدي في مضايقة شاه رستم وإيغار صدره من جديد ومنازعة الحكم حتى تمكن من انتزاع لرستان من يده والانفراد بالحكم ، ثم تطورت العلاقات بين محمدي وبين البلاط الإيراني فأصبحت ودية للغاية ، كما أنه حسن علاقاته أيضا بالعثمانيين حيث أنشأ صلوات طيبة بينه وبين سلطانهم « مراد ، الثالث ، كان من نتيجتها أن ضمن للرستان الصغير حماية الدولة العثمانية سنة ٩٩٢ هـ وضم نواح (مندلي و بدره و جسان و تورساق) إلى بلاده .

بيد أنه لم يمض على هذا طويل وقت حتى ساءت علاقاته بالدولة العثمانية فاضطر إلى التفاهم مع شاه ايران ورفض حماية العثمانيين الذين غضبوا لذلك وأمروا حاكم بغداد العثماني بالزحف على لرستان لتأديب حاكمه فنفذ الأمر ولكنه أخفق في مهمته

(٢٣) - «شاه ويردي»

كان (شاه ويردي) رهينة في بغداد حين وفاة والده (محمدي) وما أن علم بوفاة والده حتى أخذ يفكر في وسيلة للخلاص حتى تهيأت له أسباب الفرار وتمكن من الوصول إلى لرستان في الوقت المناسب واعتلى عرش أبيه واعترف له الشاه (محمد خدا بنده) الصفوي بالحكومة والامارة .
ويقول « تاريخ عالم آراي عباسي ج - ٢ » ان (شاه ويردي خان) كان

قد ذهب إلى همدان حين هاجم الجيش العثماني (نهاوند) واستولى عليها ، ولما ترامت الأنباء إلى همدان بأن (سنان باشا) قائد الجيش العثماني متجه صوب (همدان) ، كاشف حاكمها بأن الجيش الإيراني قليل العدد لا يعول عليه ولا يمكن الصمود به أمام جحافل العدو ونصح له بعدم التصدي لهذه الجحافل المتدفقة . ولكن حاكم (همدان) قد أصم أذنيه عن الاستماع إلى هذه النصيحة السديدة وخاض غمار الحرب فوق أسيرا في قبضة العدو ، وعاد (شاه ويردي) إلى لرستان . وفي خلال تلك الفترة حدثت هجرة عشيرة (قره أولوس) الضاربة في جهات نهاوند إلى بلاد لرستان فاضطر (شاه ويردي) إلى الترحيب بهم . وقد سلك مع العثمانيين مسلك المداراة وتصنع معهم السياسة رعاية لمصالحه ومحافظة على استقلال البلاد .

وفي العام الألف للهجرة (١٠٠٠ هـ) تحسنت علاقته بالحكومة الإيرانية حيث لم يجد من جانب الترك المعونة التي كانت ينتظرها منهم ، فزوج أخته شاه إيران ، وتزوج هو من إحدى أميرات الأسرة الصفوية الإيرانية . ولكن هذا التفاهم وذلك الانسجام لم يدوما طويلا ، إذ نشب القتال بينه وبين (اوغورلي سلطان) الباقى حاكم أصفهان حينما قدم إلى (بروجرد) لتحصيل الأموال الأميرية فقتل في إحدى المعارك الخاطفة . وكان الشاه عباس - وقتذاك - في خراسان ، وما أن ترامت أنباء هذا القتال المئيرة إلى مسامعه حتى عاد سراعا إلى لرستان لتأديب (شاه ويردي) الذي لم يصمد أمام الشاه ولجأ إلى الدولة العثمانية ، فقسم الشاه عباس بلاد لرستان إلى قسمين أحدهما يشمل منطقة (خرم آباد) وقد أعطاه لمهدي قلي خان شاملو وثانيهما ويشتمل على ما تبقى من البلاد أسنده إلى (سلطان حسين بن شاه رستم) . ونقل عشيرة (قره أولوس) إلى منطقة (عليشكر)

عام ١٠٠٢ للهجرة : ثم عطف على عشيرة (اليبات) فأديها تأديبا صارما . (١)
وبعد عام أصدرت الحكومة الإيرانية عفوها عن (شاه ويردى) على
أثر توسط كل من (اعتماد الدولة) و (فرهادخان) لصالحه ، فعاد إلى لرستان
بعد أن تعطف عليه الشاه بالانعامات والخلع السنية ، وأعاد إليه إمارة منطقة
(خرم آباد) .

وفي عام (١٠٠٦) للهجرة عاد الشاه عباس فجرده عليه حملة من أجل (خرم آباد)
فعمد (شاه ويردى) إلى الفرار واعتصم بقلعة « جنكوله » ، ولكن قوة من
حملة الشاه العسكرية يقودها (الله ويردى خان) قد تعقبته حتى القلعة ، وبعد صدام
عنيف وقتال قصير الأمد ألقت القبض على (شاه ويردى) وجيء به إلى الشاه
عباس في (صدمره) فأمر بقتله . وبعد مقتل (شاه ويردى) ولوان (حسين
خان بن منصور بك) صار حاكما على قسم من لرستان ، إلا أن (طهماسب قلى)
أعنى نادر شاه أقطع بلدان (الصيمرة وهيزماس وبشتكوه) لعشيرة (أينا نلو)
وهكذا أسدل الستار على حكومة (لرستان الصغير) وكان ذلك في عام
(٩٩٣ هـ - ١٥٨٥ م)^(٢) ومع ذلك تمكن أحفاد (شاه ويردى) من المحافظة
على إمارة صغيرة في (بشتكوه) ظلت في أيديهم وتعاقب عليها ابتداء من عهد
(حسين خان) حكام منهم ، عرفوا باسم الولاية : وهم حسين خان ، إسماعيل خان
أسد خان ، حسن خان ، كلب علي خان ، علي خان ، حيدر علي خان (هذان
الواليان الأخيران كانا ابني حسن خان المتوفى سنة ١٢٥٦ هـ = ١٨٤٠ م)
وحسين قلى خان و غلام رضا خان . (وفي عهد هذا الوالى الأخير وهو آخر
وال مستقل للورستان ، عمده (رضا شاه بهلوى) إلى ولاية لورستان فألغى

المؤلف

المرجم

(١) تاريخ عالم آراى عباسى جزء ثان .

(٢) كذا ، ولعله (١٠٠٤ - ١٥٩٥ هـ)

إمارتها المستقلة وربطها مع سائر الولايات الإيرانية بالحكومة المركزية .

ملحوظة :

إذا أمعنا النظر في أحوال هذه الحكومة العريقة في القدم لوجدنا أن فترة الاستقلال والحرية الكاملة لهذه الحكومة لم تعمر طويلا ، وكل ما في الأمر أنها تمتعت بالاستقلال التام في عهد (شجاع الدين خورشيد الثاني) لمدة ثلاثين عاما . إذ أفضى النزاع الداخلي بين أعضاء الأسرة المالكة حول الحكم إلى ضعف البلاد ، وانحلالها . وكان ولا يزال هذا الداء الاجتماعي الفتاك مستشرياً في كيان أغلب حكومات تلك العهود . ثم توالى إغارات المغول والتموريين على البلاد تلك الاغارات التي أكرهت الحكومة اللورية على التبعية والخضوع للمغول تارة والتموريين وأحفادهم تارة أخرى ، شأنهم في ذلك شأن سائر الحكومات وقتذاك . ومع ذلك فإنها توسعت كثيراً في الداخل وفي الخارج ، وأصبحت لا تقل شأناً عن حكومات المناذرة والغساسنة والحمدانيين وأتابكية (ديار بكر) و (ماردين) إذ امتدت رقعة أملاكها من نهر (قارون) إلى (شهرزور) ، ومن حدود العراق حتى (همدان) و (أصفهان) ولا شك في أنها كانت وحدة سياسية لها شأنها بالنسبة للزمن الذي كانت فيه قائمة

الفصل العاشر

١٠ - « الحكومات الايوبية » (٥٦٧ - ٦٨٥ - ٩٥٠ هـ)

(١) - من هو مؤسس هذه الحكومات ، وما اسم كل من والده وجده ،
ومن أين قدموا ؟

هذه الدولة أو الحكومات هي بحق أعظم الدول التي أسسها الكرد ، ولهذا
يجدر بنا أن نبحث بأسباب وإمعان في موضوع تأسيسها وفي أصل مؤسسها العظيم
وتحقيق نسبه . فتذهب (دائرة المعارف الاسلامية) إلى القول بأن جد
(صلاح الدين يوسف) مؤسس هذه الدولة، إن هو إلا (شاذى = شاذى) بن مروان
الذى كان من عشيرة الروادى (راوندى) الكردية القاطنة في منطقة (دوين)
وهذه العشيرة بطن من بطون قبيلة (أزبى - هازبى (١)) الكبيرة، ولاريب
في أن نسبة (شاذى) لمدينة (دوين) مسألة في غاية الأهمية . لأننا نعلم أن
الحكومة الشدادية الكردية قامت في مدينة دوين (٢) ولهذا ليس من السهل

(١) هي القبيلة الشهيرة باسم الهمذانية في أغلب المصادر العربية والاسلامية
ولكن (ابن خلكان) يضبطها هكذا (الهمذانية) . وهذا أقرب إلى الأصل
الكردى الذى هو (هذان - هزان - خيزان) إذلا يزال هو اسم طائفة من
الكرد جنوب بحيرة (وان) . وبلدة بشرق جنوب بدليس . المترجم

(٢) في الواقع أن مسألة (دوين) هذه مهمة جدا ، إذ كانت في منطقة
(أرييل) أيضا مدينة تحمل هذا الاسم وكانت عاصمة لحكومة (سوران)
الكردية ردحا من الزمن . . وكان قسم كبير من القبيلة الهمذانية الشهيرة
تسكن تلك الجهة في عهد الاتابكية ، ويظهر أن هنالك صلة وثيقة بين =

الاعتقاد بأن الناس في عهد (شادي) كانوا يجهلون أو ينسون ذكرى هذه الحكومة وما كان لها من خطورة الشأن . [من حيث إنها من أولى الحكومات الوطنية التي قامت في أقصى الحدود الشمالية لكرديستان . المترجم]

وذكر بعض المؤرخين كابن خلدون سلسلة نسب مفصلة لشادي حيث أوصلها إلى (عوف الحمير اللدومي؟) ولكن ليس لهذا أدنى نصيب من الصحة بل هو بعيد كل البعد عن الصواب ، إذ الحقيقة أن التاريخ يجهل اسم جد (شادي) (١) .

وقد ولد (أيوب) و (شيركوه) ابنا (شادي) في قرية (أجدانكان أو أجد نقان) ويقول ، القاضي ابن شداد ، وهو من صحب السلطان صلاح الدين ومؤلف كتاب (التوادر السلطانية) ان (نجم الدين أيوب) كان من (دوين) وكان واليا على (تكريت) ويؤيد نفس هذه الرواية أيضا ما قاله (تاج الدين شهنشاه الأيوبي) في كتابه التاريخ من أن (شادي) كان من أهالي (دوين) .

وجاء في رواية أخرى أن (نجم الدين أيوب) ولد في بلدة (شيختان) وعلى ما يظهر (شيخان) (٢) ونشأ وترعرع في الموصل ، وخدم السلطان

= (دوين) هذه وبين القسم المذكور من الهذبانية وأسرة « شادي » أيضا ، ولذا فهي في حاجة قصوى إلى تمحيص وتنقيب ، ويظهر أن لفظ « دوين » كردي ومعناه « الحديث أو السؤال »

المؤلف

(١) والده معروف وعلى رواية ابن خلدان يدعي « مروان » ج ٢ ص ٨٤ .
 (٢) في ابن خلدان « سجستان » ثم يضعف هذه الرواية ويقول ، وقيل انه ولد ببجل جور ورني بالموصل ...

المترجم

(محمد ملكشاه) الذي عينه محافظا لقلعة (تكريت) . اه من كتاب الحروب الصليبية ص ١١٢ .

وقصارى القول ان شادى - كما جاء في (دائرة المعارف الاسلامية) كان صديقا لهر روز الخادم الرومى الذى كان أستاذا لأبناء الملوك السلجوقيين . وذات يوم غادر (بهروز) هذا بلدة دوين إلى بغداد سرا ، وهناك تقدم بفضل مهارته ولباقته إلى السلطان « مسعود بن ملكشاه » السلجوقى فعينه محافظا لبغداد (١) ولم يلبث بعد توليه هذا المنصب أن بعث فى طلب صديقه (شادى) فلبى دعوته واستجاب لطلبته :

(٢) - كيف تقدموا ؟

غادر شادى جد صلاح الدين وطنه إجابة لرغبة صديقه مجاهد الدين بهروز ، واصطحب معه أسرته إلى بغداد ، وبعد حين تفضل السلطان مسعود ، على بهروز فأقطعته ولاية (تكريت) بصفة التملك ، وقد أناب مجاهد الدين بهروز صديقه شادى عنه فى إدارة أمور هذه المقاطعة وتصريف شئونها وبعد فترة من الزمن مات (شادى) ودفن فى هذه البلدة وعين ابنه الكبير نجم الدين أيوب خلفا له

وفى عام ٥٢٦ هـ اشتبك أنابك الموصل (عماد الدين زنكى) فى حرب ضروس فى جنوبى تكريت مع جيش للسلجوقيين ببغداد أسفرت عن هزيمته ، هزيمة منكروة واضطراره إلى التقهقر والفرار من الميدان إلى قلعة (تكريت) لاحثا إلى رحاب (نجم الدين أيوب) الذى أكرم وفادته وهيا له الكثير من المعابر من أرمات وأطواف سهلت له عبور دجلة ، الأمر الذى أدى إلى استيلاء حكومة بغداد وشدة غضبها على نجم الدين أيوب ولم يقف الأمر عند هذه الحادثة فحسب

(١) ويقول صاحب مرآة الزمان (٣ - ج ص ٥٨) ان (نهروز = بهروز) الخادم تعين شحنة لبغداد من قبل (محمد شاه السلجوقى) سنة ٥٠٧ هـ . المؤلف .

بل جددت حوادث أخرى ضاعفت نقمة حكومة بغداد ، منها أن (أسد الدين شيركوه) أخا (نجم الدين أيوب) قد أُردي ضابطاً من حامية تكريت قتيلاً فتزعزع من جراء ذلك مركز الأسرة بأسرها ، وتملك (بهروز) الخوف على مركزه ، خشية أن تطيح به هذه العاصفة فسارع إلى إقالة (نجم الدين أيوب) من النيابة عنه ، وأنذره بوجوب مغادرة (تكريت) على الفور ، فاضطر (نجم الدين) وأخوه وكافة أفراد أسرتهما إلى مبارحة (تكريت) ليلاً في دياجير الظلام ، متجهين شطر الموصل إلى رحاب (عماد الدين زنكي) معللين أنفسهم بأمل حسن وفادته لهم جزاء ما سبق أن أسدوه له من معروف .

ويقال ان صلاح الدين ، ولد بقلعة تكريت في عام (٥٣٢ هـ ١١٣٧ م) (وهو رأي استانلي لين بول أيضا) بينما يذهب بعضهم إلى أن (صلاح الدين) إنما ولد في نفس الليلة التي أمر (مجاهد الدين بهروز) فيها (نجم الدين) وأسرته بضرورة مغادرة (تكريت) ، الأمر الذي أوقع (أيوب) في حيص بيص ، وجر عليه الهم والقلق بسبب متاعب الهجرة المفاجئة ، والآلام التي نجمت عن الوضع في هذا الوقت الغير ملائم .

وما أن وصل (نجم الدين أيوب) وأسرته إلى الموصل ، حتى أكرم (عماد الدين زنكي) وفادتهم ، وتقبلهم قبولا حسنا واضعاً نصب عينيه ذلك المعروف الذي سبق أن أسداه له (نجم الدين أيوب) فيما مضى ، فأجرى له راتباً مناسباً ، ولقى الأخوان كل تجلة وإكرام في قصر (عماد الدين) ، وكان له الساعد الأيمن في بعض حروبه وفتوحاته . . . ، ولما نجح (عماد الدين) في الاستيلاء على قلعة (بعلبك) خلال هجومه العام على سورية عام (٥٣٤ هـ) عين (نجم الدين أيوب) محافظاً لها . هذا ولما لحق (عماد الدين زنكي) بالرفيق الأعلى وصعدت روحه إلى بارئها ، تقاسم أولاده بلدانه فيما بينهم ، وعلم (نجم الدين أيوب) أن جنود الشام مقبلون للاستيلاء على (بعلبك) فاستسلم

للأمر الواقع ، ولم يبد أية مقاومة ، بل رافقهم في العودة إلى الشام . وكان هذا التصرف من جانبه في منتهى الحكمة والكياسة . وهناك في بلاد الشام بسم له الحظ ، وأخذت ثقة ولاية الأمور فيه تزداد وتقوى على مر الأيام حتى عين أخيرا رئيسا على كافة جند الشام . وأما (شيركوه) أخوه فقد بقي لدى (نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي) وتبسم له الدهر هو الآخر فظل يتدرج في سلك الترقى حتى أصبح رئيسا لكافة جنوده وقد ظهرت مواهب نجم الدين أيوب ، الحرية وبراعته النادرة أثناء محاصرة الصليبيين دمشق الشام في حملتهم الثانية ، فقد أبدى نجم الدين وقتذاك من الشجاعة الفائقة ، والاستماتة في المقاومة ما حير الصليبيين وألحق بهم هزيمة منكرة ، وخسرانا مينا ، فأطاح بسيولهم الجارفة عن الشام إلى مسافات شاسعة .

وعلى الرغم من أن أمير الشام كان قد قدم فروض الطاعة لنور الدين محمود ، إلا أن هذا لم يحل دون تفكير نور الدين في إعادة الوضع إلى ما كان عليه في عهد والده ، عماد الدين زنكي ، وضرورة الاستيلاء على دمشق ، وما لبث أن جرد حملة في عام (٥٤٧ هـ) على دمشق بقيادة شيركوه ، الأمر الذي أوقع نجم الدين أيوب في مشكلة عويصة ، إذ وجد نفسه بين عاملين اثنين لاثالث لهما ولكن أيسرهما مر ، فاما الاتفاق مع أخيه وهذا ما لا يريد وإما الوقوف في وجهه . وهذا لا بد مؤد إلى محاربة نجل ولي نعمته وهو ما يحرص على تلافي الوقوع فيه . ، وأخيرا بعد أن أعمل الفكر وفق إلى حل وسط انتشله مما وقع فيه من حيرة ، وهذا الحل الوسط ، ما هو إلا اتباعه الطرق السلية لحل المشكلة ، ، فدخل فورا مع أخيه (شيركوه) في مفاوضات رسمية أفضت إلى دخول جيش (شيركوه) دمشق بعد ستة أيام من اجراء المفاوضات . وبعد فترة من الزمن عين السلطان نور الدين محمود ، نجم الدين أيوب حاكما على دمشق ، وقربه إليه واتخذ له خدنا وصفيا . وأخذت الأمور تجري على أعنتها وتسير على هذا المنوال ، حتى وقع اختيار السلطان (نور الدين) على

صلاح الدين بن أيوب لفتح مصر .

(٣) - « نشأة الأمير صلاح الدين »

أمضى (صلاح الدين) بضعة من سني طفولته في (بعلبك) . ولكن التاريخ للأسف يجهل تماما تفاصيل حياته الأولى هذه . ويقول (ستانلي) انه لا بد وأن يكون مثل (صلاح الدين) كمثل سائر أبناء الأمراء المسلمين الآخرين فتلقى العلم في المدارس الدينية ، وحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة . ولا شك في أنه أتم دراسة على الصرف والنحو على أيدي أساتذة خصوصيين في (بعلبك) ، وتزود بقسط وافر من سائر العلوم كمبادئ الشعر والانشاء وعلوم الحديث والقرآن وغيرها ، لأن والده وقد كان من عظماء الدولة ، كان في مكنته إحصار أساتذة اختصاصيين وعلماء لتثقيف ابنه ثقافة عالية ويقول صاحب كتاب (طبقات الشافعية) في هذا الصدد ان صلاح الدين تلقى علم الحديث على الحافظ أبي طاهر السلفي ، وأبي طاهر بن عوف ، والشيخ قطب الدين النيسابوري ، وعبد الله بن بري النحوي ، وآخرين من مشاهير علماء عصره . وكان يحفظ القرآن ، وكتاب (التبيين) في الفقه ، وبعض رسائل أخرى عن ظهر قلب . ويقف مؤرخو العرب مكتوفي الأيدي فلا يذكرون شيئا عن عهد (صلاح الدين) قبل سفره إلى مصر ، وان كان البعض من المؤرخين الغربيين قد ذكر أن (صلاح الدين) كان يواظب على مجلس (نور الدين) وكان يلقى من لدنه كل تجلوة كرام بصفته ابنا لحاكم دمشق . وكان شابا عاقلا ، نجيبا ، متدينا ، تقيا ، ويلوح أنه كان كسائر أنجال الأمراء في عصره يميل إلى الصيد والقنص . ولا شك في أنه كان يجيد لعب الكرة والصولجان ، ويشارك السلطان (نور الدين) أحيانا في هذا الضرب الشهير من اللعب . ويؤخذ من كتاب بعث به إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله ،

أنه شارك أباه وعمه - قبل سفره إلى مصر - في جميع غزواتهما وفتوحاتهما. وكما صرح صاحب كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبي) بأنه كان فارسا بارعا صديدا حسبما تقضى عليه قوميته الكردية .

ويقول القاضي (ابن شداد) في كتابه (النوادر السلطانية) ان صلاح الدين من يوم أن قدم من (بعابك) إلى دمشق الشام مع والده، كان يلازمه ويصطحبه في الحل والترحال ، فيتزود من فضله ، ويتبجح آثاره ويترسم خطاه ، حتى طبقت شهرته الافاق ، وذاع صيته ، فأقبل عليه السلطان (نور الدين) كل الإقبال ، وقربه إليه ، وكان يرفع من قدره ، يوما أثر يوم .

ويقول صاحب مرآة الزمان في (ج - ٣ ص ١٥٦) ان السلطان نور الدين عينه في سنة (٥٦٠) شحنة للشام .

(٤) - سفره الأول إلى مصر ،

لما استنجد (شاور) وزير الخليفة الفاطمي بمصر بالسلطان (نور الدين) سارع السلطان إلى إرسال حملة عسكرية إلى مصر عام (٥٦٢ هـ) (١) بقيادة (شيركوه) ، وكان الأمير (صلاح الدين) - كرهبة عمه - من بين قواد وضباط هذه الحملة ، وكان يقود فرقة الطليعة في هذه الحملة . ويقول (ابن شداد) أن أسد الدين شيركوه كان لا يبرم أمرا ولا يقدم على أي عمل من غير استشارة الأمير صلاح الدين ، لأنه كان يعتمد الاعتماد كله على رجاحة عقله وحسن تدبيره .

وما أن وصل (شيركوه) إلى مصر حتى ألحق بجيش ضرغام - خصم شاور - هزيمة منكرة في مدينة (بلبيس) وظل يتعقبه حتى ضيق عليه الحصار

(١) عام ٥٦٠ للهجرة في دائرة المعارف الاسلامية . [المؤلف] . وفي (ابن خلكان) روايتان احدهما سنة ٥٥٩ وهي الاصح والثانية سنة ٥٥٨ المترجم

في القاهرة نفسها ، وسرعان ما سقطت (الفسطاط) في قبضة (شاور) ووقع
ضرغام صريحا في المعركة ، وبموته خلا الجو لشاور الذي سولت له نفسه
الغدر بمن استعان بهم للقضاء على خصمه وحال بالفعل بين (شيركوه)
وبين دخول القاهرة ، مما أدى إلى قيام (شيركوه) بإرسال حملة عسكرية
بقيادة الأمير (صلاح الدين) إلى مدينة « بلبس » حيث استولت على الشرقية
وما أن طرق هذا النبا مسامع (شاور) حتى طلب النجدة من (أماريك)
ملك الصليبيين بالقدس للخلاص من (شيركوه) فأسعفه الملك الصليبي بحملة
عسكرية قوية ، وما أن وصلت هذه الحملة إلى مصر حتى وقع كل من شيركوه
وصلاح الدين بين نارى المصريين والصليبيين وظلا كذلك ثلاثة أشهر كاملة
وقد استماتا في الدفاع عن بلبس رغم اشتداد أوار الحرب وتهيها ، إلى أن
جدما أسرع بالحرب إلى نهايتها ، ذلك أن السلطان « نور الدين » كان قد
جرد وقتذاك حملة كبيرة وقادها بنفسه على مملكة القدس لتخفيف الضغط
على مصر وحاصر قلعة (بانياس) وما أن ترامى هذا النبا إلى مسامع ملك
القدس حتى ساورته المخاوف وسارع إلى الدخول في مفاوضات مع شيركوه
لعقد الصلح ، وتم الاتفاق بينهما على أن يجلو كل من جيشى الشام والقدس
عن البلاد المصرية . . . وتنفيذا لتلك الاتفاقية عاد « شيركوه » بجيشه
إلى الشام .

وبعد أن خلا المسرح من (شيركوه) ، اتصل (شاور) المخادع الماكر
بملك القدس وسمح له بإقامة حامية صغيرة من جنده في القاهرة ليستعين بها
على قضاء مآربه ويبدو جليا ما في هذا التصرف من نقض لشروط المعاهدة
التي جلا جيش الشام عن مصر بمقتضاها ، ولهذا استقر الرأى بين السلطان
(نور الدين) و (شيركوه) على الزحف إلى مصر مرة أخرى والاستيلاء
عليها نهائيا ، ووافق الخليفة العباسى فى بغداد على هذا القرار الحكيم والرأى
الصائب .

(٥) - صلاح الدين يسافر إلى مصر للمرة الثانية .

بعد أعوام ثلاثة من السفر الأول توجه (شيركوه) (١) ومعه الأمير (صلاح الدين) على رأس جيش من ألفين من أبرع الجنود الكرد المنتخبين إلى مصر ، وسرعان ما وصل هذا الجيش إلى أطفيح على بعد أربعين ميلا من القاهرة ، بعد أن لاقى ضروبا من المشاق وألوانا من الصعوبات والمتاعب ، ومن هناك تمكن من الوصول إلى الجزيرة حيث كان جيش ملك القدس معسكرا قبالة على الضفة اليسرى للنيل .

وفي هذه الأثناء عقد الملك (آرمون) ملك القدس معاهدة مع الخليفة الفاطمي دخلت مصر بموجبها تحت حمايته ، وعلى أثر ذلك اجتاز ملك القدس النيل بجيشه الجرار سرا إلى الضفة الأخرى ، وما أن رأى شيركوه ذلك حتى انسحب بجيشه صوب الصعيد فتعقبه ملك القدس حتى (البابين) (٢) حيث وقف شيركوه عن التقهقر وتبأ للطعان فالتقى الجمعان والتحم الفريقان ، وحى وطيس القتال بينهما ، وكان لمهارة الأمير (صلاح الدين) الفائقة في إدارة دفة الأعمال والخطط الحربية ولبسالته النادرة ، أكبر الفضل في إلحاق هزيمة ساحقة بجيش القدس ، مما أفضى إلى استيلاء جيش الشام فيما بعد على قلعة (الاسكندرية) الحصينة ، التي عهد شيركوه إلى صلاح الدين الدفاع عنها فكان هذا أول اعتراف بامارة صلاح الدين وأعقب هذا أن قسم شيركوه جيشه شطرين ، ترك الشطر الأول مع صلاح الدين وعاد بالشطر الثاني صوب صعيد مصر أما ملك القدس فقد رجع إلى القاهرة يجر أذيال الفشل والهزيمة وانفق

(١) أعني في سنة (٥٦٢ هـ) على أصح الروايات .

(٢) في ابن خلكان ، وكانت باطفيح وقعة الباقيين عند الاشمونيين . وفي

مع الحكومة المصرية على محاصرة الاسكندرية برا وبحرا وأرسل هو أسطولا من أساطيله إلى مياه الاسكندرية لشد أزر المحاصرين لها من البر ، إلا أن الأمير (صلاح الدين) قد دافع عن القلعة دفاع الأبطال ، وتصدى لجيشي مصر والقدس ، فأبدى ضروبا من الشجاعة الفائقة والمقاومة الرائعة خلال فترة الحصار التي دامت سبعين يوما حيث كان يصد الهجمات البرية والبحرية كالهزبر آناء الليل وأطراف النهار . وكان (شركوه) حينذاك قد توجه صوب العاصمة (القاهرة) وضرب نطاق الحصار عليها في (بركة الحبشة) مما أدى الى انتشار الذعر والخوف بين صفوف أعدائه فطلبوا الصلح على شريطة خروج كل من جيشي القدس والشام من مصر ، وعدم التدخل في شئونهم مستقبلا وفي أثناء مفاوضات الصلح على هذا الوضع الذي ارتضاه الطرفان ، أمضى صلاح الدين بضعة أيام لدى ملك القدس في معسكره بجوار الاسكندرية فاتهز هذه الفرصة بطبيعة الحال ودرس عن كشب الأنظمة العسكرية عند هؤلاء الأجانب .

وتنفيدا لشروط الصلح جلا كل من الجيشين عن مصر وانهى عهد احتلالهما لها ، ولم يمض طويل وقت على عقد هذا الصلح حتى طمع الملك (أماريك) في الاستيلاء على مصر ، فزحف عليها بجيش عرمرم ، وتمكن من الاستيلاء على (بلبيس) وواصل التقدم إلى الأمام مسرفا في سفك دماء كثير من المصريين من بينهم جم غفير من النساء والأطفال

وفي هذه المرة لم يجد الخليفة الفاطمي بمصر مندوحة من الاستغاثة والاستنجاد بالسلطان نور الدين فبعث اليه بكتاب خاص وضع طيه خصلة من شعور نساء المسلمين للدلالة على أن الحالة قد وصلت بالمسلمين فوق ما يطيقون ، وأنهم جميعا في أمس الحاجة إلى حمايته وعطفه ونجدته ، أما (شاور) وزير الخليفة الذي كان نسيج وحده في الدهاء والمكر والذي كان لا يشق له

غبار في الحياة والخذاع ، فقد عمد كعادته إلى مصانعة ملك القدس ، ومحاولة خداعه باطماعه في مال مصر وثروتها ، ثم دخل معه في مفاوضات لعقد الصلح وكان يهدف من وراء ذلك إلى كسب الوقت حتى تصل النجدة من لدن السلطان (نور الدين) ، وكان له ما أراد ، فقد توقف ملك القدس فعلا على بعد خمسة أميال من القاهرة ، حيث دارت بينهما المخابرات .

(٦) - سفره الثالث إلى مصر :

على أثر استغاثة الخليفة الفاطمي بالسلطان (نور الدين) واستجابة لرجائه الحار ، أمر السلطان (نور الدين) بحشد جيش عرمرم لنجدة خليفة مصر ظاهرا ، والاستيلاء على مصر نهائيا ، وانتزاعها من أيدي الذين لا يحسنون حكمها في الواقع ، وتحرك هذا الجيش - المؤلف من ثمانية آلاف من نخبة الجنود والضباط ومشاهير القواد - صوب مصر بقيادة (شيركوه) . وكان الأمير صلاح الدين غير راغب في السفر هذه المرة لو خلى بينه وبين نفسه ، ولكنه عاد فاستجاب لرغبة السلطان في ضرورة سفره ، وطلب عمده في اللحاق به مهما كانت الظروف ، فاضطر إلى السفر إلى مصر مكرها . وما أن سمع (أمريك) ملك القدس بقدم (شيركوه) ، حتى شمر عن ساعد الجد ، وأراد أن يحول - بآديء ذى بدء - دون اتصال الجيش الشامي والمصرى بعضهما ببعض ، ولكنه أخفق في ذلك إخفاقا ذريعا واضطر في سلخ ربيع الثاني من عام ٥٦٤ (كانون ثاني - يناير ١١٦٩ م) إلى الرجوع أدراجه إلى القدس مدحورا مذموما . وحينذاك وصل شيركوه إلى أبواب القاهرة ، فبادر الخليفة وأعيان مصر وسكانها إلى استقباله استقبالا منقطع النظير ، وأعر بواله عن مزيد شكرهم الخالص على ما أسدى لهم من جليل الأعمال ، وما أبداه من الشجاعة والنخوة لانقاذهم من نير العدو الذي لا يرحم .

وبعد أن استراح (شير كوه) من وعناء السفر ، ضرب مخيمه في خارج القاهرة لأقامته هو وجنده ، وقد شرفه الخليفة بزيارته في مقره ، وشكره شكرا خاصا على أعماله المجيدة وجهوده الفذة الموفقة . ثم أعقبه الوزير شاور في الزيارة متظاهرا بإبداء الكثير من آيات الود وعلامم السرور ، في حين كان يضم خلاف ما يظهر ، وكان لا يدع يوما يمر دون أن يحضر راكبا إلى المعسكر لزيارة (شير كوه) في خيمته ، ويتظاهر له بالود الصافي والصدقة الخالصة والله وحده يعلم أنه كاذب ومخادع . إذ كان يرمى من وراء ذلك إلى تهينة فرصة ذهبية لتدبير مكيدة جهنمية للقضاء على (شير كوه) وقواد جيشه لتنفيذ مآربه ، غير أن ابنه (الكامل) قد فطن إلى أن أباه قد فكر في إقامة وليمة فاخرة يدعو إليها ضحاياه لهذا الغرض تخاف مغبة هذا العمل الإجرامي فما كان منه إلا أن هدد والده بإفشاء هذا السر والافضاء بأسرار هذه المكيدة إلى شير كوه إذا سولت له نفسه الأمانة بالسوء الإصرار على تنفيذ هذه الفعلة الشنعاء ، ورغم ذلك عزم شاور فيما بينه وبين نفسه على ضرورة تنفيذ فكرته وأسرها في نفسه حتى تحين أقرب فرصة مواتية لتنفيذ هذا الهدف السيء الذي لم يكن خافيا على أغلب المحيطين بشير كوه من القواد والضباط .

ولكن القدر قد أراد له ما دبره هو لغيره إذ توجه في يوم جمعة كعادته إلى معسكر (شير كوه) وتصادف تغيب شير كوه عن المعسكر يومذاك فتقدم إليه الأمير (صلاح الدين) وبعض القواد وركبوا معه كالعادة للتنزه والقنص وما أن بعد بهم المسير حتى أبعدها عنه الخيالة وكان ممتطيا صهوة جواده فانقضوا عليه وطرحوه أرضا وأوثقوه بالحبال ثم أرسلوه للخليفة الذي أعاده إليهم ليقطعوا رأسه ، ويرسلوها إليه فنفذوا أمره على الفور وهكذا أسدل الستار على هذا الوزير الخائن الذي كادت سياسته الخرقاء وأطماعه الدنيئة الهوجاء ، أن يؤدي إلى وقوع مصر بأكملها في قبضة الأفرنج

وعلى أثر هذا الحادث أخذت الأبواب تنفتح والمجال يتسع أمام (شيركوه) فقد بعث الخليفة العاصد في طلبه . وأسند إليه منصب الوزارة ، ومنحه لقب (الملك المنصور أمير الجيوش) .

وهكذا أخذ (أسد الدين شيركوه) يدبر أمور الحكومة المصرية ، ويصرف شئونها ، بصفته وزيرا للخليفة ، غير أن المنية قد عاجلته ، فلم يعمر طويلا ، ووافاه الأجل المحتوم يوم السبت الموافق (٢٢ من جماد الثاني من عام ٥٦٤ هـ) وكان الأمير (صلاح الدين) يقوم بإدارة دفة أغلب شئون الدولة وتصريف أمورها في حياة عمه .

(٧) - وزارة الأمير صلاح الدين ،

بعد أيام ثلاثة من وفاة (أسد الدين شيركوه) وقيام ابن أخيه الأمير صلاح الدين بتقبل العزاء في عمه ، أصدر الخليفة مرسوما بإسناد منصب الوزارة إلى الأمير صلاح الدين ، غير أن هذا الاجراء قد أوجر صدور بعض قواد جيش (شيركوه) فعادوا إلى الشام وقد تملكهم الغضب والحقد على (صلاح الدين) الذي واتاه الحظ وأخطأهم ، وفي الحق أن هذا المنصب الخطير لم يكن يصلح للقيام بأعبائه سوى الأمير (صلاح الدين) ولهذا أنعم عليه الخليفة بلقب (الملك الناصر أبي المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب) نعم ! قد وصل الملك الناصر إلى هذا المنصب الخطير في الثانية بعد العشرين من عمره ، كنتيجة حتمية لتقدمه المحسوس في ميدان السياسة والجندية ، وما أن اعتلى صلاح الدين أريكة هذا المنصب حتى ألقى نظرة ذات اليمين وذات الشمال وأمن النظر فيمن حوله من القواد والضباط ، فلم يجد من بينهم من يطمئن إلى إخلاصه له ، أو نشاطه في العمل ، فأعمل الفكر وأخيرا رأى أن أنجح وسيلة هي أن يجمع حوله والده ، وإخوته ، وأقرباءه الآخرين ، فكتب إليهم

طالباً للحاق به ، فرعان ما حضروا والتفوا حوله . وأكرم (صلاح الدين) وفادة والده ، لدرجة أنه تنازل له عن منصب الوزارة ولكن والده رفض قبوله قائلاً له : « لو لم تكن أنت جديراً بهذا المنصب لما منحك إياه سبحانه وتعالى ، وقد آلى الناصر صلاح الدين على نفسه أن يكسب قلوب المصريين كافة ويحوز ثقتهم ويحتمد بهم إليه ، فأغدى عليهم النعم والأعطيات ، وبالغ في إرضائهم ، وأحسن معاملتهم في شتى الأمور ، وعلى الرغم من أنه كان سنياً ، وكافة المصريين تقريباً من الشيعة ، لم يفكر مطلقاً في التدخل في الشؤون المذهبية ، أو الحيدة عن جادة العدل والمساواة ، ولهذا اكتفى بذكر اسم السلطان (نور الدين) في الخطبة بعد اسم الخليفة السني .

هذا وقد استولى الصليبيون على (دمياط) في عهد وزارته هذه ، فأنبرى لهم بجيش ضخم ، وبعد نضال عنيف وقتال مرير ، تغلب عليهم وانتزع المدينة من بين براثنهم ، وهكذا خلس البلاد منهم وطردهم نهائياً عن الأراضي المصرية ولم يكثف بذلك ، بل سار إلى العقبة وهي واقعة في طريق الحاج فاستولى عليها وطهرها من الصليبيين وقد أحدث هذان الانتصاران الباهران في نفوس المصريين خاصة والمسلمين عامة أثراً طيباً وإعجاباً به منقطع النظير . فعلا شأنه وارتفع قدره في نفوسهم فازدادوا به تعلقاً لافرق في ذلك بين العامة من الجنود وبين الأمراء والقواد .

وحدث أن (مؤتمن الخلافة) المدعو (جوهر) قد حدثته نفسه مناظلة الملك الناصر (صلاح الدين) ومخاصمته خصومة غير شريفة . فأخذ يدس له ويدبر له المكائد ، لدرجة أنه اتصل بالأفرنج يستقدمهم لاحتلال مصر ثانية ليوقع صلاح الدين بين نارى العدوين الخارجى والداخلى ، وكان مؤتمن الخلافة هذا معتزاً بجيش سودانى يقرب عدده من خمسين ألفاً ، فكان يعتمد عليه الاعتماد كله ، غير أن الملك الناصر سرعان ما سنحت له فرصة ذهبية للقضاء

عليه قضاء مبرما ، فثارت لذلك ثورة السودانين في جيش الخليفة .

وقد عمد الملك الناصر إلى تعيين أخيه (شمس الدولة تورانشاه) لاختاد هذه الثورة الجامحة ، فعرف هذا الأخ الشجاع ؛ والبطل المغوار ، كيف ينتقم من الثوار أشد انتقام ويستأصل شأفتهم في أقل من بضع سنين ، وقطع دابرهم من البلدان المصرية بكل الوسائل من تقبيل ، إلى تشريد ، إلى طرد ، وإبعاد إلى البلاد السودانية حيث تسلبهم هناك العادل ، أخوه الملك الناصر ، وقضى عليهم قضاء مبرما وأجهز عليهم ، وكان صلاح الدين قد عين (بهاء الدين قره قوش) في وظيفة (مؤتمن الخلافة) بعد مقتل (جوهر) ، ولم يكن الملك الناصر يتخلص من ثورة السودانين ، وفتنتهم الجامحة ، حتى زحف الصليبيون إلى (دمياط) لأن ملك القدس كان قد عقد اتفاقا مع الامبراطورية الرومانية الشرقية على احتلال مصر .

وتنفيدا لهذا الاتفاق . عجل ملك القدس بالزحف إلى (دمياط) قبل وصول جيش الروم وأسطولهم ، ولكن الملك الناصر كان قد اتخذ أهبة وحصن هذه القلعة تحصينا منيعا ، وأعد لها لدفاع طويل الأمد ، ولهذا تمكنت القلعة من الصمود ، وصدت هجمات جيش ملك القدس وأسطوله بعد حصار دام خمسين يوما ، وعاد المهاجمان أدراجهما يجران أذيال الهزيمة والخسران المبين دون أن يتالا من القلعة . وفضلا عن ذلك فقد لعبت الطبيعة دورها ، وأبى القدر إلا أن يقتصر من رجال العدو وأسطوله ويرينهم جزاء ما عملوا ، فسلط عليهم في عرض البحر ريحا صرصرا وعاصفة هوجاء شتت شملهم وقضت على ما تبى لهم من سفن الأسطول الرومي ، وانتهز الملك الناصر هذه الفرصة الذهبية ، فترك مهمة الدفاع ، وأخذ يوغل في مطاردة العدو ثم توجه بحملة عسكرية شطر فلسطين ، وأطلق لجيشه العنان للسلب والنهب وشن الغارات وتضييق الخناق على العدو ومضايقته أينما وجد .

ولا ريب في أن هذا التحول الخطير في الموقفين العسكري والسياسي في مصر، وقيام جيش مصر بالزحف على فلسطين، قد أحدث دويا هائلا في مصر وجر أبصار المصريين واستلفت أنظار أهلها الذين عانوا الظلم، واكتووا بآثار الفوضى - إلى تلك الحالة الجديدة التي وصلوا إليها بفضل إدارة الملك الناصر الحازمة، ودهائه السياسي، الذي أفضى إلى نتائج باهرة، ومواقف مشرقة، حيث أخذ جيش مصر يضيق الخناق على العدو في عقر داره، وأثار بين صفوفه الرعب والذعر والقلق المستمر الأمر الذي أفضى إلى ازدياد محبة المصريين للملك الناصر مما بعث فيه قوة على قوة، وفي نفس الوقت الذي كان فيه الملك الناصر وزيرا للخليفة العاضد بالله، كان أيضا سردارا لجيش السلطان نور الدين، فكان طبيعا أن يكن له كل إخلاص وولاء.

هذا وكان كل من (القاضي الفاضل) والكاتب الشهير (عماد الدين الأصفهاني) يتمتع ويحظى بكامل ثقة الملك الناصر وعطفه السابغ عليهما حيث كانا يتوليان إدارة المخابرات الرسمية وإسداء المشورة الخاصة له في الملئات والحادثات. وقد اختار أخيرا لسكرتاريته الخاصة في عام (٥٨٤) القاضي الذائع الشهرة (ابن شداد) الذي رافقه في جميع فتوحاته وغزواته.

وما أن فرغ (الملك الناصر) من إخماد نيران الثورات الداخلية، والقضاء على مظاهر الأفرنج في مصر، حتى شرع يعمل جاهدا على الانفراد بالحكم والاستقلال، والتخلص من التبعية للغير؛ وأخذ يمهّد لذلك بنشر المذهب السني بين المصريين بدلا من المذهب الشيعي الذي كان سائدا بينهم، وأنشأ خصيصا لهذا الغرض مدرستين دينيتين إحداهما (الناصرية) والأخرى (الكاملية) تدرس فيهما مذاهب أهل السنة والجماعة، فيقول ابن الأثير: إن صلاح الدين قد هدم السجن الشهير الذي كان يعرف باسم (دار المعونة)، وأقام مكانه مدرسة للشافعية، كما حول (دار العدل) أيضا إلى مدرسة للشافعية وعزل جميع قضاة الشيعة واستبدلهم بقضاة من الشافعية.

وكان السلطان (نور الدين) يشدد عليه ويلح في جعل الخطبة باسم الخلفاء العباسيين وهو الاتجاه الذي كان يميل اليه الرأي العام أيضا ، ولكن الملك الناصر قد آثر التريث ، ولم يتعجل البت في هذا الموضوع واضعا نصب عينيه أولا وقبل كل شيء ، تقوية مركزه قبل أن يخطو هذه الخطوة ويستجيب لرغبة السلطان ، وان هي إلا فترة زمنية حتى جمع مجلس شورا كعادته ، وطرح على المجتمعين مسألة تحويل الخطبة عن الفاطميين إلى الخلفاء العباسيين فأقروها بالإجماع ، وهكذا تحولت الخطبة إلى اسم الخلفاء العباسيين حسب قرار المجلس ؛ وكان الخليفة الفاطمي العاضد بالله وقتذاك مريضا طريح الفراش . فأمر الملك الناصر بأن يكتب عنه الخبر ويبقى في طي السكتان ، ولم يطل بهم هذا التكتل إذ عاجلت المنية الخليفة العاضد بعد ذلك ببضعة أيام وكان ذلك في عام (٥٦٧ هـ) ، وقد شق نعيه على الملك الناصر ، لأن وفاته جعلته وجها لوجه مع السلطان نور الدين .

وبعد أن قام الملك الناصر بدفن الخليفة العاضد ؛ وتقبل العزاء فيه ، أدخل قصر الخلافة من قاطنيه من الفاطميين وأتباعهم وأسكن النساء منهم في دار أخرى ، وفرض عليهم رقابة دقيقة لتلافي حدوث القلاقل والفتن التي قد تنجم عن اتصال الجمهور بهم . ثم وزع أموال القصر وخزائنه على الأمراء والقواد وذوى الحاجة من الجند والشعب .

وبعد أن أضحى الملك الناصر حاكم مصر المستقل ، كان باكورة أعماله إنشاء قلعة القاهرة . حيث وجد هذه العاصمة الكبيرة تضم الفسطاط وقطائع أحمد بن طولون والقاهرة المعزية ، فأنشأ حول هذه كلها سوراً متينا وقلعة حصينة للمحافظة على المدينة سميت قلعة (صلاح الدين) وبني فيها دورا وقصورا ومنازل لنفسه ولأهله ولسائر أتباعه . ولما كانت سياسة الملك الناصر (صلاح الدين) ترمي إلى تجنب اغضاب السلطان (نور الدين) منه ،

وعدم إثارة الشكوك والشبهات حوله ، فقد عمد إلى ذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة في الخطب على المنابر ، وضرب النقود باسمه ، ثم انتقى هدية فاخرة من بين كنوز خزائن قصر الخلافة وبعث بها إليه .

وحدث في وقت ما أن قصد الملك الناصر إلى قلعة (الشوبك) في فلسطين الواقعة على الطريق التجاري بين مصر والشام لفتحها . وما أن سمع بقدم السلطان نور الدين إلى تلك الجهات ، حتى قفل راجعا إلى مصر على جناح السرعة صارفا النظر عن فتح القلعة . حيث لم ير من السياسة الحكيمة الاجتماع بالسلطان في تلك الآونة ، إذ أن بعض أمراء (نور الدين) الذين كانوا بصحبة (أسد الدين شيركوه) والملك الناصر صلاح الدين إبان فتح مصر ، ثم غادروها إلى الشام حين تولى (صلاح الدين) زمام الأمور فيها ، ما فتئوا يعملون جاهدين ويسعون سعيا متواصلا للتأثير على السلطان نور الدين لينزعوا ثقته ، ويغيروا من رأيه في صلاح الدين حتى أنه ليقال ان السلطان تحت تأثير منهم قد فكر في مواصلة الزحف على مصر والاستيلاء عليها بعد رجوع الناصر صلاح الدين من قلعة (الشوبك) إلى القاهرة

وما أن ترامى هذا النباء إلى مسامع الملك الناصر حتى بادر وجمع مجلس شورا على الفور للنظر في هذا الموقف الجديد ، وقال أحد أعضاء المجلس إنه يجب مقابلة السلطان بالقوة والخيولة بينه وبين دخوله مصر . فاستمع (نجم الدين أيوب) والد الملك الناصر - هذا الرأي ولم يستصوبه بل اشتد به الغضب وقال ان هذه البلاد إن هي إلا بلاد السلطان نور الدين وكلنا له رعايا مخلصون وعبيد خاضعون ، ثم فض المجلس وانتحى بابنه جانبا ووجه إليه لوما لاذعا على ما بدر منه ، ثم أسدى إليه نصائح في غاية من السداد والحكمة . وفي الواقع لم يكن في مكنة السلطان نور الدين مواصلة الزحف إلى مصر وقتذاك بسبب انشغاله بأمر الجزيرة أي كردستان الجنوبي ، وبعد حقبة من الزمن

ندب الملك الناصر أخاه (تورانشاه) لتنظيم أمور السودان وتدير شؤنه .
وما أن فرغ السلطان (نور الدين) من تنظيم شئون الجزيرة ، وتسلمه
كتبا من الملك الناصر معبرة عما يكنه له من ولاء وطاعة ، حتى بعث يطلب
أن يزحف على رأس جيشه ويجتمع به في فلسطين ليقوما معا بزحف مزدوج
على ملك القدس ، فلبى الملك الناصر نداءه ، وسافر بجيشه إلى فلسطين ، بيد
أنه اضطر للعودة إلى مصر قبل ملاقاته السلطان ، بحجة مرض والده وخطورة
حالته ، بسبب سقوطه على الأرض إثر كبوة فرسه على مقربة من باب النصر
بالقاهرة ، حيث توفي إلى رحمة الله إثر هذا الحادث .

ورغم هذا فقد أبدى السلطان أشد الاستياء من عودة الملك الناصر إلى
مصر ، فغضب واستقر رأيه على أن يزحف بنفسه إلى مصر للاستيلاء عليها ،
ويعزل الملك الناصر من ولايته عليها ، لولا أن المنية قد عاجلته قبل تنفيذ
ما استقر عليه قراره ، وقد وافاه الأجل المحتوم في يوم الأربعاء (٢١ من
شوال من عام ٥٦٩ = ٢٥ مايو ، ١١٧٧ م) وكان الملك الناصر قد أبدى قبل
وفاة السلطان نور الدين كثيرا من ضروب النشاط المحسوس ، فأول ما وجه
إليه همه كان تنظيم الجيش فقد وجه إليه الكثير من عنايته وساعده أبوه في
تنظيمه ودقة الأشراف على شؤنه ، وحسن تدريبه ، حتى استطاع الملك الناصر
بفضل هذا الجيش من فتح شمالي أفريقيا ، وسواحل البحر الأبيض من أيبالي
طرابلس الغرب وتونس ، ومن ناحية أخرى أرسل أخاه (تورانشاه) إلى
اليمن ، فتمكن من غزوها في رجب عام (٥٦٩) وهكذا خضعت تلك البلاد
الشاسعة وولاية (عدن) ذات الأهمية ، لسلطان بني أيوب في مصر .

وفي هذه الأثناء دبر من وراء ستار ، الشاعر المعروف (عمارة اليمني) مع
بعض رفاقه ، إشعال نيران ثورة جامحة ، وكانوا قد اتخذوا أهبتهم ، واتصلوا
بالأفرنج لنجدتهم إذا لزم الأمر ، غير أن الملك الناصر قد اكتشف أسرار

المؤامرة قبل وقوعها ، ففضى عليها في المهد ، واستأصل شأفة المدبرين لها على الفور ، وقد تصادف هجوم أسطول صقلية على الاسكندرية وقتذاك ، فدافع الملك الناصر عنها دفاعا مجيدا ، ومات ملك القدس الصليبي في تلك الآونة ، فاستراح الملك الناصر بموته من عدو لدود ، وخصم عنيد .

ولا شك أيضا أن الملك الناصر قد أضحى ، بعد وفاة السلطان نور الدين سلطانا مستقلا تمام الاستقلال ، وحاكما مطلقا للشرق الاسلامي ، لا شريك له في حكمه . . . إذ لم يبق أمامه من ينازعه السيادة المطلقة على الشرق والدفاع عن الاسلام . . .

نعم ! كان هنالك نجل السلطان نور الدين الطفل ، يحكم بعض القلاع والبلاد ، وابن أخيه سيف الدين حاكم الموصل ، والملك السلجوقي في بلاد الروم (الأناضول) . . . ولكن هؤلاء الملوك والأمراء جميعهم لم يكونوا يصلوا إلى مقدرة الملك الناصر لما كان يتمتع به من النفوذ الواسع ، والسلطان العريض في العالم الإسلامي ، حتى يتسنى لهم منافسته .

ولما كان الملك الناصر قد شعر ورأى ، أن من أقدس واجباته الدينية محاربة الأفرنج ، وطردهم من البلاد الإسلامية ، فقد وجد أن من الحكمة وأصالة الرأي أن يتفق مع سائر الأعمراء والملوك المسلمين ، ليوحدوا قواهم ، ويجمعوا شملهم ، ويقفوا جبهة واحدة مترابطة لتحقيق هذه الغاية ، فكانت هذه الخطة القويمة أساس سياسته الرشيدة مستقبلا ، وقد حالفه التوفيق كل التوفيق في تنفيذها .

(٨) — ، بعد وفاة السلطان نور الدين ، :

قبض الملك (الصالح اسماعيل) على ناصية الأمور ، بعد وفاة والده السلطان (نور الدين) وله من العمر حينذاك خمسة عشر عاما ، ولكن

التوفيق قد جانبه ، وكنتيجة حتمية لسوء إدارته تغلب عليه رجال والده وقواد جيشه ، فاستولى ابن عمه (سيف الدين) حاكم الموصل على جميع البلاد التي كانت خاضعة للسلطان (نور الدين) كما استقل كل من الأمراء الآخرين بثئون البلاد التي كان يحكمها نيابة عن السلطان .

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع الملك الناصر حتى بادر على الفور بإرسال خطاب إلى وزير الملك الصالح ، المدعو (شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم) موجهاً إليه اللوم فيه على ما فرط منه ، قائلاً له : « إذا لم تخلصوا الخدمة للملك الصالح اسماعيل ولم تحافظوا على ملكه تماماً ، فسأحضر بنفسى وأحافظ على حقوقه . » ولكن الأمراء والقواد قد أصموا آذانهم عن الاستماع لهذه النصيحة ، فقد عمد (شمس الدين ابن الداية) حاكم حلب إلى إيفاد (سعد الدين كمشتكين) إلى الملك الصالح اسماعيل ليدعوه إلى حلب ليحول بهذا دون مجيء الملك الناصر لمساعدته والتمسك به ولكن أهل الشام قد عارضوا — أول الأمر — في ذهاب الملك الصالح اسماعيل إلى حلب فعاد (كمشتكين) دون أن يصحبه معه ، ولكنه سرعان ما عاد ثانية لنفس الغرض وفي هذه المرة استطاع بدهائه أن يخدع الملك الصالح اسماعيل وينقله إلى حلب ثم ألقى القبض على (شمس الدين بن الداية) وعلى أولاده وسائر أقربائه ، وزج بهم جميعاً في غياهب السجن .

وهكذا سيطر (كمشتكين) على حلب ، وفرض عليها سلطانه ، وشرع يعمل جاهداً على تعزيز مركزه وتوطيده ، فاتصل بملك الأفرنج بالقدس ، وعقد معه اتفاقاً ضد الملك الناصر للجيلولة دون زحفه إلى الشام وحلب فاضطر الملك الناصر إلى عرض هذا الأمر على الخليفة العباسي المستنصر بالله ، فبعث إليه بخطاب مؤثر يشكو فيه سوء الأحوال وتخرجها في بلاد الملك الصالح اسماعيل ، الأمر الذي قد يؤدي إلى تمزيق أوصال البلاد ووقوعها

في أيدي الأفرنج ، وفي الواقع كانت الأحوال السياسية ، والظروف الدولية موآتية للملك الناصر لتحقيق غايته النبيلة ، إذ كانت كل من فلسطين وسورية خاضعة للملك صبي لم يعرکه الدهر ولم تحنکه التجارب ، وهما (بلدوين) الرابع الشهير بـ (بلك = لعله بمعنى الأرقط) ابن الملك (آمورى) ، والملك الصالح (اسماعيل) ، فكان من حسن السياسة أن ينتهز هذه الفرصة ويخضع هاتين المملكتين لحكمه المباشر ؛ إلا أنه لما جبل عليه من بعد النظر ، أثر التريث ، ولم يتعجل الأمر ، لأنه لم يكن راغباً في إغضاب أهل الشام منه ، ولهذا كان لا يفتأ يكاتب الملك الصالح (اسماعيل) مبدياً له ما يكرهه له من الإخلاص والطاعة ، وكان يسك العملة ويقرأ الخطبة بإسمه . وما أن حضر الملك الصالح إلى حلب ، وصار (كشتكين) حاكماً مستقلاً بها ، حتى ساور القلق والخاوف (ابن المقدم) وأنصاره من القواد والأمراء فأرسلوا يستنجدون بسيف الدين حاكم الموصل ، لمساعدتهم .

ولكن (سيف الدين) قد أثر التريث ، وطال به التردد لأنه لم يكن يثق فيهم ، وأخيراً استقر رأيه على مفاوضة الجانب الآخر ، والاتفاق مع الملك الصالح . فلما تبين أمراء دمشق حقيقة الأمر أسقط في أيديهم ، ولم يجدوا محيصاً هذه المرة من الاتصال على الفور بالملك الناصر ، وأرسلوا إليه يلتمسون النجدة من لدنه ، ويرجون العمل على انقاذهم من الورطة التي وقعوا فيها .

وقد بادر الملك الناصر الذي كان يتحين الفرصة منذ بعيد ، إلى الزحف بجيش عرمرم شطر (سورية) فوصلها بعد أن قطع صحراء التيه ، ماراً ببلاد فلسطين الخاضعة للصليبيين غير هياب ولا وجل ، ولا سيما أنه كان قد مهد السبل لذلك سياسياً ، حيث كان قد عرض على الخليفة ببغداد رغبته الملححة في ضم سورية إلى أملاكه حتى يتسنى له التفرغ لمحاربة الأفرنج والدفاع عن

مصالح المسلمين دفاعا ناجعا ، لأن حكومة الملك الصالح لم تكن لتستطيع القيام بهذه المهمة المجيدة ، فضلا عن أنها لاتعمل لها قط ، بل الأدهى من الأمر أنها عقدت اتفاقا مع الافرنج ضد مصالح المسلمين . . . وهكذا استطاع الملك الناصر الحصول على إذن من الخليفة ، واعترف له الجميع بأنه المدافع عن الاسلام بحق ، مما أفضى إلى تدفق النجيدات والامدادات على جيشه من كل صوب وفتح عميق . ولم يتصد له أى كائن ليحول بينه وبين الوصول إلى تحقيق رغبته .

وما أن وصل إلى مدينة (بصرى = أسكى شام) حتى هرع حاكما لمقابلته طائعا مختارا واضعا نفسه طوع أمره ورهن إشارته ، ومن هذه المدينة توجه الملك الناصر رأسا إلى دمشق الشام ، فوصلها فى أواخر ربيع الأول عام (٥٧٠ هـ) ، وقصد توا إلى بيت والده حيث استراح قليلا ؛ ثم أخذ فى تسلم القلعة وما احتوته من الخزائن والأموال الطائلة ، التى لم يحتجزها أو يستأثر بها لنفسه بل وزعها جميعها على أهل الشام مما أثلج صدور جميع الطبقات وشتى الهيئات من الأهالى ، وكان الملك الناصر بما طبع عليه من فطنة وذكاء خارق يبدو فى جميع حركاته وسكناته بمظهر الذى أقدم على هذا العمل لاشئ . إلا لمساعدة ابن ولى نعمته الملك الصالح ، وانقاذا له من بين براثن المحيطين به والطامعين فيه . مما قر به إلى قلوب الناس وحببهم فيه وحفز أمراء الشام وأعيانها إلى الانخراط فى سلك جيشه ، واتباع أوامره .

وبعد أن نظم الملك الناصر أمور الشام ، وعين أخاه (سيف الاسلام طغتكين) واليا عليها ، تقدم نحو (حمص) فاستولى على المدينة ثم ترك قوة من جنوده لمحاصرة القلعة ثم واصل سيره إلى (حماه) وكان أمير هذه البلاد وقتذاك المدعو (عز الدين جرديك) الذى كان مع الأمير (صلاح الدين) فى سفرته الثالثة إلى مصر ثم عاد إلى الشام حينما تولى (صلاح الدين) الوزارة

في مصر ، مؤثرا عدم البقاء في معيته ، وما كان من هذا الأمير الذي لم ير الخضوع للملك الناصر في بادىء الأمر ، إلا أن عاد أخيرا واطمأن لمواثيق الملك الناصر وعهوده وسلم المدينة اليه ، محتفظا بالقلعة في قبضة أخيه .

وقد أوفد الملك الناصر الأمير عز الدين هذا إلى حلب كمندوب من قبله للمفاوضة فيما يعود على المسلمين بالخير من إطلاق الأسرى وحقن دماء المسلمين ولكن ما كاد الأمير عز الدين هذا يصل إلى حلب ، حتى ألقى (كشتكين) القبض عليه ، وزج به في أعماق السجن . ولما ترامى هذا النبأ إلى مسامع أخيه بادر إلى تسليم القلعة إلى الملك الناصر الذي توجه إثر ذلك صوب حلب وضرب نطاق الحصار عليها في اليوم الثالث من جمادى الثانية عام (٥٧٠) ثم أعلن على الملا أنه لم يأت كعدو يقصد بالمسلمين سوءا ، إنما جاءهم لاتقاذ الملك الصالح من بين برائن (كشتكين) وبعض الأمراء والقواد من العصاة والطغاة .

ولما أحس (كشتكين) بخطورة الحالة أوجس خيفة ، وفكر في القضاء على الملك الناصر بأيدي الفدائيين الاسماعيليين ، فأوفد من قبله رسولا خاصا المرشد الاسماعيلي المدعو (شيخ الجبل راشد الدين سنان) يطلب اليه اختيار بضعة من رجاله للفتك بالملك الناصر وسفك دمه ، فما كان من هذا الزعيم الاسماعيلي إلا أن لبى نداءه ، واستجاب لطلبته ، وبعث بجماعة من الفدائيين لارتكاب الجريمة ، إلا أن الملك الناصر كان قد علم بأسرار تلك المؤامرة الدينية فتمكن من القبض عليهم وأعدمهم جميعا .

بعد ذلك اشتد ضغط (كشتكين) على الملك الصالح لكي يحرض الأهالي ويستفزهم لقتال الملك الناصر ، وفعلا نشب القتال بين الطرفين ، ودافع الحلييون عن قلعتهم بشدة ، ثم أطلق (كشتكين) سراح (رياموند) حاكم طرابلس الصليبي الذي كان أسيرا منذ عهد السلطان (نور الدين) في قلعة

حلب ، أطلق سراحه كي يكون له ظهيرا ضد الملك الناصر وقد انتهز هذا الحاكم الصليبي الذي تولى الوصاية على بلدوين ملك القدس بعد اطلاق سراحه فرصة طلب (كمشتكين) ائيه مساعدته ، فزحف شطره ، حمص ، لينتقم لنفسه من المسلمين ، ولكن الملك الناصر حامى حمى الاسلام والمسلمين كان له بالمرصاد ، وما أن علم بذلك حتى بادر إلى رفع الحصار عن (حلب) والتوجه على الفور للقاء جيش القدس المحاصر لحمص ، ولكن (رياموند) لم يصمد ولم يقو على الوقوف أمامه ، فقفل راجعا أدراجه ، واستولى الملك الناصر وقتذاك على قلعة (بعلبك) ثم عاد إلى دمشق الشام . وحينذاك استتجد الملك الصالح بالأمير (سيف الدين) حاكم الموصل فخفف الأخير على الفور لنجدته ، وسار بنفسه على رأس جيش ضخم إلى حلب ، وانضم جيش الموصل إلى جيش حلب للوقوف صفا واحدا ضد الملك الناصر ومناوآته من الناحيتين وإيقاعه بين النارين .

ولكن الملك الناصر ، لما جبل عليه من توخى مصالحة المسلمين ، وحقق دمائهم ، والحيلولة دون إفادة أعدائهم الفرنج من الخلاف بينهم ، قد أفسد عليهم تدبيرهم وخطتهم ، وعرض عليهم الصلح مبديا استعداده للتخلي عن جميع البلاد السورية التي استولى عليها وانتزعها منهم ما عدا دمشق الشام التي رأى أن الضرورة تقتضى أن يحكمها هو نيابة عن الملك الصالح ، ثم يعود إلى مصر .

بيد أن سيف الدين والملك الصالح لم يقبلا هذه الشروط السخية ، وآثرا القتال على قبولها ، فاضطر الملك الناصر إزاء ذلك إلى الزحف إليهم ونشب القتال بين الفريقين في التاسع عشر من رمضان عام (٥٧٠ هـ) على مقربة من (حماه) حيث دارت بينهما معركة دامية أسفرت عن انتصار باهر للملك الناصر ، بينما منى خصومه باندحار ذريع . فولوا الأدبار يجرّون أذيال الهزيمة إلى أن

دخلوا قلعة (حلب) ، فتعقبهم الملك الناصر وضرب الحصار على تلك القلعة ولكن سيف الدين قد تمكن من عبور الفرات إلى الموصل ، إلا أن جيش الملك الناصر لم يكف عن مطاردته حتى أبواب الموصل ، مما اضطر (سيف الدين) إلى أن يجرّد جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف من خيرة جنوده ليرد به المطاردين فالتحما في مكان يدعى (تل السلطان) ودارت الدائرة على جيش الموصل في هذه المرة أيضاً ، وأسر من رجاله الكثيرون ؛ واستحوذ الملك الناصر على الكثير من الغنائم . أما من نجوا من فلول جيش الموصل فقد هربوا إلى حلب وبعد هذا النصر المبين ؛ استولى الملك الناصر في طريقه إلى حلب ، على قلاع (بزاعة) و (المنبج) و (أعزاز) ، ثم ضيق نطاق الحصار على (حلب) وحدث وقتذاك أن هجم فدائي إسماعيل بغته وعلى حين غرة على الملك الناصر أثناء حصاره لقلعة (أعزاز) على مقربة من (حلب) وطعنه بالسيف في أم رأسه ، غير أن قلنسوته الذهبية قد حالت دون أصابته إصابة خطيرة وتكاثرت حاشية الملك الناصر على الفدائي فأردوه قتيلاً فما هي إلا فترة وجيزة حتى تتابع الفدائيون وأخذوا ينقضون على الملك الناصر ، الواحد تلو الآخر ، كان نصيبهم جميعاً القتل بنفس الطريقة التي قضى بها على زميلهم الأول . والذي لاشك فيه أن هؤلاء القتلّة الفدائيين كانوا محرضين ومبعوثين من قبل (كمشكين) الخائن .

وقد شدد الملك الناصر الحصار على حلب على أثر تلك الحادثة الطائشة مما اضطر أهالي حلب وأرغمهم إلى طلب الصلح ببضعة شروط عرضوها . وقد حضرت وقتذاك كريمة السلطان نور الدين وأخت الملك الصالح إلى الملك الناصر ، لتشفع لأخيها بين يديه ولتطلب الصلح عن أهالي حلب فأكرم الملك الناصر وفادتها وبالغ في الحفاوة بها ولبي رجاءها حيث أطلق سراح أسرى حلب على الفور وداوى جرحاهم مرصاة لها ومراعاة لحاظها .

وأخيرا وافق الملك الصالح على الصلح وأقر السلم نزولا عند رغبة الأهالي وتمشيا مع ميولهم وكف عن المطالبة بالبلاد التي فتحها الملك الناصر . وهذا لم يتبق في حوزته من أملاكه سوى حلب وأعمالها .

وقد عاد الملك الناصر الى الشام في شهر شوال من تلك السنة ، حيث تلقى بها خلة خلعها عليه الخليفة العباسي والانعام عليه بلقب السلطان وصاحب مصر والشام . ومنذ ذلك اليوم لم يعد يذكر اسم الملك الصالح في الخطبة ولم تعد تضرب السكة باسمه بل أصبحت تضرب باسم الملك الناصر يوسف بن أيوب ، وقد وزع الملك الناصر جميع الغنائم التي حصل عليها في هذه الوقائع والحروب على الجيش من ضباط وجنود دون أن يستأثر بشيء منها لنفسه .

(٩) - عهد السلطنة .

بعد أن أتم السلطان (صلاح الدين) تنظيم شئون البلدان الشامية ، وتدير أمورها عمدا إلى التنكيل بالاسماعيلية أعنف تنكيل وأمره ، ثم عين أخاه (شمس الدولة تورانشاه) الذي كان قد قدم من اليمن إلى الشام لزيارته - وكلا عنه على كافة البلاد الشامية ؛ ثم عاد إلى مصر ، وشرع في بناء سور القاهرة وإقامة قلعتها الشهيرة العاتية . نعم ، إن هذه القلعة قد جددت مرارا وعمرت تكرارا ، إلا أن العلامة الدالة على راية السلطان الخاصة ، والتي هي عبارة عن صورة نسر حمراء في أرضية صفراء ، لاتزال موجودة وماثلة للعيان على أحد أسوارها .

وما أن عاد صلاح الدين إلى مصر ، وعلم الأفرنج بعودته ، حتى بادروا بانتهاز هذه الفرصة ، وزحفوا بجيشين مستقابين ، من الجانبين صوب الشام وبعلبك ، وأوغلوا في النهب والسلب ، وأمعنوا في تدمير البلاد وتخريب القرى

حتى ألحقوا هزيمة منكرة بجيش (تورانشاه) وأسروا كثيرين من المسلمين .
وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع السلطان (صلاح الدين) حتى
نهض على الفور كالأسد الهصور وزحف بجيش ليس بكبير إلى فلسطين ، وظل
يواصل السير إلى أن وصل (الرملة) وما فتئ أن اشتبك بجوارها بجيش
قوى للأفرنج ، وأسفر القتال عن انتصار العدو ، وقد نجا السلطان نفسه
بأعجوبة نادرة من شر هذه النكبة المريعة المباغثة وكان ذلك في عام (٥٧٣) للهجرة
ووقع الأمير الفقيه (عيسى الحكاوي) أسيرا ، ولكن ما لبث أن اقتداه
السلطان بالكثير من المال فأنقذه من ذل الإسمار ، ومن الذين أسروا في هذه
الموقعة الدامية الأمير (تقي الدين عمر) وغيرهم من الأمراء والقواد حيث أصيب
جيش السلطان بخسائر فادحة مما أفضى إلى السلطان أن يترك جميع أثقاله
وأحماله ويتوجه إلى مصر معانيا الأهوال والمشقات . وقد توجه جيش
الأفرنج هذا بعد الموقعة إلى (حماه) وضرب نطاق الحصار عليها ولكن من حسن
الحظ أن كان الأمير سيف الدين أحمد المشطوب بالقلعة المذكورة فشارك
حاكها شهاب الدين محمود في الدفاع عنها دفاع الأبطال وأضطروا العدو إلى
الرجوع عنها خائنين .

ولما عاد السلطان (صلاح الدين) إلى مصر ، قامت الاستعدادات على
قدم وساق لاعداد جيش قوى في تلك المرة ، وقد تم إعداده في خلال ثلاثة
أشهر ، وما أن تم تجهيزه حتى بادر بالزحف إلى سورية حيث سارع جيشها
بالانضمام إلى جيش مصر ، ثم شرع في مضايقة الأفرنج ، وأمعن في مناوشتهم ،
بشتى الوسائل ، حتى اضطرت جيشهم الذي كان محاصرا وقتذاك لمدينة (حماه)
إلى رفع الحصار والتخلي عنها والتوجه صوب (حارم) الخاضعة لحكومة
حلب ، وما تركوها ورحلوا عنها إلا بعد أن تقدم الملك الصالح ، الطائيل من
الأموال ، ولما لمس الأفرنج ضعف موقفهم ، وحروجه مركزهم أمام سطوة

السلطان شرعوا في تحصين حدودهم ، وإنشاء قلعة حصينة من جديد على مقربة من (بيت يعقوب) ولا شك أن هذه القلعة لم تكن في صالح الإسلام ، ولهذا لم يأل السلطان جهدا ليثنى الأفرنج عن إتمام تحصين هذه القلعة ببذل الأموال واغداقها عن سعة عليهم ولكن دون جدوى فلم يكمل مجرده بالنجاح ولم يستطع المال تثبيط عزيمتهم فاستمروا في مواصلة العمل حتى أتموا تحصينها وهكذا أضحت القلعة نقطة حرية هامة ، تمكن ملك القدس بفضلها من تجريد حملة قوية على سورية .

وما كان من السلطان إزاء هذا إلا أن جرد هو الآخر حملة عسكرية تحت قيادة ابن أخيه (فرخشاه (١)) لمقاومة العدو ، وما لبث أن احتدم القتال بين الفريقين وحى وطيسه حتى أسفر في النهاية عن انتصار (فرخشاه) انتصارا باهرا وعن هزيمة منكرة لملك القدس الذي أوشك أن يقع في ذل الأسار ، لولا أن غامر أحد الفرسان الأفرنج المدعو (همفري) وأنقذ ملكه .

وكان (صلاح الدين) قد زحف من ناحية أخرى بجيش خاص إلى قلعة (بيت يعقوب) وألقى عليها حصارا شديدا ، وأطلق لرجال العنان للنهب والتدمير في أطراف بلدتي (صيدا) و (بيروت) .

هنالك تحركت شهوة الانتقام من السلطان في نفس ملك القدس ، فزحف بجيش عرمرم إلى حيث يكمن جيش السلطان ، واشتبك معه في معركة دامية في (مرج عيون) ولكن دارت الدائرة على الأفرنج ولحقت بهم هزيمة شنعاء ووقع الكثيرون منهم أسرى ومن بينهم قواد عديدون على رأسهم (رياموند) حاكم طرابلس ، و (بلدوين) حاكم الرملة ، و (هرج) حاكم الطبرية ، وغيرهم

(١) هو أبو سعيد عز الدين داود فرخشاه بن نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين

من الأمراء والعظماء ، وكان ذلك في الثاني من محرم عام (٥٧٥) (١٠ يونيو عام ١١٧١ م) .

وبعد شهرين من احراز هذا النصر الباهر المبين ، زحف السلطان صوب قلعة (بيت يعقوب) على مقربة من بانياس فاستولى عليها بعد قتال دام خمسة أيام ، وأسر حاميتها . ثم أخرجها وجعل عاليها سافلها (١) . ولقد أدى سقوط قلعة (يعقوب) في أيدي المسلمين إلى هلع الأفرنج وخوفهم وقلقهم على مصائرهم التي أضحت في كفة القدر ، فطلبوا عقد هدنة لمدة عامين ، فوافق السلطان (صلاح الدين) على هذا العرض ، وأبرم جميع الأمراء والحكام هذه الاتفاقية ماعدا حاكم (أنطاكية) الأفرنجي . واقتنص السلطان هذه الفرصة واغتتمها كي يتفرغ لتنظيم شؤون البلاد الجزرية ، إذ كان (نور الدين) حاكم (حصن كيف) ، على خلاف شديد مع حميه (قليج أرسلان) من ملوك سلاجقة الروم (الانضول) ، والذي كان قد أعلن الحرب على نور الدين في حين كان نور الدين حليفا للسلطان ، فضلا عن ذلك كان السلطان مستاء وغير راض عن أعمال ملك الروم من جراء موقعة (حصن رعبان) . ورغم كل هذه الأسباب مجتمعة ، فقد رأى السلطان - حقنا لدماء المسلمين - أن يتفادى الاصطدام بهؤلاء ، وألا يتدخل في القتال الناشب بين الصهر وحميه مفضلا القيام بهجوم على ما كان يسمى (أرمنييه الصغرى) لا رغام حاكمها المدعو (روين) (٢) على الخضوع وقبول عقد صلح معه .

والذي لا يحتمل الشك ، أن هذه الانتصارات الباهرة المتوالية قد استرعت أنظار الجميع إلى ما كان يتمتع به السلطان من المقدرة الفائقة ، والنفوذ الشامل

(١) انظر ابن الاثير ج ١١ ص ١٨٥ تجد فيه التفاصيل .
(٢) وهو الشهير بابن ليون ، كما في ابن الاثير ج ١١ ص ١٩٠ . المترجم

والتوفيق الرائع ... ولا أدل على ذلك من مسارعة الحكومات الصغيرة المجاورة إلى الاعتراف بسلطان (صلاح الدين) المطلق ، وخطب وده ، وتقديم فروض الطاعة وعلامم الولاء والخضوع له ، والى عقد أوامر الاتفاق ، وتوثيق عرى الاتحاد معه .

وقد استقر رأى كل من حكام (الموصل) و (الجزيرة) و (أربل) و (حصن كيف) و (ماردين) ، وملك الروم ، وحاكم أرمينية ، على مهادنة السلطان عامين كاملين ابتداء من جمادى الأولى عام (٥٧٥ هـ) . (تشرين أول سنة ١١٧٩ م) .

وقد قطعت هذه الهدنة دابر النزاع ، وإثارة القتال والبغضاء بين المسلمين كافة ، وبفضلها تتلألت عظمة السلطان صلاح الدين وقوة شكيمته بأجلى مظاهرها في طول وعرض البلاد القائمة بين البحر الأسود والخليج الفارسي والبحر الأبيض ، وافضى كل ذلك إلى امكان توحيد القوى الإسلامية المبعثرة المشتتة وضم شملها ، وتوجيهها لمحاربة الأفرنج الدخلاء على البلاد . وهكذا تمكن السلطان من العودة إلى مصر في رجب عام (٥٧٦ هـ) راضيا وقد اطمأن قلبه كل الأطمئنان على مصالح الاسلام ، ، تاركاً ابن أخيه الأمير (فرخشاه) نائبا عنه في دمشق الشام .

وما أن وطئت قدما السلطان أرض مصر حتى شرع على الفور في إصلاح أمورها وتنظيم شئونها ، وبدأ بتنفيذ سلسلة من المشروعات النافعة ، فأنشأ بها المدارس والمكاتب ، ثم أخذ في تحصين قلعة الاسكندرية التي كان يحكمها وقتذاك أخوه (شمس الدولة تورانشاه) الذي تسلبها إثر تخليها عن حكم (بعلبك) ، وقد توفي فيها قبل وصول السلطان إلى مصر .

وبينما كان السلطان منهمكا في إصلاح شئون مصر وتدبير أمورها ، جاءه النبأ بأن (رينولد آرناط) حاكم السكرك قد أدخل بشروط المعاهدة

القائمة ، حيث سطا على قافلة إسلامية من التجار على مقربة من (السكرك) ،
فسارع السلطان إلى إلقاء القبض على الحجاج المسيحيين الذين كانوا على ظهر
سفينة لاجئة إلى نجر (دمياط) .

وفي خلال هذه الفترة ، طير نبأ وفاة (الأمير سيف الدين غازي) حاكم
الموصل والجزيرة (كردستان الجنوبي) وكان قد أوصى قبيل مماته ببلدة
(جزيرة ابن عمر) لابنه (سنجر شاه) ، وبلدة (عقر الحمدي) لناصر الدين
كشك ، وبقية بلدان الجزيرة والموصل لأخيه ، عز الدين مسعود ، وبعد
فترة من الزمن ، وفي اليوم الخامس بعد العشرين من رجب من عام (٥٥٧٧)
توفي إلى رحمة الله الملك الصالح (اسماعيل) وكان قد أوصى هو الآخر قبل
مماته ، بحلب ، لعز الدين مسعود الذي تبادلها ، بسنجار ، مع أخيه عماد الدين
في الثالث عشر من المحرم من عام (٥٥٨٧)

وقد تأثر صلاح الدين لوفاة الملك الصالح كل التأثر وأخذ منه الحزن كل
مأخذ ، وفي الوقت نفسه لم يخف استيائه من استيلاء عماد الدين على « حلب »
غير أنه لم يكن في مكتته الزحف على « حلب » ، احتراماً للاتفاقية المعقودة التي
تحرّم القتال عامين كاملين . وفي الواقع لم يكن يخطر ببال صلاح الدين ،
وما كان يدور بخلفه نقض شروط هذه الاتفاقية ولا الحث بالعمود التي ارتبط
بها ، مع أنه لم يكن باقياً من مدة العامين المذكورين سوى أربعة أشهر فقط .
ولكن سرعان ما تواترت الأنباء وأخذت تترى بأن بعض الموقعين
على الاتفاقية ، على اتصال بشيخ الجبل وبالأفرنج يدبرون معهم المكائد
ويحكون الخطط لمناوأة السلطان صلاح الدين ، فأمام هذه الحالة الدقيقة
لم يكن السلطان ليقف مكتوف الأيدي حتى يؤخذ على غرة ، فعول ، دون ما تردد
على إيقافهم عند حدهم وإفساد خططهم ، فتحرك بجيشه ، صرمتها صوب الشام
وكان قد بعث بأثقاله وعتاده إليها قبل تحركه مع أخيه (تاج الملوك بوري)

وما أن اقتحم بجيشه الأراضي السورية حتى أمعن رجاله في نهب البلاد الخاضعة للأفرنج الذين لم يستطيعوا مقاومتهم ولا الوقوف في وجهه أو على الأقل الحيلولة بينه وبين تخريب بلادهم ، ولهذا تمكن بكل سهولة من الوصول إلى دمشق في صفر عام (٥٧٨ هـ) وبعد أن أخذ إلى الراحة فيها بضعة أيام شن هجوماً آخر على الأفرنج وانتزع منهم بلدة (بيسان) ثم قفل راجعا إلى الشام ، وبعد أن أمضى في ربوعها شهرا ، توجه شطره بيروت ، وحاصرها برا وبحرا ، وقبل استيلائه عليها ، سار نحو الجزيرة تلبية لدعوة (كوكبوري) حاكم حران ، له . . وفي هذه الأثناء كانت مدة العامين المحرم خلاهما القتال كنص الاتفاقية السالفة الذكر قد انتهت ، فأبدى معظم حكام البلاد الجزرية بل أغليبتهم رغبتهم الصادقة في الأضواء تحت لواء السلطان ، وعرضوا عليه هذه الرغبة بالفعل ، ولا شك في أن هذا التطور السياسي كان خير مقدمة ، وبداية موفقة ، تبشر بانعقاد لواء النصر للسلطان على طول الخط .

وقد بادر السلطان إلى استغلال هذه الفرصة استغلالا واسعا المدى ، فزحف على الموصل وكل هدفه أن يتزعها من حاكمها ، فألقى عليها الحصار غير أنه اضطر بعد شهرين من محاصرتها إلى رفع الحصار عنها ، والتوجه صوب (سنجار) والاستيلاء عليها في اليوم الثاني من رمضان عام (٥٧٨ هـ) ، وفي هذه الأثناء تواترت الأنباء بأن الأفرنج يستعدون لنهب جنوبي سورية ، ولكن السلطان لم يعر هذه الأنباء أية التفاتة أو أهمية ، قائلا : إن الأفرنج هنالك يستولون على القرى ، ونحن هنا يمكننا أن نستولى على المدن والبنادر ، ثم نسترد منهم جميع ما امتلكوه من البلاد الصغيرة حين عودتنا إلى تلك الجهات والواقع أن جل غرض السلطان كان منصبا على توكيد اتحاد الأمراء المسلمين وتأمين خضوعهم لقيادته ليضمن بذلك تأليب جميع قوى الاسلام ضد الأفرنج واستعادة القدس إلى حظيرة الاسلام . ولهذا كان يفضل تسوية

مسألة البلاد الجزرية أولا وقبل كل شيء ، ولقد توجه السلطان بعد استيلائه على (سنجار) شطر قلعة آمد (ديار بكر) تلك القلعة العظيمة الحصينة ، فاستولى عليها ، بعد أن طوقها وألقى عليها الحصار ثمانية أيام .

وتواترت الأنباء وقتذاك بأن (عماد الدين) حاكم حلب ، قد مد يده للأفرنج واتفق معهم على منارة السلطان ، وأنهم يبيتون الهجوم على بلاده ، فسارع السلطان إلى اجتياز الفرات على الفور لإفساد خططهم ، وفي طريقه اليهم استولى على « عينتاب » وكان ذلك في اليوم السادس عشر من محرم عام « ٥٧٩ » ، ثم يم شطر « حلب » فطوقها وألقى عليها حصارا منيعا ، ولما أيقن « عماد الدين » بالأقبال له في هذه المرة بمقاومة السلطان والوقوف في وجهه ، أبدى ميلا واضحا لعقد الصلح ، عارضا على السلطان مبادلة « حلب » بسنجار ، وما يتبعها من البلدان وهي « نصيبين والخابور والرقه وسروج » .

فقبل السلطان هذا العرض في اليوم السابع عشر من عام « ٥٧٩ »
١٩ حزيران ١١٨٣ م ، ودخل « حلب » ظافرا يحدوه النصر ، وقابله أهلها بالفرح والسرور والترحاب ، دون سيفك دماء .

وكان قد جاءه أثناء ضربه الحصار على (حلب) نبأ وفاة أخيه (مجد الدين بوري) فتأثر على وفاته بالغ التأثر ، واشتد به الحزن ، وأخذ منه الألم كل مأخذ . وقد أرسل (محي الدين بن الزكي) قاضي الشام ؛ قصيدة عصماء يمتدح فيها السلطان ، ويشير إلى فتوحاته مطلعها :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

ولا شك أن فتح « حلب » وضمها إلى قائمة البلدان السلطانية ، كان نصرا للسلطان مؤزرا حيث أعلى من قدره وعظيم شهرته ، بل وجعله هذا الفتح المبين في طبيعة عظماء الاسلام وأمرائه طرا ، فقد دانت له جميع البلاد الجزرية

ما عدا (الموصل) حتى (الرملة) بفلسطين ، ومنها حتى طرابلس الغرب ثم اليمن ، وكان أمراء تلك البلاد جميعها يأتمرون بأمره وينفذون طوعا أحكامه ويتقنون بنواهيه . . . ولم يعد يشغل بال السلطان وسيطر على أفكاره سوى فكرة استرداد (القدس) ، وطرده الأفرنج من كافة البلاد الإسلامية .

ولقد غادر السلطان مدينة (حلب) في الثالث من جمادى الأولى من عام (٥٧٩ هـ) وكان الأفرنج حينذاك ، قد انتهزوا فرصة وفاة (عز الدين فرخشاه) نائب السلطان في دمشق وأغاروا على البلاد السلطانية ، حتى وصلوا قرى الشام وأخذوا يخربون ويدمرون وينهبون ويسلبون . وحدث ذلك في الوقت الذي كان أمير الكرك الأفرنجي ممعنا هو الآخر في شن الغارات على البلاد الإسلامية حتى وصل إلى أطراف المدينة المنورة ، ولم يكن بينه وبين اقتحامها إلا ، مدى يسير ، لولا وصول الأمير (لؤلؤ) في الوقت المناسب لانقاذ المدينة من المغيرين ، فاشتبك معهم في حرب ضروس طاحنة ، غلبهم فيها على أمرهم ، ورددهم على أعقابهم خائبين ، مدحورين ، بعد أن أسر منهم الجهم الغفير .

ولا ريب أن هذه الحوادث قد أثرت في أفكار واتجاهات السلطان تأثيرا بعيد المدى . فوطن نفسه للانتقام من الأفرنج شر انتقام ، فعبر نهر الأردن بجيش عرمرم . وما أن وصل (بيسان) حتى أحرقها ، ثم التحم بالعدو شمالي (العفولة) ولكن العدو ما لث أن ولي الأدبار ، ولم يجسر على الاشتباك بجيشه الضخم في القتال . وقد عاد إلى ناحية (الصفورية) .

وعلى أثر ذلك نظم السلطان صفوفه وواصل الزحف حتى وصل إلى الكرك وحاصرها حصارا منيعا وضيق الخناق عليها ولكن القلعة الحصينة قد امتنعت عليه ، ولم يفده حصارها ، ولكن اليأس لم يجد إلى نفسه سبيلا

فأعاد الكرة وعاد إليها بعد عام ولم ينل منها أيضا (١).
وآثر هذه الحوادث طلب الأفرنج جميعا الصلح والمهادنة من السلطان
لمدة أربع سنوات ، فقبل السلطان طلبتهم ، وعاد إلى الشام . وفي هذه الأثناء
رغب حاكم الموصل — بعدموافقة الخليفة العباسي — في عقد صلح مع السلطان
وإزالة ما بينهما من جفوة وشقاق ، فأرسل إليه وفدا مؤلفا من (القاضي بهاء
الدين بن شداد) الذي كان مقربا من السلطان ومكرما لديه ، ومن (صدر
الدين شيخ الشيوخ) . بيد أن السلطان لم ير من مصلحته في شيء ، فبول عروض

(١) نشرت مجلة (كل شيء) المصرية في العدد ٢٩٦ الصادر بتاريخ ١١
يوليو سنة ١٩٣١ تحت عنوان (صلاح الدين والأميرة الأفرنجية) قصة تدور
حول محاصرة الكرك ملخصها :

« في عام (٥٧٩ هـ) ألقى السلطان صلاح الدين الحصار على قلعة الكرك
وفي هذه الأثناء كان (همفروي) الرابع (كونت دي تورون) قد عقد زواجه
على كريمة الكونت (رينو دي شاتليون) وكانت الاستعدادات تجري في
أحد أبراج القلعة توطئة للاحتفال بالزواج فأوفدت والدة العريس وهي
الأميرة (ايتانات) هيئة من كبار قومها حاملين هدايا فاخرة إلى السلطان
صلاح الدين ، ورسالة منها إليه ترجوه فيها ألا يطوق البرج الذي يقام فيه
الاحتفال في الليلة المعلومة وأن يتقبل المسلمون هدايا العرس بقبول حسن
ثم تخاطب السلطان فتقول « أتذكر حينما كنت أسيرا في قصرنا ما كنا
نحوظك به من التجارة والاكرام ، وتيسير أسباب الراحة لك ، والعناية بك ؟
فتقديرا لهذه الذكريات الصادقة ، أرجو ألا ينقلب فرح ابني إلى ما يكدر
الصفو » - فبناء على هذا يكون السلطان قد أسرف في وقت ما وأنه كان مقبلا في
اساره لدى (همفروا) . (المؤلف) - [المصادر الاسلامية لا تعرف مثل
هذه الروايات والقصص - المترجم] .

الصلح مؤثرا إعمال السيف وإثارة الحرب ، ولهذا جهز جيشا توجه به صوب الموصل ، وألقى الحصار عليها في عام (٥٥٨١) ، وأوفد إليه حاكم الموصل في هذه المرة والدته وهي كريمة عمه المغفور له السلطان (نور الدين) ، أملا في موافقة السلطان على عقد الصلح إكراما لوفادتها ، ولكن المفودة قد عادت بخفي حنين .

ولما جاءت الانباء بقيام اضطرابات ونشوب قلاقل وفتن في أنحاء (خلاط) رفع الحصار عن الموصل ، وتوجه صوب (ميافارقين) فاستولى عليها في ربيع الآخر عام (٥٥٨١) ثم عاد إلى محاصرة الموصل واستمر حصاره لها حتى انتابه مرض عضال ، وألح عليه المرض واشتدت به العلة ، فاضطر للعودة إلى حران ، ليمضي فيها بعض الوقت ، وقد قابله في طريقه إليها مندوب آخر من قبل حاكم الموصل ، ليعرض عليه شروطا ملائمة للصلح ؛ منها الخطبة وضرب النقود باسم السلطان مع التنازل له عن بعض البلاد ؛ غير أن المرض الذي لا يرحم قد اشتد على السلطان لدرجة أن بلغ ببعضهم اليأس في شفاؤه ، وأوصى السلطان باللازم وما يتبع ، ، ولكن حدثت المعجزة إذ لم يمض على ذلك طويل وقت حتى خفت وطأة المرض ، وأخذ يتمثل للشفاء في أواخر ذي القعدة عام (٥٥٨١) ، وقد وصل وقتئذ إلى (حران) القاضي ابن شداد وعرض على مسامع السلطان — باسم حاكم الموصل — شروط الصلح ، فقبلها السلطان ، وهي تقضى بالاعتراف بالسلطان حاكما على شمالي الجزيرة ، وشطر من كردستان (أرمينية) وعلى أثر ذلك ، عاد السلطان من حران إلى حمص ، وهناك لبث فترة من الزمن ، ثم عاد إلى الشام حيث وصلها في المحرم من عام (٥٨٢) للهجرة .

١٠ - السلطان صلاح الدين والصليبيون ،

لما استتب الأمر للسلطان صلاح الدين ، أو بمعنى آخر بعد أن انتهى من

تدير شئون الشام والجزيرة ، وقضى على أسباب الفرقة والشقاق التي كانت مستحكمة الحلقات بين أمراء تلك البلاد وحكامها حيث أخضعهم جميعا لأمره وتسنى له بفضل ذلك أن يضم شمل القوى المتنازعة ، ويجمعها حول فكرة موحدة ، وهدف واحد ألا وهو ضرورة فتح القدس وطرده الصليبيين من البلاد الإسلامية جمعا .

وهكذا أقدم بكل جرأة وعزم من حديد على اعلان الجهاد المقدس ضد الأفرنج . وكانت الظروف مواتية له ومساعدة من ناحية الأفرنج أنفسهم اذ كان أمراؤهم وقوادهم في فلسطين متنازعين متناحرين وعلى الخلاف مع بعضهم البعض مواظبين ، ولا سيما بعد وفاة (بلدوين الرابع) حيث تزعزعت أركان الحكم ، واختل النظام بينهم ، وقام (رياموند) حاكم طرابلس بتصرف شئون الحكم - بالنيابة - فترة من الزمن ، ولما تزوجت (سييل) أخت الملك المتوفى بأمر يدعى (جوى) ثم توجت بدل أخيها ، أقدم زوجها الأمير (جوى) على حشد جيش صخم ؛ وزحف به على (رياموند) الذي كان وقتذاك في (طبرية) فاضطر (رياموند) إلى طلب النجدة من السلطان ، الا أن السلطان قد أثر التريث ولم يسرع بموافاته بما طلب منه من نجدة اذ لم يكن راغبا في أن يكون هو البادى . بنقض شروط المعاهدة القائمة ، ولكن الذى أقدم على نقض الشروط في هذه المرة أيضا ، هو أمير من أمراء الأفرنج وهو (رينولد) حاكم الكرك ، وكان ذلك في عام (٥٨٢) للهجرة حيث كانت قافلة إسلامية مارة على مقربة من الكرك فهاجمها الأفرنج ، وسلبوها ، وأسروا من يصطحب القافلة من رجال ونساء ... وجاء في رواية أن أخت السلطان كانت ضمن الأسرى أيضا ... ولم يكتف (رينولد) بارتكاب هذا الحادث ، بل بدر منه الكثير مما يعتبر ماسا بشعائر الدين الإسلامى وكرامة المسلمين ، ولما تراه نبأ هذه الحوادث المثيرة إلى مسامح السلطان ، استشاط غضبا ، وغلى الدم في عروقه ، وأقسم الأيمان المغلظة بأنه إذا قبض له أن يقبض على (رينولد) ،

فأنه سيتولى بنفسه ويديه قتله ، جزاء وفاقا لعمله المنكر .
 وقد أعلن السلطان الجهاد العام ، واتخذ التدابير اللازمة للمحافظة على طريق
 الحاج وتأمينه ، ثم أقام معسكره في « قصر السلامة » على مقربة من « بصرى »
 وما هي إلا فترة وجيزة حتى وصل الجيش من مصر ومعسكر إلى جانبه ، وفي
 هذه الأونة تواترت الأنباء بأن ابنه الملك (الأفضل علي) قد عقد له لواء النصر
 على جيش الأفرنج في جهة « عكا » وألحق بهم هزيمة منكرة ، وخسرانا مبينا .
 وأخيرا ، وبعد نزاع طال أمده ، تصالح « رياموند » مع إخوانه الأفرنج
 وأزال ما كان بينه وبينهم من فرقة وجفوة فقوى جانب الأفرنج وأضحوا -
 كما كانوا قبلا - كتلة موحدة مترابطة . وإزاء ذلك ، عقد السلطان مجلس حرب
 للتشاور فيما يجب اتباعه بصدده الحالة الحربية الراهنة ، وموقف الأفرنج العدائي
 من المسلمين ، وبعد المناقشة استقر رأي المجلس على شن حرب لاهوادة فيها
 على الأفرنج .

وفي يوم الخميس ١٦ ربيع الأول من عام ٥٨٣ هـ ، تحركت جحافل
 الجيوش الإسلامية فعبرت نهر الأردن في جنوبي « الطبرية » ، يوم الجمعة ، ثم
 تقدمت قوة إلى الأمام مستطلعة أنباء العدو الذي كان معسكرا في المكان
 المسمى « صفورية » ، ثم ترك السلطان قوة عسكرية أمام العدو لمناوشته وشغله
 وعاد هو ببقية الجيش إلى « الطبرية » واستولى عليها ، غير أن أهل « رياموند »
 قد تمكنوا من اللجوء إلى القلعة بأموالهم ونسائهم ، وطلبوا النجدة من الملك
 (جوى) . وبعد أن طال أمد المفاوضات والمشاورات بين الحكام الأفرنج
 استقر رأيهم بالإجماع على محاربة السلطان ، ثم عمدوا إلى قطع المياه عن جيوش
 السلطان ، ولكن تدبيرهم هذا قد ذهب سدى ، لأن السلطان كان قد سبقهم
 واتخذ تدابير فعالة تحول دون وصول الأعداء إلى أغراضهم ، بل المدحش
 أنه قد حدث العكس وظل الأعداء محرومين من المياه في أيام اشتد فيها القيظ
 وحى وطيس القتال ، فلم يجدوا مندوحة من الرجوع إلى معسكراتهم خائبين

مدحورين . وفي عداة ذلك اليوم شن الجيش الاسلامي حملة قاسية وهجوما عنيفا على الجيوش الافرنجية ، فأذاقها مرارة الحرب والقتال علاوة على ما ولده فيها العطش والجوع من الخور والضعف وأسفر القتال عن هزيمة الافرنج واندحارهم . ويعتبر اليوم السادس بعد العشرين من ربيع الآخر من عام (٥٨٣) للهجرة ، يوم انهيار أساس ودعائم السلطنة الافرنجية بفلسطين ، حيث وقع في الاسر كل من الملك (جوى) ، وأمير الكرك ، وأخي الملك ، وأمراء آخرين وغيرهم كثيرين من كبار الافرنج . . . وكان من بين الغنائم الكثيرة التي استحوذ عليها المسلمون ، خشبة الصليب المقدس .

والذي لا يتطرق إليه الشك أن هذه الهزيمة كانت منكرة بل وقاصمة ، فلم يصب يمثلها الافرنج منذ وطئت أقدامهم أراضي البلاد الشرقية . وقد أقيم سرادق فاخر - على اثر الحاق الهزيمة بالافرنج - للسلطان ، حيث جلس في صدره ، ومن حوله بضعة من قواده وكبار الأعيان ، ثم قدم إليه الاسرى يتقدمهم الملك (جوى) ، وأمير الكرك المشهور . وما أن استقر المقام بالملك (جوى) حتى طلب ماء جىء به إليه . فسارع إلى شربه وبعد أن تناول جرعة منه ، ناوله إلى أمير الكرك ، ولكن السلطان منعه من ذلك قائلا : « نحن لم نعطه هذا الماء حتى يأمن من انتقامنا منه » ثم استرسل في سرد وتبيان ما ارتكبه أمير الكرك من المظالم والقسوة ضد المسلمين ، وما ألحق بالحجاج المسلمين من الأذى وما وجه إليهم من إهانات ، ثم انفرد السلطان قائما وضرب عنقه بنفسه وبذلك يريمينه وتأثر الملك (جوى) بهذا الحادث ، وتملكه الذعر والخوف على نفسه ، إلا أن السلطان قد بعث في نفسه الطمأنينة ، وأزال ما انتابه من خوف وذعر ، ثم أكرم وفادته ، وأمر بتقديم المساعدات والتسهيلات الضرورية له ولجميع الاسرى الآخرين وبترحيلهم إلى الشام بكل تجلة وإكرام ، ما عدا ما تبقى أسير أمر السلطان بقتلهم جميعا ، لما سبق أن أظروه من قسوة وارتكبهوه من مظالم حيال المسلمين .

وبعد فترة من الزمن زحف السلطان على قلعة (الطبرية) ، فاضطرت
زوجة (رياموند) الالجنة اليها ، إلى تسليمه القلعة ، ثم واصل السلطان
الزحف حيث توجه صوب ما تبقى من بلاد فلسطين ودخلها الواحدة تلو
الأخرى ، فاتحا غازيا ، وكان كلما طرق أبواب بلدة سارع أهلها بتسليمها
إليه ، ولم يكن بها من الحاميات إلا عدد قليل ، وكان السلطان يعامل الأهالي
من غير ما فارق جنسى ولا دينى ، وأحسن معاملة الجميع دون استثناء مما
حبيه اليهم عامة .

وبعد أن تم له الاستيلاء على (الطبرية) واصل الزحف على (عكا)
التي استماتت حاميتها في الدفاع عنها بادية الأمر ، ولكنها عادت واستسلمت
أخيرا ورضخت للمصلح ، وسمح السلطان لأهلها بمغادرة البلدة ، فدخلاه جيش
المسلمين في اليوم الثاني من جمادى الأولى (٥٨٣ هـ) ، وأدوا صلاة الجمعة في
الجامع الذي كان الأفرنج قد حولوه إلى كنيسة .. وقد اغتتم المسلمون الكثير
الطائل من الأموال من هذه القلعة .

ثم بعث السلطان إلى أخيه الملك العادل بمصر يبشره بالانتصار وبأمره
بالإغارة على البلاد المتاخمة حتى الحدود المصرية ، وتطهيرها من فلول الصليبيين
فقام الملك العادل بالمهمة التي وكل إليه تنفيذها ، فاستولى على حصن (مجدل
يابا) ومدينة (يافا) ، ووقع في قبضته الكثيرون من الأفرنج أسرى وكان
السلطان قد أرسل بنفسه بعض سراياه من قلعة (عكا) إلى الأاطراف ،
فاستولت هذه القوات على (الناصرة) و (قيسارية) و (حيفا) و (صفورية)
و (الشقيف) و (الفوله) و (معليا) في حين أن استولت جيوش إسلامية
أخرى على « نابلس » و « سبسطيه » و « قهرزكريا » ومدن أخرى في تلك
الجهات . . . ثم زحف السلطان بنفسه على قلعة « تبنين » التي كان قد أنفذ
ابن أخيه (تقى الدين عمر) للاستيلاء عليها واستولى هو عليها ، ثم عرج على « صيدا »

فاحتلها دون سفك دماء ، كما استولى على بيروت ، بعد قتال دام ثمانية أيام وأراد السلطان بعد ذلك الاستيلاء على (عسقلان) لأنها تقع على طريق مصر والبلاد الشامية ، وتعتبر مفتاح القدس ، ومن دواعي الأسف أن السلطان قد أهمل الاستيلاء على قلعة صور ، حينذاك حيث كان يجتمع فيها رويدا رويدا فلول الصليبيين المهزومة ، غير أنهم كانوا يفتقرون إلى زعيم يلتفتون حوله ، ويأتمرون بأمره ، فكان الاستيلاء عليها في غاية السهولة ، إلا أن السلطان لأسباب نجهاها لم يبد اهتمامه بها حينذاك ، فأحجم عن الاستيلاء عليها في هذا الظرف المواتي .

وهكذا أصبحت هذه القلعة فيما بعد أهم مركز عسكري حصين للنصارى ، حيث قدم الماركيز (كونارد) عن طريق القسطنطينية بجنود كثيرين ، وعتاد ضخم ، واعتصم بهذه القلعة ، ونظم بها خطط الدفاع عن البقية الباقية من أملاك الصليبيين في تلك البقاع ، وسميت هذه الحملة بالحملة الصليبية الثالثة التي جرت الكثير من الويلات والمصائب على المسلمين .

ولا شك أن هذا الإهمال اليسير لمن أكبر أخطاء السلطان السياسية والعسكرية ، لأن أهالي (صور) كانوا يطلبون الصلح ويعرضون التسليم بلا قيد ولا شرط ، ولكن ما لبثوا أن تراجعوا وغيروا رأيهم إثر وصول (كونارد) هذا ، وقد أراد السلطان أن يستعين بوالد (كونارد) الذي كان أسيرا لديه في دمشق على تسليم (صور) ومنع أهلها في الدفاع عنها ولكنه أخفق فيما أراد . وذهبت مساعيه في هذا الصدد أدراج الرياح . وقد توجه السلطان بعد ذلك إلى (عسقلان) وحاصرها أربعة عشر يوما ، بذل في أثناءها جهودا جبारा أملا في الاستيلاء عليها بطريق سلس ، بوساطة الملاك (جوى) ولكن دون جدوى . فاضطر في آخر جمادى الثانية للقيام بهجوم عنيف على القلعة واضطر المدافعون إلى التسليم بشروط . . . وأعقب ذلك استيلاؤه

على غزوة الرملة و خليل الرحمن و بيت لحم . و بيت جبريل و بضعة بلدان أخرى .
 و قد أتم السلطان هذه الفتوحات ، العظيمة في مدة لا تزيد على شهرين على
 التحديد ؛ الأمر الذي لم يقيس لأحد من السلاطين قبله في سنتين . و لقد أدى
 ذلك كله إلى فتح الطرق إلى القدس الشريف من كل الجهات أمام المسلمين .
 و نظرا لأن السلطان كان يقدر قيمة هذه المدينة المقدسة في نظر المسلمين و النصارى
 على السواء ، و يعرفها حق المعرفة . فلم يرد - رحمه الله - الإقدام في بادئ الأمر
 على محاولة الاستيلاء عليها عنوة . بالوسائل العسكرية المدمرة . فأوفد رسلا
 من قبله إلى أهالي القدس و أولى الأمر فيها كي يسلموا المدينة بطريقة سلمية
 حقنا للدماء . و لكن الأفرنج قد ركبوا رموسهم . و رفضوا قبول الصلح ؛ كما
 أبوا التسليم بطريقة سلمية . و سبب ذلك هو أن (بليان (١)) حاكم الرملة سابقا
 والذي وقع أسيرا في قبضة السلطان في معركة (حطين) . كان قد طلب إلى
 السلطان السماح له بقضاء ليلة واحدة في القدس . ثم يعود بعدها مستصجبا
 معه أسرته المقيمة في القدس . . فسمح له السلطان و أجابه إلى طلبته . اعتمادا
 على شرفه العسكري . ، إلا أن هذا القائد العديم الشرف قد أخلف وعده .
 و تخلف في القدس ليقود و يترأس حاميتها ، و ينظم الدفاع عنها . . . و قد تسنى
 له حشد ستين ألفا من الجنود و تجهيزهم أتم تجهيز بفضل الأموال الطائلة مما هو
 مدخر في خزائن الكنائس و غيرها . و التي وضعها مطران القدس تحت أمره
 و رهن إشارته للإيقاع منها على شئون الدفاع .

ولما وصلت الأنباء الأكيدة عن هذه الاستعدادات الهائلة إلى السلطان
 صلاح الدين ، توجه على الفور بجنوده صوب القدس ، فوصلها في الخامس
 عشر من شهر رجب من عام (٥٨٣ هـ) ، و ضرب نطاق الحصار حولها .

(١) في ابن الاثير (١٢ ص ٢٢٣) بليان بن بيرزان صاحب الرملة و مرتبته
 عندهم تقارب مرتبة الملك .
 المترجم

وبعد أن أمن النظر في المراكز الحربية ، وخصها فحفا دقيقا طيلة أيام
 خمسة كاملة تزامى له صلاحية الجهة الشمالية من المدينة للقيام منها بالهجوم العام ،
 فنقل إليها معسكره على الفور ، واتخذ (جبل الزيتون) مركزا لقيادته . وأخذ
 يضيق الحصار على المدينة من هنالك ، ثم بدأت الجيوش الاسلامية تتقدم شيئا
 فشيئا ، وتجتاز ما في طريقها من العقبات والعراقيل التي كانت تحوط المدينة ولم
 يلبث سكان المدينة أن اشتد بهم الضيق ، فاضطر المدافعون من الأفرنج إلى
 طلب الصلح ، والأمان .. وبعد مفاوضات طويلة شاقة بين الطرفين ، تم
 الاتفاق على أن يغادر الأفرنج المدينة والقلعة في خلال أربعين يوما ، نظير
 دفع كل واحد من الرجال عشرة دنانير ، وكل واحدة من النساء خمسة دنانير ،
 وعن كل طفل دينارين فدية لنجاتهم وسلامتهم من الهلاك .

وهكذا سلبت المدينة لصالح الدين وبدأ خروج أهلها وحاميتها منذ
 يوم الجمعة السابع بعد العشرين رجب من عام (٥٥٨٢) وبذلك تحققت نبوءة
 (محي الدين) قاضي الشام حين فتح حلب حيث قال إن القدس أيضا ستفتح
 في شهر رجب كما فتحت (حلب) فيها ^{القدس} .

وقد استدعى السلطان هذا القاضي لمقابلته ، وكلفه بإلقاء خطبة الجمعة في
 القدس يوم فتحها ، وكان عدد المصلين في ذلك اليوم كبيرا لدرجة أن المسجد
 الأقصى قد ضاق بهم على سعته ، وكانت الفدية التي فرضها (صلاح الدين)
 على حامية القدس من الأفرنج قد اقتص بها الأفرنج وأتباعهم دون غيرهم ،
 لأنه سمح للنصارى المحليين بأن يابثوا في القدس كسائر النصارى الذميين ،

(١) قال لي المرحوم ابراهيم أفندي الحيدري ان القاضي محي الدين جعل
 البيت الاتي مقدمة لخطبة الجمعة التي أقيمت يوم الفتح في المسجد الأقصى .
 الحمد لله ذلت دولة الصاوي وعز بالكرد دين المصطفى العربي
 المؤلف

خاضعين لأحكام الشريعة الإسلامية . ولم يدخل السلطان المدينة إلا بعد أن غادرها قواد وزعماء الجيش الصليبي ، وما أن وطأت قدماه أرض المدينة حتى أصدر عفوا عن سبعة آلاف من أولئك الذين عجزوا عن دفع الفدية ، من الأفرنج ، وذلك تلبية وتحقيقا لرجاء أخيه الملك العادل (أبي بكر محمد) ، ثم أصدر عفوا آخر عن عشرة آلاف آخرين حين تحقق عجزهم عن دفع الفدية ولم يكتبف بهذا ، بل إنه قد أباح يوما كاملا لخروج الفقراء من ذكور وإناث دون أن يطالبوا بدفع الفدية ، كما أذن للقسس والموظفين الدينيين ، بأن يحملوا معهم ما يلزمهم من الأمتعة .

وخلصة القول ان السلطان قد أظهر في فتح القدس من آيات العدل ومظاهر الرحمة والعطف ، ما قد فاق وتجاوز ما يتصوره العقل ، وهذا أمر متفق عليه ويعترف به المؤرخون والمؤرخون الأفرنج ويدهشون له ، ، إذ كان السلطان يكرم مشوي الضعفاء والعاجزين ، ويحترم النساء ، ويقدم لمن كافة التسهيلات وأجل الخدمات ، ، وقد أثر عنه أنه أكرم وفادة الملكة (سيبيل) وحقق رجاءهم إذ أرسلها إلى زوجها الملك (جوى) الذى كان أسيرا فى نابلس كما أنه أجاب طلب الكثيرات من الامهات والزوجات اللاتي مررن أمامه باقيات مولولات باطلاق سراح أبنائهن وأزواجهن من الاسر .

ولا يخفى أن هذه المعاملة الشريفة السامية التي عامل بها (صلاح الدين) أفرنج القدس وفلسطين ، كانت على العكس تماما من تلك المعاملة القاسية التي عامل بها هؤلاء الأفرنج المسلمين لان (جودفرى) حينما استولى على القدس سنة (٤٩٣ هـ - ١٠٩٩ م) ، قد ارتكب ما يندى له جبين التاريخ من الفظائع والاهوال مع المسلمين الأمنيين ، إذ قتل منهم سبعين ألفا من الرجال والنساء على التحديد . . وهذه حقيقة ثابتة لا يمكن أن ينكرها المؤرخون المسيحيون ، بل إنهم قد اعترفوا بها بكل جلاء وصراحة . . ولبت صلاح الدين

في القدس قرابة شهر نظم خلاله بعض أمورها ، فعمر الجوامع والمؤسسات الإسلامية وأعاد إليها بهاءها ورونقها من جديد ؛ وأنشأ المدارس والمعاهد وأجرى عليها ما يكفيها من الصدقات الجارية والأوقاف الثابتة ، ثم توجه على رأس جيشه الظافر إلى (صور) حيث كان أسطوله قد توجه من مصر صوب ميناء هذه القلعة بأمر منه ، غير أن المركيز (كونارد) كان قد اغتتم الفرصة وحسن هذه القلعة تحصينا قويا ، ولهذا لم تكمل بالنجاح جميع الجهود التي بذلها السلطان لاقتحام هذه القلعة والاستيلاء عليها عنوة من البر والبحر . وكان الشتاء قد أقبل بيرده القارس ، فانصاع السلطان لنصيحة بعض الأمراء والقواد ورفع الحصار وعاد بالجيش حيث أخذوا إلى الراحة .

ولكن السلطان ما لبث أن عض ننان الندم حيث لم يكن هؤلاء الأمراء في بادئ الأمر قد عرفوا أهمية هذه القلعة وما لها من قيمة حربية . مثل ما كان يعلم السلطان ، فكان من الواجب إذن الاستيلاء على هذه القلعة الوحيدة الباقية في قبضة الصليبيين بأي وسيلة كانت ليظهروا البلدان الفلسطينية منهم تمام التطهير . ولكن بما يؤسف له أن القواد والأمراء العسكريين قد أصروا على خلاف ما ارتآه وأراده السلطان بصدد الاستيلاء على هذه القلعة الهامة . وقد ترتب على ذلك ثلاثة أخطاء بارزة :

١ - كان الواجب أن يتقدم فتح هذه القلعة ، فتح القدس ، مادام لم يحدث ذلك في وقته المناسب الذي أضاعوه سابقا .

٢ - كان الواجب أن يحول السلطان دون عودة الأسرى الأفرنج وغيرهم من مقاتليهم الذين أطلق سراحهم أو الذين غادروا المدن المستردة من الأفرنج وغيرهم إلى الاحتشاد في قلعة (صور) والتحضر لقتال المسلمين مرة أخرى .

٣ - كان الواجب الاستيلاء على هذه القلعة بأي ثمن كان ، بعد أن أتم

الجيش الاسلامي فتح القدس ونظم أمورها . ثم ضرب فعلا نطاق الحصار حولها فلم يكن من الكياسة إذن تركها دون فتح .

وصفوة القول إن فتح القدس من جديد على أيدي المسلمين قد أثار روح التعصب بين المسيحيين في أوروبا ، وأقام القسس ورجال الدين وأقعدم ، فانبثوا في أنحاء البلاد يوقدون نار الحماس والتعصب بين المسيحيين من كافة الأمم والأجناس . فما هي إلا فترة وجيزة حتى احتشدت منهم قوة هائلة توجهت من كل فج عميق نحو فلسطين تحت قيادة ملوكهم وزعمائهم المشهورين ، وكان من الرؤساء البارزين في هذه الحملة الصليبية المشهورة امبراطور ألمانيا ، وملك انجلترا (ريشارد) الشهير بقلب الأسد ، وغيرهما من الملوك والعظماء .

وفي هذه الأثناء كان (صلاح الدين) قد أتم فتح قلعة (هونين) وضرب نطاق الحصار حول قلاع كوكب و صفد و السكرك ، ثم عاد إلى دمشق في السادس من ربيع الأول من عام (٥٨٤ هـ) حيث جهز جيشا حافلا توجه على رأسه صوب (أنطاكية) و (طرابلس) ولما استولى على (أنظرطوس) أطلق سراح المملك (جوى) (؟) مشرطا عليه ألا يعود إلى قتاله ، وأن يارح سورية على الفور إلى أوروبا . ولكن هذا الملك قد خان عهده وذهب توا إلى (صور) عارضا خدمته على (كونارد) ولكن عرضه هذا كان نصيبه الرفض وعدم القبول ، فذهب أخيرا إلى (طرابلس) وتمكن من حشد بقايا الصليبيين ثم عاد أخيرا واشترك مع جيش صور ، في الزحف على (عكا) وقد كتب الفرز للسلطان في هذه الحروب حيث استولى على (المرقب والجبلة ، واللاذقية ، وصهيون) وغيرها من القلاع والمدن ثم عاد عن طريق حلب إلى دمشق الشام وصرف عامة جيوشه للراحة والاستجمام وتوجه هو بخاصة عسكره خلال الشتاء إلى (صفد) و (كوكب) فاستولى عليهما .

وفي نفس الوقت جاءت الأنباء تترى بأن أخاه (الملك العادل) قد استولى على قلعة (الكرك) الشهيرة .

نعم إن السلطان قد تمكن من انتزاع جميع قلاع سورية وفلسطين ومدنها من بين برائن الأفرنج ما عدا قلعة الصور ذات الأهمية ، والتي أدى بقاؤها في قبضة الأفرنج إلى تهديد المسلمين بخطر شديد ، ولا سيما أن التعصب الأوروبي كان قد بلغ منتهاه من الشدة وقتذاك ، وكانت جموع الصليبيين من الحملة الثالثة ، قد أخذت تندفق كالسيل الجارف على فلسطين ، وتعتصم بقلعة الصور ، الأمر الذي أدى إلى تغيير موقف السلطان من خطة الهجوم إلى خطة الدفاع ابتداء من عام (٥٨٥ هـ) .

وقد حشد (كونارد) قائد قلعة الصور ، قوة عسكرية هائلة في هذه القلعة ، ودلت كافة القرائن وجميع الدلائل على أن هذه القوة آخذة في الزحف على البلاد الإسلامية ، حيث صارت فيما بعد مقدمة لأكبر نكبة حاقت بالإسلام . وتفصيل ذلك ، أن الملك (جوى) قد حشد - على خلاف ما أعطى على نفسه من العهود والمواثيق - جيوشا حافلة وكثيرة في طرابلس وكان يتلقى بين آن وآخر نجدات وامتدادات كبيرة عن طريق البحر من الأفرنج .

ولم يقف السلطان إزاء ذلك مكتوف اليدين ، بل أخذ بدوره في إعداد جيش لملاقاة خصومه في (مرج عيون = مرجعيون) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ضرب نطاق الحصار على قلعة (شقيف أرنون) ، ولما جائته الأنباء بأن الأفرنج قد ضيقوا الحصار على (عكا) ترك فريقا من جيشه ملقيا الحصار على الشقيف وتوجه بالأغلبية العظمى من جيشه لرفع الحصار عن عكا . وكان المحاصر لها من الأفرنج هو الملك جوى ، وقد دام هذا الحصار عامين كاملين ، وكان السبب في طول مدة الحصار هو تلقي الأفرنج النجدات

تلو النجدات . واشترك (كونارد) أيضا في هذا الحصار .

ولو أن صلاح الدين قد أبدى اهتماما بحصار عكا ، من بادىء الأمر ووجه ضربة قاضية إلى المحاصرين قبل تزايد عددهم واشتداد مساعدتهم ، وقبل وصول (كونارد) لنجدتهم ، لما طال الحصار إلى هذا الحد ، ولما طمع الأفرنج في الاستيلاء على القدس وفلسطين مرة أخرى ، بل الذى حدث هو العكس ، إذ أن السلطان قد أهتم بادىء ذى بدء بقلعة الشقيف وترك الفرصة للملك (جوى) كى يحشد قواته ويزيدها يوما فيوما . وما أن وصل السلطان صلاح الدين إلى عكا ، ورأى الأفرنج منهمكين فى تضيق الحصار ، حتى بادر إلى مناوشتهم وسبر غورهم ، وإن هى إلا بضعة أيام حتى سنحت له الفرصة للقيام بهجوم مباغت عنيف فى إحدى نواحي (عكا) واقتحمت قوة كبيرة البلدة تحت قيادة ابن أخيه الأمير (تقى الدين عمر بن شاهنشاه) ، وفتحت الطريق لايصال النجدات والعتاد .

ويقول (ستانلى) إن السلطان قد تمكن بنفسه من دخول (عكا) فى أصل اليوم الثانى من شعبان عام (٥٨٥ هـ) . ونصب الأمير (حسام الدين السمين) حاكما للقلعة وقائدا عليها . . . ولما أرخى الليل سدوله عادت القوات الاسلامية إلى معسكرها خارج القلعة ، فانهز الأفرنج الفرصة وأقاموا تحصينات هائلة فى الجهات والمراكز الملائمة ، ولا سيما ذلك الطريق الذى كان السلطان وجنوده قد افتتحوه نهارا بكل مشقة فقد أغلقه الأفرنج فى وجوههم وهكذا ذهبت جميع جهود السلطان وجنوده فى هذا اليوم هباء وضاعت سدى . ولقد تجاسر العدو بعد ذلك فقام فى الخامس من رمضان عام (٥٨٥ هـ) — علاوة على تضيقه الحصار — بهجوم شامل وعام على جيوش الاسلام فشقنها ، وأبعدها عن أطراف (عكا) ، وحدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه كافة قوات الاسلام موزعة ومبعثرة فى جهات عدة . . . فكان فريق منها

مضطرا للوقوف أمام (أنطاكية) ليرصد حركات أميرها (بوئمند = ييمند) وفريق آخر يقوم على حراسة (دمشق) بما عسى أن تقوم به الحاميات الأفرنجية بطرابلس الشام من حركات ضد المدينة ، بينما كانت هنالك قوة أخرى كبيرة تسهر على حماية دمياط ، و اسكندرية ، من غزو الصليبيين المفاجي . لهما .

وهكذا أفضى هذا الانكسار الجزئي (١) من جهة ، وحلول شهر رمضان واصرار قواد الجيش الاسلامي على الرجوع وترك القتال فترة من الزمن من جهة أخرى ، إلى اضطرار السلطان إلى الانسحاب والتراجع إلى الورا ، حتى (الخروبه) وترك (عكا) بمن فيها تحت رحمة القدر ، وقد استاء صلاح الدين وحز في نفسه الألم من نشاط الأفرنج وشدة غيبتهم وحرصهم على مصالحهم في الوقت الذي ينفر فيه المسلمون من مواصلة القتال مفضلين عليها الراحة والاخلاد إلى السكينة ، لأنه كان يقدر مغبة هذا الأمر تمام التقدير ويعلم بل ويتنبأ بمدى الأخطار المحدقة بالمسلمين ، ولهذا أرسل كتبا إلى شتى البقاع الاسلامية يدعو فيها الملوك والأمراء والزعماء لنجدة الاسلام والمسلمين ، وأمضى الشتاء في (الخروبه) دون القيام بأى عمل إلى أن تماثل للشفاء من المرض الذي ألم به ، وقد اجتمعت حوله خلال ذلك الجيوش الاسلامية ، فنهض على الفور وتوجه على تلك الجيوش الجرارة لملاقاة الأفرنج في اليوم السابع عشر من ربيع الأول من عام (٥٨٦ هـ) ، فوصل (عكا) بعد سبعة أيام ، وكان العدو قد ضيق الحصار على المحاصرين ، وفي هذه الآونة كان

(١) كانت الغلبة والنصر في النهاية في جانب السلطان بحيث قتل من الصليبيين زهاء عشرة آلاف من الجنود والضباط والقواد . (تاريخ اسلام ص ٣٨١)

الأسطول الإسلامي قد وصل من مصر ودخل مياه (عكا) واشتبك مع أسطول الأفرنج في القتال ، وألحق به هزيمة منكرة ، وتمكن من دخول الميناء حيث استطاع إمداد المحاصرين بمعدات تمكنهم من مواصلة الدفاع .

وفي هذا الوقت بالذات ، جاءت الأنباء تترى بأن (فردريك بارباروس) إمبراطور الألمان ، قد دخل في صفوف الصليبيين الذين تحركوا قاصدين فلسطين وكانت طلائع الجيش الألماني قد وصلت إلى شمال بلاد قليقية (أطنة الحالية) فلم يسع السلطان أمام سيول الصليبيين المتدفقة الجارفة، إلا الاستعانة بملوك المسلمين وحكامهم في أطراف الأرض ومشارقتها ومغاربتها ، حتى أنه أرسل وفدا لسلطان مراکش (يعقوب المنصور) يطلب إليه مد المسلمين بالمعونة والمساعدة . ومما يؤسف له أن استصرخ السلطان هذا قد ذهب هباء ولم يجد آذانا صاغية ولا قلوبا واعية . إذ لم يلب أحد منهم دعوته ونداءه . وهكذا بقي بطل الإسلام وحامي حماه وحيدا منفردا أمام أعدائه الكثيرين مستعينا بالله وبقواته الخاصة .

ومن عجائب القدر أن إمبراطور الألمان الذي كان على رأس جيش لجب من جيوش الصليبيين قد لقي حتفه غريقا في أحد^(١) الأنهار حين اجتيازه له في الحادي عشر من شهر حزيران (يونيو) عام (١١٩٠ م) = (٥٥٨٦) مما أدى إلى عودة فريق من جيشه إلى بلاده . في حين توجه الفريق الآخر بقيادة نجله (دوق دوسوايادا) إلى فلسطين عن طريق أنطاكية .

وكانت جيوش الصليبيين قد انقسمت إلى شطرين ، شطر يقوم بأعباء الحصار ، وشرطر وهو الأكبر قد خصص لمحاربة السلطان ومنازلته ، وقد

(١) مونهر جيحان الذي يجري في كليشيا (قليقية) ويقال له في كتب الجغرافيا الإسلامية القديمة نهر المصيصة .
المرجم

قام هذا الفريق من الصليبيين فعلا بمهاجمة السلطان في العشرين من جمادى الآخرة من عام (٥٨٦) للهجرة (٢٦ تموز سنة ١١٩٠ م) فتزعزع جيش السلطان واضطرب كيانه في بادىء الأمر . ولحق به انكسار جزئى . وتشتت فريق منه حتى وصل إلى أبواب دمشق ، و الطبرية ، واقتمحت بعض طلائع الأفرنج معسكر السلطان . وهنا أخذت الحمية تدب في الجيوش الإسلامية فثبتت أمام العدو كالطود وكرت على جحافلهم كرة عنيفة فألحقت بها هزيمة منكرة . وهكذا دب ديب الفرع والخوف بين صفوف العدو فولوا الأديار ولاذوا بالفرار ومن ناحية أخرى كان المدافعون عن قلعة (عكا) قد تمكنوا ببعض الوسائل ، من إحراق الأبراج التي كان العدو قد أقامها لتضييق نطاق الحصار عليهم

(١١) - اتصال السلطان بالجيش الإنجليزي

في اليوم الثانى والعشرين من شهر جمادى الآخرة من عام (٥٨٦ هـ) ، وصل جيش كبير من جيوش الصليبيين بقيادة الكونت (هنرى) ابن أخت ملك الإنجليز إلى أبواب (عكا) وأقام معسكره خارجها ، وأعد نفسه للقيام بهجوم عام على جيوش المسلمين . . . هنالك فطن السلطان إلى عدم ملائمة مستقره ومقامه لمنازلة العدو ، فانسحب سراعا إلى الخروبة ، بيد أن هذا العمل من جانب السلطان قد قوى من عزائم الأفرنج ، فأمعنوا فى تشديد الحصار ، ولسكن محافظ القلعة وهو الأمير (حسام الدين) من ناحية ، (وبهاء الدين قره قوش) قائد التحصينات والمهمات من ناحية أخرى ، كانا يبذلان مع الأبطال من المدافعين جهود الجسارة لصد هجمات العدو الشديدة . وقد أثنى المؤرخ (ميشو) على حسن بلاء هذين القائدين ثناء مستطابا لما أظهراه من ضروب البطولة والبرسالة أثناء الدفاع ، لأنهما تمكنوا من إحراق البرج السيار الذى كان يقذف حما على القاعدة وأبراجها من قبل الأفرنج ،

ركانا يخرجان بين الفينة والفينة إلى خارج القلعة ويفتحمان صفوف العدو ويضطرانها إلى تغيير قواعدها ومرآكزها والتقهر والتراجع إلى الوراء .

وقد أفضى ذلك إلى استئامة الكونت (هنرى) فى القتال ، وتشديده الحصار ، وتركيز كافة جهوده فى هذا السبيل ، وفى هذا الوقت كانت الذخيرة والميرة قد أخذت تنفذ من معسكرى الطرفين ولاسيما لدى المحصورين فى القلعة ولكن السلطان قد تمكن من جلب كمية طائلة من العتاد والأقوات من (بيروت) وإيصالها للمدافعين عن القلعة ، ولما أيقن الصليبيون أن وسائل الحصار التى أقاموها غير كافية لاسقاط القلعة أمام بسالة المسلمين ، واستئامتهم فى الدفاع عنها ، بعثوا برسولهم إلى أوروبا من جديد يستصرخون الملوك والزعماء والقسس وعلى رأسهم البابا . فأخذت القوات الصليبية تترى وتتدفق على (فلسطين) وتصل إلى أبواب قلعة (عكا) طيلة فترة الحصار .

وانتهز الكونت (هنرى) الفرصة التى ارتأها ساحة للصليبيين ، فقام بهجوم عام على الجيوش الإسلامية واحتدم بين الفريقين وطيس القتال . . . وكان السلطان وقتذاك مريضاً طريح الفراش لم يتمكن من الاشتراك والمساهمة فى المعركة الناشئة ، فجلس فى خيمته يشاهد عن كثب معارك حرب ضروس طال أمدها ، واشتد أوارها ثم أسفرت عن اندحار ذريع وخسران مبین للأفرنج ، مما أدى إلى تقهرهم وتراجعهم إلى قواعدهم ومرآكزهم السابقة . . . ويقول (السيد أمير على الهندى) مؤلف تاريخ الإسلام المصور : أنه لو كان السلطان هو الذى يدير بنفسه دفة القتال فى هذا اليوم لانهقدلوا نصر مبین ، ولسجل عمل حاسم لا مثيل له للمسلمين .

وفى تلك الأثناء كان الأسطول الأفرنجى بعيداً من عكا ، بسبب تغير حالة الجو فى البحر ، فاستغل المسلمون هذا الموقف ، كما استغلوا فرصة النصر فاستبدلوا حامية عكا ، بحامية أخرى تحت قيادة الأمير (سيف الدين على

المشطوب) ، ولكنها كانت أقل من الأولى عددا ، على خلاف رأى السلطان وهذا علاوة على عدم كفاية العتاد والسلاح لدى الحامية الجديدة . ويقول بعض المؤرخين إن سبب سقوط عكا ، فى أيدى الأفرنج إنما يرجع إلى قلة عدد المدافعين عنها ، وعدم رغبتهم الصادقة فى القتال . وتدفق نجدات متوالية على الأفرنج إذ وصل (فيليب أوجوست) ملك فرنسا فى الثانى عشر من ربيع الأول من عام (٥٨٧ هـ) ، إلى أبواب عكا ، وجعل من جيوشه وسائر جيوش الصليبيين جهة متحدة متراصة ، بما أدى إلى تفوق قوة الأفرنج تفوقا محسوسا على جيوش السلطان ، فاضطر السلطان إلى طلب النجدة والمساعدة من الأمراء المسلمين الخاضعين لسلطانه .

وقد زاد الطين بلة وصول (ريتشارد قلب الأسد) ملك الإنجليز أيضا إلى ميدان القتال . وهو الذى اشتهر فى أوربا بقوته الخارقة وبسالته النادرة (١) وما لبث أن اشتد الحصار على (عكا) برا وبحرا ، واستبسل المدافعون واستماتوا فى القتال إلى حين ، ولم يكن (صلاح الدين) قد تلقى نجدات بعد ولذا لم يكن فى مكنه حتى هذه الساعة القيام بهجوم على المحاصرين لتخفيف الضغط على المحصورين الذين كانوا قد أشرفوا على الفناء والاضمحلال بسبب قلة الأغذية ، واستفحال وطأة الأمراض المنتشرة من جراء الجوع والعري والفاقة ، وسائر ويلات الحرب . وقد أمر السلطان فى هذه الآونة بأرسال سفينة محملة بالأغذية من بيروت ، ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن وجرت الاقطار على خلاف المبتغى ، إذ اعترض سبيل السفينة جمع من قوات

(١) حينما وصل ملكا الإنجليز والفرنسيس إلى (عكا) كانا مريضين ، فبعث إليهما السلطان بثلج وفاكهة من جبل لبنان . اهـ (تاريخ الاسلام المصور) .
المؤلف

ملك الانجليز ، فما كان من قائدها إلا أن سارع باغراقها خوفا من وقوعها المحقق في أيدي العدو . وقد جاء هذا الحادث ضربة قاضية على آمال المدافعين في الثبات على الدفاع عن القلعة التي لبثت عامين كاملين تقاوم كافة الهجمات التي أحاطها بها الافرنج من جميع الجهات . فمن غارات شعواء و قتال عنيف إلى اشتداد وطأة الامراض الفتاكة إلى غير ذلك ، مما كان له أكبر الاثر في إضعاف الروح المعنوية بين جوانح الجنود فاضطروا إلى طلب المعونة من السلطان وألحفوا في الطلب ، ولكن السلطان لم يكن في مكنته إجابتهم لقلة ماله من قوات . ولما كانت الحالة تسير من سيء إلى أسوأ ، فقد ذهب الأمير وسيف الدين على المشطوب ، قائد الحامية إلى ملك فرنسا وقال له : « إننا على استعداد لتسليمكم المدينة على شريطة أن تعاملونا كمثل المعاملة التي عاملناكم بها سابقا فرد (فيليب أوجوست) على هذا العرض المعقول بقوله : « لا أقبل قط بقاء أحد من حامية عكا وسكانها حيا على وجه الأرض ، فاضطر القائد إلى العودة إلى قلعته يائسا حزينا ، وقاومت القلعة فترة أخرى ولكن بكل صعوبة ، إلا أن الجوع والقحط قد أترا في النهاية على المدافعين ، فقرروا تسليم القلعة بشرط واحد ، وهو المحافظة على أرواح المسلمين . وكان ذلك في اليوم السابع عشر من رجب عام (٥٨٧) ، (١٢ تموز = يوليو ١١٩١ م)

وكان الاتفاق يقضى بإطلاق سراح ألف وستمائة أسير صليبي لدى المسلمين و دفع مائتي ألف دينار لزعماء ورؤساء الصليبيين الذين لم يكثرثوا بتنفيذ هذه الشروط ، وداسوا بالاقدام على اليهود والموثيق ، فأسكرتهم نشوة النصر ، والتعصب المقنوت وعرضوا سكان (عكا) عموما إلى هلاك محقق حيث أعدوا لهم مذبحة دامية وأعمل فيهم ملك الانجليز وجموعه السيوف التي خلفتها حامية القلعة عند باب من أبواب المدينة حتى أفناهم عن آخرهم في اليوم الثالث بعد العشرين من رجب ، وهكذا أفضى الدفاع عن القلعة إلى التضحية بستين

ألفا من المسلمين في هذه المرة - وأخيرا كانت بذور الشقاق والخلاف قد أخذت تدب بين الصليبيين أنفسهم مع بعضهم البعض قبل الاستيلاء على (عكا) لان العلاقات بين ملكي الانجليز وفرنسيين كانت متوترة جدا ، كما كان التنافس على أشده بين الملك (جوى) والمركيز (كونارد) حول تاج فلسطين ، فكان الملك (فيليب) يعضد المركيز كونارد ويقف إلى جانبه ، بينما كان الملك (ريشارد) يحمي الملك جوى ويشد أزره . وحدث أن أبدى الملك (فيليب) امتعاضه وشديد استيائه من ملك الانجليز نتيجة بعض تصرفات غير لائقة بدت له منه ، فعاد فلسطين في اليوم السابع من رجب عام (٥٥٨٧) - إلى أوروبا . ومن ناحية أخرى كان المركيز (كونارد) يفاوض السلطان سرا للاتفاق معه ضد ملك الانجليز .

ولا شك في أن هذه الامور قد حدثت من سيطرة الصليبيين وصولاتهم ، وقوت مساعد المسلمين وخففت عنهم لوعة ما نزل بهم من السكوارث والبلايا وقد توجه ملك الانجليز صوب (يافا) بعد أن أمضى شهرا في عكا للراحة والاستجمام ، ولكن جيشه لم ينبغ في الطريق من مهاجمة القوات الاسلامية له ، حيث ألحقت به خسائر جسيمة فما كان من ملك الانجليز - ردا على ذلك - إلا أن يادر إلى تحصين قلعة (يافا) تحصينا متينا ، وأضاف إلى ذلك بناء قلاع أخرى في السهول المحيطة بتلك القلعة ولكن الجيوش الاسلامية كانت نه بالمرصاد فلم تكن تترك له الفرصة الكافية لاتمام تحصيناتها . ولقد احتدم الصدام بين الفريقين المتنازعين إلى حد أن ملك الانجليز نفسه قد تعرض للاسر والخطف مرارا وتكرارا .

وصفوة القول إن ملك الانجليز لما أدرك ورأى ثبات السلطان ومضاء عزمه ورباطة جأشه وعزمه الاكيد على مواصلة القتال مهما كانت الظروف مع ما يتمتع به من الصفات الحربية النادرة ، ومضاء العزيمة - أيقن أنه أمام

خصم جبار لا يشق له غبار ، وأنه لا يقاس بغيره من الخصوم ، فأمن بأن مناوأة مثل هذا الخصم العنيد ضرب من المحال وعبت لا طائل من ورائه ، فلذا وبسبب اعتزازه العودة الى انجلترا قد استقر رأيه على طلب الصلح من السلطان . وكان السلطان صلاح الدين على ما انصف به من خلق متين ، وجنان ثابت ومضاء عزيزة ، طاهر القلب والنفس ، رقيق الشعور مرهف الاحساس والعاطفة ؛ فلذا كان شديد التأثير لكثرة ما أصاب المسلمين من الويلات والمصائب والنكبات ، وهذا ما حمله على أن يأذن للملك العادل بالدخول في مفاوضات مع الملك (ريشارد) لعقد الصلح . فاجتمع هذان العاهلان وتولى الترجمة بينهما (همفري دوتورن) . . . إلا أن المفاوضات لم تسفر عن اتفاق لعدم ملائمة الشروط التي عرضها ملك الإنجليز لوضع حد لهذه الحروب الطاحنة الدامية . . . ومع ذلك لم تتوقف المساعي لتحقيق هذا الهدف النبيل ، والذي قام بالمسعى هذه المرة هو (ماركي دوفروا) وملك الإنجليز . . . وبعد أخذ ورد انتهى الملك العادل والملك ريشارد الى اقرار الشرط التالية (١) يتزوج الملك العادل أخت ملك الإنجليز على أن يترك له ملك الإنجليز جميع البلاد الساحلية التي تحت سلطانه كهدية للزواج .

(١) يتنازل السلطان صلاح الدين عن البلاد التي فتحها وانتزعها من الصليبيين للملك العادل ، على أن تكون مدينة القدس مشتركة وحررة بين المسلمين والنصارى تحت ادارة أخت ملك الإنجليز وقريبة الملك العادل .

ولقد قبل السلطان صلاح الدين هذه الشروط على مضض حيث لم يطمئن إليها ، في حين رفضها رجال الدين من المسيحيين ولم يقبلوها ، واعتبروا الملك ريشارد وأخته خارجين على الدين المسيحي ، ولهذا لم تنفذ شروط هذا الصلح البتة . والفائدة الوحيدة التي جناها صلاح الدين خلال فترة الصلح هذه وإبان المفاوضات والمخاضات ، هي انتهازه الفرصة والحاقه الخراب والدمار بقلعة

(عسقلان) الشهيرة في اليوم التاسع بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٧ هـ) حتى لا تقع غنيمه بارده في أيدي الأفرنج . مادام المسلمون يرفضون الدفاع عنها لأن الدفاع عن (عكا) قد كلفهم غالبا . . . ثم عرج السلطان على (الرملة) فأمر بتخريبها أيضا . . . ثم واصل الزحف بجيشه إلى (عين النطرون) فلم يترك في هذه المنطقه عامرا إلا دمره ، كيلا يفيد منه الأعداء . . . ولما أقبل الشتاء ذهب السلطان سرا إلى القدس ، وأذن للجهادين بالانصراف ، تاركا قوة صغيرة في تلك الأنحاء بعيدة عن الأيصار لترصد وترقب حركات العدو من ناحية ، وتعزز حصون القدس وقلاعها من ناحية أخرى .

وفي أوائل ذي الحجة عام (٥٨٧ هـ) في صميم الشتاء القارس ، توجه (ريشارد) نحو الرملة فاستولى عليها بعد جهد جهيد ، ثم واصل الزحف والغزو حتى (بيت النوبة) . ولكنه لم يستطع الصمود والثبات هنالك فقفل راجعا تاركا وراءه بعض قوات الصليبيين للاغارة على الأطراف ، فذهب هؤلاء إلى (بافا) و (عكا) . . . وهكذا انكشفت بل ونقصت قوات (ريشارد) ووزعت وبعثرت في شتى الجهات . . .

ثم أراد هو — وقتذاك — تعمیر قلعة (عسقلان) ليتخذها مقرا ومركزا لحركاته العسكرية الخاصة . . . إلا أن الشقاق الذي كان ينخر في عظام الصليبيين ويهدد كيانهم ، ومنافسة (كونارد) لملك الانجليز ، ووصول أنباء غير مطمئنة له من انجلترا — قد ثبت من همه (ريشارد) وسرعان ما أبدى ميله مرة أخرى لعقد الصلح ، فدخل في مفاوضات لهذا الغرض .

وما أن أقبل الربيع ، حتى تواترت الأنباء بظهور يواذر ثورة داخلية في أطراف الجزيرة ، فاضطر السلطان لتجريد قوة من جيوشه ، لاختاد تلك الثورات في مهدا قبل تفاقمها واندلاع هليها . . . حينذاك أراد (ريشارد) أن يستغل هذا الموقف ويقوم بمهاجمة السلطان في هذه الآونة . . . وفعلا

حشد جيشا كبيرا ، وزحف به صوب البلاد السلطانية ، في منتصف جمادى الأولى من عام (٥٨٨ هـ) وظل يواصل الزحف حتى وصل (حصن الداروم) وبعد أن سفك (ريشارد) دماء الكثيرين من أهالي تلك البقاع من المسلمين ، وخرّب المدن والقرى في تلك الأصقاع ، أراد أن يعود من حيث أتى ، خشية أن يلحقه إندحار مفاجئ . فبقعه عن استرداد القدس ؛ بيد أن الصليبيين لم يدعوا الأمر ، فاضطر لمواصلة الزحف والغزو حتى (بيت التوبة) حيث كان السلطان قد أعد نفسه للدفاع المجيد ، فكان قد خرب الطرق ، وغور الآبار ، وأنصب العيون في جميع المسالك التي يحتمل أن يسلكها العدو ، الأمر الذي أساء الصليبيين أيما إساءة وأفض مضاجعهم ، فساورهم قلق شديد مضم . . . وكان أن عقدوا مجلسا حريا قرروا فيه العدول عن استرداد (القدس) ، والزحف على مصر نفسها بدل الزحف على القدس .

ولما عاد الملك (ريشارد) إلى «عكا» بعث برسالة إلى السلطان ، أثار فيها مسألة الصلح من جديد ، ودارت بينهما مفاوضات انتهت بعقد صلح في اليوم الثاني بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٨ هـ) . (٢ كانون أول سنة ١١٩٢ م) على شريطة أن تبقى (يافا) أيضا في قبضة الصليبيين .

تلك هي النتيجة الحتمية التي وصلت إليها الحملة الصليبية الثالثة في بلاد المشرق بعد فقدانهم الآلاف من الضحايا التي قدمتها جماعات الفدائيين والمتطوعين من الأوربيين الذين ساقهم نزوات التعصب الأعمى الممقوت ، إلى بطاح فلسطين وسهول القدس المترامية الأطراف ، وما ذلك إلا بفضل قوة السلطان صلاح الدين ومضاء عزيمته ، وحسن تدبيره للأمور ، وجرأته النادرة ، وسرعة خاطره في أخرج الأوقات وأشدّها حلكة وخطرا ، ولهذا لم يحصل صليبيو الحملة الثالثة في فترة الخمس سنوات التي تخاضوها خلالها غمار معارك طاحنة ، ذهب ضحيتها معظمهم ونجا الباقون بالعودة إلى بلادهم الأعلى بلدين على الساحل حيث بسطوا سلطانهم عليهما .

وأما ما أفاده (صلاح الدين) من هذه المعارك والحروب الأخيرة ،
 فلذا ذكر في هذا المقام ما ذهب إليه صاحب كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبي)
 حيث يقول : « إن حروب فلسطين قد ابتدأت من بعد معركة (حطين)
 الكبرى ، ولم يكن حينذاك في أيدي المسلمين ولا قرية واحدة من أرض
 (فلسطين) ، ولكن صلح الرملة الذي أبرم في اليوم الثاني بعد العشرين من
 شعبان عام (٥٨٨ هـ) ، قد مكن المسلمين من بسط سلطانهم ونفوذهم على كل
 (فلسطين) سوى قطعة من الأرض مستطيلة تمتد من الصور إلى عكا ، حيث
 طرد الأفرنج من كافة البلاد في تلك البقاع الشاسعة ، وعادت القدس إلى أملاك
 السلطان ، وبذلك ظهر شأن الإسلام واسترد شرفه ورونقه من جديد ،
 عاد (صلاح الدين) بطل الكردينال والإسلام بعد هذا الصلح إلى القدس
 حيث تفرغ لتنظيم شئونها وتدعيم أمورها ، فأنشأها من المدارس العلمية
 والملاجئ الخيرية ، والمستشفيات ، ما خلد به ذكره على مدى السنين والأيام
 ثم أبدى رغبة صادقة في الحج إلى بيت الله الحرام ، ولكن قواد الجيش
 وزعماء الإسلام قد ثنوه عن عزمه والتمسوا منه العدول عن هذه الفكرة
 خشية أن تصدى له العصابات الصليبية في الطريق وتعتدى عليه ، إذ كان الطريق
 إلى بيت الله الحرام مارا بمنطقتهم ، وإزاء إلحاحهم قد عدل السلطان بصفة
 مؤقتة عن تحقيق هذه الأمنية المباركة ... ثم قام بجولة تفتيشية في البلاد الساحلية
 ومعه قوة خاصة صغيرة ، فتفقد الشئون والقلاع ، وأمر بتهيئة الوسائل لراحة
 السكان ، وتعزيز القوات ثم توجه عن طريق (نابلس) و(بيسان) و(كوكب)
 إلى (بيروت) حيث اجتمع هنالك بأمر (أنطاكية) ، وأخيرا عاد إلى دمشق
 في اليوم السادس بعد العشرين من شوال عام (٥٨٨ هـ) .

(١٢) « وفاة السلطان صلاح الدين »

قام السلطان خلال الفترة التي أقامها بدمشق - علاوة على معالجته شئون

الدولة - بتوزيع الصدقات من ماله الخاص على المساكين والأيتام والفقراء والذين انقطع بهم السبل ، وعلى الغزاة والمجاهدين ، وترحيلهم إلى بلادهم ، وإلى جانب ذلك كان يقضى بضع ساعات من أوقات فراغه في الخروج للصيد والقنص ، وفي اليوم الرابع عشر من صفر عام (٥٥٨٩ هـ) ، خرج السلطان لاستقبال الحجاج العائدين من (مكة) حيث كان الاحتفال بعودتهم رائعا وبالغ الروعة . فقد شهد جمع غفير من العظماء والكبراء وعامة الناس ، وقد بلغ بالسلطان التأثر من بهجة هذه المشاهد الروحانية أن أجش بالبكاء لعدم تأدية فرضة الحج في هذه السنة المباركة ، وشوقا منه لزيارة بيت الله الحرام .. وما أن عاد إلى مقره العالي حتى اعترته قشعريرة قاسية وانتابته حمى شديدة وأخذ المرض الذي لا يرحم يشتد ويلح عليه يوما بعد يوم إلى أن توفاه الله إلى رحمته في يوم الأربعاء الموافق السابع بعد العشرين من رجب عام (٥٥٨٩ هـ) (٤ مارس سنة ١٩٢٣ م) ، عن سبعة وخمسين عاما . . . فبكاه الناس على اختلاف طبقاتهم بكاء مرا ، واعتكفوا في بيوتهم طيلة يوم الوفاة حدادا وحزنا عليه ، فلم يكن يرى في المدينة سوى أسواق مقفلة ، وشوارع مقفلة ، وقد أقيمت مراسم الجنازة على أبسط وأقل ما يمكن من المظاهر - تنفيذاً لوصيته - ودفن حيث مات . . . وبعد نحو من ثلاث سنوات ، اشترى نجله (الملك الأفضل علي) دارا يمتلكها رجل صالح بجوار الجامع الأموي ، وأقام بها ضريحاً نقل إليه رفات والده العظيم وكان ذلك في يوم عاشوراء باحتفال مهيب عظيم ، وأقام مأتماً كبيراً وجلس بالجامع لتقبل العزاء ثلاثة أيام كاملة .

هذا وفي اليوم التالي لوفاته ، احتشد جمع غفير من الناس في الميادين والشوارع ، يبكون وينتجبون ، فكان عويلهم يرتفع ويصعد إلى عنان السماء ، ولكن السلطات سرعان ما تدخلت لمنع الاسترسال في هذا الصراخ ، ولم تسمح لأي فرد بالثناء والعويل ، اللهم إلا الشاعر (العماد الكاتب الأصفهاني)

الذي رثاه بقصائد طويلة عصماء ، أبكت الناس أجمعين .
ويقول الدكتور أحمد البيلى : « مات السلطان ، وبموته فقدت الأمة
الاسلامية سلطانا قويا أعزها وأقالها من عشرة كادت تؤدى بها إلى الهلاك
والدمار . . . توفى صلاح الدين وقد قدر فضله أعداؤه إذ وجدوا فيه أسنانا
كبيرا ، وعاملا عظيما ، فأخذوا عنه دروسا فى الشجاعة والفروسية ، ونماذج
فى الكرم ، ومثالا يحتذى لمكارم الأخلاق ، وينبوعا للرحمة والشفقة ، فأعترفوا
من فضائله غير قليل . ، وكان للسلطان فى حياته سبعة عشر ولدا من الذكور
وأنتى واحدة . كما نص على ذلك صاحب كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى .

(١٣) « صفاته العالية وخصاله الحميدة »

تبينا من مجريات تاريخ حياة هذا العاهل الاسلامى والبطل المغوار . كم
بدل من جهود جبارة ومضنية ابث الروح المعنوية بين الغزاة المسلمين والمجاهدين
وتقوية روح الشجاعة والافدام وحب التضحية فيهم منذ أن صار وزير للخليفة
العاضد حتى يوم أن لقي ربه . . . وكم قدم من الخدمات الجلى لا للعالم الاسلامى
فحسب ، بل للعالم الشرقى بأسره . . . وكيف نجح فى تذليل الصعاب ، وتحطيم
العقبات ، وإزالة العراقيل التى كانت تقف حجر عثرة فى سبيل توحيد الجهود
الاسلامية ، والوقوف جبهة متراصة كالبنيان المرصوص فى وجه الفرنجة
المغيرين الظامعين ، وذلك بالتغلب على الأمراء المسلمين من المنشقين المستقلين
اللاهين ، وبالظفر بالفرنجة والصليبيين المغيرين على الشام ومصر اللتين طالما
فرقت بينهما أهواء السياسة ، والخلافات المذهبية ، والأغراض الطائفية
والحزازات الشخصية ، فتمكن هذا العبقري الهمام من الجمع بين هذين القطرين
تحت راية عدله وإدارته الحازمة . . . وكيف لازمه التوفيق فى إنشاء وحدة
إدارية شاملة تنتظم عقد جميع البلاد الاسلامية التى يقطنها كثير من الأقوام

المتباينة الجنس والمختلفة اللغة ، بادئا بكر دستان موطن آباؤه واجداده البهايل
حتى بلاد تونس من ناحية ، واليمن وعدن من جهة أخرى

وكيف نشر لواء العدل في تلك الاصقاع ، وعامل الناس بالقسطاس
المستقيم ، وحقق المساواة ، وقوى فيهم الشعور بالاخوة الإسلامية . . . فلا
عجب إذن ألا يبقى أو يوجد بين هؤلاء الاقوام أحد غير راض عنه ، أو
يتوانى عن بذل النفس والنفيس مرصاة له ، وهذا أبلغ دليل على ما كان يتمتع
به السلطان من كامل ثقة الجمهور وعظيم احترامهم لذاته ، ولا غرو فقد كان
ينتصر المظلوم ويعينه على الظالم ، ويغيث الملهوف ، ويقسو على القوى ،
ويحارب العدو ، ويتساهل في حقوق نفسه ، ويتسامح ، وكان كل همه منصبا
على رعاية شئون الإسلام وتحقيق المسلمين والحرص على حقوقهم والسهر
على مصالحهم .

ولم يكن صلاح الدين سلطانا مستبدا يفعل ما يريد أو يهرم كما يتراءى له ،
بل كان الأمر شورى بينه وبين ذوى المكانة والعقل الراجح ، وأصحاب الراى
الصائب والفكر الثاقب من رجالاته . وذلك تمشيا مع روح الشريعة الإسلامية
الغراء المستمدة من كتاب الله والسنة النبوية . . . ولم يعرف عنه أنه مال قط إلى
الاستبداد بالرأى ، أو الانفراد بالبت في المسائل والشئون العامة . . . وطالما
تنازل عن رأيه الخاص احتراماً لرأى الجماعة ونزولاً على ارادة الأغلبية . (كما
حدث ذلك في مسألتى صور ، وعكا ،) .

وكان السلطان بارعا في كسب القلوب واسترضاء الناس وذلك لمحاولة
توفير الخير والرفاهة للجميع . . . فلا عجب أن كانت وفاته صدمة عنيفة ونكبة
عامة للجميع ، لأنهم كانوا يعتبرونه أبا باراً ، وملكاً عادلاً ، ومخلصاً لرعاياه ،
وسلطاناً قوى البطش بأعداء الإسلام ، وشديداً على خصومه أينما كانوا .
وبالجملة فقد كان الخادم المخلص للدين والعامل على رفع شأنه وليس أدل على

ذلك من النصيحة التالية التي ألقاها على مسامع نجله الظاهر (غازي) حين عينه في منصب من مناصب الدولة . ألا وهي :

• أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير ، وأمرك بما أمر الله به ، فإنه سبب نجاتك ، وأحذر من الدماء والدخول فيها والتقلد بها ، فإن الدم لا ينام ، ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والامراء وأرباب الدولة والاكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمدارة الناس ، ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ، فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم ،

ولا يمكن أن يلحظ الإنسان من بين ثنايا أخبار (صلاح الدين) أو يلح من أحواله مع رعيته أهبة الملوك وعظمة السلاطين ، فكان لا يفر من أفراد رعيته حق الوصول إليه والمثول بين يديه دون شفقة أو عناء ، لا يعترض سبيله حاجب أو يقف دونه حائل ، لا يعتريه خوف ولا رهبة ، ولصاحب المظالم أن يذهب بنفسه للقاء السلطان ليث شكواه ، وكان ذوو الحاجات وأرباب المظالم يتزاحمون عليه فلا يظهر عليه ضجر أو ملل ، وما توافد الناس عليه من كل فج إلا لانهم لمسوا فيه لين الجانب ، وإحقاق الحق ، والالفة والانس ، والتلطف مع الجميع على السواء . . . وكان فوق ذلك رقيق القلب سريع التأثر ، تتحرك عواطفه وتدمع عيناه إذا ما طرق سمعه صوت ضعيف أو أنين مسكين ، وكان يجزل العطايا للبرساء والايامى والمساكين ، وكان شفوفا لدرجة لا يستطيع معها أن يرى خادما له يضرب . . . وعجيب هذا من سلطان كان السادة في أيامه لا يفتأون يقسون ويضربون عبيدهم وخدمهم . وكان رحمه الله مثال البساطة النادرة في ملبسه وما كاه ومسكنه ، وقد حدث أن شيد له منزل أنيق في دمشق فألقى عليه نظرة عاجلة ثم قال : ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الابد ، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت ، وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه ، .

ولم تفتته أموال ملكه الواسع فكان يقول : إن المال والتراب سيان عندي ،
 لذلك كان يكره أن يسأله سائل دون أن يعطيه وإذا عاد السائل وطلب المزيد
 أعطاه دون أن يقول له ، قد أعطيتك من قبل ، وأكثره بذله ، وسعة سخائه
 كان أعوانه ينكرون وجود مال لديهم حتى لا يتبادى في البذل حتى تنفد الأموال
 ولا يجد ما يجهز به الجيوش لمحاربة الأعداء . . . وليس أدل على جوده وكرمه
 من أنه حين وافته المنية لم يوجد في حوزته مال ، كما أنه لم يترك ضيعة
ولا قصرًا . . . وإلى هذا يشير صاحب السمو الملكي الأمير (محمد علي) ولي عهد
 المملكة المصرية الآن في الرحلة الشامية ، كان رحمه الله غاية في الجود والكرم
 حتى قيل أنه لم يترك بعد وفاته سوى سبعة وأربعين درهما ، وهي ثروة ربما
 ترك السائل لأولاده أضعاف أضعافها ، ولكن السخاء والحنان والشفقة على
 المساكين والفقراء تستنفد المال ولو كان مثل الجبال ،

وفي عام ١٣١٦ للهجرة (١٨٩٨ م) حينما زار امبراطور ألمانيا
 وأميراطور رتها بلاد الشام ، ألقى - وهما في دمشق - خطبة قال فيها ما ترجمته : ووما
يزيد في سروري أنتي موجود في بلد عاش فيه ذلك الرجل الذي كان أعظم
رجال عصره ، وفريد دهره شجاعة وبسالة ومن كان مثال الشهامة النادرة ،
 والذي طبقت شهرته الآفاق . ألا وهو البطل المغوار صلاح الدين الأيوبي ،
 وقد أرسلت الامبراطورة أكليلا بديعا من الزهر ليوضع بإسم الامبراطور
 على ضريح بطل التاريخ الاسلامي ، وقد نقش عليه بالحرية (ويلهم الثاني
 قيصر ألمانيا وملك بروسيا تذكارا للبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي)

ويقول مؤلف كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبي) : كيف لا تجتمع
 الأمة الاسلامية بأسرها على محبة هذا الرجل العظيم الذي كشف عنها الغمة
 التي حاقت بها من جراء تعدى الفرنجة عليها وعلى بلادها وديارها ، والذي
 نهض بجلائل الأعمال في سبيل الشرق والشرقيين ، وإعلاء شأن الإسلام والمسلمين

والذي قال لجنود الأعداء (قفوا مكانكم، فها قلب أسد أقوى من قلب أسدكم)
دون أن يخشى سهام العدو المصوبة إلى قلبه، ولقد كان يمتطي صهوة جواده
ويقود جنده وهو مريض ويقول (إني إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر
جواذي) فلا غرو إذا وضع الناس أرواحهم بين يديه وأنفسهم طوع بئانه
ورهن إشارته ... نعم ! وصل السلطان صلاح الدين هذه المكانة في أمته
بل وعند أعدائه بإقدام شهيد بثبات جنانه، ودرجة استئمالها القلوب والألباب .
وخبرة افتتح بها البلدان وقادها الأجناد ، وحنان وشفقة جمعائمه في المكانة
في قلوب رعيتهم لم يتسن لغيره من قبله . فأحبها وقام بكلياته على رعاية مصالحها ،
فكان خلاصة الشرف الإسلامي ، والبقية الباقية من المجد الشرقي ومثال
البسالة الكرديّة النادرة .

وكان يضم مجلسه العلماء والوجهاء ، ويقصد بابه الفقراء والضعفاء وكان
من شيمته التواضع حتى قال قائل (أدهشني منه التواضع والتقى) وكثيرا
ما كان يعرض نفسه للاخطار مع جنده ، محافظة على ما كرهه الذي كان العدو
يتربص له ويرنو إلى انتزاعه منه ، وهذا إقدام وشيم وعملو نفس قل أن
يتحلى بها غيره من السلاطين والملوك .

ولقد شهد له بهذا بل وبأكثر من هذا أعداؤه أنفسهم ، فقد قال
استانلي ، ما ترجمته : ، ولم يخطيء الناس ادراك أوصافه وأخلاقه ، فهو دون
منازع شريف النفس ، همام ، شهم ، شجاع ، وديع ، رقيق ، شفوق ، طاهر
القلب نقيه ، ناصع الحياة ، زاهد فيها ، مجد ، كدود ، بسيط ، ساذج في جميع
أحواله ، غيور على دينه ... بهذه الصفات الفريدة النادرة أصبح جديرا بأن
يكون مثال البطولة في الإسلام ،

وجاء في كتاب تاريخ المؤرخين ما ترجمه : (والذي أدهش المسيحيين من
أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وسخاؤه وكرمه ورحمته وحلمه وصفحه

وعفوه ، لا سيما محافظته على العهود والمواثيق . ومن المدهش حقا أن تكون هذه الاوصاف التي ملأت قلوب أهل أوروبا إعجابا هي الاوصاف التي يصفون بها ذلك الرجل الذي انتصر عليهم وألحق بهم الهزيمة في آسيا .

وقال عنه ، استيفن سن : (كان صلاح الدين موفقا في خطته ، ماهرا في عمله ، سريعا في تقدير قوى عدوه ، ما تردد لحظة واحدة في تنفيذ مرسومه أما عن نشاطه فما كان الملل يجد إلى نفسه سيلا ، وكان صبورا على الشدائد وعظيم الثقة بنفسه . . كل هذه كانت من صفاته البارزة بوضوح وجلال ، نظرتة في الامور نظرة صادقة ، وحكمه عليها حكم عادل ، كان إذا عن له أمر نادر بتنفيذه دون تردد أو ابطاء . . . وقد خدمته كل هذه المزايا في أعماله السياسية والحربية) . كما قال عنه السيد أمير علي الهندي في كتابه (تاريخ الإسلام المصور) أنه كان من أعظم الملوك الفاتحين وأشدهم بطولة وبسالة في العالم . وقال عنه (أحمد زكي باشا المصري) في خطاب ألقاه ونشر في مجلة « رعسيس » ، ما نصه : (وقد كان القبط يحبون هذا الملك العظيم صلاح الدين الذي جماعهم وراعاهم وعرفوا في ظل أيامه السعادة والهناء . . وأي دليل على هذا أكبر من وضع صورته إلى جانب الآنية المقدسة ؟) . ثم أردفت المجلة هذا بقولها أن أحد شعراء الأندلس المدعو عبد المنعم الاندلسي ، قد زار مصر في ذلك الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين ، ونظم في ذلك قصيدة تمثل الحقيقة التاريخية، نورد منها هذين البيتين :

خطوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقاليم
يدين لها قس ويرقى بوصفها ويكتبه يشفي به في التمام
وقد ورد في تاريخ « هامر » أن (صلاح الدين) قد أوصى في أواخر حياته بالتالي : « إدفنوا معي سيفي الذي حاربت به في قبري ليكون لي خير شاهد يوم القيامة » .

(١٤) «آثاره العمرانية والمدنية»

تلك حياة صلاح الدين كما رأيناها كلها حرب وقتال وجهاد . . . إلا أنه قد وجه عنايته إلى جانب هذا إلى النواحي العمرانية التي يذكرها له التاريخ بمداد الفخر والتقدير . . . رأى أن التدريس في جامع القسطنطينية (جامع عمرو) يسر على منوال ما هو متبع في الأزهر ، فابتنى في عام (٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م) المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق وخصصها للشافعية ، وهي أول مدرسة أسست في مصر . . . ثم ابتنى المدرسة القمحية بالقرب من الأولى وخصصها للمالكية . . . ثم ابتنى مدرسة للحنفية في عام (٥٧٢ = ١١٧٦ م) واتخذ لها مقرا دار الوزير الطائفي وتعرف الآن بالمدرسة السيوفية ، ولم تقف مجهودات السلطان عند فتح هذه المدارس بل رتب الوظائف للمدرسين والطلبة فيها على السواء ، فتمكن بذلك من نشر المذهب السني واحلاله عند العامة والخاصة محل المذهب الشيعي ، ويقول صاحب كتاب صبح الأعشى : أما الخوانق والربط فلم يكن للديار المصرية بها عهد قبل الدولة الأيوبية ، وكان المبتكر لها هو السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) رحمه الله ، فابتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء ، ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانبة بزقاق البركة .

هذا ويرجع الفضل إلى (صلاح الدين) في وضع أساس الأسطول المصري حيث رأى بثاقب فكره وبعد نظره أن مصر ينبوع متدفق يستقى منه قوته البحرية . فبنى السفن ، وعمر الأسطول ، وبلغ من اهتمامه بأمر الأسطول أن أنشأ له ديوانا خاصا يسمى ديوان الأسطول سلم دقاليده لأخيه الملك العادل ، وقد كانت الاسكندرية ودمياط الميناءين البحريين في ديار مصر يضاف إليهما مدينة تينيس ، الخربة الآن .

أما (الفسطاط) و (قوص) فكانتا من أعظم الموانئ النيلية ، وكانت السفن الحربية تبني في هذه الموانئ وترابط بتلك الشغور حتى إذا أزفت الأزفة شقت طريقها إلى البحر لأعلاء كلمة الاسلام .

تطلع صلاح الدين إلى الاسكندرية فوجدها محط أنظار الفرنجة ، ولكي يطمن عليها قلبه أمر بعمارة أسوارها وأبراجها ، ثم ابتنى بها (بيمارستانا = مستشفى) بعد أن ابتنى آخر بمصر . وفيه يقول صاحب صبح الأعشى : (ولما ملك السلطان الديار المصرية ، واستولى على القصر ، وكان القصر قاعة بناها العزيز بن المعز في عام (٣٨٤) للهجرة ، فجعلها السلطان بيمارستانا ، وهو البيمارستان العتيق الذي بداخل القصر) . ثم أنشأ السلطان بها دارا للغرباء ، كما أنه مهد بعض الجسور ، وظهر الترع لإصلاح حال المزارعين ، ولما كان من عادته أن يسرح جنوده في الشتاء ، فقد كان حال الزراعة مرضيا ثم نظر إلى الأهلين وقد أثقل كاهلهم وزراء الفواطم بمختلف أنواع الضرائب ، فبادر على الفور إلى إلغاء المكوس ، وقرأت نسخة مسجلة على المنابر يوم الجمعة الموافق ٣ صفر عام (٥٦٧ هـ) - (٣٠ يونيو سنة ١١٧١ م) . وإليك

نبذة من هذا السجل : (وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمساحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم (المقس) والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر برا وبحرا مركبا وظهر امرا وجهرا لا يحل ماشده ولا يحاول ما عنده ولا يكشف ما ستره ولا يسأل عما أورده أو صدره ولا يستوقف في طريقه ولا يشرق بريقه ولا يؤخذ منه طعمه ولا يستباح له حرمة)

من هذا السجل يدرك المرء لأول وهلة مدى ما كان يصادفه الناس من عبء هذه الضريبة وغيرها التي ما كانت تترك غاديا ولا رائحا إلا كشفت ستره

ومدت أيدي العمال والموظفين إلى ماله فسلبته ، وإلى متاعه فتهبته ، ووردت بعد ذلك منه إلى الخزانة السلطانية ما شاء طمعها .

ويقول الدكتور أحمد بيلي : إن الانسان ليدرك من إبطال هذه المكوس ما كان يعانيه السكان من الذلة من جهة ، وما كان يرمى إليه صلاح الدين من نشر التجارة وتسهيل سبلها من جهة أخرى ، لاعتقاده وتأكده بأنها مرقى الأمم إلى الحضارة والمدنية ، ولذلك أثر عنه أنه كان يديحها مع الفرنجة أثناء حروبه معهم .

ولما أبطل مغارم أهل الحجاز أيضا ؛ عوض أمير مكة عنها بألفي دينار واثم أردب من القمح سنويا هذا عدا عدة إقطاعات بالصعيد واليمن ، وبهذا زال عن كاهل الحجاج ذلك العناء الذي كان يقف حجر عثرة في سبيل الكثيرين من راغبي أداء الفريضة . . واختتم كلامه بقوله : هذا قليل من كثير من مناقب هذا السلطان الكبير ، والقائد العظيم وعندى أنه لو كثر بين ملوك المسلمين أمثال صلاح الدين لما وصلت الأمم الإسلامية من الضعف والوهن في أمورها الداخلية والخارجية إلى ما وصلت إليه .

ويقول السيد أمير علي : إن القاضي الفاضل الذي كان وزير السلطان كان ساعده الأيمن في تنفيذ مشروعاته الخيرية ، إذ لم تكن حكومة صلاح الدين الشورية مؤلفة من (قره قوش) و (حسام الدين) و (المشطوب) فقط ، بل كانت تضم غيرهم من أمثال القاضي الفاضل وعماد الدين الكاتب وعيسى الحكاري وبعض علماء آخرين . (١)

(١) يقول الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادي الذي اجتمع بصلاح الدين في القدس بعد الصلح ، أن أول ليلة تشرفت فيها بمقابلة السلطان رأيت في مجمع من العلماء يصنعون إلى كلامهم تارة ويناقشهم في مباحثاتهم تارة أخرى =

١٥ - (أنجال السلطان صلاح الدين)

قسم السلطان مملكته قبل مماته بين أولاده ، فعهد بحكومة فلسطين وسورية إلى الملك « الأفضل » ابن الحسن نور الدين علي . . . وبحكومة مصر إلى الملك « العزيز عثمان » أبي الفتح عماد الدين ، وبحكومة (حلب) إلى الملك « الظاهر الغازي » غياث الدين . . . وكان أخوه « الملك العادل » يحكم شطرا من البلاد الجزرية ، كما كان أبناء عمه « شيركوه » منفردين بحكم حمص وبلادها . . . أما اليمن فكان يحكمها أولاد أخيه « سيف الإسلام طغتكين » . ولكن السلطان لم يعين - حين وفاته - خلفا له على أريكة الحكم ولا وارثا ، ولهذا استقر كل من هؤلاء يدير دفة الحكم في مكانه حسب النظام السابق قرابة عام وكهم معترفون بأشراف الملك الأفضل عليهم .

(الملك الأفضل ، والملك العزيز ، والملك العادل)

كان الملك الأفضل أكبر أنجال السلطان (صلاح الدين) وكان يخضع له رؤساء باقي الحكومات الايوبية . . . وكان « ضياء الدين ابن الأثير » - أخو ابن الأثير المؤرخ الشهير - وزيره ومدبر أمور مملكته المترامية الأطراف . ومن دواعي الأسف أن هذا الوزير كان ضعيف الرأي ، سيء التدبير تنقصه الحنكة في السياسة والدربة في الإدارة ، مما أفضى إلى اضطراب زمام الأمور

وكان يهتم بتحسين قلعة القدس وتشييد سورها حتى انه كان ينقل الأحجار بنفسه للبنائين وكان يحضر يوميا من شروق الشمس للأشراف على البنائين والمعمال ، وكان يقضى ليله في تصريف شئون الدولة . (تاريخ الإسلام المصور) .
المؤلف

واختلال النظام ، وأبعد الكثيرون من عمال الدولة وذوى المناصب الكبيرة ممن حنكتهم التجارب وعلتهم الحوادث ، وممن برعوا في الإدارة من رجال صلاح الدين - أبعادوا عن مناصبهم ، فاضطروا أن يرحلوا إلى مصر الواحد تلو الآخر حيث ضم شملهم بلاط الملك العزيز ، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى أعلن الملك العزيز استقلال مصر .

وفي عام (٥٩٠) للهجرة توجه بجيش لجب صوب (سوريا) واستولى على بلاد أخيه وضمها لمصر ، غير أن تدخل الملك العادل ، وبعض الأمراء الأيوبيين وتوسطهم في الأمر ، قد حسم النزاع بين الأخوين تلك المرة ، ولم يمض على ذلك عام أو بعض عام حتى أعاد الملك العزيز الكرة وزحف على (سورية) مرة أخرى وفي هذه المرة وقف الملك العادل ، إلى جانب الملك العادل ، وأثار بحسن تدبيره وبدسائسه المحكمة الفعالة الجيش المصرى ضد ماركه العزيز فاضطر هذا الملك الشاب إلى العودة إلى مصر خائبا مدحورا .

وكان الملك العادل يتظاهر في بادىء الأمر بالسعى الحثيث لإزالة ما بين أبناء أخيه من الشقاق والخلاف إلا أنه لما تحقق لديه ما جبل عليه رجال الملكين المتنازعين في مصر وسورية من قلة التجارب وسوء الإدارة ، وأيقن أن ما عاناه صلاح الدين في تكوين الدولة الإسلامية الموحدة من الجهود المضنية الجبارة سيذهب هباء ، وسدى وأن هذا الصرح الشامخ الذى يعتز به بنو أيوب سينهار من جراء التشاحن والتطاحن بين أنجاله القليلي الدرجة والضعيفي الإرادة . إزاء هذا عمد إلى ما يكفل تركيز إدارة البلاد كلها تحت سلطانه وحكمه الحازم وفرض إرادته العليا على الجميع ولا سيما وأن أحوال ابني أخيه كانت تساعد على تحقيق هذا المآرب ، وعلى هذا الأساس قام بنصرة الملك الأفضل واضطر الملك العزيز إلى العودة إلى مصر كما ذكرنا .

وأخيرا وبعد أن أصلح ذات البين بين الملكين عاد الملك الأفضل إلى سورية ولبت هو في مصر بحجة إصلاح أمر الملك العزيز ، وتنظيم الإدارة بها وفي الواقع أنه كان يضع أساس حكومته في مصر ، وبعد حقبة من الزمن تشبث لسبب ما ، بالزحف مع الملك العزيز على رأس جيش كبير صوب سورية وكان ذلك في عام (٥٩٢) للهجرة ، وانتزع الشام من الملك الأفضل الذي اضطر إلى قبول قلعة (صرخد) واتخذها له مقاما بدل دمشق الشام . وهكذا خضعت البلاد الشامية لحكم الملك العادل تحت ستار خضوعها لمصر ولملكها .

نعم إن هذه التدابير ولا سيما بين الأقرباء والأنساب ليست من الأمور المقبولة من الوجهة الأخلاقية ، وإن كانت ضرورة ملحة من وجهة المصلحة العامة للمحافظة على كيان أسرة بني أيوب ، ولضمان عدم تشتت القوى الإسلامية أمام هجمات الصليبيين المتوالية على أطراف البلاد وتحفزهم في كل وقت لاسترداد ما فقدوه من البلاد في حروبهم مع صلاح الدين فمن هذا يتضح أن مصلحة البلاد نفسها كانت تتطلب قيام حاكم قوى وقائد بارع وإداري حازم على رأس الحكومة ليتولى مهمة الدفاع عنها والذود عن حياتها .

ولاشك في أننا إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من تلك الناحية أي من وجهة المصلحة العامة لما وجدنا أي سبب وجيه يحملنا على توجيه العتب التاريخي لفاتح الكرك ألا وهو الملك العادل الذي - بعد أن تم له ما أراد من إخضاع سورية إلى تنظيم أمورها - قام بحولة تفتيشية في أنحاء البلاد الجزرية ، ونظم أمورها ، وحسن أحوالها ثم اضطر للعودة إلى سورية على جناح السرعة بسبب وفاة الملك العزيز الفجائية في ٢٧ المحرم من عام (٥٩٥ هـ) بمصر ، واستدعاء الملك الأفضل من قلعة (صرخد) إلى مصر ، وتعيينه نائبا ووصيا على الملك المنصور (محمود ابن الملك العزيز) الذي كان وقتذاك لا يزال طفلا صغيرا

ولقد شاء الملك الأفضل استغلال منصبه الجديد ، فأخذ يعمل جاهدا على استرداد حقه المسلوب من عمه الملك العادل ، ودخل فعلا في مفاوضات مع أخيه الملك الظاهر بحلب ، فوعده هذا الأخير بتقديم يد المساعدة له ، وشد أزره حينما يصل جيش الملك الأفضل إلى سورية ، غير أن الملك العادل كان عالما بما يجري بين الأخوين من مخابرات وما دار بينهما من مفاوضات فيادر بقوة نفوذه ورشيد سياسته وبعد نظره إلى إثارة نيران الفتنة وإشعالها بين صفوف جيش الملك الأفضل وبين قواده ، ثم ما لبث أن زحف إليه بجيشه ، وضيق عليه الخناق ، إلى أن اضطر إلى تسليم نفسه في ربيع الثاني عام (٥٩٦ هـ) وبهذا أبعده الملك الأفضل والملك المنصور محمود من مصر وضم البلاد المصرية إلى البلاد الأخرى الخاضعة لنفوذه وسلطانه .

وعاد الملك الأفضل وقد باء بفشل ذريع إلى قلعة (صرخد) وفي خلال ذلك زحف أخوه الملك الظاهر بجيشه من حلب إلى الشام على أمل الاستيلاء عليها ، فضيق عليها الحصار ولكن سياسة الملك العادل الرشيدة قد برزت ونجحت في هذه المرة أيضا ، حيث تدارك الأمور بسامى حكمته قبل استفحالها ونجح في الوقيعة بين الأخوين مما أدى إلى رفع الحصار عن دمشق ، وتخلي الملك الظاهر عنها ، وعودته بجيشه إلى حلب كما عاد الملك الأفضل هو الآخر إلى قلعة (صرخد) ثانية ، إلا أن الملك العادل قد أقطع الملك الأفضل قلعة النجم ، وقلعة سروج ، وقلعة صمصاد . ولكن هذا الانعام لم يدم طويلا حيث عاد فانتزعها منه بعد فترة يسيرة ، وكان ذلك في عام (٥٩٩ هـ) وذلك رغم شدة إلحاح والده الملك الأفضل ورجائها ابقاء تلك القلاع في قبضة ابنها ، ولكن الملك الأفضل قد عمد إلى تحصين قلعة « صمصاد » وتعميرها ثم أعلن تبعيته لسلطنة سلاجقة الروم (الأناضول) وأمضى ردحا من الزمن على هذا الوضع إلى أن توفي أخوه الملك الظاهر ، فأراد - بتعريض من الملك

(كيكوس) ملك السلجوق في قونية - أن يستولى على حاب فيقيم له بها حكومة خاصة ، غير أن هذه المآرب والآمال قد تحطمت لعدم توفر الاخلاص بين المتفقين ، ولسبب تدخل الملك الأشرف نجل الملك العادل في الامر في الوقت المناسب ، فعاد الملك الافضل الذي جانبه الحظ أدراجه الى صمصاد في عام (٦١٥ هـ) يجر ذيل الفشل ، ولبت فيها منعزلا عن الناس إلى أن توفاه الله الى رحمة فجأة في عام (٦٢٢ هـ) .

(١) « سلطنة الملك العادل »

أعلن الملك العادل (سيف الدين) نفسه سلطانا في القاهرة في اليوم السادس عشر من ربيع الآخر عام (٥٩٦ هـ) وكان قد أخضع جميع البلاد التي كانت تابعة لصلاح الدين عدا (حلب) وأطرافها كما سبق الذكر ، وسلك مسلك أخيه في إدارة دفة الحكم في البلاد ، وتصريف شئونها العامة بمنتهى العدل والعزم ، فوزع المناصب - باسمه - على أنجاله ، فعهد بمصر إلى نجله الملك الكامل ، وبالبلاد الشامية إلى الملك المعظم عيسى ؛ وبالبلاد الجزرية إلى الملك الأشرف موسى ، كما عهد إلى آخرين من أولاده ببعض بلاد أقل أهمية تابعة لأملك أخوتهم في تلك البقاع . ولم تكن وطأة الصليبيين شديدة على البلاد الاسلامية في عهد الملك العادل ، ومع ذلك فقد نقض الفرنجة شروطهم واتفاقاتهم التي كانوا قد ارتضوها وأبرموها في عهد (صلاح الدين) وذلك ديدنهم دائما مع المسلمين ، إذ زحف جيش كبير منهم عن طريق البحر صوب (بيروت) فاستولى عليها في الوقت الذي كان فيه أنجال صلاح الدين متناذين متطاحنين ولم يقف الملك العادل مكتوف الأيدي ، بل بادر بإعداد جيش قوى بمجرد أن دانت له الأمور واستقرت الأحوال ، وزحف على رأسه إلى « يافا » واستولى عليها . . . وكان الصليبيون يحاصرون - وقتذاك - بلدة (التبنين)

ولكنهم عجزوا عن فتحها ، وما لبثوا أن طلبوا عقد الصلح فأجيبوا إلى طلبهم وتم عقد هدنة مدتها ثلاث سنوات .

وهكذا مرت بإسلام عاصفة الحملة الرابعة من حملات الصليبيين السبع على البلاد الإسلامية، وسبق أن أشرنا إلى أنه لما توفي الملك الظاهر (غازي) حاكم حلب في عام (٦١٣ هـ) قام الملك الأفضل - يعضده الملك السلجوقي كيكاروس - بمحاولات للاستيلاء على حلب، وأن محاولاته قد أخفقت والآن نقول إن ذلك الاخفاق قد أدى إلى سقوط (حلب) كغيرها في قبضة الملك الأشرف نجل الملك العادل ، وهكذا انتهت بل انقرضت حكومات أبناء البطل المغوار (صلاح الدين) في كافة البلدان انتهاء مبرما، وقد كان من حسن طالع الملك العادل أن نيران الحملة الصليبية الرابعة لم يمتد لحيها ولم يتطير شررها في تلك المرة إلى البلاد الإسلامية، بل اقتصرت على القسطنطينية فأحرقتها وجعلتها خرابا يابا .

وفي عام (٦١٣ هـ - ٥٦١٤) = (١٢١٦ - ١٢١٧ م) ، أثار البابا (اينوساني) الثالث ، أوروبا كلها ، وتمخض عن هذه الاثارة ، الحملة الصليبية الخامسة ، التي كان من زعمائها ملك المجر ، وأمراء النمسا وبافاريا ، وسائر أمراء جنوبي المانيا ، وكان عدد جنود الحملة مائتين وخمسين ألفا معظمهم من الألمان ويتم الجميع شطر السواحل الشامية عن طريق البحر حتى نزلوا في (عكا) ، ونهبوا تلك المناطق دون تمييز لدرجة أن اشتبكوا في القتال مع نصارى ، سورية ، أيضا ، ثم استقر رأيهم على أن يزحفوا جميعا صوب مصر فعادوا إلى ساحل البحر ، وأقلعوا بسفنهم نحو مصب النيل في البحر الأبيض المتوسط ، وهناك غادروا ظهور السفن وألقوا الحصار على ثغر (دمياط) وكان الملك العادل - وقتذاك - في شمالي سورية ، وهناك بلغته الأنباء بمحاصرة الفرنجة لدمياط ، فأدرك أن الأمر جد خطير وأن الموقف حرج

دقيق ، فعاد سريعاً إلى دمشق الشام ، وأخذ في حشد الجنود ، وتجهيز الجيوش لمقابلة الصليبيين ، غير أن الأجل المحتوم قد وافاه فمات في (علا كين) على مقربة من الشام في جمادى الآخر عام ٦١٥ هـ (٣١ أغسطس سنة ١٢١٨ م)

(٢) « صفاته ومزاياه »

يقول السيد أمير علي مؤلف (تاريخ الاسلام المصور) : كان الملك العادل سيف الدين (أبو بكر محمد) عارفاً بالأمور ، مدبراً ، بعيد النظر ، حميد الخصال ، رابط الجأش ، ميالاً للخير ، يحب العلماء وذوى الفضل ويتقرب منهم مثل أخيه صلاح الدين وقد كان شجاعاً ، شديد الوطأة في الحروب ، عاقلاً ، حازماً في الإدارة والسياسة ، وكان الساعد الأيمن لأخيه صلاح الدين قبل مماته ، كما أن له أيادي بيضاء في الحرب مع الصليبيين سواء أفي عهد أخيه أم في عهد حكومته .

وكانت تربطه بريشارد قلب الأسد ملك الانجليز صداقة وطيدة ، ولم يكن ريشارد يخاطبه في المحادثات والمراسلات إلا بقوله « أخي العزيز » ، وتوكيدا لهذه الصداقة أدخل الملك العادل نجله الملك الكامل ضمن الفرسان (شواليه) وكان عنوانه الملكي على النقود لفظ (أبو الفداء) وقد استطاع طيلة أيامه المحافظة على مجد الدولة الاسلامية وكرامتها .

(١) « ساطنة الملك الكامل »

الملك الكامل هو نجل الملك العادل وأسمه (محمد) ولقبه (ناصر الدين) وكنيته (أبو العالى) . ولد في شهر ربيع الأول من عام (٥٧٦) للهجرة ، وتولى الملك في مصر بعد وفاة والده العظيم ، حيث ألقى على كاهله عبثاً ثقيلاً ، ومهمة شاقة مضنية ألا وهي طرد الصليبيين النصارى حول (دمياط) وإبعادهم عن

كافة الأراضى المصرية ، وكان الملك المعظم عيسى شرف الدين - وقتذاك - ملكا على البلاد الشامية ، والملك الأشرف موسى مظفر الدين يدير دفة شئون (حلب) ، وقد طال وقت الحصار على (دمياط) حيث كان الصليبيون يلحون ويمعنون فى التصديق على المحصورين مما أدى إلى موت الكثيرين من المحاصرين والمحصورين نتيجة تفشى الأمراض وانتشار الأوبئة والجوع ، وقد سقطت (دمياط) - دون غيرها - فى أيدي الفرنجة بعد حصار دام عاما ونصف عام . وكان تعداد أهالى هذه المدينة وحاميتها حين هبت للدفاع ، سبعين ألفا ، فى حين أن هذا العدد قد نقص وانخفض إلى ثلاثة آلاف حين تسليم المدينة للفرنجة ، ولم يكتف المتعصبون من الفرنجة بهذا القدر من الضحايا بل تمادوا فى غيهم ، فأقاموا مذبحه عامة بعد تسليمهم المدينة وقضوا على الثلاثة آلاف الباقية ظلها وعدوانا . .

ثم توجه الجيش الصليبي إلى القاهرة بعد سقوط دمياط فى قبضتهم ، ولكن جيش الملك الكامل المعد لمقابلة المغيرين - وإن كان قد عزز بجيوش وقوات من قبل اخوته الملوك - كان لا يزال دون قوات العدو عدة وعددا ، ولم يكن يعول عليه فى الهجوم والسبق ، ولهذا أثر الملك الكامل الدخول فى مفاوضات مع قائد الصليبيين العام ، وعرض عليه الصلح ، على أساس أن ترد (دمياط) إلى المصريين وأن تعاد فلسطين إلى الصليبيين ، ولكن هذا الصلح كان نصيبه الرفض البات من قبل الصليبيين . . وقد كان لسقوط (دمياط) ثغر مصر الأوحى ، ولزحف الصليبيين على القاهرة حاضرة المملكة المصرية ، أكبر الأثر فى أوروبا ، فشد ذلك من عزائم الصليبيين ، وقوى سواعدهم ، وتملكهم الجشع وتولاهم الطمع فى امتلاك مصر ، نهائيا ، وقد اضطر الملك الكامل - إزاء هذا - إلى التنازل عن القدس وفلسطين فى سبيل إنقاذ مصر ، وفى هذه الأثناء لعبت الطبيعة دورها حيث طغى نيل مصر وفاض ، وكان الصليبيون

قد أبطأوا طويلا في انجاز أعمالهم، فسنتحت فرصة ذهبية للملك الكامل الذي عمد إلى إصدار الأمر بتحطيم جميع السدود، وهدم الجسور المقامة على النيل وإطلاقه في أراضي الدلتا التي سرعان ما أغرقها المياه عن آخرها، وبذلك قطع خط الرجعة على كافة المغيرين حيث تعذر إيصال المدد إليهم من البحر، مما أدى إلى تعرضهم إلى ألوان من البؤس والشقاء، فضلا عن العصابات الاسلامية التي كانت تتخطفهم من ذات اليمين وذات الشمال، مما اضطر الصليبيين إلى طلب الصلح وهم صاغرون، فأجيبوا إلى طلبهم، واشترطوا أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم، وأن يصرح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس. ولم يمض طویل وقت على إخفاق الحملة الصليبية السادسة في مهمتها، حتى بدأ الشقاق يدب ديبه، بين أنجال الملك العادل، وتفاقم النزاع، واشتدت وطأة التطاحن بينهم، إذ كان الملك المعظم عيسى حاكم (سورية) قد قلب ظهر المجن لأخيه طمعا في ملكه، وكان يصبو إلى انتزاع مصر منه، وسعى لهذا الهدف سعيا حثيثا، وبذل محاولات جديدة للاتفاق مع (جلال الدين خوارزمشاه) لتحقيق هذا الغرض.

ولما بلغت أنباء هذه المساعي مسامع الملك الكامل أعرب عن غضبه وشديد استيائه. وفي تلك الاثناء كان فرديك الثاني، امبراطور ألمانيا ميمما نحو مصر بجيش لجب، فأظلمت الدنيا في وجه الملك الكامل حتى اضطر إلى مفاوضة الامبراطور ليعقد معه الصلح، وفي خلال المفاوضات مات الملك المعظم حاكم سورية، وكان ذلك في ذي القعدة من عام (٦٢٤ هـ) تاركا بلاده لابنه الملك، الناصر داود، فاتهر الملك الكامل هذه الفرصة، وزحف على رأس جيشه الى الشام

وقد فكر الملك الانرف في بادي الامر في أن يمد بالمساعدة للملك الناصر ويشد أزره ثم عاد فعدل عن هذه الفكرة وتفاهم مع الملك الكامل، وما لبثا أن استوليا سويا على الشام التي أقطعها الملك الكامل للملك الأشرف عام (٦٢٦ هـ)

في مقابل بعض البلاد الجزرية ، كما عوض الملك الناصر عما فقدته بقلعتي الكرك والشوبك (١) ثم قام الملك الكامل بتنظيم شئون (سورية) وبعده توجّه إلى الجزيرة حيث أصلح الكثير من أمورها ، واتخذ فيها من التدابير ما يكفل منع تدفق سيول الخوارزميين والمغول ، وبعد ذلك استولى على بعض القلاع هنا وهناك ، ثم أقطع ، حصن الأكراد ، ملكا خاصا لنجده الكبير (نجم الدين أيوب) ، وعينه حاكما على الجزيرة . . وبعد حقبه من الزمن سمح له بأن يجر حملة عسكرية تقوم بالقضاء القبض على فلول جيش (خوارزمشاه) المبعثرة ، حتى يتمكن بذلك من إيقاف سيول المغول المتدفقة .

وفي عام (٦٢٩) للهجرة (١٣٢٩ م) وصل ، فردريك ، إمبراطور ألمانيا إلى (سورية) وكانت مفاوضات الصلح قد انتهت بينه وبين الملك الكامل ، وكانت شروط هذا الصلح تقضى بخضوع القدس والناصرية ، وما حواليهما ، وجزء من الساحل الممتد من ، عكا ، حتى ، يافا ، لحكم الإمبراطور بصفة مؤقتة ، على أن تكون هنالك هدنة يقف فيها القتال لمدة عشر سنوات وستة أشهر وعشرة أيام ، وكان هنالك شرط آخر يقضى بأن يقوم الإمبراطور بمساعدة الملك الكامل ضد أعدائه أيا كانوا . ومع ذلك لم ترض هذه الشروط المسلمين والنصارى على السواء . . . وقد غادر الإمبراطور فلسطين وسافر إلى ألمانيا .

وبعد هذا الصلح ، تعقدت الأمور ، وتفاقم الشر بين الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف ، وبين سلطان سلاجقة الروم ، فبعث السلطان كيقباد السلجوقى بحملة عسكرية على شمالي الجزيرة في عام (٦٣١ هـ) واشتبك في القتال مع

(١) يقول تاريخ الإسلام المصور انه قد عوض بقلاع الحران والرها والرفة ولكن الوقائع التالية لا تؤيد ذلك

الأيوبيين ، وكانت الغلبة للسلجوقيين في بادئ الأمر إذ استولوا على بعض أملاك الأيوبيين ، بيد أنهم لم يستطيعوا المحافظة عليها والاحتفاظ بها ، ووقف القتال بين الفريقين بوفاة السلطان (كيقباد) حيث اضطر الجيش السلجوقي إلى الجلاء عن البلاد التي احتلها في عام (٦٣٣ هـ) .

ولم يدم الوئام والوفاق طويلا بين الملك الكامل والملك الأشرف . حيث اتفق الملك الأشرف - لمناهضة أخيه - مع بقية ملوك الأسرة الأيوبية وأمراءها وما أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع الملك الكامل ، حتى عمد إلى إعداد جيش زحف على رأسه إلى الشام ، وقبل أن ياتحم في القتال مع جيوش الأشرف وحلفائه توفي أخوه الملك الأشرف إلى رحمة الله بدمشق الشام في الرابع من شهر المحرم عام (٦٣٥) للهجرة ، وهكذا سقطت دمشق ، في قبضة الملك الكامل دون حرب أو قتال ، وعوض الملك صالح اسماعيل - أخو الملك الأشرف - عن ذلك بقلعتي (بعلبك) و (بصرى) .

وبعد ذلك ببضعة شهور لقي الملك الكامل ربه في دمشق الشام في اليوم الواحد بعد العشرين من شهر رجب من عام (٦٣٥ هـ - ٨ مارس عام ١٢٣٨ م)

(٢) « صفاته ومزاياه »

لا ريب أن الملك الكامل ، كان على جانب عظيم من المقدرة والكياسة فقد أظهر صفات نادرة ، ومهارة فائقة في ميدان السياسة والقتال ، وتعتبر وفاته نذيرا بتدهور الحكم الأيوبي ، وكان يحمل لقب (فارس) قدمه له الملك (ريشارد) قلب الأسد ، وكان خير خلف لوالده الكبير وعمه العظيم في حب العلم ، ونشر العرفان ، والاهتمام بحركة التجديد والعمران وتعميمها في البلاد وله في هذا الميدان آثار خالدة في البلاد ، كما أن له أيادي أيضا على نظام الري في مصر ، حيث بذل جهودا مشكورة في هذا المجال .

ومن أعماله الأخرى التي تمت في عهده ، إتمام تحصينات قلعة القاهرة الشهيرة ، وفي الحق أن بعض أعماله الأخرى كتسليمه القدس ، وبمض الأماكن الأخرى في فلسطين لإمبراطور ألمانيا وإن كانت عرضة ، في الظاهر على الأقل ، للوم والعتب ، إلا أن المرء لا ينبغي له في مثل هذه المواقف أن يصدر حكما قاطعا إلا بعد أن يمعن النظر ويدرس بحذر وإمعان ، الظروف والملابسات الداخلية التي كانت محيطة به ، وذلك إلى جانب ما كان بين الأخوة من غيرة وحسد ، وهذا فضلا عن الظروف السياسية الخارجية للدولة .

« الملك العادل الثاني »

على أثر وفاة الملك الكامل ، نادى أمراء الأسرة الأيوبية وأعضاؤها بنجله (الملك العادل الثاني) سلطانا ، وكان أصغر أنجال الملك الكامل سنا ولم يكن لدى هذا الملك الجديد أدنى قابلية أو استعداد لتولى زمام الحكم لصغر سنه ، وضعف رأيه ، وميله إلى البطالة . فكان الحق إذن في جانب أخيه الأكبر الملك (نجم الدين) الذي كان - وقتذاك حاكما على الجزيرة وملقيا الحصار على قلعة (الرها) وما أن ترمى إلى مسامحة نبأ نعي والده حتى عمد إلى رفع الحصار عن الرها أملا في العودة سريعا إلى (سورية) ، بيد أن الخوارزميين في جيشه قد تأهبوا عليه وتمادوا في غيهم وحاربوا إلقاء القبض عليه ولكنه استطاع التخلص منهم بأعجوبة ولجأ إلى قلعة (منجار) وما أن علم (بدر الدين لؤلؤ) صاحب الموصل وأشد خصوم الملك نجم الدين حينذاك بهذا النبأ ، حتى عول على اغتنام هذه الفرصة للقضاء على خصمه والتخلص منه فجاء على رأس جيش عرمرم لالقاء الحصار على منجار ومن حسن الحظ أن كان للملك نجم الدين وزير وقاض راجح العقل ، قد أحسن تصريف الأمور ، وتمكن من خلق جو للنفاهم وإزالة الجفوة بين سيده وبين

الخوارزميين المتألبين العصاة ، وبهذا تكتل الجميع وألحقوا بالعدو هزيمة منكرة فرجع بدر الدين لؤلؤ مع فلول جيشه القهقري مدحورا يجر أذيال الهزيمة ، ثم توجه الجيش الظافر صوب (ديار بكر) وألحق هزيمة أخرى بسطان الروم الذي كان ملقيا الحصار على هذه القلعة . وهكذا عادت البلاد الجزرية كلها مرة أخرى لحكم الملك (نجم الدين) .

وفي عام (٦٣٦ هـ) عرض (الملك الجواد يونس) حاكم الشام ، على الملك نجم الدين أن يسلمه الشام نظير إقطاعه مدن (سنجار) و (الرقة) و (العانة) من البلاد الجزرية ، فلم يدع الملك نجم الدين هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده ، فتقبل العرض على الفور فرحا مسرورا . وما لبث أن ترك ابنه (تورانشاه) في منصب حاكم الجزيرة وأقطع بعض البلاد منها لأمرأه وقواد خوارزميين ، ثم توجه هو على رأس جيش عرمرم صوب البلاد الشامية وتسلم ، دمشق ، حسب الاتفاق . وكان الاتفاق قد تم وقتذاك بين الملك العادل الثاني ، وابن عمه (الملك داود) حاكم الكرك على أن يهاجما سويا (الملك نجم الدين أيوب) وقد لجأ حينذاك بعض القواد والضباط من أمراء جيش الملك العادل الذين كانوا ساخطين عليه لسوء معاملته لهم إلى صفوف جيش الملك نجم الدين كما أبدى الملك داود هو الآخر رغبته في الانضمام إلى الملك (نجم الدين) على شريطة أن تسلم له (دمشق) بيد أن هذا الطلب قد رفض رفضا باتا فاضطر للبقاء إلى جانب الملك العادل لتنفيذ الخطة التي تم الاتفاق بينهما على تنفيذها

وفي عام (٦٣٧ هـ) تحرك الملك نجم الدين أيوب على رأس جيش من خمسة آلاف مقاتل من الشام وهدفه الزحف على مصر والاستيلاء عليها ، فوصل نابلس ولبث فيها مدة ليتعرف مدى صداقة عمه (الملك اسماعيل) ومدى تعاضده له في هذه المهمة إذ أن عمه هذا كان يظهر له الكثير من علائم المودة والمحبة بألفاظ معسولة وأقوال خلافة ، في حين أنه كان يطن لابن

أخيه خلاف ما يظهر ويضمهر له في نفسه الشر والخيانة والغدر ويحيك له المكائد ؛ فكان يتفاوض سرا مع أمير (حمص) لانتخاذ تدابير مشتركة لاثارة جيش نجم الدين ضده . وقد توصلا إلى غرضهما بخداع واغراء قواد جيش الملك نجم الدين بوعود كاذبة وأمانى خلافة وباطلة ، فانفض جيشه وكذا أنصاره من حوله وبقي هو وحيدا لا سند له في قلعة نابلس . وما أن علم الملك (داود) حاكم الكرك بذلك حتى زحف بجيش على نابلس . وأسر الملك نجم الدين وبعث به إلى قلعة الكرك رغم طلب الملك العادل إرساله إليه في مصر .

وفي هذه الفترة انتهت مدة المعاهدة المعقودة بين الملك الكامل والامبراطور فردريك ولكن الافرنج كانوا غير راغبين في تسليم القدس إلى المسلمين حسب الشروط المتفق عليها فزحف الأمير (داود) على القدس واستولى عليها بعد حصار دام واحدا وعشرين يوما وكان ذلك في جمادى الأولى من عام (٦٢٧ هـ) وأزال جميع التحصينات التي كان الافرنج قد أقاموها حول المدينة .

ثم بدأ الحظ يبسم من جديد للملك (نجم الدين أيوب) حيث فشلت المفاوضات بين الأمير (داود) والأمير (اسماعيل) والملك (العادل) لعقد اتفاق دائم بينهم ، فبذل أمير (حماه) وساطته لعقد أوامر الاتفاق وإيجاد التفاهم بين الملك (نجم الدين أيوب) والأمير (داود) اللذين سرعان ما عقد بينهما اجتماع في القدس وأبرما معاهدة ثنائية بينهما تقضى بأعطاء مصر للملك نجم الدين ، وبقاء البلاد الشامية ، وغيرها من البلاد الشرقية في قبضة الملك (داود) .

ولقد أثار هذا الاتفاق مخاوف الملك العادل ، وساوره قلق شديد على ملكه ، فأصدر أمره على الفور لعمه الملك (اسماعيل) بأن يبادر بالزحف على

موقعي هذا الاتفاق، فتحرك عمه على رأس جيشه ، وعسكر بمدينة (بليس)
 لبعدها ، ويتخذ الأهبة للزحف إلى فلسطين ، وكان فريق كبير من جيشه
 من جماعة المماليك وهم المدعوون بالأشرفية نسبة إلى الملك الأشرف أخي
 (الملك الكامل) ساخطين على سيدهم الملك (العادل) ومتذمرين منه ، فانهزوا
 الفرصة وانفجروا نائرين في المعسكر ، وألقوا القبض عليه ، وخلعوه عن
 العرش وانتزعوا منه السلطنة ، وبعثوا به إلى قلعة القاهرة ، وزجوا به سجيناً
 في غياها (١) .

وبعد بضعة أيام ولوا سلطنة مصر للملك نجم الدين أيوب .

(١) « الملك الصالح نجم الدين أيوب »

هو أكبر أولاد الملك الكامل ، ولد بمصر في عام (٦٠٣ هـ) وعينه والده
 ولياً للعهد في عام (٦٢٥ هـ) إلا أنه فقد ثقة والده فيه أخيراً فأبعد عن مصر
 نتيجة دسائس حاكمتها والدة الملك «العادل الثاني» ، ضده لدى زوجها وأوغرت
 صدره من ابنه وقد عانى الملك الصالح الكثير من الويلات والمشاق كما ذكرنا
 كي يصل إلى هذا المركز السامي، إلى أن ساعده الحظ على حساب الملك العادل
 الذي أفضى فشله الذريع في تصريف الأمور ، وإدارة دفة شئون الدولة إلى
 خلعه والألقاء به في غياهب السجن ودعوة الملك الصالح نجم الدين إلى مصر
 والمناداة به سلطاناً عليها في عام ٦٣٧ للهجرة (١٢٤٠ م) . ولم يمض على إعلان
 السلطنة طويلاً وقت ، حتى جاء نياً موافقة الخليفة ببغداد على هذا الأجراء .
 وهكذا استتب الأمن ودانت الأمور للملك الصالح بمصر دون قتال

(١) وقد بتي الملك العادل أبو بكر حبساً في هذا السجن حتى عام (٦٤٥)

المؤلف

للحجرة ، حيث نفذ فيه حكم الإعدام في هذه القلعة

أو نزاع ، كما كانت البلاد الشرقية (كردستان) أيضا خاضعة لإدارة ولده
(تورانشاه) الحازمة ، ما عدا البلاد الشامية التي كان الحكم فيها مضطربا ،
بسبب تطاحن الأمراء الأيوبيين والولاة على اعتلاء أريكة الحكم ، ولولا
هذا لأمكن القول دون تردد بأن عهد (صلاح الدين) الذهبي قد بعث من
جديد ، وإن الشيء الوحيد الذي كان يقض مضاجع الملك الصالح نجم الدين
أيوب ، هو إيجاد وسيلة يتدرع بها للتنصل من معاهدة القدس المعقودة بينه
وبين الأمير (داود) بشأن تملك الأخير لسورية ، تلك المعاهدة التي عقدت
في ظل من الضغط والإكراه مما لا يجعل لإستمرار سريانها أية قيمة قانونية
أو أخلاقية . وهذا ما حدا بالملك الصالح إلى المبادرة بإعلان سقوط هذه
المعاهدة مع الوعد في الظاهر بتنصيب الأمير (داود) واليا على دمشق من قبله
ولقد أمضى الملك الصالح العام التالي لحكمه في تنظيم أمور مصر وشئونها
الداخلية فضرب بيد من حديد على أيدي المجرمين الذين عاثوا في أنحاء المملكة
فسادا وجرّد حملة عسكرية على عرب مصر العليا (الصعيد) فنكل بهم أفضع
تنكيل ، وألقى القبض على الزعماء منهم والرؤساء ، ثم عمد إلى تقسيم أراضيهم
وتوزيعها بين مماليكه . ثم أنشأ لنفسه في جزيرة الروضة المحاطة بالنيل قصرا ،
وثكنة لمماليكه الخاصة .

وفي السنة نفسها حدث صدام بين الملك نجم الدين وبين خصومه الداخلين
من أعضاء الأسرة ؛ حيث كان يدرك الأمير (داود) تمام الإدراك ما ينطوي
عليه إلغاء المعاهدة السابق ذكرها من أن السلطان لا يترك له مجالاً لتوسيع
نفوذه ، كما أن الأمير (نجم الدين اسماعيل) عم السلطان كان يعرف حق
المعرفة أن السلطان لا يمكن أن يترك له الشام لقمة سائغة . ومن أجل ذلك
كان بادئ القلق دائم الاضطراب ، ومن ناحية أخرى كان (بدر الدين لؤلؤ)

صاحب الموصل قد وسع من دائرة نفوذه في الجزيرة وفي سائر البلاد الشرقية إذ استولى على مدينة (آمد) من (توران شاه) نجل السلطان الذي لم يكن باقيا في حوزته وتحت حكمه سوى قلعتي (حصن كيف) و (الهائم).

فازاء هذه التطورات والأحوال المتلاحقة، اتفق الأمير (داود) والأمير (اسماعيل) صاحب دمشق مع الأفرنج بفلسطين ضد السلطان نظير إعطائهم بلاد (الطبرية) و (سقيف آرنون) و (صفد) وهي من البلدان التي كان قد فتحها السلطان (صلاح الدين) سابقا، وفضلا عن ذلك، فقد سمحوا للأفرنج بشراء السلاح في دمشق.

وخالصة القول إن اتفاقا هاما قد تم بين هؤلاء الأمراء الأيوبيين الذين أضلهم الطمع، وبين الأفرنج الذين أعماههم التعصب، للقضاء على الملك (نجم الدين أيوب) وأخذوا في إعداد العدة لتنفيذ هذه الخطة المرسومة، وكان الأمير (نجم الدين اسماعيل) عم السلطان هو الرأس المدبر للحركة، وصاحب الرأي فيها، وكان هو نفسه قد دبر مكيدة وحاك دسيسة أخرى في وقت ما، لانتزاع دمشق من قبضة (الملك الجواد يونس) الذي هرع إلى صفوف الأفرنج فرارا منه، فاستغل الأمير اسماعيل الاتفاق المعقود مع الأفرنج، وأرسل للأفرنج مبلغا من المال وتسلمهم منه الأمير الجواد، وقضى على حياته ظلما وبهتاناً.

وصفوة القول ان الأميرين داود، و اسماعيل، قد وصل بهما الأمر إلى درجة قصوى من الحسنة والدناءة لكي يهدما صرح السلطنة الأيوبية من أساسه، فأخبرا الأفرنج سرا بأن الأسرى المسلمين الذين لديهم في (سقيف آرنون) سسيقومون بالثورة، وما أن علم الأفرنج المتعصبون بهذا النبأ حتى بادروا سراعا بنقل أولئك الأسرى إلى عكا، وهناك قتلوهم عن بكرة أبيهم وبعد حقبة من الزمن زحف جيش المتحالفين المعبا من الأفرنج وجنود

الأميرين (داود) و (اسماعيل) ، واشتبك بجيش السلطان (نجم الدين) فيما بين (غزة) و (عسقلان) . ودارت بين الفريقين رحى معركة طاحنة انفجرت خلالها الجيش الاسلامي الذي كان يقوده الأمير (اسماعيل) إلى جانب السلطان ، مما أسرع بالمعركة إلى نهايتها ، فأسفرت عن اندحار جيوش المتحالفين اندحارا ذريعا ، وأسر الكثيرين من الأفرنج ، فاضطروا إلى الاذعان وعقد الصلح مع السلطان الذي عاد بجيشه إلى مصر بعد توقيع شروط الصلح ، وفي السنة التالية قام الأفرنج ومعهم الأمير (داود) بيمض مناوشات ومصادمات دموية في سورية منتهزا فرصة اهتماد جيوش السلطان عنها .

وفي عام (٥٦٤١) جرت مفاوضات للصلح بين الملك (نجم الدين أيوب) والأمير (اسماعيل) على أساس إطلاق سراح الملك (غياث الدين (١) ابن الملك نجم الدين الذي كان أسيرا لدى الأمير (اسماعيل) وأن يعترف به ملكا وتلقى باسمه الخطب على المنابر ، ولكن حدث أن ترامت أنباء إلى الأمير (اسماعيل) بأن هنالك مخبرات سرية بين الملك (نجم الدين) والخوارزميين ولذلك قطع المفاوضات الجارية مع الملك نجم الدين أيوب .

وفي أواخر هذا العام عقد كل من (داود) و (اسماعيل) اتفاقا نهائيا مع الأفرنج ، ووقعاه فعلا ، وأخذوا في تنفيذ نصوصه التي تقضى بترك الجزء الأكبر من فلسطين بما فيه القدس الشريف ، وبعض مراكز اسلامية مقدسة أخرى في تلك البقاع إلى الأفرنج ، في عام (٥٦٤١) كما اضطرت الأمير (داود) الذي كان من ألد خصوم الأفرنج إلى تسليم الصخرة المقدسة وركاب البراق في المسجد الأقصى .

(١) كان هذا الأمير قد وقع أسيرا في قبضة الأمير اسماعيل أثناء ذهاب الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى نابلس ووقوعه أسيرا . المؤلف

ولم يجد الملك (نجم الدين) مناصا إزاء هذه الحالة الحرجة من الاستنجاد بالخوارزميين الذين استجابوا لطلبه ولبوا نداءه في عام (٥٦٤٢) وأغاروا على الطرق والمنافذ المؤدية واستولوا عليها ، كما أعمالوا في تلك الجهات الكثير من أعمال التخريب والتدمير . وفي نفس الوقت أرسل الملك (نجم الدين) من مصر جيشا لشد أزر الخوارزميين ، كما أن الأمير (اسماعيل) أرسل جيشا لمساعدة الأفرنج ، فاشتبك الجمعان ودار بينهما القتال في أطراف (غزة) وأسفرت هذه المعركة الدامية عن ابدحار ذريع للأفرنج وحلفائهم ، وعن غلبة الجيش المصرى والخوارزميين الذين نهبوا البلاد منها تماما ، واسترد الجيش الاسلامى المصرى القدس وبقية بلاد فلسطين في عام (٥٦٤٢) ، وبقيت هذه البلاد في قبضة المسلمين إبتداء من هذا التاريخ حتى عام (١٣٢٦ هـ - ١٩١٨ م) (١١) . واستطاع الأمير (داود) أن يحتفظ بالسكر والسלט وعجلون (في مملكة شرق الاردن الآن) .

وقد واصل الجيش المصرى زحفه حتى طرق أبواب الشام وألقى عليها الحصار ، ولما طال أمد الحصار اضطر صاحبها الأمير (اسماعيل) للتسليم في عام (٦٤٣) مقابل تسلمه قلعتى (بعلبك) و (بصرى) . وقد بعثت هذه الانتصارات الباهرة الطمع في نفوس الخوارزميين فازدادوا طغيانا وعتوا ، ولم يقنعوا بما أنقطع لهم من الأراضى وما وزع عليهم من الأموال ، بل انضموا إلى صفوف جيش الأمير (اسماعيل) الذى أمرهم

(١) كانت القدس في قبضة السلجوقيين أيام ضعف العباسيين ، فاستولى عليها عام (٤٣٩ هـ) الخليفة الفاطمى المستنصر بالله . وفي عام (٤٩٢) استولى عليها الأفرنج وأباحوا فيها القتل سبعة أيام حيث حشدوا في المسجد الأقصى تسعين ألفا وقتلوهم عن آخرهم . وفي عام (٥٢٨) استردها السلطان المُرَاف (صلاح الدين)

بحصار (دمشق الشام) والاستيلاء عليها، ولكن قائدا أيوبيا ظل مستميتا في الدفاع عنها حتى أوائل عام (٦٤٤ هـ) حيث نهض أمير (حلب) و (حمه) الذي قعد عن تقديم أية مساعدة حتى وقتذاك للملك (نجم الدين) نهض لمقاومة الخوارزميين واستتصال شأقتهم قطعاً لدابر فسادهم الذي عم البلاد، وسرعان ما زحف بجيشه للاشتباك بهم، - فاضطر هؤلاء الخوارزميون لرفع الحصار عن دمشق والمبادرة إلى التحرك للقاء الجيش الزاحف عليهم من (حلب)، وما لبث أن التقى الجمعان في القصب (لعله القصير) ودار بينهما قتال عنيف أسفر عن اندحار الخوارزميين وخذلانهم، وقتل أحد قوادهم، وهروب آخر ولجأ الأمير (اسماعيل) نفسه إلى (حلب) حيث شمله أميرها (يوسف الثاني) برعايته، ولكنه فقد (بعلبك) إذ استولى عليها الملك (نجم الدين أيوب) وأسر أولاده ونساءه وذهب بهم إلى القاهرة، كما فقد الأمير (داود) هو الآخر جميع ممتلكاته ما عدا (السكر) تاركاً فيها نجلاً له صغيراً جداً، ولجأ هو أيضاً إلى (حلب).

وقد أبدى أمير حلب عظيم استيائه من الملك نجم الدين، ودفاعاً عن ملكه عزم على أن ينتزع «حمص» من الملك «نجم الدين»، فأرسل جيشاً ضرب عليها حصاراً قوياً قرابة شهرين تمكن بعدها من انتزاعها من قبضة الأمير الأشرف، في عام (٦٤٦) وهذا ما استثار حفيظة الملك (نجم الدين) وأثار غضبه، ولم يقف مكتوف اليدين، بل حضر بنفسه إلى الشام لمنازلة «الناصر يوسف الثاني»، وبعث بقائد من قواده على رأس جيش آخر لاسترداد «حمص»، وما أن ترامى إلى مسامع الملك (نجم الدين) بعد وصوله إلى الشام أن الحملة الصليبية السابعة التي كان يقودها «لويس السابع»، ملك فرنسا، متجهة صوب (دمياط) حتى اضطر إلى عقد صلح عاجل مع (الناصر يوسف) بعد أن توسط بينهما خليفة بغداد، ثم عاد سريعاً إلى مصر لاعداد العدة

وتهيئة وسائل الدفاع عن البلاد . ورغم ما أصابه من مرض شديد فقد انتقل إلى معسكره بأشمونين بناقله المرضى ، ومع ذلك فلم يستطع طرد الصليبيين واسترداد (دمياط) من بين براثنهم ، لانتشار الفوضى واختلال النظام بين جنوده خلال فترة مرضه ، وعدم تمكنه وقتذاك من الاشراف عليهم ، كما أن البدو من قبيلة الكنانة الذين كانوا مكلفين بحراسة بعض النواحي القريبة من ميدان القتال فقد كانوا يعيشون في الارض فسادا ، ويعتبرون تلك الانحاء التي خلت من جند السلطان الموكول إليهم أمر حراستها ، كلاً مباحا لهم ، ومرعى خصيبا ، يتصرفون فيه حسبما يترامى لهم .

هذا ، وقد نظر الملك (نجم الدين) قبيل وفاته ، إلى أولاد الامير (داود) نظرة عطف وشم لهم برعايته ، وفي الواقع أن ولده الكبير حين رأى أن والده سبق أن عهد إلى ابنه الصغير إلى قلعة الكرك ، سارع بالزحف صوب هذه القلعة فاستولى عليها وأسر أخاه فيها ، ثم جاء على عجل للقاء الملك نجم الدين وقدم إليه القلعة نظير إعطائه جهة أخرى ، فما كان من الملك نجم الدين إلا أن سارع إلى إرسال قائد من قواده على رأس قوة عسكرية لتسلم القلعة المذكورة وقد توفي الملك (نجم الدين) ولحق بالرفيق الاعلى في اليوم الخامس عشر من شعبان سنة (٦٤٧) (٢٣ تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٢٤٩ م) .

(٢) « أهدافه وآثاره »

كان الهدف الاسمي لهذا السلطان هو تأسيس دولة قوية ذات شوكة وسلطان على نسق حكومتي (صلاح الدين) ووالده الملك الكامل ، حيث كانت تبسط سلطانها على مصر وفلسطين وسورية والجزيرة ، وقد تحقق هذا الهدف مع وجود فارق قليل في أواخر أيام حكمه ، يستثنى من ذلك إمارتا حلب والموصل المستقلتين . وقد أعد الملك (نجم الدين) قوة عسكرية خاصة

من مماليكه (١) لإظهار قوته وماله من عظيم السطوة والبأس ، والواقع أن هذه القوة قد أفادته كثيرا طيلة عهده لحسن نظامها وقوة مراسها ولسكنها وهي قوة أجنبية عن الاسرة الحاكمة وعن البلاد . قد انقلبت أخيرا شأنها في ذلك شأن غيرها من القوات الغريبة، إلى معول هدام أدى في النهاية إلى اضمحلال الحكومة الايوبية بمصر ثم في الشام .

وقد كان الملك (نجم الدين أيوب) قوى السلطة، مهابا من قواده وموظفيه شديد الرطاة عليهم ، لا يجرؤ أبهم على أن ينبس أمامه بينت شفة أو يسأله عن شيء . كما وجه الملك اهتمامه وكامل عنايته بأعمال الإنشاء والتعمير ، فشيّد القصور ، وأنشأ المدارس . وما قصر الروضة والكبش بمصر إلا شاهدان على ما نقول ، بل يعتبران من آثاره الخالدة على مر السنين وكر الاعوام ، وزيادة على ذلك فقد خطط مدينة الصالحية كي تكون مدينة دفاعية محصنة على الحدود الشرقية .

(١) هؤلاء المماليك يطلق عليهم لقب (المماليك البحرية) وكانوا حرسا خاصا للسلطان ، أرقاء من الجركس والكرج اشترىوا بالمال وكانوا يقيمون في ثكنة عسكرية بجزيرة الروضة وسط النيل . . . وقد نشأت طائفة أخرى من هؤلاء المماليك في عهد السلطان قلاوون أشهر سلاطين المماليك ، كان يطلق عليهم لقب « المماليك البرجية » لأنهم كانوا يقيمون عادة في الأبراج الداخلية لقلعة القاهرة - فالطائفة الأولى من المماليك قضت على حكومة الأيوبيين بوادي النيل ودام سلطانهم في مصر وسورية من (٦٤٨ - ٧٩٢ هـ) . . . وأما الطائفة الثانية منهم فقضت على حكومة الطائفة الأولى في سنة (٧٨٤ هـ) ودام سلطانها حتى دخول السلطان سليم الأول العثماني مصر في سنة (٩٢٢ هـ) حيث قضى على هؤلاء الآخرين .

« عهد سلطنة تورانشاه »

كان (تورانشاه) وهو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب حين وفاة والده حاكما على اقليمى الجزيرة وكرديستان ، وكان قد اكتسب خبرة واسعة ، ومرن على سياسة الحروب والقتال خلال حروب والده ضد (بدر الدين لؤلؤ) صاحب الموصل ، وضد سلطان سلاجقة الروم ، حيث كان يتولى اعباء القيادة ويشرف بنفسه على شئون الجيش والدفاع عن الحدود ، وقد نال شهرة رائعة في ميادين القتال وإدارة شئونها ، فلما جاءت له الأنباء بوفاة والده العظيم سافر إلى مصر على عجل ، فوجد أن زوج والده «شجرة الدر» التي كانت على جانب كبير من رجاحة العقل وحسن التدبير - قد أخفت نبأ وفاة والده عن الناس فبايعه الأمراء والقواد وسائر رجال الدولة وأولياء الأمور ، ونادوا به ملكا على البلاد خلفا لو والده . وفي خلال هذه الفترة كان جيش الصليبيين بقيادة (سن لوئيس) قد اتخذ من (دمياط) مقرا وقاعدة لحركاته العسكرية ، ثم قام الصليبيون منها بحملة عسكرية كبيرة على عاصمة مصر بعد أن تدفق عليهم الكثير من الأمدادات والمعونة من قبل الانجليز والفرنسيين . وقد كانت مدينة المنصورة أول هدف للصليبيين . . . وما أن وصل (تورانشاه) إلى القاهرة حتى عمد إلى إعداد العدة وتهيئة وسائل الدفاع عنها ، وحشد الجيوش لصعد المغيرين . ولما كان الصليبيون قد تباطأوا كثيرا في الوصول من (دمياط) إلى (المنصورة) حيث لم يصلوا إلى ضواحيها إلا بعد نحو من شهر ، فقد استفاد (تورانشاه) من هذا التباطؤ واستغله في حشد جيش للدفاع عنها بعد أن أقام التحصينات اللازمة حولها . . .

وفي هذا الوقت وصل جيش آخر للصليبيين وهو ألماني ، وضرب حصارا قويا حول المدينة ، دون مبالاة بما أعد من وسائل الدفاع عن هذه المدينة التي تحيط بها الترع والجداول المتفرعة من النيل ، الذي كان لفيضانه الفضل في

قلب خطط (سن لوئيس) رأسا على عقب . هذا فضلا عن هدم الجسور والمعابر الواقعة على النيل وفروعه بين المنصورة والقاهرة بأمر من الملك (تورانشاه) مما أفضى إلى تدفق السيول وإحاطتها بجيش الصليبيين إحاطة السوار بالمعصم ، وقطع خط الرجعة عليهم من كل جانب .

وفي هذا الظرف المواتى شن (تورانشاه) هجوما عنيفا على الصليبيين من جميع الجهات ، وضيق عليهم الخناق ، وبهذا قطع الطريق بينهم وبين دمياط ، فتفشى بينهم المرض ، وحل بهم الجوع ، وذاقوا ألوانا من البؤس والشقاء . ولم يكتف (تورانشاه) بهذا فقط ، بل أقدم على عمل آخر جرىء يرمى به إلى تطويق دمياط ، ومنع الصليبيين من القيام بأية محاولة للهروب من أى جانب ، وذلك بأن عمد إلى نقل قطع من السفن على ظهور الجمال إلى ساحل البحر ، وإنزالها إلى البحر الأبيض بعد تركيبها وتجهيزها وتزويدها بالمقاتلين ، ثم أرسلها إلى مياه دمياط ، وهكذا قطع طريق البحر أيضا على الصليبيين فوقعوا فى حيص ويص . والخلاصة ، أن قائد الصليبيين وجيوشهم قد اضطروا - أمام هذه الظروف العصية - إلى التقهقر والأنسحاب دون نظام ولكن الجيش المصرى الذى كان لهم بالمرصاد ، لم يهب لهم فرصة للنجاة بل أسر منهم الكثير الأغلّب ثم شنت شمل الآخرين فى عام (٦٤٧ هـ) ، ووقع (سن لوئيس) نفسه أسيرا فى يد الملك (تورانشاه) ومعه ذلك العلم المقدس الذى كان قد أخذه من دير (سان دنيس) تبركا به ، وأسر معه الكثيرون من القواد والزعماء ، وذوى الرأى منهم ، ولم ينج الملك (لوئيس) من ذل الأسر ومرارة الاعتقال إلا بعد أن أمضى اتفاقية تعهد فيها بتسليم (دمياط) ، ودفع فدية عن نفسه وعن قواد جيشه وسائر رجاله قدرت - وقتذاك - بثمانمائة ألف دينار من الذهب ، وبمغادرته للقطر المصرى على الفور على ألا يعود إليه قط . وبعد أن نفذ هذه الشروط غادر مصر إلى سورية ولبت هنالك ثلاث

سنين . وقد قدرت خسائر الصليبيين في هذه المعركة بأكثر من ثلاثين ألف نسمة من المقاتلين . اهـ . (معالم تاريخ العصور الوسطى) .

وبعد انتهاء مشكلة الصليبيين ، تفرغ الملك (تورانشاه) لتوطيد النظام بين جنوده المماليك ، إذ كان القسم المسمى منهم ، بالمماليك البحرية ، وهم مماليك والده العظيم ، عتاة ، طغاة لا يخضعون لنظام ولا لعرف . وكان (تورانشاه) يعتز بجيش الجزيرة ضد هؤلاء المماليك العتاة ، وكان يحاول جاهدا إخضاعهم بقوة هؤلاء الجزريين ، وقد فطن الجنود المماليك إلى هذا الخطر المحدق بهم ، فخرجوا عن طاعة السلطان ، وقلبوا له ظهر المجن ، فدبروا له مؤامرة أسفرت عن اغتياله ، وكان ذلك في عام (٦٤٨) للهجرة .

ويقول بعض المؤرخين أن لشجرة الدر - امرأة والد تورانشاه - بدأ في هذه المؤامرة الدنيئة ، ويظهر أن لهذا القول نصيذاً من الصحة ، لأن هذه المرأة الطموحة الذكية كانت طامعة في الملك ، وبصفتها زوجة أب وليست أما ، كانت تكره (تورانشاه) ، فضلا عن أنها كانت على اتصال بمدبري المكيدة والذين حاكوا أطراف المؤامرة من المماليك البحرية ، وليس أدل على ذلك من زواجها برئيس هؤلاء المماليك الذين اغتالوا (تورانشاه) وهو المدعو (أيبك) . ومن هنا لا يبعد أن تكون (شجرة الدر) مطلعة على نوايا المتآمرين قبل وقوع الجريمة . وعلى كل فإنه لمن سوء طالع المملكة الأيوبية أن تحرم من ملك قاهر ، وقائد محنك مغوار ، مثل (تورانشاه) الذي كان آخر سلطان أيوبي يجمع بين صفات الجندي الماهر ، والاداري الحازم ، والقائد المحنك . إذ كان المأمول أن تنهض المملكة الأيوبية وتتقدم على يديه تقديما عظيما محسوسا لولا أن عاجلته المنية واختطفته يد المنون ، حيث ذهب ضحية جناية أثيمة قام بها غلبانه وغلبان والده من الجند الأجنبي قبل أن ينفذ برنامجه الاصلاحى .

ولقد شهد التاريخ بأن الملك (تورانشاه) ذلك القائد الداهية الجريء هو أول ملك يعتمد إلى إنشاء سفن وينقل قطعها على ظهور الجمال إلى البحار حيث يكون منها أسطولا عظيما ينازل به خصمه فيصرعه. وقد أتى بعد بقرنين وأربع سنوات السلطان التركي (محمد الفاتح) ، وقام بمثل هذا العمل تماما أمام أسوار القسطنطينية ، ولا شك في أنه قد اقتدى في ذلك بتورانشاه . والفضل للسابق كما يقولون .

وعلاوة على ذلك . فقد كفاه فخراً أنه هو الذي أباد الصليبيين ، وطردهم من الديار المصرية ، وأوقع دمن لويس ، ملك فرنسا في الأمر .

« نهاية حكومة الأيوبيين بمصر »

بعد أن أقدمت جماعة المماليك البحرية العصابة على ارتكاب جريمتهم الشنعاء . وهي اغتيال (تورانشاه) ، عمدوا إلى تولية (شجرة الدر) - زوجة أبيه - مكانه على عرش مصر ، وألقوا الخطب على المنابر وسكوا العملة باسمها الذي اصطلحوا عليه وهو (المستعصية الصالحة ملكة المسلمين أم الملك المنصور خليل) ولقد بادرت الملكة إلى تعيين (معز الدين أيبك) رئيس جماعة المماليك البحرية قائداً عاماً لجيوش مصر . بيد أن سلطنة (شجرة الدر) لم تعمر طويلاً لمعارضة الأمراء والقواد بمصر لها ، وإصرارهم على تعيين ملك من أسرة بني أيوب حتى تمكنوا في النهاية من تنصيب الملك (الأشرف موسى) ابن بنت الملك الكامل وابن آخر أمير أيوبي في اليمن مكان (شجرة الدر) وكان ذلك في عام (٦٤٨ هـ) (١٢٥٠ م) ، ولكن الحكم والنفوذ في الحقيقة كان يتركز في يد القائد العام (معز الدين أيبك^(١)) .

(١) يقول السيد أمير علي مؤلف (تاريخ الإسلام المنصور) ان (أيبك) محرف (أغابك) والأقرب إلى الذهن (آي بك) بمعنى الأمير قمر . المؤلف

وبعد عام توترت العلاقات بين مصر وبين الملك الناصر يوسف حاكم حلب ، واحتدم وطيس القتال بين قوات الفريقين ، ودام بينهما النزاع ثلاث سنوات ، وأخيراً عقد صلح بين الملك الناصر وبين معز الدين أيبك عام (٥٦٥٢) وذلك بفضل تدخل خليفة بغداد لحسم النزاع ووضع حد لسفك الدماء .

وفي عام (٥٦٥٣) أعلن معز الدين أيبك استقلاله التام في حكم مصر ، بعد أن خلع الملك الأشرف ، وبعث به إلى أقربائه في اليمن . وهكذا انتقلت السلطنة الأيوبية العتيدة بوادي النيل إلى أيدي غلبانهم المماليك . وتكررت تلك الغلطة بل تلك المأساة السياسية والعسكرية حين أودى بسلطنة العباسيين وقضى عليها ، أولئك الذين جيء بهم لتأييدها والدفاع عنها . فكان الواجب يحتم على الملك الكامل الأيوبي - قبل أن يجند الجند من هؤلاء المماليك العتاة أن يلتقي نظرة على تاريخ العباسيين وخلافتهم ليتخذ عبرة بما آل إليه أمرهم بسبب إكثارهم من الجند المماليك .



٢ - الحسكومة الأيوبية بحلب (٥٧٩ - ٥٦٨٥)

أقطع السلطان صلاح الدين بلاد حلب هذه - لأول مرة - لابنه الملك الظاهر ، غازى ، وله من العمر وقتذاك ، أحد عشر عاماً . وبعد بضعة أشهر ألقى عبء إدارتها على عاتق أخيه الملك العادل . وفى عام (٥٥٨٢) شرع يقسم البلاد الخاضعة لسلطنته العريضة من جديد ، فنصب أخاه الملك العادل أتابكاً (قيماً) لابنه الملك العزيز بمصر ، وأعاد (حلب) إلى حكم الملك الظاهر غازى وزوجه (ضيفة خاتون)^(١) ابنة الملك العادل .

ولقد أخلص الملك الظاهر كل الإخلاص لوالده طيلة عهده الزاهر إذا اشترك وساهم كتابع له ، فى حروبه الكثيرة وتضحياته الكبيرة أثناء نضاله واشتبا كهمع الصليبيين ، وقد ظل حريصاً على الظهور بهذا المظهر أيضاً مع عمه الملك العادل بعد وفاة والده . وكان الهدف الأسمى لهذا الملك هو ضمان إيجاد توازن بين ملوك وأمراء الأسرة الأيوبية ليتمكن بذلك من الدفاع عن البلاد الإسلامية التى كان يحيق بها الشر ويهددها الخطر من كافة النواحي ، فلا غرو أن يبادر إلى تحصين قلعة حلب حتى أضحت على جانب عظيم من قوة المناعة والاحكام .

وقبل وفاته فى عام (٥١٣ هـ) ، كان قد أوصى بالملك من بعده لابنه الصغير الملك العزيز ، محمود ، الذى أنجبه من ابنة عمه الملك العادل .

وكان يرمى من وراء ذلك إلى الاستفادة من نفوذ الملك العادل والحصول

على معونته لتوطيد حكم أسرته في حلب ، فتولى الملك الأشرف موسى - نجمل
الملك العادل - قيادة جيوش حلب ، ودافع عن هذه القلعة العاتية دفاع
الأبطال ضد غارة السلطان كيكاروس السلجوقي ، وكان يتولى عبء تصريف
الأمور الإدارية كل من طغرل ، نائب الملك الظاهر ، والقاضي بهاء الدين
ابن شداد الشهير . واستمر الحال على هذا المنوال في عهد الملك العادل والملك
الكامل وابنه من حيث الاعتراف بسلطنة الملك العزيز الذي باشر سلطاته
الملكية في عام (٦٢٨) والذي ملأ المناصب الهامة من بين رجالته وأخصائه
واستولى على قلعة « الشيزر » بمعونة خاله الملك الكامل وبفضل تعصده له
كما أن قلعة « البيرة » القائمة على نهر الفرات قد آلت إليه من ميراث عمه الملك
الزاهر « داود » ولقد نهضت مدينة حلب ، وتقدمت تقديماً محسوساً في عهد
والده وطيلة أيامه هو في النواحي العمرانية والتجارية وغيرها ، كما اتسعت
رقعة بلاده في حدود الشام والجزيرة كثيراً .

وفي عام (٦٣٤) ، توفي الملك العزيز فصعدت روحه إلى بارئها وهو
لا يزال في عنقوان شبابه ، تاركاً ملكه وعرشه لابنه الملك « الناصر يوسف »
البالغ من العمر - حينذاك - سبع سنوات فقط (١) .

ولقد تولت (ضيفة خاتون) - جدة الملك الناصر يوسف - مقاليد
الأمور إثر أزمة سياسية عصبية ، وصارت نائبة الملك ، فلها توترت العلاقات
بينها وبين الملك الكامل ، اتفقت مع الملك الأشرف حاكم الشام الذي تمكن
من الدفاع عن بلادهما حين أغارت الجيوش المصرية عليها . وقد نهض قائد
جيشها « الملك المعظم » - نجمل السلطان صلاح الدين - برد الأعداء على
أعقابهم ، وألحق بهم خسائر جسيمة .

(١) الملك الناصر هذا قد ولد له من زوجته فاطمة خاتون ابنة الملك

وعلاوة على ذلك ، فقد اتحدت مع السلطان ، كيخسرو السلجوقي ، جهارا ، تعزيزاً لنفوذها ، وتوطيداً لمركزها ، وقبلته متبوعاً لها حيث جعلت الخطبة وسكت العملة باسمه في بلادها ، وأعلنت خطبة حفيدها الملك الناصر يوسف على أخت هذا السلطان ، وفي خلال هذه الفترة كانت نكبة قاصمة تزحف نحو بلاد الشام على غرة ، وهي انقراض جميع المقاتلين والعناصر الفتاكه من الخوارزميين الذين فروا هاربين أمام غارات التتر والمغول من رجال (جنكيز) على البلاد الاسلامية مبدئين ببحر قزوین حتى حدود البلاد الشامية ، وأخذوا يعيشون بأرض الجزيرة فساداً من تدمير القرى إلى إحراق المساكن ، إلى فتك بالأطفال والنساء ، واستولوا عنوة على كافة بلاد الملك الصالح ابن الملك الكامل في بلاد الجزيرة .

ومن دواعي الأسف أن عوامل الشقاق والتنافس بين أمراء بني أبوب قد وقفت حجرة عثرة وحائلادون اتحادهم ووقوفهم صفاً واحداً وجبهة مترابطة حيال الخطر المحدق بهم والزاحف عليهم من الشمال أو الترفيق بين مصالحهم ومصالح القادمين من الشمال للصمود أمام أعدائهم الآخرين في الغرب والجنوب وأخير اندحر جيش حلب ، وغلب على أمره أمام قوات الخوارزميين الجارفة ووقع القائد العام وهو الملك المعظم أسيراً في قبضة الخوارزميين ، ووقعت أحوال الجيش الاسلامي وأثقاله في أيدي الأعداء غنيمته باردة وهكذا سقطت جميع البلاد السورية حتى (حماه) في أيدي الخوارزميين في عام (٦٣٨ هـ) . ثم عزز الجيش الاسلامي الحلبي المنهزم بعد ذلك بجيش ملك « حمص » وبقوات من البدو الذين أجلاهم الخوارزميون عن أماكنهم ، وبهذا أضحى جيشاً قوياً المراس ، شديد البأس ، في مكنته منازل الخوارزميين الغالين ، مرة أخرى وما لبث أن اشتبك الفريقان في القتال ، وأسفرت المعركة عن اندحار الخوارزميين وخذلانهم ، فولوا الأدبار حتى وصلوا إلى « الرحبة » ،

وهناك كف المسلمون عن مطاردتهم وتركوهم وشأنهم . ولكن الخوارزميين المهزومين لم يستقر لهم قرار في بلد من البلدان ابتداء من (حران) إلى (العانة) التي أوغلوا فيها في البلاد الخاضعة للخليفة العباسي . وهكذا تم استرداد كافة البلاد الجزرية التي كان الخوارزميون قد استولوا عليها ، وأطلق سراح جميع الأسرى المسلمين الذين كانوا معتقلين في (حران) من قبل الخوارزميين . وفي عام (٦٤٠ هـ) أيضا ، ألحق الجيش الحلي هزيمة نكراء بالخوارزميين وإن هي إلا بضعة أشهر حتى توفيت (ضيفة خاتون) إلى رحمة الله . فتولى الملك الناصر يوسف ، مقاليد الأمور ، وبسط سلطانه على معظم (سورية) مبتدئا بالعريش حتى ضفاف الفرات ، ومنحه خليفة بغداد لقب (السلطان) ؟ بيد أن القدر لم يمهله طويلا ليتمتع بما نال من مجد وأبهة وسؤدد وسلطان ، إذ سرعان ما ظهر شبح الخطر المغولي على البلاد الإسلامية جمعا ، لأن (هلاكو) إمبراطور المغل قد زحف بحجافله خلال عام (٦٥٨ هـ) ، إلى حلب التي طال انتظار حاكمها الملك ، الناصر يوسف ، لوصول المدد من مصر إليه دون جدوى ، مما اضطره بعد دفاع مجيد ومحاولات يائسة لصد المغل ، إلى مغادرة حلب ، والتوجه إلى دمشق الشام . ومع ذلك فلم تقدر له النجاة ، إذ وقع أسيرا في يد (هلاكو) ، فقضى عليه وعلى الحكومة الأيوبية في حلب - بالتالي - قضاء نهائيا ومبرما .

٣ - « الحكومة الأيوبية في الشام »

ذكرنا سابقا أن السلطان صلاح الدين قد قام بتقسيم بلاده قبل مماته على أنجاله ، وكانت البلاد الشامية من نصيب نجله الأكبر الملك الأفضل ، ولم يعض على وفاته طويل وقت حتى دب الخلاف . وتحركت عوامل الشقاق بين الاخوين : الملك الأفضل على ، والملك العزيز عثمان حاكم مصر ، وأخيرا

تدخل عهدهما الملك العادل في الخلاف الذي طال أمده وحوصرت دمشق مركز حكومة الملك الأفضل مرارا والخلاف لا يزال ينشب أظفاره ، كما ظلت الأمور مضطربة وغير مستقرة في الشام وسورية حتى وفاة الملك العزيز واندحار الملك الأفضل ، ودخول هذه البلاد تحت حكم الملك العادل . وفي عهد الملك المعظم عيسى - نجل الملك العادل - اضطرت الأمور مره أخرى في هذه البلاد كنتيجة حتمية لغارات الفرنجة المتواصلة عليها . وبعد وفاة الملك المعظم ، تولى نجله الملك الناصر أمور البلاد إلا أن الملك الكامل قد أبى أن يترك له الفرصة ، فهاجمه بجيش جرار ، وقد انضم الملك الأشرف موسى - أخو الملك الكامل - إلى جانبه في بادئ الأمر ، ولكنه عاد وانحاز إلى جانب أخيه أخيرا ، مما أدى إلى سقوط (دمشق) في يده ، وصار الملك الأشرف موسى حاكما على دمشق في عام (٦٢٦) للهجرة .

وبعد فترة من الزمن اضطرت الملك الأشرف إلى الاتفاق مع سلطان الروم (كيقيباد السلجوقي) لصد خطر الخوارزميين سويا عن بلادهما .

وقد أرسل - لهذا الغرض - جيشا عمر مرما من جيوشه تحت قيادة الأمير عز الدين عمر الحكارى ، للاشتراك مع حليفه (السلطان علاء الدين كيقيباد) في قتال ومناوأة الخوارزميين (الجلاليين) . فألحقت حجاجل الحليفين هزيمة منكرة بعدوهما المشترك على مقربة من (أرزنجان) . في اليوم الثامن بعد العشرين من رمضان عام (٦٢٧) الهجرة . وبعد حقبة من الزمن تفاقم الخلاف بين الملكين الأشرف والكامل وبين حليفهما السلطان علاء الدين كيقيباد الذي زحف على بلاد الجزيرة واستولى على شطر منها ، ولم يرتد عنها إلا بعد عامين أي في عام (٦٣٣) للهجرة .

وفي أخريات حياة الملك الأشرف قد دب ديب الخلاف وتوترت العلاقات بينه وبين الملك الكامل الذي أمر الجيش المصرى بالزحف إلى

الشام . وبعد قليل توفي الملك الأشرف . فأخذت علائم الشقاق والخلاف تنشب أظفارها بين أمراء وملوك بني أيوب في عهد الملك العادل الثاني ، واتفق الملك الصالح إسماعيل حاكم الشام مع الفرنجة لمناهضة الصالح أيوب حاكم مصر الذي شمر عن ساعد الجد ، واستطاع التغلب على خصومه المتحالفين ضده في معركة (غزة) ، وذلك بفضل مساعدة الخوارزميين له ، وكان ذلك في عام (٦٣٤) للهجرة و (١٢٤٤ م) ، وهكذا تمكن من بسط سلطانه على (سورية) من جديد ، وتوحيدها مع مصر .

وبعد وفاة الملك المعظم تورا نشاء نجل الملك الصالح أيوب ، بادر الملك الناصر يوسف حاكم حلب الى الاستيلاء على دمشق الشام فكان هذا الملك آخر ملك أيوبي على الشام . وفي الحق قد ازدهرت المدن والقرى السورية في عهد الأيوبيين ازدهارا كبيرا ، ولا غرو فقد كان الأمراء والأميرات والزعماء ، والقواد يتسابقون - في هذا العهد - في انشاء الدور العامة . والقصور والمدارس ، ولا سيما في دمشق الشام التي تقدمت ونهضت نهضة عظيمة حيث أضحت مجمع العلماء والفضلاء ومركز العلم والعرفان ، يؤمها الناس من كل صوب وفج عميق .

ويقول الرحالة الشهير (ابن جبير) - الذي كان معاصرا للسلطان صلاح الدين والذي زار هذه المدينة في عهده - انه كان في الشام ما يقرب من عشرين مدرسة علمية ، ولم يمض على هذا طويل وقت حتى بلغ عدة المدارس المثلين .

٤ - « الحكومة الايوبية بحماة »

بعد دخول (حماة) تحت حكم الايوبيين ، أعطاها السلطان صلاح الدين لنجل أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر ، وظل أحفاد هذا الأمير يحكمونها

كأبراً عن كابر ، منتهجين في حكمها سياسة الود والتفاهم ؛ وتقديم فروض
الولاء والطاعة لكبار أمراء وملوك أسرة أيوب الى حدما . هذا ولما انقض
جيش (هلاكو) المدمر على البلاد ، فم يقووا بطبيعة الحال على الصمود
والثبات أمام سيولهم الجارفة ، وآل مصيرهم الى التبعية لدولة المماليك ، بمصر
وذلك بعد اندحار جيوش التتر ، وانسحابهم من البلاد السورية ، حيث
انقرضت هذه الأسرة نهائيا في عام (٦٩٨) للهجرة .

وكان المؤرخ الكبير والعالم والعلامة الشهير (الأمير أبو الفداء إسماعيل)
ابن أخى آخر ملك على حماة محبوبا من السلطان محمد الناصر قلاوون ،
حيث شاركه ، وشهد أزره ، في جميع حروبه وفي أيام جهاده ضد الفرنجة ،
فغمره بفيض من عطفه ، ومنحه لقب السلطان ، وحقوق السلطنة . ولقد
نهضت مدينة (حماة) وتقدمت في عهده تقدما عظيما ، وازدهرت فيها العلوم
والفنون .

والمعروف أنه مات ودفن في هذه المدينة . هذا وقد خلف السلطان
أبا الفداء ، ابنه الملك الأفضل محمد في تسم عرش حماة غير أنه لم يحافظ على
ثقة ملك مصر فقبض عليه وزج به في السجن بقلعة الشام وهكذا انقرضت
حكومة الأيوبيين .

٥ - الامارة الأيوبية في حمص ،

استولى السلطان صلاح في عام (٥٧٩) للهجرة ، على بلاد حمص ، وبعد
أربع سنوات من استيلائه عليها منحها للامير محمد ولد عمه شيركوه . وفي عام
(٦٤٦ هـ) ، استولى الملك الناصر يوسف الثاني حاكم حلب على هذه البلاد
ولبث يحكمها فترة من الزمن ، ولكن حكمه هذا لم يعمر طويلا إذ انتقل إلى
أحفاد (شيركوه) الذين ظلوا يحكمون البلاد حتى عام (٦٦١) حين انقضت

جيوش التتر بقيادة (هلاكو) على البلاد السورية ، واضطرار هؤلاء الحكام إلى الكف عن المقاومة ، وفتح أبواب قلعة (حمص) لهم ، وهكذا انقرضت أسرة (شيركوه) من حمص .

« الأمانة الايوبية باليمن »

من المعلوم لدينا أن الملك المعظم ، تورانشاه ، أخو السلطان صلاح الدين قد غزا اليمن وفتحها في عام (٥٦٩) للهجرة^(١) ، وترأس حكومتها مدة عامين

(١) ورد في (مرآة الزمان ج—٣ ، ماملخصه) ان شمس الدولة تورانشاه الذي توجه إلى فتح اليمن مرفى طريقه بمكة المكرمة ودخلها وما كان من أميرها إلا أن أغلق باب الكعبة والنسج إلى جبل أبي قبيس متحفزا وأما تورانشاه فقد دخل الحرم المكي وصلى به فتقدم نحو الكعبة قاصدا الطواف حولها وما أن رأى الكعبة مقفلة الآن رفع يديه إلى الله تعالى مناجيا آلهي اذا كنت قاصدا هذا المكان بنية حسنة فافتح علي هذا الباب . قال هذا وشد القفل وفتح الباب باذن الله تعالى فدخل الكعبة وصلى بها أيضا . ولما بلغ نبأ هذا إلى أمير مكة المقيم بجبل أبي قبيس نزل من عليائه وذهب إلى شمس الدولة تورانشاه واعتذر إليه . فقبل عذره وخلع عليه خلعاسنية وأبقى في منصبه . ثم واصل تورانشاه السير بالعسكر حتى دخل اليمن واصطدم بقوات عبد النبي بن المهدي فكسره شركرة . وكان هذا المتغلب على اليمن في غاية من الظلم والجور فعدت أعماله الجائرة الصبيانية حد المعقول حيث كان قد بنى قبر والده وقبة ضريحه من الذهب الابريز وأجبر الأهالي لان يحجوا إلى هذا الضريح بدل الكعبة المعظمة . وقد تمكن الملك المعظم تورانشاه من القبض على هذا الطاغية وقتله والاستيلاء على أمواله وأموال قبة والده من الذهب والمجوهرات .

باسم أخيه صلاح الدين ، ثم عاد إلى مصر تاركاً على أريكة حكمها نائباً عنه ولما توفي ، تورانشاه ، أسندت حكومة اليمن إلى أخيه الملك العزيز طغتكين في عام (٥٧٩ هـ) ، ولبث هذا الأمير في اليمن حتى توفاه الله إلى رحمته في اليوم السادس عشر من شوال من عام (٥٩٢ هـ) ، حيث خلفه في منصبه ابنه المعز اسماعيل الذي لقي حتفه مقتولاً في عام (٥٩٨ هـ) ، فخلفه أخوه الناصر أيوب الذي قضى نحبه هو الآخر في اليوم الثاني عشر من المحرم من عام (٦١١ هـ) . وبذلك انتقل الملك إلى ، المسعود صلاح الدين يوسف ابن الملك الكامل ، الذي سار إلى اليمن على رأس قوة عسكرية كبيرة . وفي اليوم الثاني من شهر المحرم من عام (٦١٢ هـ) وصل (زيد) عاصمة اليمن ، وما أن تم له الاستيلاء على الثغر ، واستتب له الأمر فيها ، حتى أعاد (سليمان ابن تقي الدين عمر بن شهنشاه) إلى مصر ، واشتبك هو في القتال مع إمام اليمن . وفي اليوم الثامن من جمادى الآخرة من عام (٦١٤ هـ) ، استولى على (صنعاء) . وفي عام (٦١٩ هـ) قفل راجعاً إلى مصر بعد أن سلم مقاليد الحكم ، وزمام الأمور فيها إلى أبناء الرسول (الرسولية) اتباع الأيوبيين ، وفي رجب من عام (٦٢٤ هـ) للهجرة اضطرت إلى العودة إلى اليمن حيث ألقى القبض على أولاد الرسول ، وزج بهم في أعماق السجن ثم عاد فأطلق سراحهم في نفس اليوم . وعاد إلى مصر في نفس العام بعد أن عهد بشئون الحكم إلى (نور الدين عمر بن علي الرسول) الذي مالبت أن أعلن استقلاله بالحكم بعد فترة وجيزة . وهكذا وضع أساس الحكومة الرسولية باليمن .

٧ - « الحكومة الأيوبية بالجزيرة »

قامت هذه الحكومة منذ اليوم الذي تأسست فيه حتى عام (٦٤٣)

للهجرة في مركزها بمدينة (ميفارقين (١) . وقد استولى المغل على بعض البلاد التابعة لهذه الحكومة في عهد (المظفر غازي) . فزالت على أثر ذلك هيئة الحكومة ، وتضاءل نفوذها ، ورغم ذلك بقيت بعض البلاد ذات الأهمية الثانوية في الجزيرة وكرديستان في أيدي من تبقى من الأيوبيين ومنهم أمراء (حصن كيف (٢) الذين عمروا حتى القرن العاشر الهجري باسم (الملكان = الملوك) .

« نظرة عامة »

إن السلطنة الأيوبية التي أقيمت دعائمها على أنقاض دولة الفاطميين في مصر، والأتابكية في « سورية » ، كانت على جانب عظيم من القوة والنفوذ وعلو الشأن وحسن الإدارة والنظام . وذلك على الرغم من هجمات الصليبيين المتتالية عليها خلال عهد السلطان صلاح الدين والملك العادل والملك الكامل . وقد اعترأها حقيقة في بعض الأحيان شيء من الوهن والضعف ، وساءت إدارتها في بعض الظروف ولا سيما في عهد الملك « العادل الثاني » ، ولكن الملك الصالح (نجم الدين أيوب) قد استطاع التغلب بثاقب فكره ، وقوة شكيمته على أهواء الأمراء المستبدين ، ولم يتركهم في طغيانهم يعمهون ،

-
- (١) الآن تسمى (سليوان) نسبة الى العشيرة الكردية الكبرى الشهيرة بالسليوانية المحرفة عن السليمانية لان الكراد ينطقون باسم (سليمان) هكذا (سليوان = سليفان) وماورد في الخرائط الزكية (سبلوان) تصحيف وغلط
(٢) الآن تسمى (شرناح) ولا تزال بجوارها عشيرة كردية عريقة في القدم تدعى (ملكان)
المترجم .

فوضع حداً لسوء الإدارة التي كانت تسود مصالح الدولة ، وبذلك أعاد للدولة مجدها السابق التليد. وهكذا فعل ابنه (تورا نشاه) الذي لو لاشدته التي أثارت عليه بماليكه الخاصة ، لكان من المنتظر جداً أن يقوم بدور خطير لرفع شأن الحكومة الأيوبية ، إذ كان قائداً محكماً ممتازاً ، وإدارياً حازماً .

هذا ولم يكن نشاط السلاطين والملوك الأيوبيين قاصراً على ميداني السياسة والحكم فقط ، بل سجل لهم التاريخ جولات محمودة وآثاراً ناطقة في ميادين العلم والمعرفة والاقتصاد أيضاً . كما عنوا بالزراعة وتحسين سبلها ووسائل تقدمها ررقبها من حفر الترع إلى إقامة الجسور وتنظيم وسائل الري وإلى غير ذلك . كما بذلوا جهوداً مشكورة لتنشيط التجارة في الداخل والخارج ، وليس أدل على ذلك من تلك المعاهدات التجارية الكثيرة التي عقدها مع الدول الأوربية .

أما الجيش الأيوبي فكان فريقين : أحدهما يتألف من الحرس الخاص وهم المماليك ، وثانيهما كان من الجنود المرتزقة التسابعين للأمراء والقواد الخاضعين لسلطان الملوك . ومثل هذه التشكيلات كانت ذات نفع وفائدة حيث كانت تتفق وموارد الحكومة العامة التي كانت تخضع للظروف والملايسات في تلك العهود البائدة . وكان الجيش المملوكي مشكلاً من عبيد اشتروا وتربوا تربية عسكرية خاصة في كنف الملوك وتحت إشرافهم ، وكان مماليك هذا الجيش في بادئ الأمر على جانب عظيم من الدربة ، وحسن النظام ، ومخلصين في تحقيق الغاية التي وجدوا من أجلها ، مثلهم في ذلك كمثل أتراك العباسيين ، وانكشارية العثمانيين ، ولكنهم ما لبثوا أن ضعف شأنهم ، واختل نظامهم ، وكثر شغبهم . وانتهزوا فرصة ضعف الحكومات وانحلالها . فانقلبوا إلى شرمستطير ، وأضحوا بلاء على الحكومات ، والملوك الذين كانوا يعتمدون عليهم .

ولا غرو أن الدولة الأيوبية ، تلك السلطنة الإسلامية الكبرى قد
وضعت أساس تقدم عظيم ، ونهضة كبرى للعالم الإسلامي . حتى أضحت تلك
السلطنة كعبة العلماء والفضلاء يحجون إليها من كل صوب حيث كان هؤلاء العلماء
يلقون لدى ملوكها وأمرائها كل تشجيع وكل عناية مما شجعهم على خدمة العلم
والفنون كما أدخلوا تحسينات كبيرة وواسعة على نظم الإدارة وعلى طرق
الجباية ونظموا كثيرا من أصول ومراسم المكاتب السلطانية ، والألقاب
والعناوين الحكومية . وتقدمت نظم الأقطاعات في المملكة الأيوبية تقدما
كبيرا ، وقد انتقلت هذه النظم الأقطاعية مع الصليبيين إلى أوربا حيث تأصلت
وسادت فيها ؛ شأنها شأن غيرها من عادات وتقاليد فرسان القرون الوسطى
بأوروبا ، تلك العادات والتقاليد المقتبس معظمها من أصول وعادات العهد
الأيوبي في الشرق ، مثال ذلك شعار الملوك وأسرمهم .

تأصلت هذه النظم الأقطاعية مع الصليبيين إلى أوربا حيث تأصلت
وسادت فيها ؛ شأنها شأن غيرها من عادات وتقاليد فرسان القرون الوسطى
بأوروبا ، تلك العادات والتقاليد المقتبس معظمها من أصول وعادات العهد
الأيوبي في الشرق ، مثال ذلك شعار الملوك وأسرمهم .

تأصلت هذه النظم الأقطاعية مع الصليبيين إلى أوربا حيث تأصلت
وسادت فيها ؛ شأنها شأن غيرها من عادات وتقاليد فرسان القرون الوسطى
بأوروبا ، تلك العادات والتقاليد المقتبس معظمها من أصول وعادات العهد
الأيوبي في الشرق ، مثال ذلك شعار الملوك وأسرمهم .

١١ - « حكومة بني أردلان » (٦١٧ - ١٢٨٤ هـ)

جاء في كتابي (شرفنامه) و (الأربعة القرون الأخيرة للعراق) . أن هذه الحكومة كانت على جانب عظيم من القوة وعظم الشأن . كما يروى لنا أهالي منطقة (أردلان) أن تاريخ هذه الحكومة قديم جدا يرجع إلى أوائل أيام العباسيين بل إلى عهد الساسانيين . ولكن ليس هنالك أية وثيقة يعتد بها نستدل منها على صحة الشق الأخير من هذه الرواية . ومهما يكن من أمر فالذي لا شك فيه أن هذه الحكومة قد تأسست في أواخر عهد العباسيين حسبما يؤخذ من رواية (ميجر لونجرليك) من أن (جنكيزخان) كان قد اعترف بهذه الحكومة ومن قول الدكتور (فريج) من أن جنكيزخان قد عين مؤسس هذه الحكومة واليا على تلك المنطقة في بادئ الأمر . ولما كان المغول قد استولوا على إيران في عام (٦١٧ هـ) في خلافة الناصر لدين الله فعنى هذا أن هذه الحكومة الأردنية قد عمرت أكثر من ستة قرون ونصف قرن ، مستقلة تارة ، وتابعة لدول كبيرة تارة أخرى ، لأنها زالت نهائيا من عالم الوجود سنة (١٢٨٤ هـ) . ولنستعرض الآن بالتفصيل نشأة هذه الحكومة فنقول : إن التاريخ لا يذكر شيئا قاطعا في هذا الصدد ، اللهم إلا ما جاء في (شرفنامه) من القول بأن (بابا أردلان) وهو من أسرة (أحمد بن مروان) مؤسس الحكومة المروانية الكردية في كردستان المركزي - قد قدم من (ديار بكر) وحط الرحال بين أحضان عشيرة (كوران - جوران) وأقام بينها (١) ، ثم

(١) انقرضت الحكومة المروانية في أواخر القرن الخامس الهجري ، ومن المحتمل جدا أن « بابا أردلان » قد فر في هذا الوقت من ظلم وعسف لوزير أبي جبير الذي كان له يد في القضاء على هذه الحكومة الكردية . المؤلف

انضم إلى جيش المغول حينما استولى (جنكيزخان) على إيران ؛ فعينه حاكما على اقليم (شهرزور) .

وفي هذه النقطة فقط تتفق رواية صاحب كتاب (الأربعة القرون الأخيرة للعراق) مع رواية (شرفنامه) بهذا الخصوص ولكنها تزيد وتقول إن (بابا أردلان) من أسرة قديمة نبيلة من (دياربكر) قد هاجر إلى عشيرة (كوران) وعلا شأنه بينهم ، ولم يمض على مقامه بين ظهرانيهم طويل وقت حتى تمكن من بسط نفوذه على عشائر (شهرزور) وعلى سكان الوديان الشرقية لاقليم (هاورامان) فأخضعهم لسلطانه تماما ، مما حمل (جنكيزخان) على الاعتراف بحكومته تلك ، حين قدم إلى هذه الجهات . هذا ويقول الرحالة المششرق الانجليزي الشهير (ريج) ان الأسرة الأردلانية كورانية أصلا ومن فرقة (ماموني) ولا شك في أن بحوث هذا المششرق ؛ وما وصل إليه من النتائج ، أقرب إلى العقل والصواب ؛ إذ من المعقول بل من المستساغ أنه وصل إلى السيادة وبسط نفوذه على عشائر تلك الجهات كلها بفضل تأييد عشيرته الكورانية وتعريضها له ، وهكذا تمكن من وضع أساس حكومة وطنية عمرت عصورا طويلة رغم الحوادث العاصفة ووقائع التاريخ (١) .

وإن (شرفنامه) ليفتقر إلى معلومات عن (بابا أردلان) وبضعة من ذراريه ، ولكن (ميجرلونيچريك) يقول إن (كلول بك ابن بابا أردلان) قد أخضع بنفسه (أربل) لحكمه أيضا ؛ وان عهد أميرين من أمراء هذه الأسرة وهما (خضر بك ابن كلول بك) و (إلياس بك ابن خضر بك) قد انقضى بسلام دون قتال أو نزاع ، ما زادهما قوة وبأسا .

(١) يذكر الدكتور « فريج » وهو المعروف بتعصبه الظاهر للترك ، في كتابه « كردلر » أصل بابا أردلان بطريقة تخالف ما جاء هنا كل المؤلف

ولقد صادف ظهور الحكومة الجلالية في العراق في القرن الثامن الهجري عهد أمير ضعيف من الأردلانين يلوح أنه (خضر بك بن إلياس بك) ، حيث استولى الجلاليون على القسمين الشمالي والغربي من البلاد في عهد هذا الأمير ، بل وبذلوا الكثير من المحاولات للاستيلاء على البقية الباقية من البلاد ولكن استماتة الأمير الجديد وهو (حسن بك بن خضر بك) في المقاومة ، وما اتخذته من التدابير الفعالة قد حال كل ذلك دون تحقيق أهداف المغيرين ثم حدث أخيراً في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وفي عهد حكومة (مأمون بك^(١)) القوية أن استردت تلك البلدان الشمالية والغربية من مغتصبها الجلاليين ، وبذلك صار نهر الزاب الكبير (زى بادينان) حداً شمالياً للحكومة أردلان التي بادرت فوضعت حامية عسكرية في قلعة (رواندز) .

ولاشك في أنه لم تظهر قط حكومة قوية ذات شأن بين الحكومات المجاورة للعراق في تلك الأيام مثل هذه الحكومة الكردية الباقية آثارها تطاول الدهر في غربي إيران .

وفي هذا العهد كانت تقيم في ولاية (شهرزور) نفس القبائل والعشائر والأسر القديمة التي تسكنها الآن ، ولم يكن قد جاءها بعد من إيران عشائر الزنكنه والهماوند والجاف ، أما الأسرات الأخرى مثل الشيخان والطالباني والجباري ، فلم تكن قد تكاثرت بعد حتى تستحق أن يطلق عليها

(١) إن مأمون بك هو ابن « منذر بك بن حسن بك » الذي قاوم الحكومة الجلالية في العراق مقاومة عنيفة بكل شجاعة وثبات ... وذكر المؤرخ «علي أكبر» أن حكم « مأمون بك » قد صغر من عام (١٨٦٢) حتى عام (٩٠٠) للهجرة ، أعني ثمانية وثلاثين عاماً اهـ « دائرة المعارف الإسلامية »

أسماء العشائر ، وقد كانت الوديان الواقعة في شرق (كركوك) في أيدي القرويين والفلاحين الأكراد المختلطين بغيرهم ، ولم تكن توجد هناك حينذاك حياة مدنية بالمعنى الحديث إلا بقدر معلوم ، وكانت البلدان التالية قلاعاً ومراكز للحكومات وطنية صغيرة وهي (درنه ، بنجوين - ونقمان الآن على الحدود العراقية والایرانية - وكذا : كوى . حریر . رواندز . عقره) .

وهناك في شمال الزاب الكبير كانت تقع أملاك إمارة العمادية ويتبعها كل من العقرة والدير ودهوك وأحياناً زاخو . وقد خضعت هذه الإمارة لحكومة (أردلان) قرابة مائتي عام ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي حتى الرابع عشر الميلادي ، حيث دخلت في حوزة الحكومة الجلالية . وقد قامت في هذه البلاد ابتداء من القرن الرابع الميلادي أسرة مالكة تدعى (بادينان — بهادينان) حيث كان سكان الإمارة من العشائر الهكارية . كانت بلاد (مكري) هي الأخرى خاضعة لحكومة أردلان .

وكان لما مون بك ثلاثة أبناء ذكور هم (بيكه بك ، سرخاب بك ، محمود بك) فلما أدركته الوفاة وصعدت روحه إلى بارئها ، خلفه في الحكم ابنه الكبير (بيكه بك) الذي لم يتمكن من بسط نفوذه على جميع أرجاء المملكة ، الأمر الذي أدى إلى استقلال كل من أخويه بناحية من البلاد . أما البلاد التي بقيت خاضعة لبيكه بك فهي (قلعة زلم ، تغه سو ، شميران ، هاوار ، سيمان ، داودان أورادان ، كلخبر) . والظاهر أنه لم يقع ما يستحق الذكر من الوقائع الهامة في عهد (بيكه بك) ، وإذا كان شيء قد حدث فإننا نجمله تماماً .

وإذا نظرنا إلى تاريخ توليه الإمارة عام (٩٠٠) للهجرة ، لأدركنا أنه كان معاصراً للسلطان (سليم الأول) العثماني ؛ حيث يقول (الميجرلونيچريك) أن إمارة (أردلان) قد خضعت - مثل الإمارات الكردية الأخرى - لسلطان الدولة العثمانية ، بعد انتصار العثمانيين على الإيرانيين في معركة

(جالديران) . . . ولكنني أرى أن هذا من الأمور المشكوك فيها جدا ، لأن مولانا حكيم الدين (إدريس البديليسي) لا يذكر شيئا عن هذا في حملة كردستان . ثم خلف (بيكه بك) نجله (مأمون بك) الذي كان معاصرا للسلطان سليمان القانوني (٩٢٦ - ٩٧٤ هـ) ؛ وقد كان تابعا سياسيا للحكومة الإيرانية الصفوية ، الأمر الذي ساعده على بسط نفوذه وسلطانه وتوسيع حدوده الجغرافية حتى امتدت إلى (زى كويه = الزاب الصغير) ، فشملت هاورامان ، شهرزور ، قره داغ ، وسهل كرمان (عبر جبال قره داغ وطريق كفرى - كركوك) .

ولاشك في أن هذا التوسع قد أثار نائرة الحكومة العثمانية وقلقها ، فأخذت في بادئ الأمر تعمل على الوقوف في سبيل هذا التوسع بأن وضعت قوة من الانكشارية في (كركوك) ، وجردت حملة عسكرية كبيرة بقيادة (حسين باشا) في عام (٩٤٥ هـ) على (مأمون بك) بحجة تأمين الطريق إلى (بغداد) ، وقطع دابر فساد عشائر (شهرزور) التي كانت تتعرض دائما للبارين في هذا الطريق . وكان معظم جنود هذه الحملة من جنود الأمراء الكرد الذين كان من بينهم (سلطان حسين) أمير العمادية . ولكن الغرض الحقيقي لهذه الحملة لم يكن سوى الاستيلاء على (مريوان = مروان) و (سنه = سنندج) وإذا لم يتم ذلك فلا أقل من انتزاع أفليم (شهرزور) . ولقد استمات (مأمون بك) في مقاومة هذا الجيش ، ودافع دفاع الأبطال عن البلاد إلى أن اضطر أخيرا إلى الاعتصام بقلعة (زلم) التي ضيق عليها العثمانيون الحصار ، ولما رأى (مأمون بك) أنه لا قبل له بمواصلة الدفاع ، إنسل خفية من القلعة وذهب إلى استانبول (١) مستنجدا بالسلطان ، ولكنهم زجوا به هنالك في

(١) تقول رواية أخرى ان مأمون بك وقع اسيرا واخذ إلى (اسلامبول) على هذا النحو (كوردلر ص ١٧٢) .

أعماق السجون . أما جيش (حسين باشا) فقد عاد من حيث أتى بعد أن خرب البلاد وأعمل فيها يد النهب والسلب .

ولما تولى (سرخاب بك) عم (مأمون بك) زمام الأمور استوثقت العلاقات الطيبة بينه وبين (طهماسب) شاه إيران ، واستولى على بلاد ابن أخيه بسهولة . فما كان من السلطان سليمان إلا أن أطلق سراح (مأمون بك) في استانبول وأسند إليه لواء (الحلة) ؛ كما أسند إلى أخيه (اسماعيل بك) سنجق (سروجك) ، ولكن (سرخاب بك) كان قد تملك ناصية البلاد وأعد العدة كاملة للدفاع ، مما أدى إلى فشل محاولات الأخوين لانتزاع البلاد من قبضة عمهما .

وفي عام (٩٤٨) للهجرة وقع القاص ميرزا - أخو الشاه طهماسب - في أيدي الجنود الكردي فأخذوه إلى (سرخاب بك) . ولكن لم يمض طويل وقت حتى زحف (اسماعيل ميرزا) بجيش إيراني من القزلباشية حاصر به (سرخاب بك) مع (القاص ميرزا) في قلعة (مريوان) فاضطر (سرخاب بك) إلى تسليم (القاص ميرزا) إليه ؛ وبذلك صان بلاده وحفظها من تخريب القزلباشية لها (١) .

ولما رفع (علي باشا) والي بغداد أنباء هذه الحوادث إلى الباب العالي في استانبول ، غضب الباب العالي وحمل حملة شعواء على ضعف (علي باشا) وتقصيره في اتخاذ التدابير الكافية ، وبادر إلى عزله من منصبه ، وعين بدله (محمد باشا البلطه جي) الشهير واليا على بغداد ، وكان ذلك عام (٩٥٦) للهجرة (١٥٤٩ م) . وقد عهد هذا الوالي الجديد إلى (عثمان باشا) استرداد إقليم (شهر زور) وأصحبه بجيش كبير معزراً بالطوبجية وبقوات كردية كبيرة ،

(١) (عالم آراي عباسي) .

فسار على رأسه إلى قلعة (زلم) التي كان (سرخاب بك) معتصماً بها ، فالتقى الحصار عليها وطال أمد الحصار حتى اضطر البلطه جى إلى الحضور بنفسه حيث تسلم بنفسه القيادة . وعالج الموقف بحكمته ، فاتبع سياسة الدهاء والملاينة مما حمل (سرخاب بك) على ترك القلعة والانسحاب منها دون سفك دماء من غير طائل . وهكذا اسقطت قلعة (زلم) في قبضة البلطه جى باشا الذى بادر إلى وضع قوة عسكرية كافية بقيادة (ولى بك) فيها لحمايتها . ومنذ عام (٩٦١) للهجرة انتظمت تلك البلاد في نطاق الادارة العثمانية .

هذا ، وليس في الروايات الشائعة في بلدة (سنه) شيء له علاقة بهذا الخصوص ، ومما لا شك فيه أن (سرخاب بك) بعد خروجه من قلعة (زلم) والتجائه إلى الحكومة الايرانية قد عاد إليها ثانية بمعاونة تلك الحكومة حيث تمكن من بسط سلطانه على مقاطعتي (أردلان) و (شهرزور) مع الاحتفاظ بمكاته في البلاط الشاهاني الايراني . وكان نجله (بارام = بهرام بك) حاكماً لرواندرز فلبث فيها طويلاً . ويقول الدكتور (فريج) ان (سرخاب بك) أعلن استقلاله التام بعد فترة من الزمن عن الايرانيين رافضاً حمايتهم له ، ونجح في حكم البلاد ، وقطع دابر الفتن ، ومنع نشوب القتال ، وقد كان دون شك من أهم حكام هذه الأسرة الكردية .

وقد نوه صاحب (شرفنامه) أيضاً برجاحة عقل هذا الأمير ، وحرمة في الادارة ، وعدله المطلق في الحكم ويقول إنه قد خلف أحد عشر ولداً من بعده وفي الوقت الذى كان فيه (سرخاب بك) متفقاً مع الايرانيين ، ظهر على المسرح (محمد بك بن دامون بك) واستولى على سنجق الحلة وسروجك (١)

(١) من المشكوك فيه وجود علاقة بين الحلة وسروجك ، والظاهر أن شرفنامه الذى ورد فيه اسم الحلة هذا فيه تحريف أو خطأ . المؤلف

وأخذ في بسط سلطانه شيئا فشيئا على بلاد (قره داغ ، شاربازير ، دهران = دجوران) ، وطلب إلى السلطان سليمان إسناد إدارة هذه البلاد كلها إليه بصفته الوارث الشرعي لأبيه وعمه ، ويظهر أن طلب (محمود بك) هذا قد أحدث رد فعل في الأستانة، بدليل أنه لم يمض طويل وقت عليه حتى عمدت الأستانة إلى تجريد حملة كبيرة بقيادة الصدر الأعظم (رستم باشا) و (عثمان باشا) ميرميران (بغداد) وغيرهما من حكام كردستان وأمرائه للاستيلاء على إمارة (أردلان) فتحركت تلك الحملة وألقت الحصار على قلعة (زلم) وظل الحصار قائما عامين كاملين توفي خلالها (محمد بك) وكان الشاه (طهماسب) يساعد حماة القلعة مساعدة فعالة ، مما اضطر (رستم باشا) إلى العدول عن فتحها والتوجه إلى شهرزور حيث توفي في هذا الأثناء وقد عين بدله مرة أخرى (محمد باشا البلطه جي) ، فتوجه على رأس جيش عرمرم صوب (شهرزور) فاحتلها ، وكان (سرخاب بك) في هذه الأثناء متفقا مع الإيرانيين . وبعد وفاة (سرخاب بك) خلفه في الحكم ابنه (سلطان علي) الذي مات بعد سنة واحدة من اعتلائه الحكم، فقام نزاع بين أخيه (بساط بك) وإبنه (تيمورخان) حول الاستئثار بالحكم ، وقد انتهى هذا النزاع بوصول (بساط بك) إلى الحكم مكان أخيه .

ولكن (تيمورخان) لم يترك له فرصة يستريح فيها بل واصل الكفاح والنزال - تعضده الحكومة العثمانية - حتى دحر عمه ، وتم له الاستيلاء على الإمارة بأكملها . ثم أنعم عليه السلطان مراد الثالث بلقب ميرميران ورتبة الباشوية وأسند إليه إدارة مقاطعة (شهرزور) أيضا مع تعيين أنجاله الأربعة أمراء سناجق (٩٨٨ هـ = ١٥٨٠ م) .

وجاء في (شرفنامه) عن أنجال (تيمور باشا) وسناجقهم ما يلي :

(١) سلطان علي ، كان أمير سناجق (سنه = سنندج) وحسن آباد وقلعة قرلجه

(٢) بوداق بك، كان أمير سنجق قره داغ .

(٣) مراد بك، كان أمير سنجق (مهران = مريوان) .

(٤) بدرخان بك، كان أمير سنجق (شاربازير) .

ويقول الدكتور (فريج) ان عهد (تيمورخان باشا) كان نكبة على كردستان لأنه كان تواقا للنهب والسلب وميالا لسفك الدماء لدرجة أن أثارت نائرة (عمر بك) و (شاهويردي بك) أمير (لرستان) فتآمرا ضده وقبضا عليه للتخلص من شروره وآثامه ، بيد أنه أفلت من بين برائتهما أخيرا وأخذ يعم في الإغارة على بلادهما وبلاد جيرانه ، وسلب أموال الناس بالباطل حتى وقع قتيلا في إحدى غاراته عام (١٩٩٨ هـ) .

وبعد وفاة (تيمورخان باشا) تولى الحكم من بعده أخوه (هلوخان) الذي كان على عكس أخيه يعمت أعمال السلب والنهب ويستنكرها ، ولكنه لم يكن في مكنته وقتذاك الحيولة دون قيام القبائل والعشائر بالسلب والنهب بين حين وآخر حسبما تعودت على ذلك . وكان تعلقه بالبلاط العثماني ظاهرا جليا في عهد السلطان مراد الثالث .

ويذكر (شرفنامه) معلومات مفصلة عن هذه الإمارة حتى عام (١٠٠٥) للهجرة ، ولكن (دائرة المعارف الاسلامية) وكتاب (الأربعة قرون للعراق) لا يذكرا إلا القليل عن أحوالها بعد هذا التاريخ والظاهر أن حكم هذه الإمارة آل بعد (هلوخان) إلى الخان (أحمدخان) في عام (١٠١٤ هـ و ١٦٠٥ م) حيث كانت علاقاته بالشاه (عباس) طيبة ووطيدة جدا ، ولهذا أتبع إمارته لسلطان إيران ، وكان يعتز بحماية الشاه له فيتسلط على العشائر الكردية والامارات المحلية الخاضعة للدولة العثمانية . وكان أول عمل قام به بعد أن سلك هذا المسلك وتخير لنفسه اتباع هذه السياسة -- الهجوم على العشائر المسكربة فاجتاحها ، وبعد بضع سنين تمكن من الاستيلاء

على قلعتي (راوندز) و (العمادية) ونصب عليهما نوابا عنه ، كما أنه أخضع
كلا من (كوى) و (حرير) غير أن التسلط على هذه البلاد وبسط سلطانه
عليها لم يعمر طويلا . ومع ذلك فمن المعترف به أن العشرين سنة الأولى لحكم
أحمد خان لامارة أردلان كانت بحق عهد ازدهار وتقدم ونهضة محسوسة
للبلاد ، حافظ أحمد خان طيلة هذه المدة على حدود الامارة القديمة ، ولقى
خلالها عطفًا سائبًا من لدن الشاه عباس الذي تعطف عليه وزوجه من أخته (١)
ومما يدل على بعد نظر هذا الخان أنه قصر إغاراته وحرروبه على الجهات
الغير خاضعة مباشرة لسلطان العثمانيين ، أعنى أنه وجه همه نحو الامارات
الكرديّة المحليّة ، ولعله كان يرمى من وراء ذلك إلى تحقيق الوحدة الادارية
في البلاد الكرديّة ، بيده أن هذا الخان كان هو وجيش أردلان ، مع الشاه
عباس في إغاراته على بغداد عام (١٠٣٤ هـ) حيث زحف بجيشه إلى كركوك
(كركويه) ، وبعد قتال قصير الأمد استولى على هذه القلعة وعلى منطقة
(شهرزور) كلها (٢) وبذلك امتد سلطان أحمد خان ونفوذه من غرب العمادية
حتى حدود كرماشان وهمدان ، ومن لرستان حتى بحيرة أورمية . حيث خضعت
امارة السهران كلها لسلطان أردلان .

ولم يدم عهد القوة والسلطان لهذه الامارة بعد وفاة الشاه عباس عام
(١٠٣٧) للهجرة وفي عام (١٠٣٩) للهجرة ، قد وصل خسرو باشا الصدر الأعظم
إلى الموصل لاسترداد بغداد من الايرانيين ، وهناك قدم له كل من (سيدى خان)
حاكم العمادية ، و (مير بهك) أمير السهران وبضعة أمراء من الكرد ، النصح
والمشورة بوجوب الاستيلاء على (أردلان) فتوجهوا صوبها جميعا . وظل
الخان (أحمد خان) حفيظا على صداقته للحكومة الإيرانية وتعلقه بها . وقد

(١) تاريخ نعيما .

(٢) تاريخ عالم آراى عباسى .

تأيد ذلك في مواقع كثيرة ولا سيما حين غزو الشاه عباس الأخير لبغداد ،
ولكن الكثيرين من رجال جيشه البارزين كانوا يبدون ميلا نحو العثمانيين
لكونهم سنيين ، وكانوا يتحينون الفرصة للانضمام إلى جيش (خسرو باشا)
عند اقترابه من الحدود ، وعلى أثر تحرك الجيش العثماني من (كر كوك) جاء
لفيف من قواد (أردلان) ورجالها مع عشرين أميرا من أمراء كردستان إلى
الصدر الأعظم (١) ووضعوا أنفسهم في خدمة الجيش العثماني الذي واصل
السير حتى عسكر في ناحية (كلعنبر) ولبث يصلح في قلعتها خمسين يوما .
وبعد ذلك أرسل الصدر الأعظم قوة عسكرية استولت على قلعة
(مهربان = مريوان) وفي الوقت الذي كان الجيش العثماني ما يزال في الموصل
كان القائد الإيراني العام (زينل خان) وبصحبه الخان (أحمد خان) قد
قد تحرك من همذان على رأس جيش قوامه أربعون ألف مقاتل دون أن
يتخذ الحيطة ويقطع خط الرجعة على جناح العدو الرايض بمهربان واشتبك
مع هذه القوة ، وبينما كان القتال على أشده بين الفريقين وصلت قوات الصدر
الأعظم إلى ساحه الوغى فقررت مصير المعركة ، وألحقت الهزيمة بالجيش
الإيراني ، وقتل في المعركة بضعة ألوف من الجند وأعدم (زينل خان) من
قبل الشاه ، وعين بدله (رستم خان) قائدا عاما للجيش الإيراني ، وتحرك
الشاه بنفسه على رأس جيش لجب من (أصفهان) إلى ميدان القتال .
وبعد هذه الغلبة الساحقة توجه الصدر الأعظم (خسرو باشا) إلى قلعة

(١) جاء في (تاريخ نعيما) أن (أحمدخان) حينما اجتاز نهر الزاب الأسفل
سارع بتقديم فروض الطاعة للصدر الأعظم ، ورضى عنه السلطان (عثمان)
وأقطعه في الموصل مكانا ... اهـ واعتقد أن هذا غير صحيح . نعم لقد
جاء وقت كان فيه (أحمدخان) مستاء من الإيرانيين بسبب حمل عيني ابنه
بأمر الشاه صفى .

(حسن آباد) حيث كان مقر الخان (أحمد خان) فدمرها تدميرا وجعلها خرابا يابا ، ثم واصل السير حتى قرع أبواب (همذان) في سنة (١٠٤٠) للهجرة (١٦٣٠ م) فدمرها ، ثم عرج على بلدة (دركزين) وقتل من أهلها الكثيرين ، ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد وحاصرها أربعين يوما ، ولكنه لم ينل منها شيئا ، ففقل راجعا إلى الورا عن طريق الموصل في عام (١٠٤١ هـ) (١٦٣١ م) . وقيل أن يغادر الصدر الأعظم الموصل زحف (احمد خان) الى ولاية (شهرزور) واستردها من الجيش العثماني .

هذا ولم نعثر على معلومات واضحة عن أواخر عهد أحمد خان وخلفائه وكل ما نعرفه أن أحمد خان قد استاء في وقت ما من الشاه (صفى) لسبب مبعثه الظلم ولجأ إلى الحكومة العثمانية في الموصل (١) وفي خلال ذلك تولى إمارة أردلان (سليمان خان) وهو من نفس الأسرة . ويظهر أن (سليمان بك به به) قد أغار في سنة (١٦٩٤ م) أي في عهد سليمان خان على إمارة أردلان ، وكانت هذه الاغارة في عهد حكومة ضعيفة لا تملك حولا ولا طولا ، مما أدى إلى وقوع شطر كبير من البلاد الأردنية في قبضة (بابا سليمان بك) ولكن الأردلانيين تمكنوا بعد ذلك بعام واحد من استرداد ما فقدوه من بلاد بفضل تعاضيد الحكومة الإيرانية لهم .

(١) يقول الفون هامر صاحب تاريخ الدولة العثمانية في هذا الصدد ما خلاصته : ان الخان احمد خان قد استاء استياءا شديدا من معاملة الشاه صفى له لأن خلف الشاه عباس هذا قد بلغ به الظلم والغدر إلى أن يعمد إلى ابن احمد خان فيسمل عينيه مما اضطر أمير أردلان الأبى بأن يغادر ايران ويلجأ إلى الحكومة العثمانية في الموصل . وما كان من كوجك احمد باشا هنالك إلا أن كتب إلى الباب العالي في استانبول وأتى له بالخلم السنوية ورتبة بكلمركى وما يستتبعها من الشارات ثم سافر مع احمد باشا على رأس جيش عرمرم

وفي عام (١١٤٣) للهجرة غزا حسين باشا والى بغداد اقليم همدان ، وكان الحاكم الشرعى الوراثة لأردلان وقتذاك هو (على قلى خان) الذى انصاع للعثمانيين بمحض اختياره ودون قتال ، لأنه كان معزولا عن الحكم بسبب تدخل الايرانيين ، فكان يعلق آمالا كبيرا على مساعدة (حسن باشا) له. وقد ترتب على ذلك استيلاء (خانه باشا) البابانى على (أردلان) بأمر من حسن باشا بفضل إطاعة (على قلى خان) وكثير من رجاله واستسلامهم له .

هذا ، وبعد حروب (شرفخان الأفغانى) والسرदार (أحمد باشا) فى شهر كانون أول (ديسمبر) سنة (١٧٢٦ م) آل إلى (خان باشا) أمر إمارة (أردلان) لأنه كان سبيا فى إنكسار الجيش العثمانى ، ودام ذلك أربع سنوات حتى عهد نادرشاه . ولما دانت الأمور فى إيران لظهما سب قلى (نادرشاه) وأخرج الجيش العثمانى من إيران أعطى إقليم (أردلان) لسبحان ويردى خان وبذلك قضى على حكم البابانيين فى (أردلان) .

= إلى إيران واصطدما فى سهل مهربان بالاييرانيين ودام القتال يومين واسفر عن اندحار جيشى الكرد والعثمانيين ومقتل احمد باشا ورجوع احمد خان الى الموصل حزينا اشد الحزن .

وقد اثرت هذه الهزيمة تأثيرا بالغيا فى هذا الأمير الشجاع الغيور حفيد السلطان صلاح الدين الايوبى الاسد الهصور فبات سنة (١٠٤٦ هـ) هذا ولما كانت الايات الفارسية الآتية تشتمل على تواريخ ميلاد ووفاة وحياة هذا الامير نشتها فيما يلى نقلا عن صحيفة زين الكردية .

خلف اكراد يعنى خان احمد سال بخت (١٠٠٢) امداز عدم بيرون
 سال كج بخت (١٠٢٣) يافت حكم وجلوس
 در غلطا (١٠٣٩) كشت واله و مجنون
 يافت حكمى زيبشر افزون
 سال غمها (١٠٤٦) هزيمتش دادند
 رفت بيرون از اين زمانه دون

وفي عام (١٧٩٣) للبيلاذ استولى سليمان باشا الباباني على شطر كبير من بلاد أردلان بعد انتصاره للمرة الثانية على عمه سليم باشا في (قرلجه) ، غير أنه لم يمض على ذلك طويل وقت حتى قاومه ؛ فصدده عن البلاد (سبحان ويردي خان) أمير أردلان ، وفي السنة التالية زحف سليمان باشا الباباني تنفيذا لإشارة صدرت إليه من (كريمخان الزند) إلى أردلان غازيا ، واستولى على (سنه) . وكان يشد أزره جيش كريمخان الزند . وبعد عام قتل سليمان باشا خلفه نجله (علي بك) في إمارة أردلان ، وكان أخوه محمد باشا حاكما على قلعة (جوالان) . وكان بنو أردلان على اتفاق مع (أقا محمد خان القجري) الذي كان من ألد أعداء الأسرة الزندية على العمل سويا ؛ ولهذا كان (كريمخان) يحمي البابانيين ويمنحهم تأييده . وكانت هذه الظاهرة سببا في اقتحام الجيش الإيراني - في كثير من الأحيان - لبلاد أردلان وشهرزور والتدخل في شئونهما وهكذا كان الحال مع جيش والي بغداد الذي كان يتدخل هو الآخر في شؤون تلك البلاد الفينة بعد الفينة .

وفي عام (١١٦٨ - ١٢١٤ هـ) انتقلت إمارة أردلان إلى خسروخان الكبير^(١) من بعمد (سبحان ويردي خان) . وفي عام (١١٩٠ هـ) زحف أحمد باشا والي بغداد إلى كرماه نشاه ، كما زحف محمد باشا الباباني ، إلى (سنه) فاعترض سبيله جيش أردلاني فسحقه سحقا ، واستولى على (بانه) ثم اشتبك في قتال مع خسروخان فهزمه هو الآخر ، ولكن كريمخان الزند بعث بقوة كبيرة يقودها (كلب علي خان) لتجدة جيش أردلان طاردت محمد باشا الباباني ، حتى (كركوك) .

وخلاصة القول ان أردلان قد اجتاحت مرارا ، ودمرت تدميرا في عهد

(١) يقول الميجرسون ان (خسروخان) خطب ابنة الشاه فتح على .
ولكن الظاهر ان الذي فعل ذلك هو خسروخان الأول .
المؤلف
(١٩ - ٢)

حكومة البابين . وفي عام ١٢١٤ هـ ، خلفه أمان الله خان ، والده
وخسروخان الكبير ، ودام حكمه حتى سنة ١٢٤٠ هـ ، والواقع أن هذا
الأمير كان محبا للعلم والعلية ، وعاملا في نشر المعارف وبث روح العمران في
أنحاء البلاد ، فتقدمت أسباب النهضة الأدبية والعمرانية في مدينة سنه ، تقديما
محسوسا وأصبح بلاطه كعبة القصاد من الشعراء والأدباء والعلية من أنحاء
کردستان وإيران ، وقد حظى السرجون مالكولم ، والمسيو ريج ريتز ،
بمقابله أثناء سياحتهما في إيران . ولذلك فهما يكيلان له الكثير من آيات
المديح والثناء ويظريان حسن إدارته للبلاد وعظيم خدماته في سبيل إسعادها ،
وقد خلفه ابنه ، خسروخان ، الذي حكم البلاد عشر سنوات ، والذي كان له
القدح المعلى في الشعر والأدب . وكانت « ماه شرف خانم » الشاعرة الشهيرة
والأديبة الفاضلة زوجا لهذا الوالي . وبعد وفاته وفي عهد خلفه وهو ابنه
« رضا قلي خان » (١) اندلع لهيب الفتن ونشبت حروب بين أمراء هذه الأسرة
أدت إلى حبس الوالي البالغ من العمر وقتذاك ستة عشر عاما في طهران ،
ولم يطلق سراحه من السجن إلا بعد وفاة محمد شاه ، . أما « أمان الله خان »
الذي حكم أردلان من سنة ١٢٦٥ ، حتى سنة ١٢٨٤ هـ ، فهو أخوه ، وآخر
حاكم لأردلان . إذ الثابت أن الحكومة الإيرانية قد بدأت تتحرش بحكومة
هذه البلاد ابتداء من عام (١٢٦٨ هـ) . حتى تمكن ناصر الدين شاه ، في عام
« ١٢٨٤ » من القضاء على الأسرة الأردلانية نهائيا وتعيين عمه الأمير « فرهاد
ميرزا » ، حاكما على أردلان . نعم إنه لا يزال هنالك رجال بارزون من هذه
الأسرة ولكنهم يفتقرون إلى الجاه والنفوذ . ولقد سبق القول بأن هذه

(١) يقول الميجرسون ان اسم هذا الحاكم هو (غلام شاه خان) .
(من تقرير عن السلجانية طبع كلكتا سنة ١٩١٨) . المؤلف

الحكومة كانت من أهم الحكومات الكردية التي قامت في إيران . ويقول « شرفنامه » انها تمتعت بالاستقلال التام فترة من الزمن ، وضربت باسم حكامها السكة ، وألقيت باسمهم الخطب . ويظهر أن فترة الاستقلال التام هذه قد عمرت منذ أوائل القرن السابع الهجري أي من أواخر عهد الحكومة الأيلخانية حتى أوائل عهد الحكومة الصفوية ، بداية القرن العاشر الهجري ، أي قرنين كاملين .

ثم تلا ذلك عهد الخضوع السياسي للإيرانيين تارة ؛ وللعثمانيين تارة أخرى تبعاً للظروف حتى زوال حكم الخان « أحمد خان » ، ثم بدأ نفوذ إيران يزداد في البلاد رويداً رويداً حتى قضى عليها نهائياً وأسدل عليها الستار في عام (١٢٨٤ هـ) ودفن هذا التراث التاريخي أيضاً في مقبرة التاريخ (١) .

(١) ألحق المؤلف المفضل بالآخر هذا المبحث شجرة نسب أحفاد (بني أردلان) الذين اشتهروا أخيراً في إيران بأمره والى زاده نقلاً من كتاب انجليزى يدعى (عشائر ورجال إيران الغربي) طبع سنة (١٩١٨) . فلم تتمكن من ترجمتها ودرجا الآن وارجئها الى ان تسخ الفرصة لعمل مجموعة انساب لسائر الاسر والحكومات المترجم

١٢ - حكومة ملوك الكرد = الكرت (٦٤٣ - ٥٧٨٥)

يرى (كرزن) أن هذه الحكومة أسستها عشيرة (كوردكلى = طائفة الكرد) بسجستان فدامت أيامها من عام (٥٦٤٣ = ١٢٤٥ م) الى (٧٨٥ = ١٢٨٣) ومن دواعى الاسف ان ليس لدينا معلومات مفصلة وكافية عن احوال هذه الحكومة . وكل ما نعرف عنها ان هذه الاسرة أو الطائفة القوية نزحت او اجليت من (كردستان) في وقت غير معلوم . وهذه المعلومات قد اقتبسها كرزن من كتاب (راولنسون) القيم (ج - ١ ص ٢٢٨ هامش)

هذا وقد تعرض كتاب (قاموس الاعلام) التركي لذكر هذه الحكومة فقال ، ان هذه الحكومة قامت حوالى القرن السابع والثامن في بلاد هراة والغور وخرجستان وسيستان في عهد الايلخانيين حيث خلف مؤسسها شمس الدين محمد سنة (٦٤٣ هـ) جده لأمه في حكم الغور . وفي عهد الامبراطور منكوقاآن الايلخانى صدر مرسوم سلطاني بالتصديق على حكمه باسناد امارة هراة اليه . فدامت امارته ٣٣ سنة حيث توفي الى رحمة الله سنة (٦٧٦ هـ) في عهد الامبراطور ابقاخان الايلخانى . وكان الامير اداريا حازما وشاعرا مطبوعا ، وقد استمر الحكم في اعقابه فترة من الزمن حيث توالى على الحكم من نسله ستة اشخاص . ولما جاء دور الشخص السابع وهو (الملك معز الدين ابو الحسين محمد) اغتتم الفرصة السانحة من انقراض الامبراطورية الايلخانية في ايران فوسع حدود مملكته واعلن استقلاله التام ، وقد تولى الحكم بعده هذا الامير ابنه (غياث الدين) بالاستقلال حتى عهد (تيمور) الذى حاصره في هراة حيث قضى عليه وعلى سائر اعضاء اسرته وانتهت أيامه في سنة (٧٨٣ هـ)

وتفصيل ذلك هو انه بعد ان انتقل شمس الدين محمد المؤسس الأول لهذه الاسرة تولى الحكم ابنه ركن الدين ودام حكمه من سنة (٦٧٦ حتى سنة ٦٩٤ هـ)

ثم خلفه ابنه (نغر الدين) الذي كان سجيناً سبع سنوات في عهد والده ، ثم اطلق سراحه بناء على تدخل ورجاء (الامير نوروز) حيث ذهب بعده لاجئاً الى ساحة (غازان خان) وقد وصل الى الحكم بفضل وهمة الامير نوروز الذي جوزى من نغر الدين هذا جزاءاً سنيناً حينما لجأ اليه فراراً من الامير قتلغ حيث سلبه الى خصمه ، وقد شق عصا الطاعة فترة من الزمن للامبراطور (غازان خان) ثم قاتل أخاه اولجايتو خان ايضاً ، وهكذا امضى ايام حكمه في قتال ونضال مع خصومه وجيرانه مدة اثني عشرة عاماً ، منها عشرة اعوام في حياة والده وعامان بعد وفاته ، حيث ارتحل الى دار الاخرة سنة (٥٧٠٦هـ) فخلفه اخوه (غياث الدين) وقد جاءه المرسوم الايلخاني بتولية الحكم بالغور وخراسان ، وفي سنة (٥٧٢١هـ) حج الى بيت الله الحرام ، وفي عودته توجه الى السلطانية (عاصمة الدولة الايلخانية) وتشرف بمقابلة السلطان ابي سعيد والامير جوبان . ولما توترت العلاقات بين السلطان ابي سعيد وبين الامير جوبان الذي لجأ من جراء ذلك الى غياث الدين هذا ؛ لم يحافظ غياث الدين على علاقات الصداقة التي كانت بينه وبين الامير جوبان ، بل خاناه هو وابنه هلو خان بان قتلها وارسل جثتيهما الى السلطان ابي سعيد . وهكذا انقضت أيامه بعد أن حكم (٢٢) عاماً واعتلى منصة الحكم بعده ابنه (شمس الدين) الذي كان لاهياً غير ملتفت لشؤون الامارة فلم تدم أيامه اكثر من عشرة شهور حيث قضى نحبه في سنة (٥٧٣٠هـ) فخلفه اخوه (حافظ) فحكم البلاد عامين كاملين ، وفي خلال سنة (٧٣٢) تولى الحكم اخوه (معز الدين) الذي هو من اعظم ملوك السكرت . وقد اعلن استقلال امارته التام في سنة (٥٧٢٦هـ) حينما ارتحل السلطان ابو سعيد الى دار البقاء فخطب وسك العملة باسمه بخراسان وبلاد الغور . وفي سنة (٧٤٣) حارب السربندار بين وكسر جيوشهم فزاد شأنه وارتفع قدره ، وهكذا حكم البلاد بجلالة قدر وبحزم وادارة عادلة الى أن توفي الى رحمة الله سنة (٥٧٧١هـ) وكان العلامة سعد الدين التفتازاني قد ألف كتابه (المطول) الشهير في البلاغة باسم هذا الملك .

هذا وقد تسم العرش بعد معز الدين هذا ابنه (غياث الدين بير علي)
فصار ثامن الملوك وآخرهم من آل كرت المشهورين بخراسان والغور، حكم مدة
اثني عشرة عاما حيث زحف اليه تيمور ببحافله وحاصره في قلعة هراة ودام
الحصار مدة واشتد القتال ودافع دفاع المستميت واخيرا انتهى امره فوقع في
يد تيمور فقتله هو وأقرباءه جميعا وهكذا انتهت حكومة جماعة الكرد
بخراسان ايضا . ١١هـ (١) .

(١) هذه الحكومة التي تسميها بعض المصادر الحديثة بحكومة جماعة الكرد
بخراسان وسيستان ، هي المشهورة في كتب التاريخ القديمة بملوك كرت او (بني
كرت) نسبة الى لقب مؤسسها (شمس الدين محمد كرت) الذي لقب بكرت
لقطعه صفوف الخوارزمين عند قتاله لهم لان الكرت بالخوارزمية بمعنى القطع
او الشق وقال بعضهم انه بمعنى العظيم والمكرم . والمؤرخون مختلفون ايضا
في ضبط اسم « كرت » هل هو بفتح الاول ام بضمه والمشهور هو الاول
كما ان الاختلاف كبير بين المؤرخين في جنسية هذه الاسرة هل هي ايرانية
(فارسية او كردية او تاجكية) ام تركية وتركمانية . انظر (جامع الدول)
لمنجم باشي (وجهان آرا) لغفاري (ومرآة الادوار ومرقاة الاخبار) للاربي .

١٣ - الحكومة الزندية (١١٦٧ - ١٢٠٢ هـ)

إن الفترة الواقعة في تاريخ إيران بين مقتل نادر شاه ، وبين تأسيس الحكومة القاجارية تلك الفترة التي قاربت نصف قرن كانت مسرحا للفوضى والاضطراب ، اللهم إذا استثنينا منها عهد كريم خان . .

ولاستعراض الحالة الداخلية في إيران قبل ظهور (كريم خان) يجدر بنا أن نذكر انه في الوقت الذي عين فيه (احمد خان) رئيسا للحملة المنوط بها إعادة الأمن والطمأنينة واستئصال بذور الفتنة والاضطرابات في إقليم خراسان ، كان (محمد حسين خان) رئيس عشيرة القجر التركمانية ، قد وهدد مركزه في (استرآباد) وأخضع لسلطانه ونفوذه كافة بلاد (مازندران) أيضا . وكان (نادر شاه) قد عمد إلى قتل (فتح علي خان) والد (محمد حسين خان) وهذا ما أوجز صدور أبناء العشيرة القجرية وجعلهم يصبون جام غضبهم ونقمتهم على أحفاد (نادر شاه) وأتباعه . وقد جرد (احمد خان) حملة عسكرية - عباها من الأفغانين - على (مازندران) خشية أن يسبقه (محمد حسين خان) فيفسد عليه الأمر ، بيد أن هذه الحملة قد حاق بها الفشل الذريع والخسران المبين ، وهكذا اتسع نفوذ رئيس قبيلة القجر ، وعلا شأنه وبرزت مقدراته الفاتحة واضحة لكل ذي عينين .

وكانت ولاية (آذربيجان) في هذه الآونة ، يحكمها (أسد خان) الأفغاني ، وكان يبسط سلطانه على ولاية (كيلان) أحد الرؤساء المحليين المدعو (هدايت خان) الذي أعان استقلاله التام ، وهكذا كان الحال في (كرجستان) التي كانت خاضعة لجنرال مسيحي من جنرالات (نادر شاه) وكان يدعى (هراقايوس) . ويبدو أن هذا هو الآخر كان طامعا في الاستقلال . وفي هذا الوقت الذي كان فيه شمالي إيران يغلي كالمرجل ، وتكتنفه

الاضطرابات والقلاقل من كل جانب، كان (علي مردان خان) - وهو أحد رؤساء العشيرة البختيارية الكردية - قد زحف إلى (أصفهان) وانتزعها من واليها (أبو الفتح خان) الذي كان واليا عليها من قبل شاهرخ . ونصب عليها واليا من سلالة الصفويين لاجتذاب قلوب الأهالي في هذه العاصمة الكبيرة ، واستمالتهم إليه . إلا أن هذا الاجراء السياسي لم يكن كفيلا بإتمام تلك المهمة الكبرى التي أقدم على تحقيقها دون أن يلقي تعصيذا فعالا أو مساعدة جدية من القواد والأمراء الآخرين من أمثال « كريم خان الزند » الذي لم يكن سليل أسرة كبيرة معروفة (١) ولا من القواد أو الأمراء في جيش « نادر شاه » إلا أنه كان يتجلى بأخلاق فاضلة وبسالة نادرة .

ويقول المؤرخون ان « كريم خان » إنما كان علي اتفاق مع « علي مردان خان » منذ البداية، ولا سيما فيما يتعلق بمسأله تنصيب حاكم من سلالة نادر شاه علي رأس الحكومة كما استقر بينهما الرأي وقتذاك ، علي أن يكون أحدهما وزيرا إلى جانب الأمير الصفوي في حين يصبح ثانيهما سردارا للجيش . وتقول بعض مصادر أخرى ان (كريم خان) لم يكن يفكر ، بل وما دار بخلفه قط أن يكون علي قدم المساواة مع « علي مردان خان » في النفوذ والسلطان بل كل ما كان يرنو إليه هو أن يكون خائفا له بعد وفاته حيث كان هذا الرئيس البختيارى طاعنا في السن ولا ذرية له .

ولقد أمعن وتمادى « علي مردان خان » بعد استيلائه علي أصفهان ، في العسف والطغيان ، وانزال صنوف الظلم بالأهلين ، ولكن « كريم خان »

(١) ويؤخذ من الرايات الشائعة في نواحي « خوى » ، أن كريم خان كان ابن شقى خطير من أشقياء تلك الجهات كان يدعى « إجماك » وما زال اسم جده مجهولا . المؤلف .

قد حال دون تسرب هذه المظالم واستداد ذلك العسف إلى منطقة جلفا ، التي كان يحتلها هو شخصيا ، فدافع دفاعا مجيدا ، أكسبه احترام الجميع حيث أسرهم بعظيم نبه وكريم فضله ، وكان معظم القاطنين في تلك المنطقة من المسيحيين الذين غمرهم وكريم خان ، بعدله المطلق وأرضاهم بالابتعاد عن التعصب المذهبي والديني ، ذلك الأمر الذي أفضى - بعد أمد وجيز - إلى حقد ، على مردان خان ، عليه ، والغيرة منه ، وتحرك عوامل الحسد والتنافس والبغضاء بينهما ، وقد بيت على مردان خان في دخيلة نفسه أمرا وهو العمل على إبعاد كريم خان ، عن مناطقه ، حتى يتسنى له اضطهاد الأهلين في تلك الجهة ، ولكن الأهالي كانوا على بيته من الأمر ، وعالمين بالنية المبيتة نحوهم وقد أقدم - من ناحية أخرى - على قتل والي ، أصفهان ، الذي كان قتله ذريبا بأن الجناية التالية لا بد وأن تكون مقتل (كريمخان) .

وقصارى القول ان الوسوس والأوهام التي سيطرت على أفكار ، على مردان خان ، وما تملسكه من غيرة شديدة ممن حسبهم منافسين له قد أدت في النهاية إلى امتشاق الحسام بين الصديقين المتأخين ، فوقف كريمخان ومن معه من حلفاء وأنصار موقفا حازما ضد على مردان خان وأعلنوا عليه حربا لاهوادة فيها وحدثت مصادمات عديدة بين الفريقين لقي (على مردان خان) حتفه خلالها ، قتله قائد يدعى محمد خان ، وكان ذلك في عام (١١٦٠) للهجرة (١٧٥٣ م) وهكذا خلت بلدان إيران الجنوبية من منافس عنيد شديد لسكريم خان .

ومع ذلك فقد كان لزاما عليه - قبل أن يحاول بسط نفوذه على هذه البلاد - أن يستأصل شأفة عدة خصوم ألداء آخرين حتى يتمكن من انفاذ أمره فيها . وكان أغلبية جيش كريمخان تتألف من عشيرة (لك) التي كانت على كامل الاستعداد لحكم إيران بفضل بسالتها وقوة شكيمة رجالها ، وكانت

(الزند) فرقة من هذه العشيرة . وأما أبناء المدن الإيرانية وسكانها فكانوا يميلون أيضا إلى جانب «كريمخان» لما جبل عليه وما أزرعنه من تحقيق العدالة والمساواة والحزم في إدارة شئون البلاد دون محاباة ، وكانت العشائر العربية في إيران هي الأخرى مع «كريمخان» قلبا وقالبا ، كما أن نفس العشائر التركية التي كانت تقف إلى جانب خصمه وتنتصر له ، قد كانت تنظر إلى أعمال كريمخان نظرة إعجاب ورضى .

(١) عهد كريمخان

سبق أن ذكرنا أنه بعد مقتل (مردان خان) لم يبق أمام (كريمخان) من يناافسه ويناصبه العداة ، اللهم إلا (أسد خان) الأفغانى و (محمد حسين خان القجرى) فعقد (كريمخان) العزم على التخلص من كليهما . وما لبث أن بدأ بالزحف على أسد خان ، واشتبك معه فى قتال عنيف على مقربة من قزوین ولكن الحظ قد تنكر له ، والنصر قد جانبه ، ففى هزيمة منكرة أرغمته على رفع الحصار عن أصفهان والتخلى عن شیراز كذلك . ثم انسحب مضطرا - بعد أن حافت به الهزيمة - إلى الجبال الممتدة بين إقليم (فارس) وبين الخليج الفارسى على مقربة من وادى نهر (كرمسیر) وأضحى فى موقف عصيب لا يحسد عليه .

ولكن (رستم سلطان) زعيم قرية خشت - كانت قرية صغيرة على حافة جبل مشرف على وادى نهر كرمسير - قد قام بإسداء خدمة جليلة لكريمخان بأن انقض بخته على «أسد خان» فى مضيق جبلى صعب المنال يطلق عليه كوماريج ، وشن عليه هجوما عنيفا ، وألحق به هزيمة منكرة فى الوقت الذى كان كريمخان قد تحفر فيه للقتال بجيشه الرابض فى وادى (كرمسیر) السالف الذكر . وما لبث أن استقبل هذا الجيش المتعطش للقتال والنزال عدوه

المقهور الفار من وجه (رستم سلطان) بتسديد ضربات قاصمة إلى قلوب رجاله
ثم دارت بين الفريقين رحى معركة طاحنة إلى جوار قرية خشت السالفة
الذكر ؛ أسفرت عن هزيمة منكرة وخذلان ميين لأعداء (كريمخان) الذي
أحرز نصرا مؤزرا لا مثيل له في التاريخ ، ولقد أمعن فريق من الجيش المنتصر
ورجال العشائر القاطنة في تلك البقاع في مطاردة فلول جيش العدو المقهور
حتى أشرفوا على أبواب شيراز فدخلوها فاتحين. أما أسد خان، فلم يجرؤ بعد
ذلك على الظهور أمام خصمه أو التصدي له كما أنه قد لبس الهزيمة صاغرا ،
وخذل خذلانا مبينا أمام خصمه الآخر (محمد حسين خان) فلاذ بالفرار ،
ولجا إلى بغداد فاستقبله وأياها بحفاوة بالغة وأكرم وفادته - ولكنه لم يقدم
إليه المساعدة التي كان يصبو إليها كي يسترد سيادته وسلطانه على بلاده التي
افتقدها ، فلم يجد مندوحة من طرق باب آخر عله يجد ضالته ، وبعثر على من
يحقق له أحلامه وأمانيه . فكان أن لجأ إلى الجنرال (هراقليوس) وإلى
(كرجستان) وطلب مساعدته ولكنه لم يعره التفاتة ولم يجبه إلى طلبته، الأمر
الذي اضطره أخيرا إلى الارتقاء في أحضان خصمه (كريمخان) الذي أكرم
وفادته ، واحتفى به حفاوة بالغة . وسرعان ما أضحي موضع ثقة كريمخان
وأخلص صديق له بين رجاله إذا أسند إليه أرفع مناصب الدولة وأسمائها
وهكذا انقلب ذلك العدو الشديد المراس إلى صديق حميم قوى الشكيمة .

بهذا لم يبق هنالك من أعداء يهددون كيان دولة (كريمخان) إلا العدو
واحد شديد البأس قوى المراس ، ألا وهو (محمد حسين خان) رئيس عشيرة
الفجر التركية التي أتى بها (تيمورلنك) من (سورية) وأزهاها بآيران ، وهي
إحدى العشائر السبع التي أوصلت الشاه (اسماعيل الأول) إلى كرسي الحكم .
ولما دانت الأمور لسكريمخان ، واستقرت الأحوال في فارس ، وخضعت
له كافة البلدان ، وبعد أن أفاد من الحروب التي نشبت بين (محمد حسين خان)

وبين (أسدخان) ، لم يكتف بسط سلطانه على بلاد فارس وحدها بل مد نفوذه إلى بلاد (أصفهان) وشطر من إقليم العراق العجمي ؛ بيد أنه لم يرض على ذلك طويلا وقت حتى وجد (كريمخان) نفسه مضطرا إلى التخلي عن أكثر هذه البلدان التي كان قد بسط سلطانه عليها ، وسبب ذلك أن (محمد حسين خان) بعد أن هزم (أسدخان) ، وضم بلاد (آذربيجان) إلى بلاده توجه بجيش كبير لم يتحرك جيش مماثله منذ عهد (نادرشاه) صوب (أصفهان) فحاول (كريمخان) - دون جدوى - رد هذا الجيش عن (أصفهان) ... ولما رأى أن محاولاته اليائسة التي بذلها ذهبت أدراج الرياح وأن جميع جهوده قد ضاعت سدى ، اضطر إلى التخلي عن (أصفهان) والعودة إلى (شيراز) حيث اتخذها قاعدة للدفاع .

أما (محمد حسين خان) فبعد أن اتخذ أهله وأعد العدة للنزال والقتال ، تقدم بجيش عرمرم قوامه ثمانية وثلاثون ألف مقاتل نحو (شيراز) لالقاء الحصار عليها تاركاً في (أصفهان) فريقاً من هذا الجيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل ، وقد وصل إلى حدود (شيراز) في وقت كانت فيه كل العوامل متوافرة والظروف مواتية للمهاجمين ؛ غير أنه قد فوجيء بهجوم عنيف في سنة (١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م) وذلك قبل أن يحط رحاله ويثبت مدافعه على قواعدها ؛ إذ قام (شيخ علي خان) الذي كان أحد رؤساء عشيرة الزند ، بهجوم مفاجئ على مؤخرة جيشه وأصاب عتاده ؛ ولقد شد أزره في هذا الهجوم المباغت أهالي تلك المنطقة الذين كانوا قد نقلوا أطفالهم ونساءهم إلى الجبال المحيطة بهم . وأدى هذا الهجوم المباغت إلى انتشار الذعر والاضطراب وتفشي الفوضى بين صفوف جيش (محمد حسين خان) فتمزق عن انقطاع الميرة عنه ، أضف إلى ذلك أن مدة الحصار قد استطالت ، وأن الجيش كان جنوده مزيجاً غريباً من عناصر متباينة لا انسجام بينها ، وكانت سلطة رؤساء الجيش لا تستند إلا على مجرد القوة ؛ فضلاً عن أن فريقاً من هذا الجيش كان حديث العهد بالتدريب العسكري

في حين كان فريق آخر منه من فلول جيش (أسدخان) الذين كانوا منذ بضعة أشهر في قتال مع جيش (محمد حسين خان) .

وفي تلك الأثناء كان الجنود السكرج والسبكار، وهم طائفة من جنود (كريمخان) ياحون ويمنعون في مضايقة المحاصرين ، ولم يكن كل همهم موجها نحو الدفاع عن المدينة فحسب بل كانوا يهرعون إلى خارجها حيث ينقضون على المحاصرين انقضا الصاعقة فيشتون شملهم ، ويلقون الرعب والذعر بين صفوفهم ، وما تركوا فرصة لمناوأة المحاصرين تمر إلا وقد انتهزوها . وسرعان ما ساءت الحال وتخرجت في جيش (محمد حسين خان) وأخذ رجاله في التفرق شذرا مذر ، مما اضطر رئيس القجر إلى العدول عن حصار المدينة ، وفغلا أدلع عن (شيراز) ، وعاد سرا إلى (أصفهان) تاركا بعض القوات حول (شيراز) لمواصلة الحصار ، غير أن رجال هذه القوات سرعان ما تفرق شملهم ، ولم يستطع (محمد حسين خان) الصمود في (أصفهان) فعاد منها إلى (مازندران) على رأس جيش متخاذل ، خائر القوى ، محطم الروح المعنوية لا يربو على اثني عشرة الف مقاتل .

وفي عام (١١٧٠) للهجرة (١٧٥١ م) زحف (كريمخان) على (أصفهان) بعد أن أعد العدة والعتاد ، وبعد أن نظم شؤونه ووطد مركزه في بلاد فارس فقبول من أهالي أصفهان بكل حفاوة وترحاب ، وأكرموا وفادته ، وعمهم السرور وابتهجوا بلفائه ، وهكذا قوبل في أغلب مدن العراق العجمي بالترحاب .

وكان (كريمخان) في حاجة قصوى إلى ضرورة إحراز انتصارات حاسمة كي يستعيد نفوذه ، ويسترد شوكرته . حقا إنه قد أحرز النصر في بعض الحروب التي خاض غمارها ، ولكنه مني بفشل ذريع في البعض الآخر ولم يكن الفوز يحالفه في حومة الوغى إلا ما ندر ، غير أن احترام الأهالي

لا سيما سكان المدن واستقبالهم الرائع له قد خلق فيه من الضعف قوة، وأدى به إلى النجاح والفوز في تحقيق غايته النبيلة، ألا وهي إقامة حكومة عادلة تشعر بشعور الناس، وتعرف مطالبهم وحاجياتهم. ولقد انصرف كريمخان يادىء ذى بدء إلى توطيد النظام وتنظيم شئون البلاد التي انضمت إلى حوزته طواعية وبمحض إرادتها ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لتجريد حملة عسكرية ألقها من صفوة رجاله وأسند قيادتها إلى (شيخ على خان) وكان هدف هذه التجريدة بلاد (مازندران) لتكره (محمد حسين خان) على المبادرة بالتسليم نهائيا وتقديم فروض الولاء والطاعة له. ولسكى يتحقق هذا الهدف كان لابد من بذور بذور الشقاق والفرقة بين صفوف العشيرة القجرية. إذ كانت هذه العشيرة الباسلة متفرعة إلى ثلاث أقسام كبيرة: يقيم القسم الأول منها في نواحي بلاد (كنجه) ويقطن الثاني في أطراف (المرو) في حدود خراسان لصد عادية الأذربك من بلاد إيران، في حين كان يسكن القسم الثالث بلاد (استرآباد) على أن هذه الثلاثة أقسام كانت تخضع كلها عادة لأسرتين كبيرتين وقد انفردت إحداهما إلى حين ببسط سلطانها وتفوذها على هذه الأقسام الأمر الذى أدى إلى بذور بذور الشقاق واشتداد لهيب التنافس بين الأسرتين وقد اتسعت هوة الشقاق على أثر تدخل كريمخان فى الأمر وتشجيعه الأسرة الثانية على استرداد نفوذها على العشيرة ومنازلة خصمه (محمد حسين خان) رئيس العشيرة، ومن المصادفات العجيبة أن أحد قسمي هذه العشيرة كان يرأسه رجل يدعى (محمد حسين خان) أيضا. وكان هذا القسم يسمى (يوخارى باش — الرأس الأعلى). وقد أدى التنافس المستمر بين هذين الخصمين (محمد حسين خان) رئيس العشيرة و (محمد حسين خان) رئيس أحد أقسام العشيرة إلى انضمام الأخير إلى صفوف جيش (شيخ على خان). فتسرب الضعف إلى نفس خصم كريمخان، ومع ذلك فقد اضطر لمنازلة (شيخ على

خان) بقوة متخاذلة قليلة العدد ، وسرعان ما تألب عليه فريق من هذه القوة فترك الميدان ، ثم ما لبث أن وقع هو بنفسه أسيرا . (١) وقد نتج عن هذا الانتصار الباهر في مازندران دخول كيلان ومعظم بلاد آذربيجان في حوزة كريمخان . غير أن بلاد آذربيجان هذه لم تبقى في حوزته إلا فترة وجيزة إذ استولى عليها (فتح علي خان) رئيس عشيرة الأفشار الذي كان ديدنه الوقوف إلى جانب أعداء كريمخان في معظم الأحوال ، ولكنه في هذه المرة قد أعلن الحرب جهارا على كريمخان ، واشتبك معه في قتال عنيف في مكان يقال له (قره جيم) جنوبي (تبريز) حيث حاقت به هزيمة منكرة لجأ على أثرها إلى قلعة (أرمية) (٢) وألقى عليها الحصار بضعه أشهر ، ولما أيقن أنه ليس في مقدوره الثبات على قدميه ومدائمة الحصار لجأ إلى كريمخان فعفا عنه في سنة (١١٧٣ هـ ١٧٦٠ م) .

هذا ، وكان (فتح علي خان) قد اتصل قبل التسليم ببعض القواد والزعماء من رجال (كريمخان) ليشجعهم على خيانة سيدهم ومولاهم . ولما اكتشف أسرار هذه المؤامرة الدنيئة لاقى (فتح علي خان) جزاءه وأبعد عدد من الزعماء والقواد الذين حامت حولهم الشبهات عن مناصبهم . ويقول المؤرخون الإيرانيون ان القائد الشهير (شيخ علي خان) قد أعدم بسبب هذه المؤامرة ولكن هذا القول مازال يفتقر إلى التأييد .

(١) وقد توجه أولاد (محمد حسين خان) هذا إلى تركستان ، ثم عادوا بعد أربعة أعوام إلى بلاط كريمخان فأكرم وقادهم وأمندهم اليهم مناصب عالية وكان (أقا محمد خان) وهو أكبر أبنائه سبب انقراض أسرة (كريمخان) الزندية فيما بعد .

(٢) يطلق (استرابو) على هذه المدينة اسم (ثهبارما Theparma) ويظن أن زرادشت ولد فيها .

واقدم لقي (كرىمخان) فى جمىع حروب ومعاركه فى سبىل الحكم والسطان
تعزىداً مئوساً ومساعدة تامة من العشائر العربىة الضاربة حول الخلج الفارسى
لدرجة أن بعض القوات العربىة قد صحبته ولازمته حتى بلاد (أصفهان) .
فلاغرو أن كانت الصلة بینه وبين تلك العشائر متينة ، كما كانت علاقته بها على
أحسن ماىرام ، ولم یحدث أن جرد علیهم حملات تأدیبىة ، اللهم إلا فى أحوال
نادرة كحالة الامتناع عن دفع المال ، أو رفع راية العصیان ؛ كما حدث من قبل
الأمیر (موحانا) أمیر بندر (ریغ)^(١) الذى أقدم على قطع الطریق بین
(شیراز) و بین بندر (بوشهر) . إذ كان كرىمخان شدیة الوطأة على مثل
هؤلاء . ولما حدث مثل هذا من قبل شیخ عشیره الكعب المدعو الشیخ سلیمان
اضطر كرىمخان إلى الزحف علیه بجمیش جرار لتأدیبه وإيقافه عند حده ، فما
كان من هذا التأثر إلا أن لاذبالفرار ، ولجأ على ظهر سفینة إلى إحدى الجزر القربىة .
هذا ، وقد كان (زكى خان)^(٢) مصدر قلق لحكومة (كرىمخان) فى معظم
الأوقات لما جبل علیه من القسوة المريرة والشدة المتناهىة فى الحروب والقتال
مما لا یتسق ولا یتفق وسیاسة (كرىمخان) الرشیة ، وكان هذا هو السر فى
حدوث التصادم والتشاحن بینهما فى أغلب الأحيان . وقد حدث ذات مرة
أن شق (زكى خان) هذا ، عصا الطاعة على أخیه ، فقصد وفى معبته بعض
الأمراء والقواد إلى عشیره القبلى لیستعین بها ، ولتشد أزره على إثارة الفتن
والفلاقل وإشعال نیران الثورات ضد أخیه . ولكن محاولاته هذه قد باءت

(١) یقع بندر « ریغ » هذا على مسافة نصف درجة من شمال غربى
بندر (بوشهر) .

(٢) الشائع المظنون أنه أخو كرىمخان . وفى الحق أنه كان ابن عمه وإخاه
لامه وكان له ما عدا زكى خان أخ لامه یدعى اسکندر خان وأخت لامه . اى
كانوا جمیعهم من ام واحدة ولیسوا من أب واحد .
المؤلف

بالفشل وضاعت سدى ، الأمر الذى اضطره إلى أن يعود ويرتمى تحت قدمى أخيه ، يطلب الصفح ويلتمس المغفرة على ما فرط منه ، فعفا عنه أخوه ، وأسند إليه منصبا ملائما . ثم ما لبث أن أوفده إلى (دامغان) (١) لتأديب جيش (قلى خان القجرى) الذى كان يعيث بين أرجائها فسادا ، وقد تسنى له بسرعة البرق القضاء على الفتنة فى مهدها ، وإطفاء لهيب ثورة هذا العاصى القوى الشكيمة . واضطره إلى الفرار حيث لجأ إلى التركمان واحتفى بهم . وفى الواقع كان استخدام القسوة واتباع الشدة من قبل (زكى خان) فى إخماد الثورات خدمة كبرى للأمن العام فى أغلب الظروف ، لأن حلم (كريمخان) وعدله كانا قد شجعا بعض الرؤساء والقواد على إشعال نيران الثورات دون مبالاة بالعواقب لما يعلمونه من أن العفو والحلم والمغفرة من شيم كريمخان ، ولكن الناس قد اقتنعوا وأيقنوا أخيرا أن إخماد لهيب الثورات لا يمكن أن يعالج بحلم كريمخان وليوته بل يعالج بقسوة (زكى خان) وغلظته ، وليت الثورات كانت قاصرة على بلاد دامغان فقط ، بل اندلعت نيرانها فى مازندران ، وفى عدة جهات أخرى ولكنها سرعان ما أخمدت جميعها بقسوة بالغة ، لدرجة أن جماعات الثوار كانت تلوذ بالفرار قبل وصول الحملات التأديبية .

وهكذا استطاع زكى خان بفضل شدته المتناهية وإدارته العسكرية الحازمة تطهير إيران من العصاة الطغاة ، وهبأ لها حياة سلمية مطمئنة ظلت ترتع فى ظلالها طيلة أيام كريمخان الأخيرة . ولقد قنع كريمخان واكتفى بلقب وكيل الشاه ، ولم يطمع فى مركز الشاه اسماعيل بن أخت الشاه حسين الصفوى ، البالغ من العمر وقتذاك تسع سنوات . وقد ولى شاهها من قبل على مردان خان . وأكثر من ذلك فقد حافظ على مركز هذا الشاه الصبي متخذا شيراز عاصمة للبلاد

وأقام فيها إلى جانب الشاه تاركاً قيادة الجند وإدارة دفة الشؤون العامة للقواد
والأمراء من رجاله . وما لبث أن حشد جيشاً جراراً ، وأسند قيادته إلى أخيه
(صادق خان) . وبعث به لالقاء الحصار على (البصرة) . ومن المحتمل أنه
قد أقدم على هذا العمل اقتداءً منه بسائر الحكومات الإيرانية السابقة ، لمجرد
تأمين السلام ونشرلوائه في داخلية البلاد بشغلها بالحروب الخارجية ضد الترك
الذين لاشك في أن قتالهم كان لا بد أن يستثير نخوة الأهالي وحميتهم ، ويستميلهم
نحوه ، ويجتذب قلوبهم إليه ؛ إذ كان يعلم تمام العلم بأن ليس هنالك من عوامل
وأسباب تحمل الشيعيين وترغمهم على تجنب المنازعات الداخلية وطرحها
جانبا وتجمعهم حول فكرة واحدة سوى العمل على استرداد الأماكن
المقدسة الشيعية التي كان الترك يسيطرون عليها . ولهذا كان الاستيلاء على
(العراق العربي) هو الهدف الأسمى لسكريمخان ، وقد بدأ يمدد لتحقيق هذا
الهدف بأن تعدد اتهام (عمر باشا) وإلى بغداد لدى حكومته بأسطنبول
ورماه بالتحامل على الإيرانيين . بدليل فرضه رسوماً مالية على الزوار
الإيرانيين للأماكن المقدسة الإيرانية ، وكانت الحكومة العثمانية قد رفضت
دعوى الإيرانيين هذه ، ولم تعرها التفاتة ولا آذانا صاغية ، فما كان من
الحكومة الإيرانية إلا أن أصدرت أوامرها إلى (صادق خان) بالزحف
صوب البصرة ، فسار إليها عن طريق ساحل الخليج الفارسي على رأس جيش
قوامه خمسون ألف مقاتل ، وأسطول من ثلاثين سفينة خفيفة كانت قد أعدت
في ميناءي (بوشهر) و (ريغ) للعمل إلى جانب الجيش . وكان للدولة العثمانية
بعض سفن حربية راسية في ميناء البصرة ، ولكنها كانت قديمة بالية قد تسرب
إليها العطب ، لاتصلح للعمل ، ولأقبل لها بمقاومة أسطول (صادق خان) القوي
وبمجرد أن سيطر جيش (صادق خان) على شط العرب ، بادر إلى إقامة
جسر من الأرمات والأطواف على هذا النهر ، وبذلك تمكن هو وجيشه
من الانتقال إلى الضفة اليمنى للنهر بعبور هذا الجسر ، وشرع في إلقاء الحصار

على البصرة وكانت (البصرة) مدينة كبرى ، تشتمل على حدائق واسعة غناء ، ويسكنها زهاء خمسين ألفا من السكان ، وكان عدد رجال الحامية يفوق ربع عدد السكان . وكان (سليمان أغا) حاكم المدينة رجلا عسكريا ماهرا ، ومحبوبا من جنوده ومن مرءوسيه . وكانت أسوار المدينة عالية ومرتفعة ، إلا أنها لم تكن محكمة تمام الاحكام ، وكان خط الدفاع لا يعدو عدة حصون نصب عليها ما يقرب من مائة مدفع .

بدأ إلقاء الحصار على البصرة في شتاء سنة (١١٨٩ هـ - ١٧٧٥ م) .
وتقدم الجيش الإيراني إلى الأمام فأمرت الحكومة العثمانية ولاية (وان) و (الموصل) و (ديار بكر) و (حلب) و (الشام) - بتعبئة جيوشهم ، والاحتشاد في (بغداد) .

وكان هؤلاء الولاة يضمرون خلاف ما يظهرون ، فقد تظاهروا بأن القصد من ذهابهم إلى بغداد إن هو إلا القيام مع واليها وجيشها بنجدة الحامية العثمانية في البصرة ، ولكنهم ما كادوا يصلون إلى بغداد حتى اغتالوا واليها (عمر باشا) إرضاء لملك إيران ، وعلى أثر اغتياله أوفدوا هيئة رسمية إلى (شيراز) لتعرض على مسامع (كريمخان) الرغبة الصادقة في الكف عن القتال ، ووضع حد لهذه الحرب المستعرة ، ما دام الباعث على قيامها اندلاع لهيها هو الوالي (عمر باشا) قد قتل ، وتحققت بذلك رغبة الشاه ، ولكن الشاه قد قلب لهم ظهر المجن ، ولم يجهم إلى طلبتهم ، بل أراد أن يستغل هذا الضعف العثماني ، وظل يحارب حتى اضطر حاكم البصرة العثماني إلى المبادرة بالتسليم دون قيد أو شرط بعد حصار دام ثلاثة عشر شهرا ، فقد خلالها الزاد والذخيرة ، وانتشر البؤس والشقاء بين الأهلين وبين جنود الحامية .

وكان ذلك في شهر يونيو سنة (١١٩٠ هـ - ١٧٧٦ م) .
وقد أرسل الحاكم وأقطاب معيته إلى (شيراز) مشيعين بكل تجلّة واحترام وأحسن (صادق خان) معاملة أهالي البصرة ، وأسبغ عليهم من مزيد كرمه

وفضله، ونصب أحد رجاله المدعو (علي محمود خان) حاكماً عسكرياً عليها، ثم عاد هو بعد ذلك إلى (شيراز) .

وحدث أن اندلع لهيب فتنة بين عشيرتين من عشائر (البصرة) فسارع (علي محمود خان) بالتدخل بينهما دون أن يعد للوقوف عدته فخاقت به هزيمة منكرة، وعرض نفسه لحسارة جسيمة، وذهب القائد الإيراني ضحية هذه الفتنة الجائحة. وما أن طرقت هذه الأنباء المفجعة المثيرة مسامع (صادق خان) حتى بادر بالحضور إلى البصرة وعالج الأمر بالحسنى والسياسة والحكمة. بفضل ما جبل عليه من دماثة الخلق، وحسن المعاملة، وسرعان ما عادت الأمور سيرتها الأولى، ورفرف السلام والوثام على ربوع المدينة، وظل الأمن مستتباً حتى وفاة (كريمخان) . ثم غادر (صادق خان) البصرة بسبب عوامل شخصية فانهز إلى (بغداد) هذه الفرصة الذهبية، وسارع بالرحف على البصرة حيث استردها بكل سهولة .

كانت أوروبا لا توجه أهمية تذكر لتجارة إيران قبل حكم (كريمخان) بسبب اضطراب الأمور الداخلية وتزعزع الأمن وانتشار القلاقل والفتن في أرجائها . . فلما ولي (كريمخان) الحكم وقضى على هذا الاضطراب قضاء مبرماً، واستأصل شأفة مشربى الفتن والقلاقل، سادت الطمأنينة ورفرفت على أنحاء البلاد، فتقدمت التجارة الداخلية وكذا الزراعة، إذ كان هذا الملك الهمام لا يألو جهداً في تشجيع أرباب الصناعات - حتى الأرمن منهم - في بلاده وحثهم على تحسين صناعاتهم والعمل على ترقيتها، كما عمل على حماية التجارة، فعم الرخاء، وانتشر لواء السلام والطمأنينة في أواخر أيام حكمه العادل في كافة أنحاء إيران، وكان الممولون من أصحاب الأملاك والزراع لا يمدون الحكومة إلا بقسط ضئيل، ولكنهم كانوا يقدمون عن طيب خاطر ما يطلب إليهم دفعه أكثر من ذلك . وكانت طبقة ذوى الأملاك هذه تكاد

أن تكون مستقلة في كل شئونها وأمورها، وكانت ترفل في حلل من السعادة والهناء في ظل حكم (كريمخان) العادل الذي كان يؤثر هذه الطبقة بالتعزير والمساعدة .

ولقد شملت هذه النهضة المباركة جميع مدن إيران في عهد هذا المجدد ، إلا أن شیراز قد نالت من هذه النهضة نصيب الأسد ، ويلوح أن كريمخان قد اتخذ هذه المدينة عاصمة لملكه لأنها كانت على مقربة من موطن عشيرته ، فضلا عن تعلق أهاليها به . ولقد بذل جهودا جبارة في تحصينها وتزيينها وذلك بإقامة الطواني ، وتشديد القلاع حولها ، وبناء القصور ، والدور العامة بها ، وغرس الأشجار والزهور ، وإنشاء الحدائق الغناء حولها ، وكل هذا إلى جانب عمله المتواصل على تأمين الأهالي وتوفير أسباب السعادة والرفاهة لهم .

وقد صور لنا مؤرخ إيرانى ^(١) هذه الأيام الذهبية الوضاعة من أيام كريمخان فقال : (إن النور الباهر الذى أوجده كريمخان قد أضاء جميع بلاد إيران إلا أن قوة إشعاعه كانت محسوسة فى (شیراز) أكثر من غيرها ، ولهذا كان سكان هذه المدينة المحظوظة فى بحبوحة من الطمأنينة والسلام ، وفى فيض من السعادة والرفاهة ، والناس يمضون أوقاتهم فى هناء دائم وصفاء مقيم بين بنات حسان كالأقار ، وغلمان كاللؤلؤ والمرجان ، فكان هاتف الذوق والشوق والحب والعشق يطوف على رموس الجميع ، كل على قدره من الحياة ، ونصيبه ومركزه فى المجتمع) .

وقد توفى كريمخان إلى رحمة الله فى اليوم الثالث عشر من شهر صفر من عام ١١٩٣ للهجرة (١٧٧٩ م) ^(٢) عن ثمانين عاما ، فقد حكم إيران ثمانية

(١) هو « على رضا » صاحب تاريخ الأسرة الزندية . المؤلف
(٢) ذكر فى « تاريخ السر جون ملكولم » أنه دفن فى شیراز وأنه بعد قيام الحكومة القجرية عمد أقا محمود خان السفاك إلى استخراج عظامه =

وعشرين عاما مستقلا تمام الاستقلال دون منازع، ولا سيما في العشرين سنة الأخيرة من حكمه التي كان خلالها منفردا بالحكم والسلطان في إيران بأجمعها (١).

« أخلاقه وسجاياه »

ليس من السهل تصوير سجايا هذا الملك الفذ ، وما جبل عليه من حميد الخصال إذ كان يجمع بين صفات الملك المستبد، وخصال الملك العادل الذي يقدر الشورى ويؤمن بها ، فلم يكن حليما لدرجة الضعف والانتقاد الأعمى لمن حوله ، ولا بالشديد الصلب لدرجة الطغيان وفرض إرادته وأهوائه على الغير . بل كان معتدلا في غير إفراط، ومتسامحا في غير تفريط ، وكان صائب الرأي ، حكيمًا في تصرفاته . وقد لازمه كل ذلك في جميع أدوار حياته مما جعله يحتفظ بوقاره ويصون عليه كرامته وذكره العاطرة لدى الجميع . وهذا لا يمنع من أنه كان في بعض الأحيان يصدر أمره بتوقيع عقوبات صارمة على من يستحقها ، شأنه في ذلك شأن كل الحكام . ولكنه كان يكل إلى الآخرين تنفيذ تلك العقوبات الصارمة التي تخالف طبيعته ، وهكذا كان يوقع الرعب والهلع في قلوب خصومه من الأعداء ومن الثوار العصاة ، بيد أن رحمته

= من القبر ، وكذا عظام نادر شاه ، أحضرها من المشهد ودفنها جميعها في عتبة باب سرايه ليطأها بقدميه كل يوم ذهابا وإيابا . المؤلف

(١) يقول البعض انه توفي عن خمسة وسبعين عاما ، وقال آخرون عن ستة وثمانين عاما ، ولكن الراجح هو ما ورد في المتن ، غير أنه من المحتمل جدا أن كريمخان نفسه كان لا يعرف تاريخ ميلاده إذ لم تجر العادة وقتذاك بتسجيل المواليد بين العشائر . المؤلف

كانت تطحن دائما على قسوته ، حين يلجأ إلى رحابه أعدى أعدائه فما يلبث أن يمنحه عفوه بلا تردد .

ومن أبرز صفاته الحميدة أنه كان طيب السريرة عاطر السيرة ، وإن تاريخ حياته لسجل عامر ومليء بالحوادث الطريفة ، والقصص العجيبة المسلية ، فكان مثلا يحتذى في الشهامة والجرأة ، يبادر إلى العفو والتسامح في غير ما تردد ، يعتمد على أولئك الذين يمنحهم عفوه ، الاعتماد كله ويجعلهم أسرى إحسانه فيغدق عليهم من فيض كرمه وسابغ عطفه دون فارق أو تمييز . وكان متمسكا بقواعد الدين وأوامره غاية التمسك ولكن في غير ما تعصب ، وكان هاشما باشا بهي الطلعة ، ممتعا بمباهج الحياة الدنيا وطيباتها في اعتدال ووقار واحتشام تلك الطيبات التي يجب أن يتمتع بها الناس جميعا ولكن في غير ما إسراف . ولم تؤثر هذه المتعة في مركزه كحاكم عادل وإداري حازم .

وكان كريمخان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، إذ يلوح أنه لم يذهب إلى الكتاب لا في طفولته ولا في شرح شبابه ، بل وما رعب أيضا في الذهاب إليه حين كبر سنه . وهو ابن رئيس عشيرة جبلية^(١) لا تعرف من نواميس الحياة ومحرماتها وتطوراتها سوى ما يمسه ويتفق والبيئة الجبلية النائية عن العمران فكان من الطبيعي أن يعزف كريمخان عن الدرس وعن تلقى العلم والارتشاف من مناهله ، وأن ينهج نهج سائر أبناء رجال القبائل في الولوع بالفروسية والألعاب الرياضية وأعمال الجندية والتدرب على القتال والكر والفر .

وعلى الرغم من أنه كان أميا ، فقد كان يستحث الناس ويشجعهم على تلقى العلم والاشتراف من منادله . وكان مجاسه العالي مجمع العلماء والفضلاء الذين

(١) كانت عشائر (لك) بما فيها قبيلة الزند وغيرها في غاية من الجهل والتأخر كسائر العشائر والقبائل الإيرانية .
المؤلف

هرعوا اليه من كل حذب وصوب . وقد جدد ضريحى الشعارين الشهيرين
(الشيخ سعدى) و(حافظ) المدفونين فى ضواحي (شيراز)، وأوقف عليهما الكثير
من العقارات والسكروم والحدايق الغناء ، وأقام الموظفين والحراس اللازمين
لإدارة هذه الأوقاف . ولقد كانت هذه المأثرة من أبرز ما أثر كريمخان وأعماله
المجيدة وكان له أحسن وقع وأجمله فى نفوس أهالى شيراز الذين كانوا يكتنون
فى قلوبهم شديد إعجابهم وعظيم فخرهم وكامل تقديرهم وإعزازهم لهذين الشعارين
وكان حريصا ساهرا على نشر لواء العدل بين رعاياه ، وقد أثر عنه أنه كان
يجلس كل يوم بضع ساعات لسماع شكاوى المظلومين والفصل فى شكاواهم ،
ورد مظالم الناس ، وتعرف مطالب الأهلىن .

وكان من شيمته الحلم . وليس أدل على مبلغ حلمه من تلك القصة التالية
التي رواها (مالسكولم) .

يقال إنه ذات يوم بعد أن أتم أمور مجلس العدل ، هم بالعودة إلى بيته
وهو شاعر بتعب من جراء العمل والنظر فى أمور الرعايا وإذا برجل مشمر
عن ساقيه يعدو عدوا شديدا يتقدم اليه مقتحما موكبه وصارخا (العدل العدل)
فيسأله كريمخان بقوله :

— من أنت ؟

الرجل : تاجر وقد سرق جميع ما امتلكه .

كريمخان : كيف كان ذلك . وأين وقعت الحادثة ؟

الرجل : كنت نائما .

كريمخان : لماذا نمت (قال هذا فى غضب وشدة)

الرجل : غلظت ، وقد كنت أظن أنك صاح وغير نائم .

وقد أزالته هذه الاجابة السديدة ما تولى كريمخان من الغضب والامتعاض

وأعجب بحسارة الرجل وصراعته ، ولهذا لم يتأثر منه ، بالرغم مما في جوابه من عتب لاذع .

وقد أمر وزيره بأن يدفع للرجل قيمة ماله المسروق من الخزانة العامة ، قائلا انه يجب بذل الجهود للعشور على هذا المال المسروق .

هذا وإن الطريق الذي سلكه كريمخان في تأسيس وتدعيم أركان دولته لا شك في أنه الطريق المعنوي السوي في المحافظة على التقاليد ، وأسس الأخلاق القويمة والخصال الحميدة . إذ لم يسلك قط سبيل التعسف والخسف مع رعيته كي يخضع الجيش لنفوذه ، وما أقدم قط على اتباع سياسة خرقاء تجر وراءها ذيل الفشل والدمار والخذلان على البلاد ، في سبيل مجد عسكري زائل ، أو انتصار مدني ظاهره براق . وكانت حياته الخاصة يغلب عليها طابع التواضع ، ودمائة الخلق ، وسهولة الطبع والبساطة في الأكل والملبس والمشرّب ، وفي شتى مظاهر الحياة .

وكانت أوامره للرؤساء والموظفين صارمة لانقض فيها على عكس الحال مع رعاياه الذين كان يبادلهم حبا بحب ، ويتودد اليهم ، ويلاطفهم ، ويقابلهم بوجه بشوش ، ويستمع إلى مطالبهم ، ويتعرف حاجاتهم . وكانت تتوافر لديه قدرة كافية لأن يجمع في وسط يخيم عليه ظلام التأخر ، بين ما يقتضيه ويتطلبه الحرص على تنفيذ القانون واحقاق الحق من اتباع مبدأ الشدة والصرامة ، وبين ما توجهه الانسانية والعواطف البشرية النبيلة من اتباع مبدأ التسامح والشفقة . فلا غرابة بعد كل ما ذكرنا أن عاش كريمخان بين الإيرانيين لا كملك فقط ، بل كأب رحيم بار بهم ، وساهر على مصالحهم

وقد كانت وفاته نكبة قاصمة للبلاد أحدثت هلعاً وحزناً وكداً بين كانه الإيرانيين الذين كانوا يحلون ويقدمون اسم هذا الملك الهمام اعترافاً بما قام به من جليل الخدمات ومجيد الأعمال ، وما بذله من الجهود الجبارة حتى نجح

في اقامة حكومة ايرانية بحثة ، في وقت كانت فيه عوامل الشقاق وأسباب الخلاف والفرقة تمزق أوصال البلاد ، وتسير بالجمهور على غير هدى نحو الهاوية ويذكره الايرانيون دائماً بالخير ، ويكيلون له المديح والثناء ؛ ويقولون (انه وإن لم يكن من الملوك العظام من حيث العظمة المادية ، فلم يقتن قصورا فخمة ولا حاشية ضخمة ، ولم يحرز فتوحات واسعة ، ولكن من الواجب أن نعترف بأنه كان حاكماً عادلاً الى أسمى طبقات العدل ، وأنه لا مثيل له بين ملوك ايران (١))

« الحالة بعد وفاة كريمخان »

تعتبر وفاة كريمخان بداية لظهور القلاقل ، وتحرك الفتن وتزعزع أركان دولة الزند ، واضطراب الأحوال في جميع بلاد ايران ، ولقد أنجب كريمخان خمسة ذكور (٢) ، مات أحدهم قبل وفاته ، وعاش الأربعة الآخرون الذين عرضهم

- (١) يقول (سر مال كورلم) نقلاً عن تاريخ « كدخدا » إني سمعت هذا من أفواه الكثيرين من رجال الدولة القجرية المتأخرين .
ويقول (بيننج) في الجزء الثاني من كتابه (ص ٢١٧) . لا يوجد في جميع قوائم أسماء ملوك ايران مثيل وند لكريمخان في تعلق الشعب به وحبه اياه لدرجة التقديس ، وكان لا يذكر اسمه دائماً إلا مقروناً بالنجاة والاحترام .
- (٢) كان أكبر هؤلاء الأبناء (صلاح خان) الذي سمل ابن عمه أكبر خان عينيه قبل أن يصل الى الحكم ، والثاني (أبو الفتح خان) الذي أعماه عمه صادق خان بعد أن أعلن حكمه ظاهراً ، وانفرد هو نفسه بالحكم والثالث (محمد علي خان) الذي أعماه أكبر خان ايضاً ، والرابع (محمد رحيم خان) الذي توفي قبل وفاة ابيه ونجماً وقع فيه اخوته ، من شباك ، والخامس (ابراهيم خان) الذي قطع أكبر خان لسانه .
- المؤلف

القدر لضروب من الخيانة والغدر اکتوا بنارها من قبل رؤساء أسرهم بعد وفاة أبيهم . وقد قبض (زکی خان) على زمام الامور ، واستبد بالحکم بعد وفاة کریم خان مباشرة ، وحاول جاهدا بشتى الوسائل الممكنة وبكافة الأساليب توطيد مركزه في الحکم .

وكان بعض زعماء عشيرة الزند لا يأمنون جانبه ويخشون غدره وبطشه بهم . ولهذا سارعوا إلى الاستيلاء على القلعة الداخلية لمدينة (شیراز) واستعدوا وتأهبوا للدفاع ، وفي نفس الوقت أعلنوا تأييدهم للامير (أبي الفتح) نجل کریمخان ولكن (زکی خان) قد أفسد عليهم تدبيرهم إذ بادر فأعلن ولاية عهد كل من أبي الفتح خان وأخيه محمد علي خان (١) لعرش والدهما ، فحال هذا الاجراء الجهنمي دون تظاهر الأهالي وتعضيدهم لهؤلاء الزعماء ... والحق أن ولي العهد كانا حاكين إسما لافعلا . إذ أنه قد استبد بالأمر وانفرد بالحکم بحجة أنهما شابان تنقصهما الخبرة بشئون الحکم ويفتقران إلى الحكمة والتجارب وفهم الامور على حقيقتها .

هذا وكان ساعده الأيمن في تنفيذ خططه وتحقيق مآربه ابن أخته المدعو (علي مرادخان) .

ولقد بذل (زکی خان) جهودا جبارة أملا في الاستيلاء على القلعة الداخلية لشیراز ، ولكن هذا العمل لم يكن باليسير الهين كما خيل إليه ، ولهذا اضطر إلى أن يسلك طريق المسكر والخديعة مع حامية القلعة وأخذ يقطع لهم على نفسه العهود والمواثيق بالمحافظة على حياتهم ، ووعدهم وأغراهم بأنه سيسند إلى رؤسائهم مناصب ملائمة من مناصب الدولة ، فصدق الرؤساء ، ووقعوا في حباله ، وسلموا أنفسهم إليه ، ولكنه ما كاد يتمكن منهم بهذا الأسلوب

الذي حتى قضى عليهم جميعاً قضاء مبرماً، وعلى أبشع صورة حائثاً بوعده الذي قطعه على نفسه، ولما سمع (صادق خان) بوفاة كريمخان غادر البصرة إلى (شيراز) وعلى مقربة منها نصب خيامه. وأقام معسكره إلى جوارها، وأرسل ابنه (جعفر خان) إلى المدينة لمقابلة (زكي خان) وليتعرف رأيه في الشكل الذي تكون عليه الحكومة، ومالئث أن عاد (جعفر خان) إلى والده حاملاً إليه تأمينات (زكي خان) وكل ما يبعث في نفسه الطمأنينة، ولكنه لم يفته في نفس الوقت أن يوصي والده بالألا يعتمد على كلام (زكي خان) أو يثق فيه، وبوجوب اتخاذ الحيطة والحذر منه، لأنه ليس ببعيد أن يكون عرضة في كل وقت للوقوع في شباك (زكي خان) والارتشاف من كأس غدره وخيائته الشائنة تلك الكأس التي شرب منها رؤساء الزند مراراً وتكراراً. وكان لهذه التوصية أوقع الأثر في نفس (صادق خان) الذي فقد الأمل في الاتفاق مع (زكي خان)، وقرر محاصرة (شيراز)، وكان واثقاً من نتيجة الحرب والقتال بقدر وثوقه من طاعة رجال جيشه ومحبتهم له. وقد أعد جيشه، وعبأ جنده للقتال على أساس هذه العقيدة. ولما رأى (زكي خان) أنه لم ينجح في اجتذاب خصمه (صادق خان) إلى داخل المدينة بالحيلة والدهاء عمد إلى إلقاء (أبي الفتح خان) في غياهب السجن، وإعلان أخيه (محمد علي خان) الذي كان شريكه في الحكم حتى ذلك الوقت حاكماً مستقلاً على إيران، وألتي القبض على ثلاثة أولاد لصادق خان كانوا في (شيراز) حينذاك. ثم أقفل أبواب المدينة وأعلن على الملأ أنه سوف يقوم بإعدام أسر ضباط جيش (صادق خان) ورجاله كافة وعن بكرة أبيهم، وقد فعل هذا التهديد وذلك الوعيد فعل السحر إذ حقق ما كان يرمى إليه (زكي خان) لأنهم كانوا يعتقدون أن قتل أطفالهم، وإعدام نسائهم، وإراقة دم الأبرياء منهم عمل هين لدى زكي خان، فكانت النتيجة أن بادر جميع الضباط والجنود من ذوي

الأسر ، ومن لهم أقرباء في داخل (شيراز) إلى التسرب من معسكر (صادق خان) ولاذوا بالفرار إلى (شيراز) ، وقد أدى هذا إلى إفساد خطط (صادق خان) وتدابيره . وانهار آماله في الفوز ، إذ لم يبق إلى جانبه من جنده إلا ثلاثمائة مقاتل من رجاله الأخصاء ، فاضطر إلى العودة بهم إلى طريق (كرمان) ، ولكن زكي خان قد اقتفى أثره وأرسل قوة من الفرسان لمطاردته فأدركته على بعد أربعين ميلا من شرقي (شيراز) في مكان يقال له (در بند أورينجان) حيث اشتبكت معه في قتال عنيف أسفر عن قتل قائدها الذي بموته اندحرت القوة وبات بفشل ذريع ، وولت الأدبار إلى أن وصلت إلى مدينة (شيراز) وبذلك تهيأت الفرصة لصادق خان كي يستأنف السير برجاله حتى وصلوا إلى كرمان واعتصموا بقلعتها الصغيرة .

ومن الأحداث الهامة التي وقعت عقب وفاة كريمخان ، نجاة أغا محمد خان القجري ، وهو وبه من شيراز حيث كان سجيناً بقلعتها منذ اليوم الذي وقع فيه أسيراً عام (١١٦٠ هـ - ١٧٤٧ م) ولم يكن يسمح له بالخروج من القلعة إلا أياماً معدودات في بحر السنة للصيد والقنص فقط .

وكان كريمخان يشمله بعطفه ، ويفيد من خبرته وتجاربه في شئون الحكم ويستشيره في أمور الدولة كما أن أغا محمد خان كان قد ربط مصيره بوفاة كريمخان ولهذا كان ينتظر هذا اليوم ويتعجله بفارغ الصبر ، لاسيما وأن أخته كانت زوجا لكريمخان . وما أن سعدت روح كريمخان إلى بارئها حتى شاغل الحراس ورجال الحكومة الذين وقعوا يومئذ في حيص ويص وخرج منسلا من المدينة مع بضعة من رجاله المكلفين بالقيام على خدمته ، وسار في البيداء حتى وصل إلى بلاده ؛ وحط الرحال بين قومه وعشيرته ، ثم أخذ في حشد قوات كبيرة مكنته من إعلان نفسه ملكا على البلاد في عام (١١٩٢) للهجرة (١٧٧٩ م) .

ولقد كان (زكي خان) واثقا تمام الثقة بأن رئيس القجر غير مكلف ولا قانع بأقليم (مازندران) وحده ، وأنه لا بد زاحف إليه يوماً ما ، ولهذا أعد جيشاً قويا بقيادة ابن أخته المدعو (علي مراد خان) ، وأمره بالزحف إلى حيث رئيس القجر ليمدحه ويوقفه عن التقدم ، غير أن هذا التدبير قد جاء على خلاف ما كان يرومه ، إذ أن ابن أخته الشجاع الحريص كانت التجربة قد علمته أن أحوال بلاده لن تتيح لمثل (زكي خان) المجرد من القوة الذاتية والذي يفتقر إلى العصبية العشيرية ، النجاح في تحقيق مطامعه الشخصية أو يأمن جانب أحد من الناس ، ولهذا كان يتربص الفرص ويتحينها ليثيق عصا الطاعة على (زكي خان) ذلك الحاكم الظالم المستبد المكروه من الناس والذي لا يؤمن جانبه قط .

سيطرت هذه الفكرة على عقل (مراد خان) وما لبث أن اتخذ من دعوة (صادق خان) واستنجاهه حين انفصاله عن (شيراز) وسيلة ومبررا لإخراج فكرته إلى حيز العمل ، فما أن وطئت قدماه أرض طهران حتى جمع أمراء جيشه وقواد جنده على الفور وقال لهم : « هل من الجائز مساعدته رئيس مثل (زكي خان) الذي أساء معاملة كل الناس ، وغدر بأنجال سيده وولي نعمته (كريمخان) عليه الرحمة والغفران ؟ ، ولا شك في أنه قد تمكن بهذا الأسلوب من اقتناعهم برأيه دون عناء . تم توجه صوب (أصفهان) وما أن اقترب منها ولمس بل ورأى بعيني رأسه أن الأهالي والرعايا جميعهم قد انحازوا إلى جانبه ، وأنهم يتمنون من صميم أفئدتهم الغلبة له على (زكي خان) - حتى عهد إلى عزل واليها المعين من قبل (زكي خان) ، ثم أعلن الملاءمة أن الغرض من حركته إن هو إلا إقامة نجل كريمخان ملكا على البلاد خلفا لوالده ، وأنه ليس هنالك من هدف آخر يتطلع إلى تحقيقه . . فسر الأهالي بما أعلن وازدادوا حباله وتعلقا به ، وأبدوا استعدادا طيبا لتأييد الوضع الجديد واعزازه .

وما أن علم (زكي خان) بعصيان ابن أخته حتى طار له وفقد صوابه واختل توازنه ، فبادر على الفور الى حشد جيش ، سار على رأسه إلى أصفهان وما درى بأن الانتقام الألهي كان منه قاب قوسين أو أدنى ، إذ ما كاد يصل إلى ضواحي (يزد خواست) حتى ضيق الخناق على أهلها وطالبهم بتوريد الأموال التي كان فرضها عليهم قسرا ، وقد طلب إليه الأهالي إعفاءهم من دفع هذه الأموال في تلك السنة ، لسوء حالتهم وفقدهم المدقع ، وأنزلوا من شبك القلعة وفدا من سراة القوم وأعيانها ليشرح حواله سوء الحالة وتعذر الدفع ، فما كان منه إلا أن أشاح عنهم بوجهه ، وأساء معاملتهم ، وأمعن في اضطهادهم ولم يكتف بذلك بل استدرج سيد البلدة وهو رجل من الأشراف وأراد أن يفتك به ، ويذيقه سوء العذاب ، لولا أن حامية القلعة قد حالت دون ذلك ! وكان لهذه الحادثة أسوأ الأثر في نفوس الأهلين ، فقسست عليه قلوبهم وبيتوا له في أنفسهم أمرا ، ألا وهو التخلص منه ، وما أمهلوه ولكن قتلوه على الفور وكان ذلك في عام (١٧٧٩) لليلاد .

وبعد مقتل (زكي خان) على هذا الوضع ، أعلن (أبو الفتح خان) نجل كريمخان شاهها على بلاد إيران ، وكان ذلك في سنة (١٧٨٠) لليلاد . وكان (أبو الفتح خان) رجلا شجاعا ، ومملكا عادلا ، ذا خصال حميدة ومعتدلا في كافة الأمور ، فليس هو بالحريص ولا بالطامع ، غير أنه لم يكن ليلا بجدارة ذلك المركز السامي في مثل هذه الظروف الدقيقة المحيطة بالبلاد ومع ذلك لم يكن هنالك من شخص آخر يمكنه أن يحول دون خروج الملك من أسرة كريمخان ، ويعيد الأمن إلى نصابه ، ويضع حداً لأطماع الطامعين في الملك غير هذا الذي نودي به ملكا للبلاد .

ولما سمع (صادق خان) بما حاق بخصمه (زكي خان) نهض على الفور وتوجه صوب شیراز ودخلها ، تحف به أهبة الملك وسطوته في اليوم الثلاثين من شهر

جمادى الأولى من عام ١١٩٤هـ وكان هذا الأمير الزندى قائداً محنكاً ، وجندياً
بأسلاً ، وادارياً حازماً ، إلا أنه كان طموحاً قوياً الرغبة في السلطان واعتلاء
أريكة الحكم إذ كان من الصعب على نفسه أن يخضع لأوامر حاكم جاهل
ضعيف الإرادة . وقصارى القول كان ينعدم التفاهم والانسجام - كلية - بين
العم وابن أخيه الأمر الذى أدى في النهاية إلى أن يلقي صادق خان القبض
على ابن أخيه ، وليته اكتفى بهذا بل أمعن في الغلظة والوحشية وسمل عينيه
حسب العادة السائدة في تلك العهود المظلمة ، وأعلن نفسه شاهاً مستقلاً للبلاد
في عام (١١٩٤هـ) (١٧٨٠م) ولكنه ما كان يحلم قط بأن عرشاً ينتزعه ويستولى
عليه قسراً ويمثل هذه الوسيلة الوحشية سيكتسب له الدوام والاستقرار .

والواقع أن خطر (على مراد خان) كان قد عم وازداد وقوى نفوذه
واتسع فارسل (صادق خان) ابنه (جعفر خان) إلى أصفهان ليرقب عن
كثب حركات (على مراد خان) الذى كان قد تغلب على (ذى الفقار
خان) خصمه الثائر في بلاد قزوین وسلطانيه وزنجان ، واستولى على هذه
البلاد وأرسل رأس الثائر إلى (شيراز) في عهد (أبى الفتح) فازداد بذلك
نفوذه . وفي الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الحوادث وتتتابع كان (على
مراد خان) في طهران . فلما جاءت هذه الأنباء وترامت إلى مسامعه بادر
على الفور إلى المتأداة بنفسه ملكاً للبلاد وتوجه على رأس جيش كبير نحو
(أصفهان) ولما اقترب منها أرسل عليها والياً جديداً من قبله .

أما (صادق خان) فقد عمد إلى إعداد جيش قوامه عشرون ألف مقاتل
وأسند قيادته إلى ابنه (تقى خان) الذى شن هجوماً على جيش (على مراد
خان) ، وأوقفه عن التقدم إلى الامام ، ثم ما لبث أن ألحق به خسائر جسيمة
إذ شنت شمل جيشه الذى سارع فريق كبير منه بالانحياز إلى جانبه واضطره
هو نفسه إلى التقهقر والتراجع نحو (همدان) في جماعة من أقربائه واخص
رجالهم للمحافظة على هذه البلاد .

وبعث (صادق خان) إلى نجله بكتاب يحثه فيه على استغلال هذا النصر

المين ، فيعمل جاهدا على التخلص من (علي مراد خان) نهائيا ، ومطاردته حتى يقضى عليه قضاء مبرما . ولكن هذا الامير الغر الطائش الذي أسكرته نشوة النصر ، قد ركب رأسه ولم يعمل بنصيحة والده ، ودخل (أصفهان) ظافرا وقضى شهرا بين ربوعها ، دون أن يحسب حسابا لاستعداد خصمه الذي انتهز هذه الفرصة الذهبية فأعاد تنظيم شتونه وأصلح من أمره وأخذ يترقب مجريات الأحوال ويتربص حتى تسنح له الفرصة .

ثم غادر تقي خان (أصفهان) وتوجه نحو العراق أملا في توسيع ميدان فتوحاته ، وكان بعض قواده ورؤساء جيشه قد قلبوا له ظهر المجن ، وخرجوا عليه . وعلى مقربة من مدينة (همدان) فوجيء (تقي خان) بخصمه العنيد (علي مراد خان) الذي اشتبك معه في قتال عنيف أسفر عن اندحاره وخذلانه وما نجما من الموت المحقق أو من الوقوع في الأسر إلا بالعجوبة . . . وسار (تقي خان) يجر أذيال الهزيمة حتى وصل إلى شیراز في حالة يرثى لها .

ولما ترامت الأنباء إلى (صادق خان) بأن (علي مراد خان) زاحف على عاصمة بلاده ، بادر على الفور إلى حشد جيش جله من المشاة وبعث به إلى خارج (شیراز) على مسافة خمسة وعشرين ميلا منها ، ليحول دون تقدم العدو وتوغله ، ولكن هذا الجيش قد فوجيء بهجوم مباغت شنه عليه (علي مراد خان) في الوقت الذي كان الجنود منهمكين في توزيع الطعام والذخيرة على القوات المختلفة ، فتشتت شمل هذا الجيش أيضا ، وتعقبه فرسان العدو وألحوا في مطاردة قلوله حتى أوصلوها إلى أبواب « شیراز » وألقوا عليها الحصار .

وقد دام هذا الحصار ثمانية أشهر ، ولم يكف المحاصرون أنفسهم مؤنة القتال والهجوم كي يتعجلوا سقوط المدينة بل اكتفوا بتشديد الحصار

وتضييق الخناق على المحصورين من الأهالي والمدافعين الذين كانوا قد ملوا القتال وشموه وخارت قواهم من شدة الجوع وقسوته وتفشى الأمراض ، وتوالى الويلات والتكبات ، فعال الكثيرون منهم إلى الثورة ومحاولة تسليم المدينة للاعداء ، وفلا عمد بعض المدافعين ذات ليلة إلى الاستيلاء على أبواب المدينة ، ثم فتحوها على مصاريحها لجيش (على مراد خان) فدخلها في هدوء وسلام دون سفك دماء ، وأحسن معاملة الأهالي جزاء لما قدموا له . ولكن (صادق خان) قد ركب رأسه ، وامتنع عن التسليم ولجأ بأسرته وكبار رجاله إلى القلعة الداخلية حيث اعتصموا بها حقبة من الزمن ، ولكنه اضطر أخيراً إلى التسليم ، ونفذ فيه وفي رجاله العظام حكم الأعدام شنقاً ؛ وكان ذلك في سنة (١١٨٦ م) ولم ينجو من الشنق سوى ابنه (جعفر خان) الذي كان قد انسجم مع (على مراد خان) قبل الاستيلاء على المدينة بزمن ليس بقصير .

هذا وكان (صادق خان) قد اشتهر في عهد أخيه (كريمخان) بالعدل والحزم وحسن التدبير في كافة أنحاء إيران ولا سيما بعد توفيقه في فتح البصرة وضمها لرقعة الامبراطورية الزندية ، ولكن أعماله الشائنة الأخيرة مع بني قومه وأقربائه الأذنين ، وطمعه في الانفراد بالحكم ، قد أفقدته عطف الناس أجمعين ، وجعلت من المتعذر بل من المستحيل عليه الوصول إلى الحكم .

إزاء هذه الحالة يقف المرء جامداً لا يسعفه المنطق كيف يفسر عمل (صادق خان) كي يحقق رغبته في الوصول إلى الحكم مع وجود أنجال لكريمخان الذي كان مبعث الشهرة العريضة التي كانت تتفياً الأسرة الزندية ظلها .

وهكذا دانت الأمور لعلي مراد خان فصار ملكاً على إيران ، ويؤخذ من سجل أعماله وانتصاراته أن البلاد لبثت بضع سنين مسرحاً لدهسائس القواد العسكريين ومنازعاتهم .

ولم يبرز أحد قط في أثناء المحاصرة مثلما برز واشتهر (أكبر خان) ابن (زكي خان) ، ولكنه كان ظالما جارا عتيا ، بقدر ما كان باسلا وشجاعا وقد وصلت به الجرأة والقسوة وحب الانتقام إلى أن يتولى بنفسه ويديه المتلطحين قتل (صادق خان) وأبنائه الثلاثة . ولكن المنتقم الجبار الذي لا يغفل ولا ينام قد آجى - جل شأنه - إلا أن تكون الجريمة التي ارتكبها هذا السفاك وسيلة لمصرعه هو بعد مدة وجيزة ، إذ ألصقت به تهمة تدير مؤامرة لقتل الشاه غيلة . ولم يكن من الصعب إقناع (على مراد خان) بصحة هذه التهمة ، فأصدر أمره لجعفر خان بأن يهدر دم هذا السفاك الذي قتل أباه وأخوته وما زالت يداه ملطحين بدمائهم .

وبعد بضعة أشهر انتقل (على مراد خان) إلى أصفهان واتخذها عاصمة لحكومته . وكان يولى (جعفر خان) كامل ثقته ويعتمد عليه الاعتقاد كله ، ولهذا نصبه واليا عليها من قبله . وكان نجمله (شيخ ويس) قائدا عاما للجيش فعهد إليه المحافظة على الحدود الشمالية ، ومراقبة حركات (أغا محمد خان القجری) فكتب له الفوز في بادىء الأمر وأحرز نصرا مبينا باستيلائه على (مازندران) وإلحاقه هزيمة منكرة برئيس القجر ، واضطره للفرار إلى (أستراآباد) ، ثم أرسل في أعقابه قوة لمطاردته والقاء القبض عليه .

ولكن (محمد ظاهر خان) الذى كان يتولى قيادة هذه القوة المطاردة كان قصير النظر فلا عجب أن قطع على نفسه وعلى جيشه خط الرجعة إلى (مازندران) حيث أصيب بفشل ذريع ، ثم مالبت أن وقع ضريعا في ميدان الوغى ، وتشتت شمل جيشه شذر مذر ، وسارع الذين نجوا من جنده إلى الانضمام إلى جيش (شيخ ويس) المعسكر في مازندران والذى اضطره هو الآخر وعلى رأسه قائده إلى الجلاء عن (مازندران) واللجوء إلى (طهران) حيث وقف إلى جانب جيش (على مراد خان) وانتظم في صفوفه . وكان ذلك في عام ١١٩٩ هـ (١٧٨٤ م) .

كان (علي مراد خان) في هذه الآونة مريضا وقد اشتدت عليه وطأة المرض ، ومع ذلك كان يبدي نشاطا محسوسا في معالجة الأمور وإعداد الجيوش التي كان من بينها ذلك الجيش الذي بعث به إلى (مازندران) ووطن النفس علي أن يقوم هو نفسه بنجدته إذا اقتضى الأمر .

وفي هذه الأثناء جاءت به الأنباء تترى بأن (جعفر خان) قد شق عليه عصا الطاعة وأنه زحف صوب العاصمة ، فغلبه التأثر واشتد حزنه وبرح به الألم لدرجة أنه لم يطق صبورا ، ولم يتريث حتى يبرأ من علته بل سارع إلى الزحف نحو أصفهان معرضا نفسه لبرد الشتاء القارس رغم الحاح وزيره وطيبه الخاص عليه بالاعتكاف . ولكن الأجل المحتوم قد وافاه في عرض الطريق فصعدت روحه إلى بارئها ، وكان ذلك في عام (١٧٨٥ م) فاضطر الزعماء والقواد وذوو الرأي إلى إخفاء نبأ موته عن الجيش حتى وصلوا العاصمة .

وما أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع رجال الجيش حتى عمدوا إلى النهب والسلب وتفرقوا شيعا يعيشون في البلاد فسادا .

ولقد أسهب الكثيرون في الكلام عن أخلاق (علي مراد خان) وسجاياه ويستخلص من رواياتهم أنه كان مثلاً يحتذى في الشجاعة واليسالة النادرة ، وليس أدل على ذلك من شهادة خصمه القوي الجبار (أقا محمد خان القجري) له ، ذلك الخصم الذي قاسى الأمرين في عهد هذا الشاه في سبيل المحافظة على (مازندران) ، والذي كان يرد على الذين كانوا يستفزونه ويحشونه على شن الهجوم على العراق العجمي بقوله : (اصبروا حتى يقضى علي هذا الأعمى (١) المحترم ، وحينذاك فقط يمكننا أن نعمل شيئا) .

(١) كان (أقا محمد خان القجري) يذكر (علي مراد خان) دائما بهذا الوصف . والواقع أنه كان اعور لا اعمى .
المؤلف

وقد وصل (جعفر خان) إلى (أصفهان) بعد وفاة علي (مراد خان)
بخمسة أيام فقط ، فألقى واليها المدعو (بكر خان) قد اغتصب الحكم واستأثر
بلقب الوالي لنفسه خلال هذه الأيام القلائل ، فبادر إلى عزله. وأرسل إليه من
يلقى القبض عليه ، ويخلفه في منصب الوالي ، وتم ذلك كله في غاية من السهولة
والسرعة وبذلك لم يبق هنالك من ينافس (جعفر خان) في إدعاء الملك سوى
« شيخ ويس » ، ولهذا رأى (جعفر خان) أنه من الحكمة وعين الصواب أن
يسلك مع هذا الأمير مسلكا يتسم بطابع السياسة والملاينة حتى يتمكن منه ،
فبعث إليه بكتاب ودي رقيق ، يستميله إليه ، ويستدرجه إلى مستقره ومقامه
حتى نجح بالفعل في استقدامه إليه ، وما أن تمكن منه حتى أقدم على تغيير سياسة
اللين والحكمة وبدأ معه سياسة جديدة سداها الاضطهاد ولحمها شتى ألوان
التعذيب والتكيل ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل لقد أمعن في ايذائه
وسمل عينيه كيلا يتمكن ابن الأخ فيما بعد من مناوأة عمه بطلب الحكم لنفسه.
هذا وقد آن الأوان لأن يفى (أقا محمد خان القجري) بالوعد الذي
قطعه على نفسه لأنصاره ، إذ سبق أن قال لهم : (سنقوم بزحف عام إلى
العراق على أثر موت علي مراد خان) فلم يكن هنالك إذن من مانع يحول
بينه وبين البر بوعده . وما لبث أن تحرك على رأس قوة من الفرسان يتراوح
عددها بين (٥٠٠ و ٦٠٠) فارس وعبر جبال (مازندران) إلى الجنوب ولما
رأى في الطريق أن عدد المنتظمين في صفوف جيشه من الأنصار في ازدياد
مستمر ، عمد إلى الزحف إلى أصفهان مباشرة وذلك تشجيعا لجنوده على
خوض المعارك .

وما كاد يمضي شهران على وفاة (علي مراد خان) حتى كان الجيش القجري
يقتحم مدينة أصفهان ويدخلها غازيا فاتحا . وكان ذلك في اليوم السادس من
مايو سنة (١٧٨٨) لليلاد . وكان (جعفر خان) قد أدخل المدينة قبل وصول

القجری إليها ، وذلك على أثر ثورة (١) أشعل لها وقام بها العصاة ونهبوا كل ما يمتلكه (جعفر خان) من أموال ومقتنيات وأعملوا السلب في أثقال الجيش ومرافق الدولة .

وفي الوقت الذي دخل القجری فيه أصفهان على النحو الذي ذكرناه ، دخل (جعفر خان) شیراز ، ولكن صداقة حاکمها (سيد مرادخان) (٢) له لم تكن موضع ثقة كاملة ، إلا أن الأهالی قد سارعوا إلى تأييده والوقوف إلى جانبه بفضل تشجيع أشرف البلدة وأعيانها له ، وكان أبرز هؤلاء الأعيان المدعو (حاجی ابراهیم) الذي كان يبدى نشاطا ملحوظا ومحسوسا لتأييد (جعفر خان) لكي يثبت قدميه ، ولهذا لم يفت جعفر خان أن يكافئه على حسن صنيعه إذ عينه والیا على فارس (كلانتر)

ولقد رأى (أقا محمد خان) ألا يدع الفرصة تضيع وتفلت سدى دون أن يقوم بعمل حاسم ، فاشتبك في القتال مع البختياريين القاطنين في فارس وحدثت بينهم مناوشات ولكن غير حاسمة ، فاضطر أخيرا إلى العودة سريعا إلى طهران فاتهم جعفر خان هذه الفرصة وزحف ثانية إلى اصفهان واستردها وقبض على (رحیم خان) الذي كان والیا عليها من قبل (أقا محمد خان) وأرداه قتيلا ولكنه سرعان ما أخلى أصفهان وجلا عنها حين بلغه زحف اقا محمد خان عليها ثانية ذلك الخصم الذي كان قويا عتيا لا ينضب معين أمواله ورجاله والذي كان يبسط سلطانه ونفوذه على شمال ووسط ایران ولديه عزم على محاصرة (شیراز) والذي لم يكن لجعفر خان قبل به .

(١) يقال إن الدين اشعلوا نيران هذه الثورة ودبروها وأداروا دفتها هم بعض الرؤساء الذين كانوا قد نجوا من السجن ، وكان من بينهم (بكرخان) والی اصفهان السابق .

(٢) كان سيد مرادخان هذا ابن اخت (على مراد خان) . المؤلف

هكذا كان موقف جعفر خان أمام خصمه وهو كما نرى موقف يتم عن الضعف والعجز المتأهين ، وكان هذا هو نفس موقفه إزاء الثورات الداخلية إذ حدث أن شق عليه والى همدان - من قبله - عصا الطاعة . ودحر الجيش الذي كان قد أرسله لتأديبه منتهزا فرصة ضعفه وتفاعسه ، وكان أيضا قد فقد مدينة (يزد) بعد أن تكبد خسارة جسيمة .

ولكن الحظ عاد فخالفه في أواخر عهده إذ نجح ابنه (لطف علي خان) في الاستيلاء على (لار) وقد شجعه بعد الشقة بينه وبين (آقا محمد خان) على تجريد جيش آخر على (أصفهان) لاستردادها ، وقد استطاع في بادئ الأمر القضاء على حامية هذه المدينة ، غير أن هذا النصر المؤقت لم يدم طويلا ، حيث وردت الأنباء باقتراب رئيس القجر من المدينة ، فاضطر (جعفر خان) إلى الجلاء عنها مرة أخرى .

هذا وكان (جعفر خان) محبوبا لدى الأهالي والأجانب على السواء إذ كان يحسن معاملة الجميع ، وكان الكل أمامه سواسية كأسنان المشط ، وكان عادلا ، حلما ، يحترم حقوق الغير . . . وقد وكل مهام الإدارة إلى وزير عاقل ذي شخصية محترمة ، عرف كيف يسوس أمور الدولة بحزم وعزم . ويتصرف في معالجتها بحكمة (١) ولكن تصرفه السيء ضد قائد من أخلص قواده قد أفقده السمعة الطيبة التي كان يتفيا ظلها بل وأدى في النهاية إلى تقويض دعائم حكومته وزوال دولته .

هذا ، وكان من بين أمراء وقواد جيش (جعفر خان) قائد يدعى (حاجي

(١) هو (ميرزا حسين) والد (ميرزا بزرك) وزير الأمير (عباس ميرزا) ولي عهد إيران الشرعي . وكان الوزير (ميرزا حسين) هذا محبوبا من الأهالي ويكنون له عظيم الاحترام .
المؤلف

على قولبخان) السكازروني، عهد إليه جعفر خان إخماد ثورة (كاشان) التي أشعل لها نائرا يدعى (عرب محمد حسين خان) فنجح في إخماد نيران الثورة أيما نجاح، واضطر رئيس العصاة إلى التسليم مع آلاف من الأسرى، وكان من بين هؤلاء الأسرى ألف وخمسمائة مقاتل من أهالي خراسان استسلموا بعد قتال عنيف ووافقوا على التسليم بشرط واحد ألا وهو المحافظة على حياتهم وعلى كرامتهم، ولكن (جعفر خان) قد قلب لهم ظهر المجن وركب رأسه وأبى إلا أن ينقض الشروط، ويخون بالوعد الذي قطعه قائده (حاجي على قولبخان) على نفسه، ويزج بهؤلاء الأسرى الخراسانيين في أعماق السجن، وقد أصم أذنيه، وأشاح بوجهه عن الاستماع لأي رجاء من لدن قائده في هذا الصدد، فلم يجد هذا القائد الشريف - إزاء هذا - بدا من ترك خدمة مولاه والعودة إلى بلاده. وبعد رده من الزمن أرسل جعفر خان قوة لاستحضار هذا القائد إلى (شيراز) ولكنه رفض بإباء ما عرض عليه من وعود وعهود لتأمينه، فلم تجد القوة مندوحة حينذاك من إلقاء القبض عليه، ونقلته إلى شيراز حيث زج به في غياهب السجن. . . وهناك وبين جدران السجن اتاحت الفرصة لحاجي قولبخان لتدبير مؤامرة مع نزلاء السجن من العظماء ضد (جعفر خان) انتقاما منه لأنفسهم، وكان بين المتآمرين رجل له قيمته وله وزنه، ذلك الرجل هو (سيد مراد خان^(١)) الذي لعب دورا خطيرا كان له أكبر الأثر في إنجاح هذه المؤامرة التي نفذت على الوجه التالي:

(قامت امرأة من الأسرى باخفاء مخدر معها، ونجحت في دس هذا

(١) كان واليا على « شيراز »، وكم قدم من مساعدات فعالة لجعفر خان ولكن العلاقات قد ساءت بينهما أخيرا فألقى به « جعفر خان » في غياهب السجن .
المؤلف

المخدر في طعام كان معدا لجعفر خان ، فما كاد يتذوق الطعام حتى أغشى عليه) . وفي تلك اللحظة الرهيبة تمكن أنصار المتآمرين من إطلاق سراحهم وما أن غادروا أبواب السجن حتى سارعوا إلى حيث يرقد خصمهم فانتفضوا عليه كالصاعقة وأجهزوا عليه ، وألقوا برأسه من القلعة الداخلية إلى باب المدينة ثم أعلنوا ونادوا بين الناس بأن (جعفر خان) قد انتهى أمره . وكان ذلك في عام (١٧٨٩) للبلاد .

(٢) - عهد « لطف علي خان »

كان (لطف علي خان) نجل (جعفر خان) مقبلا في كرمان خلال هذه المدة ، وكان (سيد خان) زعيم الحركة الثورية قد نادى بنفسه شاهها على إيران ، ولكنه ما هي إلا بضعة أشهر حتى نداعت أركان حكومته وتزعزعت قوائم سلطانه الزائل ، إذ كان (حاجي إبراهيم) والي فارس العام وثيق الصلة بلطف علي خان ، فاتفق مع بعض الزعماء ورؤساء العشائر والبيوتات الكبيرة على مقاومة هذا المغتصب . وما أن ترامى نبأ اغتيال (جعفر خان) إلى مسامع والده (لطف علي خان) حتى أخذ يفكر في المطالبة بعرش أبيه ، ولكنه كان ضعيف الثقة في بجيشه ، ولهذا لم يكن في مكنته المطالبة سريعا بهذا العرش ، ولهذا توجه على الفور إلى شيخ بلدة (أبي شهر) طالبا إليه مساعدته ، ولكن المنية قد عاجلت الشيخ قبل أن يتقدم له بالمساعدة الممكنة وإن كان الشيخ قد أوصى ابنه الشيخ ناصر بتعريض لطف علي خان وشد أزره ، فقام الشيخ ناصر بإمداده بجيش صغير من لدنه ، فأرسله على (شيراز) فاشتبك في القتال مع (حاجي هاشم) أخى (سيد خان) . ولكنه الأسف دارت الدائرة على جيش النجدة وتشتت شمله .

وعلى أثر هذه الهزيمة بعث (حاجي إبراهيم) بجيش لمحاربة لطف علي خان

وكان يقوده (علي محمود خان) الذي كان يضم العداة لحاجي إبراهيم ويتحين الفرصة لطفه من الخلف طعنة نجلاء . وفي الوقت نفسه كان يمالي لطف علي خان الذي اتفق معه بمجرد وصوله وأعلن تأييده له ، وقد علق (لطف علي خان) آمالا كبيرا على انضمام هذا القائد إلى جانبه ، وتوجه صوب العاصمة واستعان بالأصدقاء الذين كانوا قد هياؤا الرأي العام لقبوله حاكما عليهم خلفا لأبيه سنة (١٧٨٩م) . وكان (سيد خان) قد لجأ إلى القلعة الداخلية ولكنه ما لبث أن اضطر للتسليم فأعدم .

أما (حاجي علي قولبخان) الذي كان من أكبر المحركين للثورة فقد قدم هو وبضعة من الزعماء الآخرين له الضمانات الكافية من قبل (حاجي إبراهيم خان) ، فقبلها (لطف علي خان) بل وشمل هؤلاء الثوار بعطفه وأولاهم ثقته كان للطف علي خان وقتذاك من العمر عشرون ربيعا ، ولكنه تدرج في شتى المناصب في عهد والده وهو في سن مبكرة ، وأبدى فيها نشاطا ملموسا ونجاحا أيما نجاح ، وكان يملا كل منصب يليه بجدارة ، وقدرها له العدو قبل الصديق ، ولم يمض طويل وقت حتى كان يتبوأ عن جدارة أسمى المراكز وأرفعها ، مما أثار إعجاب جميع الذين احتكوا به وعرفوه في الحرب وفي السلم على السواء . وكان فارسا لا يشق له غبار وجديا مهر في شتى الفنون العسكرية ، وكانت كل أعماله وتصرفاته تنسم بطابع الجرأة البالغة والحكمة المتناهية ، غير أنه للأسف كانت تنقصه تلك الصفات اللازم توافرها فيمن يلي منصب السلطنة والحكم من دربة وحزم وسرعة بت وحسم للامور التي كان يتباطأ في تصرفها لدرجة الاستهتار والاهمال وذلك على خلاف ما طبع عليه من الجرأة والعزم فيما يتعلق بالمسائل العسكرية وشئون الحرب والميادين وما أخذ على (لطف علي خان) أيضا أنه غير طباعه بعد تولية الحكم ، إذ كان قبل اعتلائه العرش حلو الشئائل ، رقيق الحاشية ، روفاء ورحيما

بالضعفاء ، ثم انقلب إلى ذئب عقور يروق له استعمال الشدة والقسوة ، وليس أدل على ذلك من تنكره لحاجي إبراهيم خان الذي كان له اليد الطولى في إيصاله إلى أريكة الحكم والاحتفاظ له بعرش أبيه ، ولكنه انقلب عليه وعامله بالقسوة وانتزع منه الثقة ، وناصبه العداوة والخصومة ، بل الأدهى من ذلك وأمر ، أنه كان ينظر إلى قوة وسلطان هذا الرجل الذي وضع التاج على مفرقه نظرة حقد وحسد وغيرة . وقد فوجئ ، (لطف علي خان) في أوائل عهده بزحف خصمه (أقا محمد خان) نحو (شيراز) فما كان من هذا الحاكم الطائش إلا أن جازف وخرج لمقابلة العدو الزاحف واشتبك معه في معركة دامية عند مكان يقال له (هزاربزا) أسفرت عن اندحاره أمام قوات القجر الجارفة وعاد يجرر أذيال الهزيمة إلى (شيراز) واعتصم بقلعتها . وواصل (أقا محمد خان) الزحف ثملاً بنشوة النصر حتى ألقى الحصار على (شيراز) غير أنه اضطر للعودة إلى (طهران) عاصمة ملكه بعد إلقاء الحصار بشهر واحد ، وبعد ذلك بعام كان لطف علي خان قد أعد نفسه وأضحى على أمه استعداد للقاء خصمه حتى لا يؤخذ على غرة مرة أخرى ؛ بيد أن (أقا محمد خان) لم يزحف إلى شيراز لانشغاله في (آذربيجان) ، فأراد لطف علي خان ألا يقف الجيش الذي أعده للقتال عن العمل فتوجه على رأسه لمهاجمة (كرمان) واضطر واليها إلى الموافقة على تسليمها إليه مشروطاً بضعة شروط قبلها (لطف علي خان) في بادئ الأمر تحت تأثير وضغط من مستشاريه الذين نصحوه بذلك لعدم ملاءمة الجو وقتذاك للسكر والفر . ولما كان من أهم تلك الشروط صرف النظر عن الوالي وأتباعه عاد (لطف علي خان) فرفض هذه الشروط بعد أن وافق عليها مبدئياً ، وظل الحصار قائماً طيلة الشتاء القارس والبرد ، الأمر الذي أدى إلى فقدان الجيش المحاصر الكثير من رجاله ومن مواشيه وحيوانات نقله ، وزاد الطين بلة أن تساقطت الثلوج بغزارة فعطلت

الطرق واستحال جلب المؤن والذخائر مما أفضى إلى هياج الجند وانتشار روح التدمير بين صفوفهم . فاضطر (لطف علي خان) إلى العودة إلى شيراز وهو في حالة يرثى لها .

وقبل أن يتعرض لطف علي خان لهذه النكبة العسكرية القاسمة كان قد اتخذ من التدابير الإدارية والسياسية ما يحول دون خيانة رجاله وغدرهم به في غيبته فعين أخاه الصغير - الذي كان ما يزال طفلا - واليا عاما لفارس ، وفي نفس الوقت عهد بحكمдарية (شيراز) وضواحيها إلى (حاجي ابراهيم خان) ، وأسند قيادة الحامية العسكرية إلى (بختيار خان) أحد رؤساء عشيرة الزند ، كما أنه عهد بقيادة حامية القلعة الداخلية إلى زعيم آخر من زعماء العشيرة الزندية ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى توزيع السلطات والتفريق بين الهيئات حتى يحول دون اتحادها ضده وغدرها به . ولكنه عبثا حاول ، إذ أن (بختيار خان) كان رجلا ضعيف الرأي متكبرا بل ومغترا بمنصبه العسكري ومزهوا باستقلاله الإداري لاني دائرة نفوذه فحسب ، بل كان يحاول دائما التعدي على اختصاص (حاجي ابراهيم) والتحكم فيه والاستبداد بأموره وإذلاله بشتى الطرق ، ولم يكتف بهذا بل اتخذ يحرص (لطف علي خان) ضده ويوغر صدره منه حتى آتت هذه الدسائس أكلاها لدى (لطف علي خان) ولقيت منه آذانا صاغية ، فتزعزت ثقته في وزيره ، وليس أدل على ذلك من معاملته السيئة لهذا الوزير بعد عودته من (كرمان) مخذولا مدحورا .

والواقع أن هنالك حادثة وقعت من قبل ، بين (لطف علي خان) وبين وزيره ، حاجي ابراهيم ، وكانت ذات أثر عميق في تطور العلاقات بينهما ، وحلاصة وقائعها أن لطف علي خان ، سبق أن عفا عن بعض المتهمين في حادث اغتيال والده بناء على توصية ورجاء ، حاجي ابراهيم ، وكان من بين من شملهم العفو (ميرزا مهدي) الذي استخدمه (جعفر خان) من قبل في وظيفة

(لشكر نوبس - محاسب الجيش) ، والذي قطعت أذناه وطرد من العمل حين ثبت اختلاسه لأموال الدولة. ولما قتل جعفر خان، وعلقت رأسه على باب القلعة، ذهب (ميرزا مهدي) هذا وقطع أذنيه، ولكنه أنكر أخيراً أنه ارتكب هذه الفعلة الشنعاء. بيد أن (حاجي ابراهيم) أيضاً كان يعتقد ببراءته من هذه التهمة ولهذا طلب العفو عنه من (لطف علي خان) الذي وافق على منحه العفو حتى ولو كانت التهمة حقيقة ثابتة إزاء ما قطعه على نفسه من عهود ومواثيق. حدث بعد ذلك أن قام (لطف علي خان) بتوزيع خلع وإتعامات على رجال الدولة ومن بينهم (ميرزا مهدي) ويقال إن والده العاهل قد علمت بذلك فأسرعت في طلبه وقالت له (أما يكفيك أن تمنح عفوك لقاتل والدك حتى تعود فتنعم عليه بالخلع والنياشين فتسىء بذلك إلى ذكريات والدك ؟) فتأثر (لطف علي خان) من هذه الأقوال اللاذعة المقصود بها التقرير والمولم. وما أن عاد إلى قصره حتى دعا (ميرزا مهدي) لمقابلته وعاتبه عتاباً قاسياً ثم أصدر أمراً بإحراقه على الفور. ولما علم (حاجي ابراهيم) بنياً ذلك أسرع إلى القصر ورأى بعيني رأسه جثة (ميرزا) المحروقة، فدهش لما رأى وبدأ منذ ذلك اليوم - كما قال هو بنفسه للسرا مال كولم - يفتقد ثقته في مولاه ولم يعد يطمئن إليه.

وقد ظهر للعيان ما كان يبدو بين الحاكم ووزيره - بعد هذا الحادث - من خلف وشك وعدم إنسجام، فكان (لطف علي خان) يحاول جاهداً القضاء على ذلك النظام الذي كان قد ارتضاه دستوراً للعمل حتى ذلك الحين، ولكنه لم يكن من الجسارة والقوة بحيث يستطيع العمل في سبيل ذلك جهاراً وفي وضع النهار. وذلك خوفاً من نفوذ الوزير الذي كان فضلاً عن تمسك أهالي (شيراز) وتعلقهم الشديد به - حائزاً لثقة ولاية الأقاليم وزعماء العشائر والبيوتات، أولئك الذين كانوا يحبونه ويؤيدونه.

وكان أخوه قائد المشاة في الجيش ، ولهذا رأى (لطف علي خان) أنه من الحكمة عدم استعمال الشدة في الظاهر ولكن استيلاءه كان واضحا جليا في جميع المسائل التي كان يحتك فيها بالوزير ، مما أفضى في نهاية الأمر إلى اتخاذ الوزير قرارا خطيرا في قرارة نفسه. ألا وهو القضاء على (لطف علي خان) خشية أن يقضى عليه هو أخيرا .

وفي هذه الأثناء كان لطف علي خان ، يفكر في الزحف على أصفهان ، فبادر إلى تفريق السلطات وتوزيع المناصب العليا كما فعل قبل سفره إلى كرمان فعين من أسرته قائدا لحامية « شيراز » ، وآخر محافظا للقلعة الداخلية ظلنا منه بأن هذا التدبير سيقويه شروزيه فيشل نفوذه كيلا يغدر به . وبعد أن غير قيادة حامية « شيراز » بصفة رسمية ، دعا إليه « حاجي ابراهيم » في وقت تأهب فيه الجيش للسفر وطلب منه أن يرسل بنجله « ميرزا محمود » إلى المعسكر ، ولما كان هذا النجل صغيرا جدا لدرجة عدم صلاحيته لتولى أى عمل في الجيش فقد تبين لحاجي ابراهيم بجلاء أن لطف علي خان ، يقصد بذلك مجرد ابعاد الولد عن والده حتى لا يكون عضدا له ، فازداد قلقه وساورته المخاوف ولعبت برأسه الهواجس ، مما بدا من سوء نية الحاكم ، فطرح عن نفسه فكرة التردد واستقر رأيه على تنفيذ ما أضمره في نفسه ألا وهو تسليم بلدة « شيراز » للإقا محمد خان ، وتوحيد الحكم في جميع بلاد ايران .

والواقع أن « حاجي ابراهيم » كان قد فقد نهائيا ثقته في مولاه ولاح له أنه محاط بأعداء ذوى بأس وأنه لا بد له من تقديم خدمة كبرى إلى ملك ذي قوة وسلطان ليضمن حمايته له . وكانت لديه القدرة الكافية على تقديم هذه الخدمة من كافة الوجوه ، إلا أن الألم كان يحز في نفسه ويشعر بعذاب وجداني حينما كان يفكر في عاقبة الاقدام على القضاء على أسرة نبيلة كانت سبب

مداطانه واتساع نفوذه (١).

وما أن بعد ، لطف على خان ، عن (شيراز) بيضعة مراحل حتى بادر ، حاجي ابراهيم ، إلى الاستيلاء على القلعة الداخلية وأسر محافظ المدينة وقائد الحامية بكل سهولة وذلك بفضل بسالة الجيش الذي أعده من أهالي البلدة وقاده ابن أخيه الصغير (محمد حسين خان) .

ثم طير هذا النبأ إلى أخيه الذي كان مع جيش (لطف على خان) المعسكر على مسافة خمسة فراسخ في قرية (كومه ريشا) ، وكان جيش القجارين بقيادة (بابا خان) ابن أخت (أقا محمدخان) يتقدم وقد الكُصوب

(١) كان (حاجي ابراهيم) ابنا لحاجي هاشم الذي كان من أشرف شيراز والذي مات وهو متقدم في السن ، تاركا من ورائه أسرة في شدة من العوز والفاقة ، إلا أنه لم يمض طويل وقت حتى تلاً نجم ابنه في الهيئة الاجتماعية وأصبح ذا مكانة رفيعة بين الأشراف بفضل ذكائه المتوقد وسجاياه النادرة ، فأحله « كرمخان » - كما سبق - محل أبيه ، كما أسند إليه (على مرادخان) الرياسة العامة لجميع أعيان الحيدري الذي يؤلف نصف أهالي شيراز. وحينما خرج جعفر خان من أصفهان وزحف إلى شيراز سلم (حاجي ابراهيم) المدينة له بكل سهولة، ولهذا عينه جعفر خان واليا عاما على فارس، وبفضل هذا المنصب الكبير اكتسب مكانة سامية وسلطانا عظيما ، فما كان منه إلا أن قابل عطف جعفر خان عليه بتقديم المساعدة لابنه وإيصاله إلى الحكم .

ويقول السر مال كولم « إنني تكلمت مع حاجي ابراهيم بنفسى بخصوص تسليمه البلد إلى (أقا محمدخان) فقال إنه ما أقدم على هذا الصنيع إلا ورأته خيرا البلاد وحدثها السياسية ، وأنه رأى أن القلاقل والاضطرابات حول الوصول إلى الحكم لا تنتهى . وأن الأمر سواء أتم للزنديين أم انتقل إلى غيرهم فليس هنالك من يمنع الجيش من السلب والنهب والتعدى على الرعية ، فإثارا للوحدة السياسية وتوفير الهدوء والسكينة في البلاد أقدم على عمله هذا » . المؤلف

هذه الجهات حتى أضحى على مسافة عشرين ميلاً من معسكر (لطف علي خان)
وفي هذا الوقت أيضاً كان أخو (حاجي ابراهيم) ومن معه من القواد
والضباط يستعدون للخيانة، واستقر رأيهم على أن يقوموا في جنح الظلام
بحركة مفتعلة وضجة هائلة يهاجمون خلالها مقر لطف علي خان ، باطلاق
الرصاص وشهر السيوف وذلك للدلالة على اجتماع أنصار (حاجي ابراهيم)
في صعيد واحد . وفعلاً نفذوا قرارهم ذات مساء ، وفوجيء لطف علي خان ،
بهذه الحركة فأخذته الدهشة وتملكته الخيرة وأرسل بعض رجاله يستجلون
الحقيقة وما لبثوا أن رجعوا إليه يقولون (عليك بالركوب فإن جيشك قد
انقلب عليك وصار من ألد أعدائك) . فاستمع لقولهم وركب فما تبعه من
رجالهم وجنده سوى (طهماسب قلي خان القبلي) ومعه سبعون فارساً وتحلف
الباقون عن هذا الحاكم المنكود الحظ . فتوجه نحو عاصمة ملكه سنة (۱۷۹۱ م)
على زعم أن قواده وعساكره فيها ما زالوا محتفظين بها ، ولكنه سرعان
ما اعطدم بالحقيقة المرة بعد يومين من تركه لمعسكره ؛ حيث علم بما جرى
في (شيراز) ؛ وكان قد انضم إليه ثلاثمائة فارس ، ومع ذلك فقد أرسل
بمجرد وصوله إلى أبواب (شيراز) في طلب (حاجي ابراهيم خان) كي
يسأله عن سبب انتفاضه وانقلابه عليه ، فقيل للرسول الموفد من قبله ما يأتي :
(إنني عالم بما يضمركم لي لطف علي خان ، فلكي أضمن المحافظة على حياتي
لا بد لي من أن أتخذ التدابير لتجريدك من القوة العسكرية وإبعاده عن البلد ،
فأذهب إليه وانصحه بأن يصرف النظر عن الاستيلاء على شيراز ، وأن ليس
أمامه سبيل للنجاة بنفسه سوى الهروب والابتعاد عن هذه المدينة (۱))

ولكن هذا الحاكم الغر الجسور الذي لم يكن له قوة عسكرية يؤبه لها أو

يعتد بها ، قد قابل هذه النصيحة بالرفض قائلاً (ومهما يكن من أمر فهذا الخائن إن هو إلا رجل مدني لا يجيد الحرب ولا يحسن الطعان ، كما أن جنوده الذين جمعهم من أهالي البلدة من أرباب الحرف والصناعات لن يمكنهم قط الثبات أمام جنودي المدربين) وعلى هذا الاعتبار تقدم نحو المدينة وعسكر بجنوده أمامها ، وأخذ في إعداد وسائل القتال وكله ثقة في نفسه وفي جنده .

ولما رأى (حاجي ابراهيم) جحافل خصمه عمد إلى حيلة جهنمية فلبت فكرة خصمه رأساً على عقب إذ أرسل إلى جنود (لطف علي خان) ينذرهم ويتوعدهم بأن كل من له منهم أسرة أو صلة قرابة في داخل البلدة سوف يعدم أفراد أسرته وذوى قريباه رمياً بالرصاص إذا لم يفارق (لطف علي خان) ويعود إلى البلدة على الفور . وكان لهذا التهديد أكبر الأثر في نفوس الجنود الذين انسأوا من الجيش وتركوه زرافات ووحداً حتى أنه لم يتبق مع (لطف علي خان) المسكين سوى نفر قليل سار على رأسهم إلى بلدة (أبي شهر) ولكن آماله تحطمت حين وصلها ، إذ لم يجد من شيخها وقتذاك مثل ما كان يلقاه من شيخها السابق من ضروب العطف والتعظيم والتأييد ، وذلك لأن هذا الشيخ كان مثل سائر الزعماء والرؤساء من أنصار (حاجي ابراهيم) ولهذا اضطر إلى التوجه صوب (بندرريك) ، فقابله حاكمها بالترحاب والاحترام والجلال وأكرم وفادته ، وقدم له كل ما في مكنته من مساعدة وتعظيم ، وبهذا تمكن من حشد قوة تمسكه من استرداد (شيراز) عندما تسنح له الفرصة . ومن عجب أنه لم يكن هناك من أثر ظاهر لقلعة أنصار (لطف علي خان) وضعف شأنهم وذلك بفضل شجاعته وإخلاص جنده الجدد له وثقتهم به .

وكان أول نصر أحرزه بهذه القوة الضئيلة انتصاره على قوات

(أبي شهر (١) ثم أحرز نصراً آخر على حاكم (كازرون) وأسره وسجل عيباً (٢) الأمر الذي أدى إلى انعدام الثقة به ونفور أنصاره منه وانفضاضهم من حوله والانضمام إلى أعدائه من جراء عمله الطائش هذا .

ولقد شجعت هذه الانتصارات (لطف على خان) فأعاد الكرة على (شيراز) وألقى الحصار عليها ، ولكنه لم يكن حصاراً شديداً ولا منيعاً نظراً لقلة جنده من المشاة والمدفعية ومع ذلك كان يلتف حوله أنصار الثورة ضد الحكم القائم؛ أولئك الذين كانوا كلهم أملاً في أنه سيوفق في انتزاع الحكم من أيدي خصومه والاستيلاء على (شيراز) ، ولكن الشجاعة التي أبدتها والجهود الجبارة التي بذلها هذا الأمير الشاب الطائش قد قوبلت بأعمال وتدابير رجل متزن على جانب عظيم من الذكاء ورجاحة العقل قد لبس للحالة لبوسها وشعر بخطورتها ، فأعد العدة للحادثات قبل وقوعها ، وما كانت تفارقه قط رباطة جأشه في أدق المواقف وأخرج الظروف ، هذا فضلاً عن قوة اتجاهاه وبقظته ومراقبته الدقيقة عن كذب لأحوال أنصاره ومريديه ، فكان لهذه الصفات الفريدة والحصل الحميدة أكبر الأثر في تاريخ حياة هذا الرجل العجيب . وبعد انفصال (لطف على خان) عن رجال جيشه العصاة في واقعة (أصفهان) ، عاد ذلك الجيش النائر إلى (شيراز) في حالة يرثى لها من

(١) حدث هذا القتال في قرية (تنكستان) حيث فارقت الخيالة التي كانت مع (رضا قولي خان) قائد (أبي شهر) المعسكر وانضمت إلى (لطف على خان) مما أدى إلى اندحار المشاة وهروبهم .
المؤلف

(٢) هذا الحاكم هو (حاجي على خان) الذي كان لطف على خان قد منحه عفوه ، ولكنه لم يثق فيه فذهب إلى (أقا محمد خان) . كما أن أخاه الذي كان حاكم كازرون قد تعرض في يوم ما لجيش (لطف على خان) حين هودته من شيراز فنهبه وأخذ الكثير من الغنائم .
المؤلف

الاضطراب والتناوب . ومع ذلك فإن عودة هذه القوة قد زاد من بأس
عشائر فارس المسلحة ومن خطرهما حيث ارتفع عددها إلى اثني عشرة ألف
مقاتل كلهم فرسان . أما المشاة فكانوا خمس الفرسان عدداً ، وكانوا مجندين
من بين سكان المدينة ، وكان (حاجي ابراهيم) يعتمد عليهم ويعتز بهم دون
الفرسان ، لأن الفرسان -- وهم أبناء العشائر -- كان مستقبلهم ودوام سعادتهم
متوقفاً على بقاء حكومة الزند ، فلم يكن من المعقول إذن أن يوافقوا على رأى
(حاجي ابراهيم) ، ويؤيدوا خططه التي تهدف إلى نقل الحكم والنفوذ إلى
رؤساء القجر ، في حين أن (حاجي ابراهيم) كان مقتنعا تماماً بأن هذه القوة
العشيرية تحول دون تنفيذ خططه المبيتة . ولهذا عمد إلى حيلة جهنمية . ألا وهي
تجريد تلك القوة من سلاحها ثم تشتيت شملها ، وقد نفذها بكل حيطة وحذر
وعلى عجل ، فبعث إليهم يدعوهم إلى دخول المدينة في ساعة حددها لهم
ليوزع عليهم الخلع والنياشين ، فلبوا دعوته ، ولما اكتمل عقدهم تمكن من
إنفاذ غرضه حيث جردهم من سلاحهم دون إراقة قطرة دم واحدة ،
وشتهم في القرى ، فانضم بعضهم فيما بعد إلى جانب أنصار (لطف علي خان)
في حين انتظر الباقون مصيرهم المحتوم .

وكان (حاجي ابراهيم) قد حدد لأقا محمد خان موعداً لتسليمه (شيراز)
فبادر رئيس القجر بإرسال قوة عسكرية يقودها (مصطفى خان) لنجدته ،
وفي هذه الأثناء كان (لطف علي خان) قد أعد العدة لمهاجمة خصومه ، فانتهر
فرصة قدوم النجدة القجرية فانقض عليها كالصاعقة ، وبعد قتال عنيف ألحق
بها الفشل الذريع وتمكن من تشتيتها شذراً مذبذباً . ولما ترامى نبال ذلك إلى
مسامع (أقا محمد خان) أعلن الحرب وحشد قوة كبيرة أسند قيادتها إلى كل
من (جان محمد خان) و (رضا قوليخان) ، وكانت هذه القوة الضخمة تبدو
كافية لتقرير المصير بالقضاء على البقية الباقية من فلول الزنديين .

وبمجرد أن اتصلت هذه القوة الهائلة بالقوة التي كانت في شيراز توجهت

نحو معسكر (لطف علي خان) الذي كانت قواته لا تعدو عشر القوات المهاجمة له ، ومع ذلك رأى هذا الأمير الجسور والقائد الباسل أنه ليس من اللائق الفرار من الميدان خوفاً من عدوه ، فقرر قراره على مقاومة العدو مهما كانت النتيجة ، ثم سبق العدو وأسرع في احتلال بعض الغابات والأحراش القريبة منه واعتصم بها بعد تحصينها .

ثم اشتبك الجمعان وحمل وطيس القتال وانتصر العدو في بادئ الأمر بسبب تفهقر فريق من جنود (لطف علي خان) وتركهم مراكزهم . ثم انصرف جيش العدو إلى النهب والسلب وانغمس في جمع الغنائم . فانتهاز (لطف علي خان) الفرصة حين رأى معسكر العدو خالياً من الحراس وانقض بمن معه من الفرسان القلائل كالصاعقة على المعسكر ، وما أن رأى جنوده العصاة ذلك حتى تابوا إلى رشدهم وتأثروا من شجاعة قائدهم الفائقة وجرأته النادرة ، فجمعوا أشقاتهم وطلوقوا العدو من جميع الجهات وشنوها عليه حرباً لا هوادة فيها حتى انقلبت هزيمتهم نصراً . وهكذا كسب (لطف علي خان) الجولة الثانية وربح هذه المعركة أيضاً حيث أسر وقتل الكثيرين ، وكان من بين الأسرى (رضا قولبخان) أحد قائدي الجيش القجري .

ولما كان (حاجي ابراهيم) يعلم علم اليقين أن هذا النصر المبين الذي أحرزه (لطف علي خان) للمرة الثانية سيعلی شأنه ويدفع بالأهالي والعشائر إلى الالتفاف حوله ، الأمر الذي سيكون وبالاً عليه — بادر على الفور إلى إرسال الوفود إلى (أقا محمد خان) يدعوهم للقدوم إلى (شيراز) كي يتولى الأمور بنفسه ، ولما علم هذا العاهل أن الموقف جد خطير زحف سريعاً إلى (شيراز) بقوة تتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألفاً من الجنود المدربين . وكانت نسبة هذه القوة إلى قوة (لطف علي خان) كنسبة المائة للواحد . وهذا دليل أيما دليل على أن (أقا محمد خان) كان قد اتخذ تدابير هائلة واضعاً

نصب عينيه شجاعة خصمه وجرأته النادرة. وكان محققاً في ذلك ولاشك ...
ولما وصل (أقا محمد خان) بطليعة جيشه الى قرية (ميان) على مقربة من
اصطخر (برسبوليس) وأقام معسكره هناك - باغته (لطف علي خان)
بهجوم رائع لا يقوى على القيام به إلا الأبطال الذين عركهم الدهر وأصبح
ميدان الحرب والنزال أمامهم بمثابة مجلس الشرب واللهو ؛ هذا فضلاً عن أن
هذا النضال كان نضالاً في سبيل الاستيلاء على عرش إيران والانفراد بالحكم
وأسفر هذا الهجوم عن خذلان مابين لطليعة جيش (أقا محمد خان) واندحار
جنودها حيث ولوا الأدبار لا يلوون على شيء . وحمل (لطف علي خان)
ببضع مئات من الفرسان حملة شعواء دون خوف أو وجل على جيش يتراوح
عدده بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألف مقاتل ، ولكن جدت بضعة عوامل
أفضت إلى هزيمة هذا الجيش العرمرم شر هزيمة ، وهذه العوامل لم تكن
سوى ظلام الليل الخالك ، وانتشار الذعر والخوف بين صفوف الجيش
بسبب فرار وهزيمة الطليعة ، أضف إلى ذلك ما أحدثته جرأة لطف علي خان
الخارقة من الدهشة والذعر في قلوب أعدائه .

كل هذه العوامل مجتمعة أفضت إلى تشتيت شمل جنود جيش القجر
والفت في عضدهم ، وكان هذا بشيراً بانتصار (لطف علي خان) انتصاراً
باهراً (١) ، إذ كان جيش (أقا محمد خان) قد تفرق شماله ووصل سبيل المهاجمين
إلى معسكر (أقا محمد خان) وفي هذه اللحظة أشار أحد قواد (لطف علي خان)
عليه بأن يأمر بوقف القتال على اعتقاد بأن (أقا محمد خان) ترك معسكره
ولاذ بالفرار مع فلوله المهزومة ، وأن من المصلحة الحيولة دون نهب الجيش

(١) ولقد قتل (لطف علي خان) بيده ابراهيم خان رئيس القجر وأتباعه الذين
كانوا متربصين للأمر بالاسل في مضيق جبلي بين (ميانه) و (ابرز) . المؤلف

للاموال الشاهانية وخزائن الدولة التي جمعت بكل مشقة من عرق جبين الأمة (١) .

ومما يؤسف له أن الأمير قد آمن بصدق هذه النصيحة ، فأمر على الفور بوقف القتال والامتناع عن دخول المعسكر ونهبه ، فصدع الجيش لأمره وكف عن المطاردة ، وانهمك في جمع الغنائم والأسلاب التي خلفها المنهزمون .
وفي اليوم التالي وقبيل الفجر حدثت مفاجأة للأمير المنتصر إذ طرق أذنيه صوت المؤذن يمججل في معسكر العدو فعلم من ذلك هو والباقون في معسكر العدو من الجنود أن أقا محمد خان لا يزال موجوداً في المعسكر (٢) ولم يبرحه قط . ولقد دهش (لطف علي خان) لذلك أشد الدهشة . والواقع أن (أقا محمد خان) حين رأى سوء حال جيشه واختلال نظامه واضطرابه وخذلانه ، وأنه يتعذر عليه معالجة هذه الحالة - فقد لبث في معسكره محاطاً بحرسه الخاص يشاهد عن كسب حركات خصومه وفائق شجاعتهم وبسالتهم النادرة ودقة نظامهم العسكري .

هنالك علم (لطف علي خان) بأن الزمام قد أفلت من يديه ، وأيقن أن الظفر النهائي قد أصبح منه بعيداً ، وأنه لا محالة واقع في الأسر إذا تريت طويلاً ، ولهذا استقر رأيه على النجاة بنفسه والانسحاب من الميدان بأقصى سرعة .

وفي هذا الصدد نقول أنه لا يجوز اعتبار هذه المحاولة الجريئة لاسترداد الحكم

-
- (١) هذا القائد الناصح هو (ميرزا فتح الله الأردلاني) ، ويقول بعض المؤرخين ان هذه النصيحة قد أبديت بحسن نية بينما يقول آخرون أن الرجل كان جاسوساً لاقا محمد خان وكانت نصيحته بسوء نية متعمدة . المؤلف
(٢) كانت العادة الاعلان عن وجود الشاه في المعسكر بالأذان . المؤلف

والاستحواذ على النفوذ حركة يائسة لا طائل من ورائها . لأن (لطف علي خان) كان قد ثبت له من تجاربه الخاصة أن جيشا كالجيش الذي كان يناضله وقد دبت فيه روح التذمر والتخاذل ، وسرت في سرايئه عوامل الاضطراب وسوء النظام — لا يمكنه أن يعود إلى تماسكه وانسجامه ، يضاف إلى ذلك أنه كان يعلم تمام العلم أن كثيرين من رؤساء العشائر والزعماء ما يزالون مترددين بينه وبين خصمه (أقا محمد خان) ، ولا يصدرون في حركاتهم وفي أعمالهم إلا ما تمليه عليهم ظروفهم الخاصة حسب الزمان والمكان ، وما كان من شك في أن أحدهم إذا اختار الانصياع لأحد الطرفين تبعه أنصاره وأتباعه كذلك . أضف إلى ذلك أن (لطف علي خان) كان على حق في أن يأمل الخير كل الخير من وراء هذا الانتصار المنقطع النظير ، لأنه كان قد هبأ كافة الوسائل ، ومهد كل السبل لهزيمة العدو النهائية بوساطة وبمساعدة هؤلاء الرؤساء والزعماء .

يتضح من هذا الوصف أن خطة الأمير الباسل كانت خطة سليمة حيث أدت لأول وهلة إلى انتصاره انتصارا أوليا ، وإلى اندحار طليعة العدو وتشتيت شملها . ولا شك أن هذا كان أوضح دليل على استعداد الأمير الخارق للعادة ، وعلى جرأته النادرة .

ولكن الظفر النهائي الحاسم لم يحالفه بل أفلت من يده لسبب من تلك الأسباب التي تحدث غالبا في أدق الظروف وأخرج الساعات في الحروب التي من شأنها عادة إسقاط الدول وقيامها .

وكما أن (لطف علي خان) كان جديراً بالانتصار والظفر النهائي ، كان (أقا محمد خان) هو الآخر حربياً بأن يضع على رأسه التاج الشاهاني الذي صار خالصاً له منذ ذلك اليوم . إذ لم تخن هذا العاهل رباطة جأشه قط حينما هزم جيشه وولى عنه واضطرب الأمر ، مما يدل على شجاعته النادرة ، وكان لا يفتأ يفكر في هذا الحادث الفذ الذي كان دائماً عالقاً بذهنه .

والواقع أن تاريخ إيران الأخير يحتوي على ثلاثة أشياء جديدة بأن
تلقّس للأجيال التالية ألا وهي :

(١) قوة (حاجي إبراهيم) (١) ومقدرته الفائقة التي مكنته من المحافظة
على (شيراز) بضعة أشهر بشرذمة من الأهالي المدنيين من بقالين إلى تجار
إلى أصحاب المهن إلى غير ذلك ، ويدفع عنها إشراف المعتدين من جنود العشائر
المحاربين الذين طبعوا وجبلوا على حب القتال .

(٢) بسالة (لطف علي خان) وبطولته الرائعة التي حدثت به إلى أن يحمل
ببضع مئات من جنوده على جيش قوامه ثلاثون ألفاً أو يزيدون .

(٣) رباطة جأش (أقا محمد خان) حين أدلهم الخطب ، وعظم الأمر ،
وهرب كل من معه ما عداه هو وأتباعه ، فلبث في معسكره ، وما غادره قط ،
محتفظاً بوقاره وثبات جنانه . وأشعر أصدقائه وأعداءه بوجوده في مستقره
ومقامه وأنه لم يفر كما زعموا - بأن طلب إلى المؤذن أن يؤذن في المعسكر .
وبهذا أثبت أن تلك الهزائم والاضطرابات لم تنل منه ولم يتأثر لها ولا بها .

* * *

سبق أن ذكرنا أن (لطف علي خان) حين شعر بالخطر المحدق به غادر
ساحة الوغى على عجل وسار لابلوى على شىء حتى وصل (كرمان) ، وهناك
شرع في حشد القوى وتجهيز الجيوش ... أما (أقا محمد خان) فقد توجه
بجيشه نحو (شيراز) وجهاز جيشاً آخر (١) لمطاردة (لطف علي خان) ، فلما تراسى
نبا ذلك إلى مسامع هؤلاء الجنود القتلائ الذين كانوا قد انضموا للأمير
الباسل ، تفرقوا أيدي سباً ، مما اضطر الأمير إلى التوجه نحو خراسان في

(١) كان قائد الفرسان في هذه القوة (ولي محمد خان) ، وقائد المشاه
(عبد الرحيم خان) أخى حاجي إبراهيم .
المؤلف

عام ١٢٠٧ للهجرة . وكان يحكم هذه البلاد حكام محليون مستقلون منذ وفاة (نادرشاه) حتى ذلك الحين . وكان (ميرحسن) وهو أحد زعماء هذه المنطقة يحكم منطقة (توبوس) ومدينتها فعرض خدماته على الأمير وزوده بقوة عسكرية من مائة فارس توجه بها الأمير وبمن كان معه من رجاله المخلصين الذين لازموه ولم يتفصوا من حوله ، إلى ناحية (يزد) ، فأرسل حاكمها قوة لتقطع الطريق على الأمير ورجاله ، ولكن الأمير الباسل بادر بالهجوم على تلك القوة فكسر شوكتها وشدت شملها ، ثم واصل السير إلى بلدة (أبركوه) الواقعة عند الحدود الفارسية فخضعت له هذه المدينة وقدمت له فروض الطاعة فاتخذها قاعدة لأعماله ومستقرا له وأخذ يرسل منها أنصاره المنبئين في الجهات بأن يستعدوا للنضال ، وكان له أنصار غير قليلين ولكنهم محتفون في جهات عدة فلما سمعوا بانتصاره الأخير خرجوا على الفور من مكانهم وأظهروا أيديهم له ، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى بلغ عدد الملتفين حوله من الجنود ألفا وخمسمائة كلهم من الفرسان .

وفي عام ١٢٠٨ للهجرة سار على رأس هذه القوة وحاصر مدينة (دارابجرد) التي كانت محتفظة بأهميتها وعامرة بسكانها البالغ عددهم خمسة عشر ألف نسمة أو يزيدون .

ولهذا كان من الضروري ، بل ومن الأهمية بمكان أن يستولى عليها (لطف على خان) ، فلا عجب إذن أن رأيناه سيدنل في سبيل ذلك بمجهودات جبارة . ولما سرى نبأ تحرك (لطف على خان) من جديد في أنحاء المملكة الإيرانية أعد جيش عرمرم في (طهران) ليرحف عليه ، كما بعث (حاجي إبراهيم ، خان) بقوة من المشاة بقيادة أخيه الصغير إلى (دارابجرد) لتعزيز حاميتيها ، فاضطر الأمير إلى رفع الحصار والابتعاد عن تلك المدينة ، ثم حاول الصمود في قرية (رونيز) المحصنة ، وبعد قتال دام بضعة أيام اضطر للقيام بهجوم جرى .

لعل حسن الطالع يلازمه ويواتيه ، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة والجسارة
 وتمكن هو من النجاة والوصول إلى (توبوس) مرة أخرى فقابله حاكمها
 بالاجلال والاكبار وأكرم وفادته ولكنه اعتذر عن مساعدته في هذه المرة
 خوفاً على مركزه ، وأشار عليه بأن يلجأ إلى (تيمور شاه) حاكم الأفغان
 بقندهار ويطلب منه المساعدة حيث أنه هو الشخص الوحيد الذي يمكنه
 إرجاعه إلى عرش آباءه وأجداده ، فاقنع (لطف علي خان) بفكرة مضيفه
 وعمل بنصيحته وتوجه إلى البلاط الأفغانى ، ولكنه سمع وهو ما يزال في
 طريقه إليه نبأ وفاة (تيمور شاه) فاستقر رأيه على البقاء في إيران ووقف
 عن السير إلى الأفغان ، وفي الذي كان فيه متردداً بين الاحجام والاقدام وصله
 خطاب من زعيمين لمنطقة (نرمانشير = شرقى كرمان) وهما (محمود خان)
 و (جهانكير خان) يشيران عليه فيه بعدم مبارحة البلاد ويتعهدان له بتقديم
 كل مساعدة ممكنة له إذا ما أقبلع عن التفكير في مغادرة البلاد .

ويقول مؤلف إیرانى بحق (ان بريقاً ولو ضئيلاً من الأمل قد ينقلب
 في قلب المحارب الصنديد إلى شعلة موقدة كبيرة) وهكذا كان حال الأمير
 الذى تجدد لديه الأمل وقويت روحه المعنوية فقام لفوره وتوجه في الحال
 نحو (نرمانشير) وذلك لمجرد حصوله على هذه الوعود والتأكيدات .

ولما رأى أن بضعة مئات من الجنود يجتمعون تحت رايته قوى أمه واستقر
 رأيه على الاستيلاء على (كرمان) . فاقرب منها بحركة خاطفة كالبرق ،
 وشطر قواته شطرين أرسل بأحدهما إلى ضواحي المدينة تحت قيادة عمه الجسور
 (عبد الله خان) الذى حاز شهرة في كافة المعارك التى خاض غمارها (لطف
 علي خان) - وذلك لمناوشة العدو ومشاغلتة ، وأبقى الشطر الثانى تحت قيادته
 لمراقبة الحالة عن كثب . ولما رأى أن العدو قد حصر كل جهوده لصد قوة
 (عبد الله خان) وأنه منهك معه بكل قواه في حرب ضروس ، تقدم إلى

الامام وهاجم المدينة من إحدى جهاتها الأخرى . وهكذا وقع العدو بين نارين وأخذت الحيرة قائده ، وقبل أن تشعر حامية القلعة بالخطر المحقق بها تمكن الأمير بقوته المهاجمة من تساق أسوار المدينة والاشتباك بحامية القلعة التي اضطربت لأنها أخذت على غرة ، ورغم ذلك فقد استماتت في المقاومة واستبسلت في القتال ولكن ذلك لم يجدها نفعا ، ففقدت كل أمل وتخلت عن جميع مراكزها للمهاجمين . ثم اضطرت رجالها للاعتصام بحصون القلعة وأبراجها الداخلية . . . وبعد فترة وجيزة تمكن قائدا قلعة (كرمان) من الفرار من القلعة إلا أن أكثر جنودها قد أبيدوا عن آخرهم ، ووقعت كل أبقالهم وذخائرهم وأموالهم غنيمة باردة في قبضة قوات الأمير المنتصر .

وقد أصبح (للطف على خان) بعد هذا النصر المبين مركز الحكام وسلطان الملوك فسك العملة باسمه تخليدا لذكرى هذا الانتصار الحاسم .

ويقول مؤرخو هذا العهد ان طالع هذا الأمير كان يشبه البرق الساطع الذي يشتد نوره ويقوى لمعانه وقت انطفائه .

هذا ، ولما علم (أقا محمد خان) بسقوط (كرماني) في يد خصمه وكان ذلك في عام (١٢١٠ هـ) بادر إلى الزحف بجميع قواته لمنازلة خصمه فيها . وكان (لطف على خان) لا يكثر لكثرة جنود عدوه لسبيين ، أولهما أن جنوده قد مروا على أساليب القتال وبرعوا فيها لكثرة ما خاضوا من حروب طاحنة وثانيهما اعتماده على صدق عزيمته وشجاعته النادرة وبطولته الرائعة . ولهذا أمكنه مقاومة عدوه القوي العتيد طويلا ودام الحصار شهرا قاسيا خلاله المحاصرون الكثير من الويلات وصنوف العذاب ، وأخيرا سادت الفوضى وسرت روح التدمير بين بعض الوحدات ، وزاد الطين بلة أن أعدم بعض المشاة الذين كانوا يقومون بالدفاع عن بعض حصون القلعة - إلى تسليمها للعدو سرا .

وقبل أن يتعرف (لطف على خان) جليلة الأمر تمكن بضعة آلاف من جنود العدو من دخول هذه الحصون التي سلبت لهم . وما أن علم بهذا النبأ المفجع حتى يادر بالهجوم على تلك الحصون . وهنا دارت رحى معركة عنيفة بين الفريقين اضطر العدو في نهايتها إلى الانسحاب من الحصون التي دخلها . وكان هذا آخر نصر أحرزه هذا الأمير المنكود الحظ ، إذ حدث بعد ذلك أن أقدم قائد من قواده الذين كان يأتمنهم ويثق فيهم تمام الثقة ، على خيانة سيده ، فقد كان هذا الضابط قائدا عاما للحامية القلعة الداخلية ، هذا فضلا عن أنه كان مشتركاً في الدفاع عن بعض أبراج القلعة الخارجية ، فانتهر الفرصة ذات ليلة وفتح الباب المقابل للعدو ، فافتحمه (أقا محمد خان) وتسرب منه إلى المدينة بسهولة ومعه إثنا عشر ألفاً من الجنود . وأبقى ما تبقى من قواته لتقديم المساعدة في الوقت المناسب .

ولما علم (لطف على خان) بهذه الخيانة الثانية القاصمة انقض كالصاعقة على العدو ولكن دون جدوى لأن الموقف كان حرجا ووجد خطيرا ، إذ فضلا عن كثرة العدد في داخل المدينة كان خصمه يحتفظ بقوات أخرى كبيرة في خارجها تحميها من كافة نواحيها .

فلما تبين هذه الحقيقة المرة للطف على خان ورأى أن صفوفه جنوده قد أيدوا عن آخرهم رجع القهقري .

وكان كل اهتمام (أقا محمد خان) منصبا على عدم تمكين الأمير من الخروج من القلعة فتكتب له النجاة مرة أخرى ، ولهذا يادر إلى تشديد الحصار على مدينة (كرمان) والاحاطة بها من كافة الجهات بوضع قوات كبيرة حول كل باب من أبوابها . ورغم كل هذه الاحتياطات التي اتخذت ، دافع الأمير الباسل عن نفسه دفاع الأبطال زهاء ثلاث ساعات داخل المدينة ، ولما جن الليل خرج من مكمنه سرا وعمد إلى جمع أنقاض جسر خشبي من مخلفات العدو

واستخدمها في الخروج من القلعة . ثم بقيت أمامه بعد ذلك عقبة كأداء ألا وهي اقتحام صفوف الأعداء المحيطين بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ، ولكنه استطاع بشجاعته الفائقة أن يتخطى هذه العقبة ويقتحم هذه الصفوف المتراصة كالبنيان واخترقها ومعه ثلاثة من رجاله كالبرق الخاطف ، ونجا من هذا المأزق الحرج ، واستطاع الوصول إلى منطقة (زمانشير) بسلام .

أما (أقا محمد خان) فقد أباح في المدينة بعد أن تسلمها القتل ثلاثة أيام كاملة ، فحصد الأهالي حصدا ولم ينج من مقصلاته سوى النساء والأطفال الذين سلمهم هم الآخرين لعساكره القساة القلوب والغلاظ الأكباد . وكان يهدف من وراء هذه الأعمال الوحشية إلى إرهاب المدن الإيرانية الأخرى حتى لا تقدم على مساعدة الأمير الباسل مرة أخرى .

وقد قوبل (لطف علي خان) بكل حفاوة وإجلال من حاكم (زمانشير) في بادئ الأمر ، ولكن الحال ما لبث أن تغير ، إذ حدث ذات يوم أن أمر أخو الحاكم — الذي كان قد اصطحب في وقت ما (لطف علي خان) إلى كرمان — إلى أخيه بأن هذه الحماية التي يتمتع بها هذا الأمير اللاجئ ستجر عليه أضرارا بليغة في المستقبل القريب ، إذ أنها ستعرضه لغضب (أقا محمد خان) . وما أن فكر الحاكم في العواقب ورأى أنها ستكون وخيمة، حتى نسي أو تناسى العهد الذي قطعه على نفسه بحماية الأمير بل سوات له نفسه أمرا أنكى وأشد . ألا وهو إلقاء القبض عليه وتسليمه لخصمه (أقا محمد خان) اكتسابا لعطفه عليه وتأمينا لمستقبله لديه .

وعلى الرغم من أن أصدقاء (لطف علي خان) ورفاقه قد شعروا بهذا الغدر قبل أن يصير حقيقة واقعة ، ونهبوا الأمير إلى الخطر المحدق به ، فقد أصم أذنيه ولم يستمع لقولهم ، بل تمادى في الغفلة حتى أنه لم يعد يعاب بانفضاض رجاله الذين لازموه في جميع حركاته ، من حوله الواحد تلو الآخر .

ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى فوجيء بجمع غفير من الجنود المدحجين بالسلاح يحيطون به. عندئذ وعندئذ فقط أدركته اليقظة ورجع إلى نفسه وأيقن أن ما تنبأ به صحابته كان عين الحقيقة والصواب، ولكنه لم يقف مكتوف اليدين بل سارع إلى سيفه البتار وهاجم بلا هوادة أولئك الذين كانوا يرمون القبض عليه، وبعد قتال عنيف تمكن الأمير من الوصول إلى فرسه (١) فامتطى صهوتها؛ وفي تلك اللحظة أدركه أحد المهاجمين فضرب ذيل فرسه فبثره، وسقط الأمير هو وفرسه أرضاً، فتألم عليه المهاجمون ولكنه تمكن من النهوض، ونشب القتال من جديد بيده وبينهم وكان أعنف من ذي قبل؛ وقد أسفر هذا القتال عن إصابة الأمير بجرحين بالغين في رأسه وذراعه، فخارت قواه وسقط على الأرض مغشياً عليه؛ فحاولوه بحالته تلك، وذهبوا به إلى (أقا محمد خان) الذي نهض على الفور - حين رآه - وفقاً عينيه بيديه، ثم أرسله إلى طهران، حيث ألحقوا به هناك من ضرب الإهانة ألواناً، وعمدوا إلى التشهير به في شوارعها.

ولم يكتب (أقا محمد خان) بذلك بل أمر بالقضاء على الأمير الشاب (٢) الذي كان يقض مضاجع عدوه القوي البأس البصير بالعواقب وهو منكوب

(١) كان هذا الفرس واسمه (كوررند) من الخيول العربية الأصيلة ومولود بايران، ولهذا كان يضرب به المثل في أنحاء إيران بسرعة الركض والجري، وكم أنقذ الأمير من ورطات، بسرعته الخارقة للعادة ولهذا كان الأمير يحبه حباً جماً.

المؤلف

(٢) يقول السرجون مالكولم، ان لطف علي خان حينما أحضر بين يدي أقا محمد خان، عومل من الأخير معاملة وحشية لا يتصورها عقل بشر. وكل من يقرأ هذه الصفحات من الكتاب المذكور يشتد امتعاضه من هذه الأعمال الوحشية.

المؤلف

وفي حالة يرتقى لها ، وكان ذلك في عام ١٧٩٤ م (١) . اختفى إذن (لطف علي خان) من مسرح الحياة وأسدل عليه الستار قبل أن يكتمل الخامسة بعد العشرين من عمره ، بعد حياة حافلة بأمرور جسيمة وحوادث خارقة للمعادة . ويقول السر بما السكولم : « ان جانباً من سجل حياة هذا الأمير وسيرته يستحق الرثاء بل والاشفاق ، في حين أن الجانب الآخر منها جدير بكل ثناء وإعجاب ؛ فإذا نظرت إلى أعماله وحرركاته الحربية فلن تجد سوى المهارة العسكرية والشجاعة الشخصية النادرة أما إذا نظرت إلى الظروف والأحوال التي كانت سائدة في عهده فستجد أن جميع صفاته ومميزاته — إذا استثنينا منها الشجاعة الشخصية -- كانت كلها عليه لاله علي خط مستقيم . وكان الأمير قد ولد وشب وترعرع في عهد كانت فيه إطاعة الحاكم إطاعة عمياء فضيلة من الفضائل يقدسها الجميع ؛ وربما كانت مزايا هذا الأمير لا تقل عن مزايا وسجايا (جنكيز) و (تيمور لنگ) ؛ غير أن ظروفه والحالة الاجتماعية التي كانت سائدة حينذاك ولا سيما حين اعتلى أريكة الحكم كانت لا تتفق ولا تتواءم صفاته وآرائه كحاكم يعتمد على شعبه بغض النظر عن صفاته الشخصية ومزاياه الخاصة ؛ إذ لم يكن على شيء من حسن التبصر في العواقب والتزوي في الأمور ، ولم يكن لذكائه الخارق أثر فعال في فعالة وحرركاته وذلك لظموحه الشديد وأمانيه السياسية الواسعة ، وكان يملكه الغرور وشدة الاعتزاز بنفسه

(١) كان (أقا محمد خان) يكن لجميع أفراد الأسرة الزندية الحقد والبغضاء ولا سيما لهذا الأمير المنكود الحظ الذي كان ينفر منه أشد النفر ، ولكنه كان رغم ذلك يقدر صفاته الشخصية حق قدرها . ويحكى أنه حين بلغه أن ابن أخته وولي عهده (فتح علي خان) قد ولد له عدة أولاد في ليلة واحدة - وكان ذلك قبل استيلائه علي (كرمان) قال ليت أحد هؤلاء المواليد يكون مثل (لطف علي خان) في البسالة والبطولة .
المؤلف

حتى انه أثناء توليه الحكم لم يكن يتنزل ويتفاهم مع قوى القوة والنفوذ في البلد ، وكاد حان المزاج ، صلب الرأي ، وما توجه لغزو أو لفتح إلا وقد استعمل أقصى ضروب الشدة والغلظة . وكان الظفر يمشى في ركابه أينما توجه ، ولهذا كان يستعمل الشدة بشكل لا يصح أن يقدم عليه إلا حاكم استقرت أموره لا من كان مثله في حاجة إلى اصطناع المعروف لكسب رجال وأنصار بالتغاضي عن الهفوات والتجمل بالأناة والصبر والتسامح في أعماله وأقواله . ولكنه على العكس من ذلك كان بعمله هذا يكثر من أعدائه من بين رجال أقوياء يصارعون مثله الحوادث الجسام وتصارعهم حوادث الدهر وتقلباته الصارمة .

ومع ذلك فانه لمن الخطأ البين والنقص المعيب أن يهمل مؤرخو العصر الصفات العالية والمزايا الفذة والفريدة التي كان يتمتع بها آخر أمراء الأسرة الزندية . ولقد حكم ملوك الأسرة الزندية في قسم كبير من إيران قرابة نصف قرن ، ولكن حكم هؤلاء الملوك لم يتوطد تماما في البلاد بعد وفاة مؤسس الأسرة وذلك لسبيين : أولهما الخلافات الداخلية بين أعضاء الأسرة ، وثانيهما ذكاء خصمه (أقا محمد خان) ودهائه ، فقد كان هذا العاهل منذ اليوم الذي تمكن فيه من إخراج الأمير من (شيراز) ، يسعى سعيا حثيثا آتاء الليل وأطراف النهار للقضاء عليه أينما كان ، فما نامت عيناه عنه قط وما استخف مطلقا به . وهكذا حقق أغراضه لا بقواته العسكرية ومعاركة الحربية ولكن بثباته ورباطة جأشه وإصراره على التخلص منه .

ولقد قام (أقا محمد خان) بواجبه كما ينبغي بقضائه على جميع (١) الذين

(١) يقول السر مالكولم : إنه لم ينج وقتذاك من التفكيك - على ما أعرف - إلا عبد الله خان عم لطف علي خان ذاك كان صهر الحاجي علي خان الكازروني ، فتوسط له لدى « أقا محمد خان » الذي كان يجلبه كل الاجلال . المؤلف

يظن مقاومتهم لسلطان الحكومة إما بالقتل أو بسمل عيونهم ، ولم يكن الأمر قاصرا على رؤساء العشيرة الزندية بل تعدى ذلك إلى كل عشيرة ساعدت أو آزرت الأسرة الزندية ، إذ أجلاهم عن فارس إلى الأقاليم النائية ، وأسكن مكانهم القبائل الفارسية الأصل (١) .

وقد تمت معظم هذه الاضطهادات والمظالم على يدي (حاجي ابراهيم خان) الخائن . وفي هذا يقول صاحب كتاب (المآثر السلطانية) أعنى تاريخ القجاريين ان (حاجي ابراهيم خان) قد ارتكب هذه الأعمال الشنيعة وأقدم على هذه الخيانة أملا في الاستقلال بشيراز ، ولكنه لم يكن لييبح بذلك أو يظهره خوفا من (أقا محمد خان) ، بدليل أنه سلم إليه قلعة (شيراز) متظاهرا بالاخلاص ، فنصبه (أقا محمد خان) واليا على فارس ، غير أن أحدا لم يكن ليشتك في خيانه (حاجي ابراهيم) في الوقت الذي كان يتفنن فيه هذا الخائن الدنيء وذوو قريباه في إزلال أنواع المظالم وصنوف العذاب بالزنديين ، فكانوا يجمعون شباب الزنديين وينديقونهم العذاب ألوانا بوخرهم بالأبر والمسلات في أكبادهم ، وظلت هذه المأساة تتكرر فصولها إلى أن انتقم الله بعدله المطلق من هؤلاء الشياطين ، حيث سلط عليهم بعد وفاة (أقا محمد خان) بقليل ، الشاه (فتح علي خان) الذي أمر بسمل عيني (حاجي ابراهيم خان) وعيون أبنائه ونسائه ، وأصدر أمرا آخر بالقضاء نهائيا على إخوته وسائر

(١) بحث (الحكومة الزندية) هذا مأخوذ معظمه من تاريخ الميجور جنرال

(مرجون مال كولم) الذي جاء إلى فارس بنفسه واجتمع في (شيراز) بحاجي ابراهيم وبأشخاص آخرين اشتركوا في وقائع الزنديين وذلك بعد انقراض الدولة المذكورة .

أقاربه ، ثم نفاه وأسرتة إلى (قزوين) حيث قضى هنالك أخريات أيامه مع أفراد أسرتة المحرومين جميعا من نعمة الابصار .

وفي عهد (فتح علي خان) هذا ، انتقض عليه (محمد خان) نجل (زكي خان) مطالباً بالاستقلال بالحكم والسلطة ، واستولى على بعض البلاد الإيرانية حتى (أصفهان) ، غير أنه لم يتمكن من المحافظة عليها ففر هاربا ولجأ إلى الحكومة العثمانية .

ولم تحدث - بعد هذا الحادث - أية محاولة أخرى لاسترداد الحكم ، وهكذا تم الأمر للقجاريين ودالت دولة الزندين نهائيا .

نظرة عامة في أحوال هذه الحكومة

يقولون إن التاريخ يعيد نفسه ، فما أصدق هذا القول ، إذ كثيرا ما رأينا حكومات تأسست وقامت في البداية في ظل ظروف ملائمة ومشابهة ، ثم ذهبت وتلاشت في ظروف سيئة... ولنلق هنا نظرة عابرة على الحكومات التيمورية والجلاليرية والقره قوينلية ، والآق قوينلية ، والصفوية ، والأفغانية ، والنادرية ، لنرى كيف أنها قامت في ظروف مشابهة وحسنة في بادئ الأمر ، وكيف أنها انتهت في ظروف سيئة إلى خاتمة أليمة .

ولاريب في أن مؤسسي هذه الحكومات ، علاوة على مزاياهم الشخصية كان الحظ السعيد يلزمهم وحسن الطالع يسير في ركابهم ، في حين أن أحفادهم كانوا إما يفتقرون إلى تلك المزايا الشخصية العالية ، وإما أن الحظ كان يتنكر لهم والظروف تتجهم لهم .

وهكذا خضعت الحكومة الزندية لهذه القاعدة الأزلية ولم تشذ عنها ، فثلا نرى أن (كريمخان) قد تمكن بفضل مزاياه الشخصية العالية من حزم وبسالة فائقة وظروف موالية ، من إنشاء دولة من العدم ، ولكن خلفاءه لم يبرز

من بينهم من يصلح للحكم والادارة، اللهم إلا (علي مراد خان) و (لطف علي خان) ، غير أن الأجل المحتوم لم يمهل أولهما كي يقوم بعمل حاسم ينقذ به إيران كلها من الوهدة التي تردت فيها نتيجة لفوضى المنافسين ويضمن لأمرته البقاء طويلا ، إذ أصيب بداء الاستسقاء وسرعان ما برحت به العلة فقضى نحبه وهو ما يزال في ربيع حياته.

أما (لطف علي خان) فهو كما يقول سرماالكولم كان حائزا لجميع الصفات التي كان ينحلي بها كل من (جنكيز خان) و (تيمور لك) وكانت مبعث شهرتهما . وليس أدل على ذلك من أن ألد أعدائه وهو (أقا محمد خان) كان يعترف له بالبطولة والبسالة . ولكنه وباللاسف كان مبتلى بوزير خائن دنيء الطبع مثل (حاجي ابراهيم خان) الذي حاول كثيراً أمام (سرماالكولم) تبرئة نفسه من الفعال الشنيعة والتصرفات الظالمة التي بدرت منه نحو ولي نعمته وأحفاده ، لأن كريمخان كان قد قرب والده منه وأغدق عليه من سابق نعمه كما أن (جعفر خان) كان قد أسند اليه منصباً سامياً وهو حكومة فارس . وهكذا أصبح في مصاف رجالات الدولة الزندية . ولبكن ولد هذا الذئب قد غلبت عليه خسة طبعه ودناءة أصله ، فاقترف ما اقترف دون تخرج ضد أولياء نعمته ، وصدق عليه قول الحكيم والشاعر الفارسي المرحوم سعدى (عاقبت كرك زاده كرك شود) أعنى أن الولد سرأيه ، فإن الذئب يكون ذئبا لا محالة .

ويقول مؤلف تاريخ القجار وهو (عبد الرزاق بن نجف قلى) - بكل تراهة وصراحة - ان (حاجي ابراهيم خان) كان يدبر المكائد ويحيك الدسائس منذ سنوات عدة وانه ولا شك في أن الذئب الصغير إذا كبر أول ما يبطن يبطن بمريه ، ولو كان لدى (لطف علي خان) بعد نظر جده (كريمخان) وأناته لأمكنه استمالة قلوب أهل شيراز اليه ولسهل عليه حينذاك البطش

بحاجي ابراهيم والقضاء عليه قبل أن يتمكن من تدبير مكائده ، ولكن هكذا شاء القدر فكان ما كان .

نعم ! إن أعمال (أفا محمد خان) الوحشية مع (لطف علي خان) تستحق لعنة التاريخ إلى الأبد ، وتنفّر النفوس الحية منها أشدّ النفور ، لان هذا الزعيم الجبار في الوقت الذي كان يظهر فيه إعجابه بجرأة خصمه وشهامته في الحروب والمعارك - تقدم منه بنفسه ، حين أحضر بين يديه مجروحاً ومقيداً . ومد أظافره القذرة إلى هاتين العينين الشهلأوين فسلمهما ، ثم عامله معاملة يندى لها جبين الانسان على مدى الدهر ويخجل التاريخ من تسجيلها وترديد أسطورتها على صفحاته الخالدة ، كما يقول سرجون مالسكولم .

(Faint bleed-through text from the reverse side of the page, including names like 'أفا محمد خان' and 'لطف علي خان') .

الفصل الرابع عشر

١٤ - حكومة الامارة البراخوتية (١١٧٢ هـ - ١٣٠٠ هـ)

ذكرنا في المجلد الأول من هذا الكتاب نبذة عن هذه العشيرة البراخوتية ولكننا لم نعط تفصيلات وافية عن أصل هذه العشيرة ونسبها وعن إدارتها قديما . فيؤخذ من بحوث (دائرة المعارف الاسلامية) عن البراخوتية ، أن هنالك بعض عشائر كردية اتجهت من الغرب إلى شرقي إيران وإلى كرمان عقب زوال سلطان المغول عن البلاد ، والظاهر أن عشائر الكوج (١) أي الكرد كانت من بين هذه العشائر حيث استقر بها المقام مع العشائر البلوجية في جبال كرمان .

يتضح من هذا أن (دائرة المعارف الاسلامية) لا تعرف متى وكيف جاءت هذه العشائر الكردية الى بلاد كرمان ... ولعل بحوث المؤرخين التي ستظهر فيما بعد تلتقي قبسا من النور على هذا الموضوع الغامض . ويقول المستر كورزن في كتابه (٢) انه كان يقيم بأقليم (سيستان = سجستان) عشيرة كردية من العشائر النازحة من كردستان ، في وقت نجهله لأسباب غير معروفة وتدعى الآن هذه العشيرة باسم (كردكلي) ، وقد وفقت في تأسيس حكومة مستقلة في بلاد

- (١) في كتب الجغرافيا العربية والتاريخ الاسلامي هم القفص والبلوج ...
 - (٢) أنظر حاشية المترجم في آخر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب .
- المترجم

الغور باسم (ملك كرد (١) = مملكة الكرد) . وقد عمرت هذه الحكومة من ١٢٤٥ حتى سنة ١٣٨٣ للميلاد أي ثمانية وثلاثين عاما بعد المائة

ولما كانت لغة عشيرة البراخوي مشهورة باسم (كردكه ل = كردكلي) فليس بعيد أن تكون عشيرة (سجستان) هي الأخرى فرعا من تلك العشيرة البراخوية لاسيا وأن أقليمى سجستان وبلوستان متجاوران ومتداخلان . ثم تسبب (دائرة المعارف الاسلامية) في سرد التفاصيل فنقول انه مادامت عشائر البراخوي ليست من قبيلة الدراويده الهندية فهي على ما يظهر من تلك العشائر الكوجية = القفصية أي الكردية التي نزلت إلى كرمان ثم إلى مكران بعد إغارة المغول ، ثم اختلطت بها بعض العشائر البلوجية والأفغانية ، ونشأت منها (عشائر براخوي) ببلوستان الحالية . وقد تم هذا الاختلاط وذلك الاندماج - على ما يظهر - رويدا رويدا ، بدليل أنهم أدخلوا في لهجاتهم بعض الألفاظ الدراويدية ، مما يدل على أن هؤلاء البراخويين عاشوا فترة من الزمن مع الدراويديين حتى أخرجوهم من بلادهم إلى الشرق مثلما دفعوا بأكثر العشائر البلوجية إلى النزوح إلى الهند فرارا من وجه (البراخويين) . ويظهر أن البراخويين قد ساعدوا (نادرشاه) حين دخل الهند مجتaha ، وقدموا له جليل الخدمات ، فكافأهم على ذلك باقطاعهم أرض (كاهورا) الهندية . وقد حارب (عبد الله خان (٢)) زعيم العشيرة البراخوية ومعه نجله (محبت خان)

(١) هم ملوك كرت المشهورون في التاريخ التبت عليهم الكلمة . المترجم
(٢) الظاهر أنه حفيد قنبرخان وكان رئيس عشيرة البراخوية أثناء انقراض الدولة الصفوية الايرانية في أواسط القرن السابع عشر الميلادي وقد بسط حمايته على راجا من راجوات الهند ضد الجيش الأفغاني ويظهر أنه أخذ زمام الأمور بيده في مقاطعة ذلك الأمير الهندي ، ولأنه لم شيئا آخر عن مصير هذا الأمير البراخوي . اهـ من (كتاب عشرة آلاف ميل أو ثمان سنوات في إيران)
لؤلفه الميجر برسي مولسورث Sykes لندن ١٩٠٢ م المؤلف

بلوج (داراجات) واستوليا على اراضيهم . وبعد قليل حارب (عبد الله خان) عشائر الكلهورا ولكنه قتل في إحدى المعارك ، وكان (محبت خان) ونجله (ناصر خان) رهينين لدى (نادرشاه) . ولقد وقع (محبت خان) في النهاية أسيرا في قبضة (أحمد شاه الدوراني) حاكم الأفغان ومات في سجنه ؛ فأخذ (ناصر خان) في تصريف شئون البراخوي في شكل حكومة تابعة للأفغان ؛ فأنشأ إدارة منظمة للبراخوي في (مكران) و (كج) ؛ وكان (أحمد شاه) قد أضاف منطقة (شال) و (موستانك) إلى (لاس بيللا) وامتد نفوذه إلى (كراجي) حيث انتزع بضعة بلدان هندية أخرى حتى شمل نفوذه من الغرب ، مدينة (بامبور) الواقعة على مسافة مائة وعشرين ميلا من جنوب شرقي كرمان ، كما في كتاب (عشرة آلاف ميل من السياحة في إيران) يتضح من كل ذلك أن أعظم عمل قام به (ناصر خان) هو تنظيم أمور البراخوي وإدارة دفة شئونهم بحكمة وحزم . وكانت هذه العشيرة تنقسم إلى قسمين : سراوان وجاهلاوان ، فعين رئيس عشيرة (رازاني) زعيما للقسم الأول ، وعين رئيس عشيرة (زهري) زعيما للقسم الثاني . وكانت الاعتبارات العسكرية وحدها هي التي أملت هذا التقسيم ، لأنه كان يهدف من ورائه إلى الحصول على جيش مجهز من طرف كل من الزعيمين . إذا جد الجدودق ناقوس الخطر . ولما توافرت القوة لناصر خان وتحقق له السلطان والنفوذ على هذا الوجه ، لم يعد يعترف لأحمدشاه بالتبعية ؛ مما أدى إلى غضب أحمدشاه وتجريده حملة عنيفة عليه في سنة (١٧٢٢ هـ) وألحق به هزيمة منكرة في بلدة (موستانك) وظل يطارده حتى قلعة (كلات) وحاصره فيها أربعين يوما ولكنه لم يتمكن منه فاضطر إلى الصلح على شريطة أن يعترف له (ناصر خان) بالسيادة . وقد استمر (ناصر خان) مستقلا بشئون إمارته يديرها حسبما تشاء وكيفما يريد ، ولكنه كان يلبي النداء ويسارع إلى النجدة متى طلب إليه أحمد شاه

وذلك إذا اشتبك مع غيره في حروب . وهكذا أصبح (ناصر خان) له اليد الطولى في انتصارات أحمد شاه الكثيرة . ولاشك في أن (ناصر خان) أعظم الأمرام البراخوتيين حزمًا وعزمًا وشجاعة وحسن تدبير وتدبير في ميسادين الحرب والسياسة .

وقد توفي ناصر خان في عام ١٢١٠ هـ (١٧٩٥ م) ، وكان ابنه (محمود خان) ما يزال طفلاً ولكنه خلف والده ، فركب (بهرام خان بن محبت خان) متن الشطط وأخذ يثير الفتن ويشن الثورات ضد هذا الأمير الطفل ولكن عبثاً حاول ومن غير طائل ، ورغم ذلك لم يستطع الأمير (محمود خان) المحافظة على كل البلاد . إذ خرج من يده قسم منها مثل (كراچی) وغيرها . ثم انقضت أيامه ودالت دولته في سنة ١٨٢١ م ، فخلفه ابنه (مهربان خان) الذى أظهر استعداداً في إدارة دفة شئون الحكم أكثر من والده . وذات يوم التقى به خصمه (أحمد يار خان بن بهرام خان) واشتبك في قتال أسفر عن القبض عليه وإعدامه في قلعة (كلات) . وهكذا ولت أيام هذا الأمير نتيجة للثورات والقتال . ولقد فقدت الدولة منطقة (هارانه) و (داخيلي) بسبب انفصال بعض عشائر (جاملاوان) البراخوتية عن بعضها من جراء (داود محمد الكزائي) . كما أن حماية (الشاه شجاع الملك) أدت إلى تعكير صفو العلاقات مع الحكومة الدورانية الأفغانية في عام ١٢٥٠ للهجرة ، كما أفضى سوء إدارة (داود محمد السردار) ومن بعده خلفه (محمد حسين) وقلّة تبصرهما بعواقب الأمور إلى توتر العلاقات أيضاً مع الانجليز الذين جردوا قوة عسكرية على (محراب خان) فحاصرت قلعة (كلات) واستولت عليها . وبعد أن قتل (محراب خان) في هذه المعارك ضمت بعض أملاك البراخوتى إلى الحكام الدورانيين ؛ وعين (شاهنواز خان) حفيد (محبت خان) أميراً للبراخوتيين ، وعلى أثر ذلك استنجد ابن محراب خان بعشائر (نوشيرواني)

ضد أعدائه ، فأقبلت تلك العشائر وبصحتها بضع من السروانية وهاجموا جميعا قلعة (كلات) واستردوها ، وظلت الأمور تتطورر حتى أدت إلى عزل (شاهنواز خان) وتنصيب ابن محراب خان أميراً على البلاد باسم (ناصر خان الثاني) ، وكان قائد الحملة الانجليزية قد وقع أسيراً ، فأحسنوا معاملته ثم أعادوه إلى بلاده عام ١٨٤٠ للميلاد وبعد عام من هذا التاريخ اعترفت الحكومة الانجليزية رسمياً بامارة (ناصر خان الثاني) . وفي سنة ١٨٤٣ قطع الأمير علاقاته بحكومة الأفغان وأعلن تبعيته للحكومة الهندية ولا تزال هذه التبعية مستمرة إلى يومنا هذا .

وقد توفي ناصر خان الثاني عام ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م) ، وخلفه في منصبه أخوه (خداداد خان) الذي اعتزل الحكم في سنة ١٨٩٣ وخلفه (مير محمد خان) في الامارة وهو الآن قائم بإدارة دفة شئون البلاد .
(دائرة المعارف الاسلامية جزء أول) .

(Faint bleed-through text from the reverse side of the page, including words like "مير محمد خان" and "دائرة المعارف")

الباب الثاني

في «الامارات الكردية في العهد الاسلامي»^(١)

كل من أمعن النظر في أحوال الشعب الكردي وظروفه الغابرة ، يعرف على وجه التحقيق أن هذا الشعب قديما وحديثا ، أولا وآخرآ ، كان متمتعا بحريته الداخلية ، وحريصا على التثبيت باستقلاله في كافة شئونه . فحافظ على هذا الحق الطبيعي حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري بفوارق بسيطة في مدى هذا الاستقلال . وقد حالفه الحظ أحيانا في القرون الوسطى فتيسر له الحصول على قسط وافر من استقلاله الخارجي ولو في بضع أنحاء من وطنه الخالد . ولكن هذه الحالة لم تدم طويلا نتيجة لعوامل داخلية وخارجية ، وأسباب اجتماعية وسياسية ، إلى غير ذلك من الأحوال العامة التي سلبته الاستقلال الخارجي في كثير من الأوقات ، وأرغمته على الاكتفاء بحريته الداخلية والتفرغ لشئون الدفاع عن هذا الحق الطبيعي طيلة العصور الغابرة ضد القوات المحتلة لبلاده العزيزة . ومن دواعي الأسف أننا نفتقر إلى معلومات عن مدى استقلاله في شئونه الداخلية في العصور الحريقة في القدم اللهم إلا بعض وقائع تاريخية قديمة قد تلتق قبسا من الضوء على هذا الموضوع وتعطينا فكرة ما عن مدى ذلك . مثال ذلك أن النضال الذي نراه بين ملوك آشور مع الشعب اللولوى والجوتى والنايرى ، وحروب (فرهاد الرابع) ملك البارث مع ميدية الصغرى ، وكذا الثورات والحروب التي خاض غمارها الوطن الكردي في مختلف عصور التاريخ الإسلامى ضد المغيرين والحكام الأجانب ، لأسطع برهان على تفان الأمة الكردية في الدفاع عن حريتها والتمسك

(١) وهي خمس وثلاثون إمارة أو شبيها في سبع مجموعات . المترجم

بكيانها واستقلالها الداخلي منتهزة كل فرصة تواتبها وكل انقلاب ينتاب البلاد فتدلى فيه بدلوها فتتال من الغاصبين وهم ينالون منها ... ولما كانت هذه الحوادث التاريخية التفصيلية ليس لها تاريخ مستقل أفرد لها المؤلفون . فليس إذن في تناول أيدينا معلومات مسببة عن مجريات الحوادث في تلك الامارات الوطنية المجاهدة في سبيل الوطن الأكبر ، اللهم إلا تتف من الأخبار والمعلومات الاستطراذية المبعثرة هنا وهناك .. نعم إن الأمير شرف الدين البديني صاحب تاريخ (شرفنامه) قد كتب الكثير عن تلك الامارات الوطنية ولكن كتابته قد وقعت عند القرن السابع (١) الهجري وبعضها مقتبس من روايات وأقوال أخذت من أفواه البعيدين عن مواطن الحوادث ولذلك لا يعول عليها كثيراً ، وفي الوقت نفسه ليس في مكننتنا أن نستغنى عنها وعن آراء بعض مؤرخين آخرين مادام الحصول على معلومات أدق وأصدق من أية جهة أخرى متعذراً . وقد قسم المستشرق الكبير والمؤرخ الجليل المسيو (مينورسكي) هذه الامارات الى مجموعات عدة وأفرد لكل منها خلاصة موجزة شافية وسنحذو هنا حذوه ونتهج نهجه . إلا أننا سنغني باعطاء معلومات أكثر تفصيلاً عن إمارات البهادينان والسهران واليابان .

﴿ ١ ﴾ - « إمارات ما بين الجزيرة ودرسم » (١ - ٩)

١ - امارة الجزيرة :

جاء في تاريخ (شرفنامه) أن نسب أمراء هذه الامارة يرجع إلى الاسرة الاموية^(٢) ، إذ أن هؤلاء الامراء من ذرية سيدنا (خالد بن الوليد) . ولكن التاريخ الإسلامي العام لم يذكر شيئاً عن وجود (خالد) أو عن وجود ابن

(١) كذا في الاصل والصحيح القرن السابع العشر الميلادي أو القرن الحادي عشر الهجري .

له يدعى (سليمان) في كردستان ، كما أنه من المعروف على وجه التحقيق أن ذرية هذا البطل العربي والقائد الاسلامي قد انقرضت في صدر الإسلام ، ولهذا كان من العسير الاخذ بمثل هذه الرواية (١) .

وقصارى القول ان (شرفنامه) يجعل من (سليمان بن خالد) جدا لامراء الجزيرة ، ويقول ان هذه الامارة قامت وأُسست في عهد الامويين ، والظاهر أن الدكتور (فريج) قد اتخذ من هذه الرواية أساسا لتقولاته دون أن يفطن

(١) وعلى حسب الروايات الشائعة في جهات (سعرد) و (جزره) أن خالد ابن الوليد مدفون في (سعرد) . في حين أن أخبار التاريخ الصحيح تقول : إنه توفي في (حمص) ودفن فيها . وأعتقد أن انتشار هذه الرواية في كردستان يرجع إلى محبة الشعب الكردي لخالد بن الوليد وإعجابه ببسالة الأبطال وشجاعة الشجعان ، لأن التاريخ ينص على انقطاع ذرية (خالد) في صدر الإسلام . والمنواتر أن له أنجالا ثلاثة سليمان وعبد الرحمن ومهاجر وكان أولهم مع علي رضي الله عنه وقتل في حرب صفين ، وكان الثاني واليا على حمص ففسد له السم في دواء بأمر من معاوية (تاريخ خالد بن الوليد لابن يزيد شبلي ص ٢٠٨) ويقول مؤلف (أسد الغابة ج - ٢ ص ١٠٤) انه لم يبق أحد من ذرية خالد إذ قضى الطاعون في الشام على أكثر من أربعين من ذريته فورث (أيوب بن سلمة بن عبدالله) أملاكه في المدينة . ويؤيد صاحب (نهاية الأرب) هذه الرواية حيث يقول (فلم يبق منهم أحد شرقا ولا غربا وأن من انتمى إليهم فهو مبطل في اتنائه ، وكل من ادعى ذلك فقد كذب) ج - ٢ ص ٣٥٦ . هذا من المحتمل جداً أن تكون عشائر الجزيرة وحواليها منحدره من الشعب (الخلدى = الكلدى) التاريخي القديم الذي سيطر على (أورارتو) مدة طويلة ثم تشتت نتيجة لاستيلاء الكهريين على البلاد ولا سيما أن بعض المستشرقين يعتبر اسم الخلدى أو الكلدى من بين الاسماء المشتركة التي تطلق على الشعب الكلدى تبعا للظروف والأحوال ، فكانت هذه الحالة الاجتماعية والتاريخية سببا في ادعاء الخالدية في تلك الجهات . المؤلف

إلى أنها في حاجة ماسة إلى التمهيص والتحقيق والرجوع إلى مصادر ومراجع أخرى في هذا الصدد، ولهذا أورد أحكاما خاطئة وبعيدة عن الصواب، لأن رواية (شرفنامه) وحكم الدكتور (فريج) الشاذ الذي بناه عليها لا يتفق كلاهما قطعا وما أجمع عليه علماء التاريخ والباحثون من عدم صحة الرواية من أساسها. ثم يوغل (شرفنامه) في سرد روايته تلك فيقول انه بعد وفاة (سليمان ابن خالد) تولى الحكم من بعده أولاده الثلاثة (مير عبد العزيز) و (مير حاجي بدر) و (مير عبدال) وقسموا البلاد بينهم فتكونت من ذلك أسر ثلاث هي العزيزية والبدرية والعبدالية. وتولت (العزيزية) شؤون بلاد الجزيرة وأطرافها بعد انقراض السلجوقيين وقيام دويلات محلية في البلاد، وليس لدينا معلومات تذكرها عن (مير عبد العزيز) وأولاده وأحفاده حتى البطن الرابع وقد كان «تيمور لنك» الفاتح العالمي يعاصر (مير عز الدين بن بدر الدين ابن عيسى بن محمد الدين بن مير عبد العزيز)؛ وكان مير عز الدين يخشى غزوه لبلادهم ولهذا فقد ذهب لمقابلته في (ماردين) إذ ذاك وعرض عليه فروض الطاعة وبذلك جنب بلادهم ويلات الحرب.

ولكنه لم يلبث بعد رده من الزمن أن شق عصا الطاعة على ابن تيمور فنشب القتال بينهما وأسفر هذا القتال عن احتلال التيموريين للبلاد، ولم ينج (مير عز الدين) من القتل إلا بشق الأنفس. ولما زال عهد التيموريين من البلاد استعاد أبناء الأمير عزيز مجدغم وأحبوا إمارتهم الموروثة التي عمرت منذ ذاك الوقت حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، ثم اختفت من عالم الوجود إثر ثورة (بدرخان بك العزيزي) (١) في عام ١٨٤٧ للميلاد. أما الأسرة (البدرية) فقد نشأت في منطقة (گورکيل = جردقيل) وبقيت

(١) هو المشهور ببدرخان باشا جد البدرخانين، الأميرة الكردية المثقفة الشهيرة في الشام وكردستان وتركيا. المترجم

حتى عهد (شرفخان البدليسي) أي إلى عام ١٠٠٥ للهجرة . وكان أميرها هو أحمد ابن الأمير محمد . والمصادر التاريخية خلو من أخبارهم بعد ذلك . وكانت الأسرة (العبدالية) قائمة في منطقة (فنيك) وظلت معمرة حتى عهد السلطان سليمان القانوني ثم ضمت إلى إمارة الجزيرة .

٢ - إمارة فيزاره :

يقول (شرفنامه) ان نسب حكام هذه الامارة إنما يرجع إلى أسرة من (خنس) حيث كان أخوة ثلاثة وهم (دل بك ، بل بك ، بليج بك) مرء في (خيزان = هزان) (١) و (مكس) و (اسبارد) . ويظهر أن هذه الامارات الثلاث نشأت في أواخر عهد السلاجقة ، وكانت (نيران) أفوى العشائر في تلك البلاد . وعمرت هذه الامارات مدة طويلة حتى عهد العثمانيين . وفي الوقت الذي كان يجري فيه تأليف (شرفنامه) في عام (١٠٠٥ هـ ١٥٩٧ م) كان (مير حسن) هو أمير (خيزان) وكان (مير أحمد) أمير (مكس) في حين كان قسم من (اسبارد) مخصصا لأبناء الأمير شرف .

٣ - إمارة شيروان :

يقول (شرفنامه) انه حين انقضت حكومة الأيوبيين في سوريا وزال حكمهم منها في عام (٦٦٢ هـ) ، جاء أمير من أمراء تلك الأسرة الملكية الكردية إلى بلدة (حصن كيفا) وأسس على مدى الأيام إمارة (ملكان = الملوك) ، وأن آباء أمراء (شيروان) (٢) وأجدادهم كانوا وزراء في إمارة هؤلاء الملكانيين الأيوبيين بحصن كيفا ومن أسرهم ، ويقال إن إخوة ثلاثا من هؤلاء النبلاء أبناء الوزراء وهم (عز الدين ، بدر الدين ، عماد الدين) جاءوا في وقت ما إلى بلدة (كفرا - شيروان) ، ووضعوا أساس إمارة محلية في تلك

(١) كان قضاء في لواء بدليس بتركيا .

(٢) اسم منطقة في ولاية (وان) القديعة مركزها مدينة كبرى المؤلف

المنطقة بتعصيدهم أهلها ومؤازرة حكومتها القائمة بالأمر فيها. وكان (مير حسن ابن ابراهيم) أول أمراء هذه الأسرة ، وقد قسم بلاد إمارته بين أبنائه في حياته وقبل مماته ، على أن يكونوا جميعهم تابعين لأمير (كفرى) . وكانت هذه الإمارة وفروعها (شبهستان ، ايرون ، آويل ، كفرأ) قائمة في أوائل العهد العثماني وظلت قائمة خلال هذا العهد مدة طويلة .

٤ - إمارة برليس (بيتليس) :

كان مؤلف (شرفنامه) من أمراء هذه الإمارة ومن سلالتهم التي توارثت الملك كبراً عن كبر بيد ليس ، ولهذا تمكن من جمع الكثير من المعلومات الشيقة والحقائق التاريخية عن هذه الإمارة ، سطرها وسجلها على صفحات كتابه القيم .

ولقد أرجع نسب هذه الأسرة إلى الساسانيين ملوك إيران القدماء ، ولكن الدكتور (فريج) لا يعترف بهذا القول ويظهر أنه على حق في عدم اعترافه به ، لأن (شرفنامه) يذكر في هذا الصدد تفاصيل محشوة بأسماء ووقائع لا تتفق مع التاريخ الصحيح . ثم يقول الدكتور (فريج) . ان أول أمير لبد ليس حسب المعلومات التاريخية الصحيحة هو الملك الأشرف الذى كان قبل ذلك قائداً من قواد الأيوبيين في سوريا ، وأنه حين وصول جلال الدين خوارزمشاه إلى هذه الأنحاء بسط حمايته للخوارزميين ، وقام بأجل الخدمات لتوفير الراحة للسلطان جلال الدين ، ولكنه اضطر أخيراً لإخراجه من بلاده تحت ضغط المغول الذين كانوا يتعقبون السلطان ويطاردونه من بلد إلى بلد ولكنى أرى أن رأى الدكتور (فريج) هذا أيضاً رأى ناقص إذ أن ظهور جلال الدين خوارزمشاه يصادف عهد الملك الأشرف ابن الملك العادل الأيوبي حاكم سوريا وقتذاك . وأن هذا الملك هو الذى تحالف مع السلطان علاء الدين كيقباد من سلاجقة الروم ضد جلال الدين

خوارزمشاه ، فأرسل جيشا يقوده الأمير (عز الدين عمر الحكاري) نازل به جلال الدين وألحق به هزيمة منكرة على مقربة من (أرزنجان) ، وكان ذلك في عام ٥٦١٧ هـ ، فيؤخذ من هذا أن الأمير عز الدين عمر الحكاري الذي كان قائدا من قواد الأيوبيين بسوريا هو أول حاكم على بدليس . هذا وكان أمير (بدليس) في عهد تيمورلنك هو (حاجي شرف بك) فقدم له فروض الطاعة ، فأقطعه تيمورلنك إقطاعات واسعة مثل (ياسين) و (ملازكرد) فضمها إلى أملاكه الموروثة . بيد أن هذا المجد لم يدم طويلا إذ مالبت أن قلب له الدهر ظهر النجمن وسلط عليه (آيق صوفي) وكيل تيمورلنك وعامله في تلك الجهات فقبض عليه وألحق به في غياهب السجن ثم قضى عليه ، فلجأ ابنه الأمير (شمس الدين) مع زعماء العشيرة الروجكية إلى إيران . ويقول (شرفنامه) أن أمير شمس الدين تولى الامارة بعد والده (حاجي شرف بك) ، وفي عهده لجأ (قره يوسف) القره قويونلي إلى (بدليس) فأكرم أميرها وفادته ، ثم مالبت أن زوج ابنته من هذا الأمير ، فتوثقت بهذه الزيجة الروابط بينهما وعلا شأن (قره يوسف) بفضل المساعدات التي كان الأمير يقدمها له وتمكن من إحياء الدولة القره قويونلية مرة أخرى وعمرت هذه الامارة حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي تتخللها فترات منقطعة حيث انتزعتها الحكومة العثمانية سنة (١٨٣٦ م) من يد (شرف بك) الذي كان آخر أمرائها .

ومن أبرز حوادث هذه الامارة إلتجاء والد (شرف خان المؤلف) إلى إيران ثم عودته إلى بدليس واعتراف الحكومة العثمانية بامارته عليها حسب الاصول والعادات الموروثة . وفي عام ١٠٦٦ للهجرة تذرع (ملك أحمد باشا) والي (وان) العثماني ببعض الاسباب وزحف على (عبد الخان) أمير بدليس حينذاك بجيش لجب ، الكثرة فيه من الاكراد المجاورين لهذه الامارة ، وظل يقاتله حتى اضطره إلى الفرار ، وأعمل يد النهب والسلب في البلاد حتى قضى على الامارة .

٥ - اماره صاصونه :

كانت الأسرة الحاكمة في هذه الامارة من سلالة (مير عز الدين) أخى (مير ضياء الدين) أمير (بدليس) أعني كانوا أبناء عمومة ، وكانت تعرف باسم (عزى) نسبة إلى (عز الدين) . وتأتى هذه العشيرة الصاصونية في المرتبة الثانية بالنسبة لعشيرة (روزيكي = روزكى = روجكى) (١) البدليسية ، وكانت تتألف من فرق أربع وهى (شيراوى ، بابوسى ، سوسانى ، ظاموقى) ، وبعد أن ضمت منطقة (أرزن - غرزان) لامارة (صاصون) خضعت العشائر الخالدية والديرمغانية والعزيزية أيضا لأمراء صاصون . ويقول مؤلف (شرفنامه) ان مؤسس هذه الامارة هو الأمير (أبو بكر) الذى وضع أساس إمارته في عهد حكومة الآق قوينلية . ثم خضع أمراء (صاصون) لسلطان الشاه (اسماعيل) الصفوى حتى حدثت معركة (جالديران) الشهيرة بين الايرانيين والعثمانيين فانضم (محمود بك) الصاصونى للعثمانيين ، وضمت إليه قلعة (أرزن) التى جرت حولها فيما بعد معارك دامية بينه وبين الملك (خليل) حاكم (حصن كيفا) . وعمرت هذه الاماره مثل الامارات الأخرى فترة كبيرة من الزمن في عهد العثمانيين . (حيث كانت مشهورة باسم حزو = حظو . المترجم)

٦ - اماره السويرية :

يقول مؤلف (شرفنامه) ان أمراء هذه الامارة هم أحفاد البرامكة .

(١) كانت هذه العشيرة تتألف من أربع وعشرين فرقة في قسعين (عباسى وكواليسى) ، فكانت فرق أربع منها تسكن منذ البداية في أطراف بدليس ثم انضمت إليها عشرون فرقة أخرى . وفى رواية أخرى انها تمكنت من انتزاع قلعة بدليس من ملك الكرج (داويد) فيما بعد . المؤلف (٢ - ٢٤)

وجاء في رواية اخرى له، أن العشيرة السويدية جاءت إلى كردستان من بلدة تدعى (سويد) (١) على بعد فرسخين من المدينة المنورة من ناحية الشمال. وذكرت الروايات المختلفة أن هذه الامارة قد أسست قبل الآق قوينلية بزمن طويل حيث ان خامس أمراء هذه الأسرة كان يدعى (مير نجر الدين) فالتجأ أخوه إلى (حسن الطويل) سلطان الآق قوينلية فأقطعها السلطان قلعته (خان چوك) و (جباچور). وكانت بلدة (كنج) مركزا للامارة أصلا. وفي عهد (شرفخان) كان سليمان بك أمير السويدي وكانت الدولة العثمانية تجلبها جلالا تاما. وقد دامت هذه الامارة أيضا كالامارات الأخرى في عهد العثمانيين مدة طويلة.

٧ - امارة البازوكيين :

جاء في رواية أن عشيرة البازوكي إيرانية (٢)، وجاء في أخرى أن أمراء هذه الامارة كانوا من العشيرة السويدية. وتنقسم العشيرة البازوكية إلى قسمين هما (خالد بكو) و (شكر بكو)، وكان القسم الأول حاكما ومستوطنا بمنطقة (خنس وملاز كرد وقسم من موش)، أما القسم الثاني فكان خاضعا لحكم أمير بدليس.

وليس لدينا معلومات عن التاريخ القديم لهذه الامارة، اللهم إلا اسم مؤسس القسم الأول وهو (حسين علي بك)، وكان (خالد بن شهبوار بك بن حسين علي بك) في معية الشاه اسماعيل، وقد نال شهرة بحروبه العديدة

(١) الأقرب إلى الصحة والعقل، أنها قدمت من قلعة السويداء الواقعة بين آمد والرها والمعروفة الآن بين الكرد بـ (سوراك) وفي لغة الترك (سيوهرك) ولا معنى لسويد المدينة المنورة ولا غيرها هنا. المترجم

(٢) أي من الأكراد إيران بدليل ذكر (شرفنامه) لهذه الامارة ضمن الامارات التي أسستها الأكراد في إيران ولكن المؤلف راعى الموقع الجغرافي للامارة فذكرها في البلاد العثمانية (تركيا) الحالية. المترجم

وبطولته الرائعة حتى أنه فقد إحدى ذراعيه في إحدى المعارك فاشتهر بخالد
ذى اليد الواحدة وأعطاه الشاه لقاء أعماله الباسلة بلدتي (خنس) و (ملاز كرد)
وناحية (أوخكان) (١) ، ولكنه شق عصا الطاعة على الشاه فيما بعد ، وأعلن
استقلاله عنه . ثم التجأ إلى السلطان (سليم ياوز) ولكنه ما لبث أن شق
عليه الطاعة أيضا ، فأمر السلطان بالقبض عليه وقتله . وقد عمرت إمارة هذه
الأسرة مدة طويلة ، وفي عهد إمارة (قلنج بك) هاجر قسم من هذه
العشيرة إلى مناطق عشيرة الدنبلية (دوملي) واندججت فيها . وهكذا خضعت
لسلطان الدولة العثمانية .

٨ - إمارة مرداسي (مرداسي = مرداسي)

يقول (شرفنامه) ان نسب هذه الأسرة يرتقى إلى العباسيين ، وان مؤسس
هذه الإمارة شيخ يدعى (بير منصور) قدم من حكارى إلى قلعة (أكيل)
وأقام بها حتى علا شأنه . ولما مات ، خلفه ابنه (بير موسى) : ولما مات
(بير موسى) خلفه ابنه (بدر) الذى ما لبث أن ازداد نفوذه وقويت
شوكته فاحتل قلعة (أكيل) نهائيا ، وقد سميت هذه الإمارة بالمرداسية
نتيجة تعاضد العشيرة المرداسية لهذا الشيخ في تأسيسها . وبعد فترة من الزمن
استولى السلجوقيون على قلعة (أكيل) فلجأ (بير بدر) مضطرا إلى (مياقارقين)
حيث لقي حتفه في ساحة الوغى أثناء هجوم (آلب أرسلان) على هذه المدينة
وبعد ربح من الزمن ، وضع (بولدق) ابن (بير بدر) أساس أسرة (أكيل)
التي تشعبت منها فيما بعد أسرتا (بالو) و (جرموك = جرميك = جرموق)
وظلت هذه الأسرة تتوارث الإمارة حتى ضمت في عهد الشاه اسماعيل
الصفوى إلى العثمانيين .

(١) كذا في الأصل وفي (شرفنامه) طبعة روسيا (أو حكان موش) وطبعة

القاهرة (أو جكان موش) فليحرره المترجم

٨ - امارة جمشكزك :

جاء في رواية أن الأسرة التي أسست هذه الامارة هي من أحفاد العباسيين .
 وفي رواية أخرى أنها من سلالة السلجوقيين . والمعروف لنا أن تأسيس
 هذه الامارة إنما يرجع إلى (ملك محمد) ووالده ؛ فقد حارب ملك شاه ابن
 ملك محمد ، السلاجقة في عام (٥٩٦) ليستقل عنهم . ولكنه قتل في المعركة
 وسقطت البلاد غنيمه باردة في قبضة السلاجقة . وبعد فترة من الزمن قام
 ابنه ملك محمد ، باحياء الإمارة من جديد ، فاستولى على اثنتين وثلاثين قلعة
 وست عشرة ناحية من أمهات بلاد الامارة . وقد اشتهرت عشيرته باسم (ملكشاهي) .
 وفي اللهجة الكردية باسم (ملكيشي) ؛ وقد علا شأن هذه العشيرة وامتد
 سلطانها على سائر البلاد ، وأصبحت كاملة (جمشكزك) علما على كردستان
 بأكمله . وحافظت هذه الامارة على نفوذها وسلطانها في عهد المغول
 والتموريين والقره قوينلية ، ولكن نفوذها أخذت تضائل في عهد الآق قوينلية
 وبدأت تفقد سلطانها بسبب عشيرة تركية قوية قد زجت بنفسها وتداخلت
 بين عشيرة (ملكيشي) على الرغم من مقاومة (بير حسين) للعشيرة الدخيلة
 وإخراجها من البلاد مرارا ، ورغم إطاعته أيضا للشاه اسماعيل وخضوعه له .
 ولكن كل ذلك لم يحده قليلا فسقطت البلاد في أيدي القزل باش من رجال
 الشاه اسماعيل الصفوي الذين كانوا من التركان المتعصبين للشيعة . وبعد فترة
 من الزمن أعاد السلطان سليم إمارة جمشكزك إلى الأمير (بير حسين) الذي
 أثارت بسالته وبطولته إعجاب السلطان سليم وتقديره له . وقد هاجم هذا
 الأمير الهمام ، (نور علي) حاكم جمشكزك الإيراني وقتله واسترد إمارته ، وبعد وفاة
 الأمير (بير حسين) تشعبت إمارته إلى ثلاث شعب (مجنكرد وپرتك وسقمان)
 واستمرت تلك الشعب حتى أواسط عهد العثمانيين . وكان للأمير (بير حسين)
 عددا زعماء الثلاث المقاطعات من الإنجال . تسعة أنجال كانوا حكاما للمقاطعات
 المختلفة من البلاد العثمانية على سبيل التملك

﴿ ب ﴾ الامارات الكردية فيما بين الجزيرة وكلس (١٠ - ١٣)

١٠ - امارة مصى كيف :

يقول (شرفنامه) ان ملوك هذه الامارة من أحفاد السلالة الايوبية ، وان أول حاكم من هذه الأسرة هو الملك (سليمان) الذي كان ملكا في عهد الجنكيزيين . وعلى هذا يكون عام (٧٣٦) للهجرة ، هو العام الذي قامت خلاله هذه الامارة . وكانت العلاقات ودية وطيبة للغاية بين الملك محمد بن الملك سليمان وبين المغول والایرانیين . وفي عهد التيموريين كان يحكم الامارة حفيد الملك محمد المدعو الملك الأشرف فقابل (تيمورلنك) في (ماردين) وقدم له فروض الطاعة . ثم سلك ابنه الملك خليل مسلكه في تقديم فروض الطاعة للتيموريين . ولقد كان الملك خلف (أبو سيفين) ابن الملك خليل ، على جانب عظيم من البسالة والجرأة . فاستمات في الدفاع عن (حصن كيف = حسنكيف) ضد هجوم الآق قوينلية ، ولكن أحد قواده قدحانه ، قادت خيافته إلى سقوط القلعة وزوال سلطان هذه الأسرة إلى حين .

وقد لجأ أمير من أمراء هذه الأسرة ويدعى (الملك خليل) إلى مدينة (حماه) في الوقت الذي كان يتطاحن فيه رجال الآق قوينلية ويتقاتلون جريا وراء السلطان والنفوذ ، فاتتهز فرصة تطاحنهم وعاد إلى كردستان ، وهناك أزرته العشائر الكردية ومدت إليه يد المساعدة . وبهذا تمكن من الاستيلاء على (سعرد) وعلا شأنه وما لبث أن استرد (حصن كيف) وأعاد بناء إمارته من جديد .

وعلى الرغم من أن الملك خليل قد حسن علاقاته بالصفويين وخصاهم حين استيلائهم على البلاد ، إلا أن ذلك لم يحل دون غدر الشاه اسماعيل به

إذ أُلقي القبض عليه وسجنه في سجون (تبريز) الرهيبة ، ولبت فيها حتى
نُشبت معركة (جالديران) الشهيرة بين الشاه اسماعيل وبين السلطان سليم ،
فنجح السجين وعاد إلى إمارته . ورضي عنه السلطان سليم وحماه ، وقد ظلت
هذه الحماية قائمة فترة من الزمن في عهد أحفاده وخلفائه أيام العثمانيين الذين
فَضُوا على هذه الإمارة فيما بعد .

١١ - إمارة - سليمانى = سليفانى .

يرجع (شرفنامه) نسب أمراء هذه الأسرة إلى إخوة ثلاثة كانوا أبناء
(مروان بن محمد) آخر خلفاء بني أمية ، ويقول إن هؤلاء الإخوة قد وفدوا
إلى منطقة (قوراب (١)) بعد زوال السلطان عن بني أمية ، وقد علا شأنهم
وقويت شكيمتهم بفضل المساعدة التي قدمت إليهم من عشيرة (بانوكى =
بانه كى) الكردية ، وما لبثوا أن امتد سلطانهم حتى البلاد الواقعة على نهر دجلة
حيث اتزعوا بضعة قلاع ومدن من الأرمن والكرج الذين كانوا مستولين عليها
وضموها إلى تلك المنطقة التي وفدوا إليها وبهذا وضعوا أساس حكمه قوية .

وكانت غالبية الثمانية عشائر الكبرى التي كانت سكان هذه الإمارة ، من
الرحل السنين واليزيديين . وكانت عشيرة (سليمانى (١)) من بين هذه العشائر .
ويرى (شرفنامه) أيضا أن مؤسس هذه الإمارة كان يدعى (مروان) وأنه
في عهد (ديادين بن ابراهيم بن عز الدين بن بهاء الدين بن مروان)
خامس أمير بعد هذا الأمير الأول ، ظهر الشاه اسماعيل الصفوى ، وقد
أحسن الأمير (ديادين) علاقته مع والى (ديار بكر) من قبل الصفويين

(١) قضاء في ولاية بدليس القديمة ولواء كنج بتركيا الحالية المؤلف
(٢) هي (سليفانى = سليوانى) الحالى القاطنة في اطراف ميافارقين . المترجم

ووفق إلى مصاهرته . وبعد وفاة هذا الأمير انتقلت شئون الحكم إلى أيدي أبناء أخيه فنشأ من ذلك أسرتان :

(١) - أسرة كليب = كلاب (قولب) وبطمان . (٢) - أسرة ميفارقين .
وقد دامتا حتى أوائل القرن العشرين الميلادي محتفظتين بالسلطان والنفوذ إلى حد ما .

(دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص ١٦١)

١٢ - اماره زراكي (زريكي = زرقى)

يقول (شرفخان البدليسي) ان لفظ (أزرقى) هو أصل هذه التسمية وان مؤسس هذه الامارة (الشيخ حسن) قدم من سوريا إلى ماردين ، وهناك اشتهر بالصلاح والتقوى والورع . وكان يرتدى ثوبا أزرق باستمرار ومن هنا سمي بالأزرقى ثم خفف هذا اللفظ إلى زرقى ، زركى ، زراكي زريكي .

هذا وبعد قليل ، قبض حاكم (ماردين) الذي يحتمل جدا أن يكون من الآق قوينلية ، على هذا الشيخ وألقى به في غياهب السجن ، واسكن الشيخ أظهر كرامة بخروجه من السجن بعد فترة قصيرة ومصاهرته لحاكم (ماردين) ، وبذلك عاد للشيخ سلطانه ونفوذه . وبعد وفاة هذا الحاكم انفراد الشيخ بالسلطان والحكم في (ماردين) . ثم ظهر من سلالته أسر أربع مالكة (١) درزبني (٢) كردكان . (٣) عتاق . (٤) ترجيل . وقد أسس الأولى (هابل بن الشيخ) في قلعه (ديرزير) . . . وأسس الثانية حفيد هابل في قلعة (كردكان) بين ديار بكر وميفارقين . . . وأسس الثالثة أمير زرقى في قلعة (عتاق) . . . أما الفرع الرابع فقد قام في قلعة (ترجيل) على مقربة من ديار بكر . . . وعمرت هذه الأسرات الأربع ، وقتنا ليس بقصير في عهد العثمانيين .

١٣ — امارة كلس وأعزاز :

تقول (دائرة المعارف الإسلامية) انه لاشك في أن نسب أمراء هذه الإمارة إنما ينحدر من أسرتي إمارتي حكارى والعمادية .

ويقول (شرفنامه) ان أصل هذه الأسر الثلاث ينحدر من العباسيين حيث كان هنالك اخوة ثلاثة أحدهم (شمس الدين) وكان جدا للأمراء الحكاريين ، ثانيهما يدعى (بهاء الدين) وكان جدا للأمراء البهدينانيين ، وكان ثالثهم وهو (منتشا) جدا لأمراء كلس ، ثم حدث تحريف في أسمائهم تبعاً للجهة الكرمانيج فصاروا (شمدين ، بهدين ، مند) . وقد أعد أحدهم وهو (منتشا = مند) قوة كردية واصطحبها معه إلى الشام حيث دخل في خدمة الأيوبيين . وقد أقطعه أحد السلاطين الأيوبيين ناحية (القصير) على مقربة من أنطاكية بسوريا ، مما أدى إلى علو شأنه في تلك الجهات حيث التفت حوله أيضا أكراد (جوم) و (كليس) من السنين واليزيدية على السواء . وقد جد في خدمة الأيوبيين وأخلص لهم حتى كافأوه أخيراً باسناد منصب أمير أمراء أكراد الشام وحلب إليه عن جدارة واستحقاق . وفي عهد السلاطين المماليك خلفاء الأيوبيين انشغل (مند) كثيراً باليزيديين ، كما دخل الأمير قاسم في عراق شديد مع (شيخ عز الدين) رئيس اليزيدية في عهد العثمانيين الذين بسطوا حمايتهم لليزيديين بفضل سياسة (قرهجه أحمد باشا) والى حلب الذى قبض على (قاسم بك) وقتله ، وبعث بابنه الصغير (جانبولاد = جانبلاط) بك إلى أستانبول وهناك أدخلوه السراى السلطاني ليتلقى تربيته العسكرية فيه مع أبناء الملوك وهكذا آل منصب أمير أمراء الكرد بحلب والشام إلى (شيخ عز الدين) .

وفي عهد السلطان (سليمان) عادت الأمور سيرتها الأولى ، فاستند منصب الإمارة إلى (جانبلاط) ، وظل الحكم يتوارثه أحفاده حتى عهد السلطان أحمد العثماني .

وأخيراً رفع الأمير (علي) راية العصيان على الدولة العثمانية وأعلن استقلاله عنها في (حلب) ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ جردت عليه الدولة العثمانية جيشاً لجبا بقيادة الصدر الأعظم (قويونجي مراد باشا) هزمه هزيمة شتاء. وبذلك أسدل الستار على هذه الامارة هي الأخرى وكان ذلك في عام ١٠١٦ للهجرة

وَمَا يَذْكَرُ بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ أَنَّهُ بَعْدَ التَّجَاؤِ الْأَمِيرِ عَلِيٍّ (عَلِيٍّ بَاشَا) إِلَى اسْتَنْبُولِ سَنَةِ (١٦٠٧ م) قَدْ تَمَكَّنَ بَعْضُ مِنْ أَعْضَاءِ أُسْرَتِهِ الْجَانِبِلَاطِيَّةِ مِنَ النِّجَاةِ مِنْ شَرِّ (قُويونجي مراد باشا) وَالِاخْتِفَاءِ فِي جِهَاتِ حَلَبٍ وَكَلَسٍ. فِي سَنَةِ (١٦٣٠ م) أُتِيحَ لِسَعِيدِ بَكِ جَنْبِلَاطِ زَادِهِ مَعَ ابْنِهِ (رَبَاحِ) الذَّهَابَ إِلَى بَيْرُوتِ وَالِاتِّحَاقَ بِأَمْرَةِ الْمُعْنِينِ (آلِ مَعْنٍ) أَمْرَاءِ لُبْنَانٍ، لَمَّا كَانَ بَيْنَ الْأَسْرَتَيْنِ مِنَ الْوُدِّ وَالصَّلَاتِ الْقَدِيمَةِ فَأَقْبِلَ عَلَيْهِ رِجَالُ لُبْنَانَ وَعَظْمَاؤُهُ وَأَكْرَمُوا وَقَادَتْهُ وَدَعَوْهُ إِلَى الْإِقَامَةِ فِي الْجَبَلِ. وَفَعَلَا أَقَامَ سَعِيدُ بَكٌ فِي (مَرْعَةَ الشُّوفِ) وَسَرَامِيرِ الْجَبَلِ حَيْثُ وَهُوَ الْأَمِيرُ (فَخْرُ الدِّينِ) مِنْ لِقَائِهِ فَأَدْخَلَهُ فِي رِجَالِهِ الْأَخْصَاءِ. وَفِي سَنَةِ (١٦٤٠) أُرْسِلَ الْأَمِيرُ سَعِيدُ بَكٌ، إِلَى قَلْعَةِ (شَقِيفِ أَرْنُونِ) مَحَافِظًا لَهَا وَمَعَهُ خَمْسُونَ رَجُلًا مِنْ جُنُودِهِ. غَيْرَ أَنَّ سَعِيدَ بَكَ تَوَفَّى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ فِي نَفْسِ السَّنَةِ؛ كَمَا أَنَّ ابْنَهُ (رَبَاحِ) لَمْ يَعْشُ بَعْدَهُ إِلَّا بِضْعَ سِنِينَ مَعْدُودَةٍ تَارِكًا وَرَاءَهُ ثَلَاثَةَ مِنْ الْأَمْرَاءِ (عَلِيٍّ، فَارَسٍ، شَرْفِ الدِّينِ) فَتَزَوَّجَ عَلِيُّ ابْنَةُ الشَّيْخِ قَبْلَانَ مِنْ كِبَارِ شَيْوْخِ الشُّوفِ حَيْثُ صَارَ فِيهَا بَعْدَ شَيْخَا وَرئيسًا لِلشُّوفِ بَدَلَ حَمِيهِ الَّذِي تَوَفَّى سَنَةَ (١٧١٢) وَهَكَذَا أُتِيحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ لِأَنَّهُ يَظْهَرُ مَوَاجِبُهُ فِي حَسَنِ الْإِدَارَةِ وَالْعَدْلِ فِي الْمَعَامَلَةِ وَالْحَزْمِ فِي الْأُمُورِ، مِمَّا أَكْسَبَهُ مَحَبَّةَ الْأَهَالِيِّ وَتَقْدِيرَ الشَّهَابِيِّينَ لَهُ لِإِخْلَاصِهِ وَتَفَانِيهِ فِي الْخِدْمَةِ. وَقَدْ تَوَفَّى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ فِي سَنَةِ ١٧٧٨ فِي بَلَدَةِ (بَعْدْرَانَ) تَارِكًا عَلَى صَفْحَةِ الْوُجُودِ سِتَّةَ مِنْ الْأَنْجَالِ، تَوَلَّى مِنْهُمْ (قَاسِمٌ) مَكَانَ أَبِيهِ الْأَمْرِ، فَأَحْسَنَ السِّيْرَةَ فِي عَهْدِ أَحْمَدِ بَاشَا الْجَزَارِيِّ الَّذِي كَانَ رَاعِيًا

عنه ، غير أن ابناؤه يدعى (بشير) قد شق عصا الطاعة على سلطة أحمد باشا
الجزار لظلم عساكره الأعلى وعييتهم في البلاد الفسقاء ، مما جعل الأهالي على
أن يلتفوا حول هذا الشاب الذي لم يكن قد بلغ أكثر من أربعة عشر عاما
من عمره ، فقد هزم جنود أحمد باشا الجزار مرارا ، وساقهم حتى مدينة صيدا
منهزمين واستولى على كثير من الغنائم والأسلاب . ولما توفي والده في الشام
انتقلت الرئاسة إليه رسميا ، وتوترت العلاقات بينه وبين الشهابيين فترة من
الزمن فاضطر من جرائها إلى اللجوء إلى منطقة الحوران بالشام . وفي سنة (١٧٩٥)
تمكن الجزار من إلقاء القبض عليه وعلى اثنين من الشهابيين في بيروت وأرسلهم
إلى عكا وزجهم في أعماق السجون . وقد أطلق سراحه بعد أن أمضى أربع
سنين في غياهب السجن . ثم تلقى كتاب شكر من قداسة البابا لمعاونته للبارونيين
في بعض الملأات . ومن آثاره في جبل لبنان فتحه قناة من (الباروك) إلى (المختارة)
في سنة (١٨٠٠) وتكبدته في سبيل ذلك نفقات كبيرة . وفي سنة ١٨١٠ م اشترك
في الحملة التي تألفت بأمر من (سليمان باشا) والى عكا للزحف إلى الشام
لضرب (يوسف باشا الكردي) والى الشام ، حيث اجتمع هو والأمير بشير
بسليمان باشا المذكور في طبرية وزحفوا جميعا إلى الشام ف وقعت معركة حامية
في (قطنة) بينهم وبين والى الشام المذكور الذي اندحر وهرب إلى مصر ودخل
سليمان باشا مع الشيخ بشير دمشق الشام . وزاد قدر الشيخ بشير جانيا بلاط
في نظر الناس وعلا شأنه في جبل لبنان علوا كبيرا . وفي سنة (١٨١١)
بسط حمايته على الدرروز في جبل لبنان ضد والى حلب الذي كان يريد السوء بهم
فنقلهم بموافقة رأي الأمير بشير إلى (رحله) وأسكنهم في مقاطعات تلك المنطقة .
وفي سنة (١٨١٨) أنشأ جامعاً فخماً في المختارة كما أنه وهب أراضي كثيرة وتبرعات
كبيرة إلى البارونيين في البلدة المذكورة لإنشاء كنائس لهم . وفي سنة ١٨٤٤ حل
الوفاق والوفاق بينه وبين الأمراء العماديين حيث اتحد معهم في جميع الشؤون
التي جرت في الجبل .

وأخيراً تمكن والى الشام من جلب الشيخ بشير هذا، مع رجاله وقواده الى الشام بحملة غربية وحبسهم جميعاً بها، وبعد مدة أطلق سراحه إلا أنه بناء على طلب والى عكا قد أعدته مع الشيخ أمين العمادى وهو يبلغ من العمر خمسين سنة. وكان رحمه الله عادلاً شجاعاً كريماً يحب الخير للجميع حتى أطلق عليه لقب «عمود السخاء» وأنشأ كثيراً من الطرق والجسور والجامع وساد الأمن والرفاهية أنحاء الجبل والتجأ اليه كثير من المضطهدين والفقراء.

ومن دواعى الأسف أن الأمير بشير الشهابى أخذ يضطهد أسرة جانبلاط بعد وفاة هذا الرجل العظيم على المنوال السابق، فهدم كثيراً من بيوتهم ومنازلهم حتى الجامع الذى كان بناه فى المختارة، ونهب أموالهم وممتلكات عشيرتهم، الأمر الذى أثار حمية والى عكا وتدخل فى الأمر بان نقلهم إلى صفا وأسكنهم بها وأجرى عليهم المراتبات والمخصصات.

وفى سنة (١٨٢٢) حينما أغار ابراهيم باشا على رأس جيش مصرى على البلاد الشامية التزم أمراء أسرة جانبلاط هذه، جانب الدولة العثمانية والتحقوا جميعاً بوالى الشام حتى وقعت معركة حمص بين الجيشين المصرى والعثمانى التى أسفرت عن اندحار العثمانيين فالتجأ من الجانبلاطين الأمير سعيد والأمير اسماعيل إلى الجبل. وأما الباقون منهم فذهبوا مع الجيش العثمانى المتقهقر إلى حلب فقدرهم الصدر الأعظم (محمد رشيد باشا) حتى قدرهم، وبالرغم من انكسار جيش الصدر الأعظم وأسره هو أخيراً، فإن الجانبلاطين لم يتخلوا عن العثمانيين الذين كفأوهم دائماً. وبعد انتهاء المسئلة المصرية والتركية جاء إلى الجبل من الجانبلاطين الأميران حسن وحسين. إلا أن الأمير بشير كان مترصدا لهم فتمكن من إلقاء القبض على الأمير حسن وقتله واختفى الأمير حسين عن الأعين.

وأما الأميران سعيد واسماعيل أبنا الشيخ بشير من الجانبلاطين اللذان كانا قد اعتصما بالجبل، فقد لجأ إلى الأمير بشير بضرورة الحال، فأرسلهما الأمير إلى

ابراهيم باشا الذي بادر إلى نفيهم إلى مصر، غير أن سعيدا تمكن من اظهار اخلاصه فدخل في الجيش المصرى ضابطا. وفي سنة (١٨٣٨) رفاه ابراهيم باشا إلى رتبة اليوزباشى وبعد ذلك إلى رتبة البكباشى. كما أن أخاه يدعى (نعمان) كان فى استانبول تمكن من الذهاب إلى مصر ودخل الجيش المصرى برتبة أمير آلاى. ولقد تمكن (سعيد بك) أخيراً من الفرار مع الشوام من مصر إلى الجبل حيث كان أخوه (اسماعيل بك) قد عين من قبل الدولة حاكماً على الجبل (شيخ المشايخ) بدلا من والده الشيخ بشير. وكان نعمان بك أيضا قد تمكن من الانفصال من الجيش المصرى والعودة إلى الجبل وصار حاكماً عليه بدل أبيه. ملخص من كتاب (أخبار الاعيان فى جبل لبنان)

﴿ج﴾ — إمارات ما بين الجزيرة وخوى (١٤ - ٢٠)

١٤ - إمارة الحطارية = الرطارية :

ليست هنالك معلومات صحيحة غير تنف مشوشة عن أصل هذه الأسرة. وإن كان (شرفنامه) يقول إن جد هذه الأسرة كان يدعى شمس الدين (١)، ثم يعود فيقول إن إحياء هذه الإمارة للمرة الثانية كان على يد (أسد الدين كلابى) الذى اشتهر فيما بعد باسم (زرين جنك) أى ذو الذراع الذهبى، وذلك بفضل التماس الأشوريين الذين كانوا حسب عادتهم بمصر ومؤازرتهم له بها ثم يأتى الدكتور (فريج) فيصب كل اعتماده على هذه الأقوال، وعلى اسم (شمو = شهمبو) ويقول بما أن (شنيه) اسم ليوم من أيام الأسبوع لدى الأشوريين، فلا بد وأن يكون هذا الأمير من الأشوريين. الخ ولا شك فى عدم صحة هذا الرأى

(١) أنظر مبحث أمراء كلس فى هذا الكتاب وفى شرفنامه . المؤلف

الخاصة لأن اسم (شمو) كردى ، وإذا كان لنا أن نجارى تشابه الألفاظ فنحن فى حل من أن نقول ان (شمبو) كان كرديا ولا ريب .

فستخلص من هذا أن (شمس الدين) لا بد وأن يكون جدا لهذه الأسرة التي اشتهرت فيما بعد باسم (شه مير) وهذا هو ما قال به (شرفنامه) فى مبحث أمراء كلبس . وبعد وفاة (أسد الدين) قام بأعباء الامارة من بعده (الملك عز الدين شير = يزدان شير) الذي دام حكمه ستين سنة كاملة . وقد خلفه ابنه (زاهد بك) الذي قبل حماية الشاه إسماعيل لامارته ، ويظهر أن ولديه (ملك بك) و (سيد محمد بك) قد حكما من بعده فى قسم من أقسام (حكارى = حكارى) و (شمدينان) . وقد بقيت ذرية هذه الأسرة تحكم البلاد حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، إذ كانت هذه الامارة من أكبر إمارات كردستان الأوسط ، وكان زكريا بك و ابراهيم بك حاكمين فى (حوله مرك) و (ألباق) فى عهد شرفخان البدلىسى فى عام (١٠٠٥ هـ)

هذا وقد أثنى (أوليا جلبي) الرحالة التركى الشهير على هذه الامارة أثناء مستطابا حيت يقول : « إن أميرها كان يحتفظ دائما بعشرة آلاف من الجنود حاملى البنادق فى السلم ، وأما فى الحرب فكان فى مكنته حشد جيش قوامه خمسون ألف مقاتل ، وكان نور الله بك حاكم البختان ، آخر حكام هذه الأسرة . وقد فقد إمارته إثر ثورة بدرخان بك الشهير ، كما أن (حليمه خانم) سلبت باش قلعة (١) للترك سنة ١٨٤٥ م ، وبذلك ولت أيام هذه الامارة . ويذكر المؤرخ الكبير هامر فى المجلد التاسع من تاريخه للدولة العثمانية اسم أمير من أمراء الحكارى كان يدعى (مير عماد الدين) قتله الصدد الأعظم فى الديوان سنة (١٠٤٩) هـ .

(١) قلعة (الباق) القديمة فى ولاية وان الحالية بتركيا . المترجم

١٥ - امارة الحمودى :

هناك روايات شتى عن أصل أمراء الحمودى ، ولكن الدكتور (فريج) يقول إن مؤسس هذه الإمارة إن هو إلا (بهاول بك) السليمانى = السليمانى من سلالة (مروان بن محمد) آخر خلفاء بنى أمية . ويقول (شرفنامه) إن مؤسسها يدعى (شيخ محمود) الذى قدم من الشام فى رواية ، وفى رواية أخرى من مدينة الجزيرة ، قدم مع عشيرته ورجال قومه إلى بلاط (قره يوسف) مؤسس القره قوينليه ، فأقطعه هذا السلطان منطقة (آشوت = آشيت) موطننا لرجال وعشيرته وألقه هو بمعيتة الخاصة . ولما توسم فيه مخايل الشجاعة وعلام البسالة فى الحروب التى خاض غمارها ، أسند إليه إمارة (آشوت) و(خوشاب) . وسميت عشيرته باسم هذا الأمير الحمودى .

ولقد رفع الأمير حسن ، ابن الشيخ محمود لهذا من شأن الامارة ووسع حدودها بعد أن حارب و عز الدين شير الحكارى . وهزمه وانتزع منه ناحية (١) (تنيو) . ولكن أمير بدليس قد آزر أخيراً (عز الدين شير) فاستؤتم القتال بين الفريقين على نهر (مير أحمد) (٢) وأسفر عن مقتل الأمير حسن . ثم انقسمت هذه الامارة إلى فرعين ، وفى أواخر القرن العاشر الهجرى قد تفرع منها فرع ثالث ، ودام عهد هذه الامارة بفروعها الثلاثة حتى أواسط عهد العثمانيين .

ولقد أطيب (أوليا جلي) الرحالة العثمانى الشهير فى الاشادة بقوة هذه

(١) لعله تصحيف من كلمة (شنيو) حيث وردت فى عبارة شرفنامه هكذا ،

انتزع منه ولاية شنيو ...

المترجم

(٢) هو (نهر خوشاب) كما فى شرفنامه . المترجم

الامارة وعلو شأنها ، ويقول إنها تقع في الجانب الشرقي من ولاية (وان) ،
وأنها كانت تتألف من نحو مائة عشيرة قوية الشكيمة ، وأنها كانت تحتفظ
في وقت السلم بستة آلاف من الفرسان . ويقول هانر في المجلد السادس من
تاريخه ان الصدر الأعظم قره مصطفى باشا اغتال على باشا حاكم (أشيت =
آشوت) سنة ١٠٤٩ .

١٦ - امارة بنيانيس

لا تذكر (دائرة المعارف الإسلامية) شيئا عن هذه الامارة ، في حين أنها
كانت مشهورة بين الامارات الكردية الكبيرة في العهد العثماني . كما أنها كانت
جارة لامارة المحمودي . ويقول (أوليا جلبي) ان قواتها العسكرية كانت تبلغ
على الدوام ستة آلاف مقاتل .

١٧ - امارة الدنبلي = الدنابله

لم يذكر الدكتور (فريج) في كتابه (كردلر) إلا القليل عن هذه
الامارة ، في حين أن كتاب (آثار الشيعة الامامية) قد افرد بحثا مسهبواهتم
بالتفاصيل التي جاءت في (شرفنامه) (١) عن هذه الحكومة ثم نقل عن تاريخ
الدنابله (٢) وقد جاء فيه أن أول حاكم من هذه الأسرة هو (طاهر بن
الأمير عيسى بن الأمير موسى) حاكم الشام الذي كان - كما تقول الروايات -

(١) يرى (شرفنامه) أن أصح الروايات في هذا الصدد هي أن العشائر
الدنبلية قد نزلت من (حكارى) إلى أذربيجان ، وأما الأمير عيسى والد
الملك طاهر فقد هاجر من بلدة الجزيرة

(٢) ألف هذا الكتاب (عبد الرازق بن نجفقلی الدنبلي) باسم (رياض
الجنة) باللغة الفارسية . وتوجد نسخة منه في المكتبة الشاهانية بطهران .
وفضلا عن هذا فان هنالك كتابا آخر باسم (هفت اقليم) ألفه بالفارسية
أيضا (أمين احمد الرازى) في تاريخ امراء الدنابله . المؤلف

نجلا ليحي البرمكي وزير الخليفة هرون الرشيد. أما كتاب (أنساب الأكراد) (١) فيرى أن أصل هذه الأسرة إنما يرجع إلى البرامكة

وقد تفرعت عن هذه العشيرة شعب عديدة أهمها وأشهرها (دنبلية يحيى) أحفاد الأمير يحيى ، و (شمسكي) أحفاد شمس الملك جعفر ، و عيسى بكلو ، أحفاد الأمير عيسى ، و بكرزاده ، أحفاد الأمير (فريدون) وأيوبخاني ... إلى غير ذلك . وقد جاءت هذه الشعب وليدة لإبعاد هذه العشيرة ونفيها بأمر من الخلفاء والملوك أمثال الخليفة المأمون و تيمورلنك والسلطان سليم إلى بلاد كشان ، خراسان ، خبوشان ، شيروان ، كنجه ، قره باغ ، قره جه داغ . وقد وفق أمراء هذه الأسرة والعشائر في تأسيس إدارة مستقلة في كردستان وأذربيجان ابتداء من القرن الرابع الهجري حتى نشوء دولة الشيخ حيدر الصفوي، حيث قدم آخر أمراء المدعو (بهلولي الدينلي) فروض الطاعة للشيخ حيدر . وهكذا صارت إمارته تابعة للحكومة الصفوية .

ونلخص فيما يلي أحوال حكام هذه الامارة الكردية وأسماءهم تاركين التفاصيل لكتابنا (كورداني به ناوبانك - مشاهير الأكراد) :

مير محمد : هو رابع أمراء هذه الأسرة ، وكان حاكما في الشام ، وقد استولى على بعض القلاع في بلاد الحكارية ، وله مؤلفات في العلوم والفنون وآثار عمرانية. من بينها قلعة (باي) الشهيرة التي دفن فيها عام ٣٨٧ للهجرة .
مير سليمان : كان له بعض السلطان والنقوذ على بلاد كردستان وأذربيجان والشام ومن مآثره العظيمة ، القصر الذي أنشأه في (سنجار) وأسماه (سراي سليمان) والذي جلب العمال ومهرة الصناع من إيران لإنشائه

(١) مؤلفه العالم الشهير والمؤرخ الكبير ابي حنيفة الديشوري صاحب كتاب «الأخبار الطوال»
المؤلف

وتزيينه ، كما أنشأ المدارس والخواتق لتعليم أبناء الكرد العلوم والفنون ، وكان الشيخ رجب الپرسى صاحب (مشارق الأنوار) من خاصة رجال هذا الأمير النابه وقد توفى سنة ٤١٠ هـ .

مير جعفر الثانى : لقد اكتشف فى عهد هذا الأمير معدن الذهب وقد اشتهر باسم الذهب الجعفرى فى جبل (سنجران) الذى يقع على مقربة من قلعة (دنبل) ، وقد توفى عام ٤٤١ هـ .

مير يحيى : يقول (شرفنامه) ان ثلاثين ألف أسرة من الرعايا المسيحيين كانت تتبع هذا الأمير وكان له مآثر كثيرة حيث بلغ عدد التكايا التى أنشأها فى جبال كردستان و آذربيجان والشام ألفاً ومائتين وقد أدركته المنية فى عام ٤٧٧ هـ .

مير عيسى الشهير بصلاح الدين الكردى : نقل هذا الأمير نحو مائة ألف أسرة من الأكراد من فرع اليزدانية إلى آذربيجان وإلى (كوهستان = قهستان) وكان يمضى أغلب أيامه فى تبريز .

مير جعفر الشهير بشمس الملك : كان معاصراً المنوجهر من ملوك شيروان توفى إلى رحمة الله عام ٥٣٥ للهجرة ، وقد أطنب الشاعر البليغ (خاقانى) الشيروانى فى مدحه

أمير بك : كانت العلاقات وطيدة بينه وبين السلطان سنجر السلجوقى ، وقد خلف آثاراً عمرانية عظيمة فى مدينة (خوى) ، وتوفى عام (٥٩٠) .

مير أحمد : كان هذا الأمير يقدر العلم ويمجد العلماء ، وكان مولانا جلال الدين الرومى صاحب المشوى الشهير من أخص رجال هذا الأمير .

مير ابراهيم : كان يقيم فى (تبريز) فوطد علاقته مع (جنكيز خان) وبهذا أنقذ بلاده مما عسى أن يحيق بها من تدمير المغول وتخريبهم ، وقد توفى عام (٦٩٢ هـ) .

مير جمشيد : اشتبك في القتال مع المغول فبعث إليه (غازان خان) عام (٧٢٥ هـ) بجيش لجب ألحق به هزيمة منكرة ، بل إنه ما لبث أن وقع صريعا في المعركة في جبل (جله خانه)

أمير بهلول : هو ابن الأمير جمشيد ، وقد توفي عام (٧٦٠ هـ)

شاه منصور : هو ابن الأمير بهلول ؛ توفي عام (٧٩٥ هـ)

مير محمود : كان ابنا للأمير شاه منصور ، وقد احتل مكانة سامية وحظوة لدى السلطان بايزيد العثماني ، وهو الذي أنشأ مدينة (محمودي) بكرديستان وتوفي ودفن بها عام (٨٢٠ هـ)

أمير ولي : كان يقيم بمدينة (خوي) .

حاجي بك : هو ابن الأمير ولي ، وتوفي عام (٨٢٢ هـ)

سلطان علي : هو نجل حاجي بك . وتوفي عام (٨٢٥ هـ)

أمير نظر : هو ابن سلطان علي .

أمير فريدون : كان يعرف باسم (أمير قليج) . وجاء في كتاب (جهاتنا) التركي أنه كان حاكما على جميع بلاد كردستان وأذربيجان وأرمينية ؛ وكان مركز إمارته مدينة (خوي) ، وتوفي عام (٨٦٠ هـ)

أمير بهلول : صادف عهده ظهور الشيخ حيدر الصفوي ، وكان يحكم علاوة على ما كان تحت سيطرته قديما - مقاطعتي طبرستان وداغستان وقد قدم فروض الطاعة للشيخ حيدر طواعية ، ولكنه قتل في المعارك التي نشبت في عام (٨٨٠ هـ) بين الصفويين وبين الشاه خليل الآق قونلي .

أمير رستم : كان معروفا باسم (شاه ويردي بك) وتوفي عام (٨٩٨ هـ)

أمير بهروز : كان يلقب بسليمان خليفة وظل أميرا حتى بلغ الخامسة

بعد التسعين من عمره ، وكان في معية الشاه طهمااسب حين اشتبك في القتال مع
العثمانيين ؛ وتوفي عام (٥٩٨٥)

أيوب خان : هو حفيد الأمير بهروز أنعم عليه برتبة بكربكي . وتولى
منصب السهदार (القيادة العليا) وتوفي عام ٩٩٤ هـ .
شاهبندخان :

بهروز خان : كان من أخص رجال الشاه (عباس) وقد أتى عليه (شرفنامه)
ثناء مستطابا ووصفه بالشجاعة والروية . وتوفي سنة ١٠١٤ هـ

علي خان : هو ابن (بهروز خان) وشهرته (صفي قلى خان) وقد كان في
معية الشاه (صفي) حين قدم السلطان مراد إلى آذربيجان . ولما هاجم فرهادباشا
بلاد كردستان تصدى له (علي خان) في جبال حكارى ودافع عن البلاد
دفاع الأبطال ثم عقد صلحا مع أحمد باشا والى بغداد وانفض النزاع ، وكان
يحكم آذربيجان وأرمينية .

مرتضى قلى خان : هو ابن (علي خان) أيضا وكان ملازما لبلاط الشاه
عباس الثانى فى أصفهان .

غياث بك : هو ابن (علي خان) ، وكان من بين قواد الشاه عباس
ولم يلازمه الفوزى فى حروب (قندهار) ولهذا لم يجسر على العودة إلى خدمة الشاه
وبقى هنالك مع بعض من عشائره . ومن بين أحفاد هذا الأمير الطائفة المعروفة
الآن فى تلك الجهات باسم (خرابى) التى من ذريتها فتحلى خان ملك الشعراء
فى الدولة القجارية وابنه (محمود خان) .

شبهاز : هو ابن (مرتضى قلى خان) وقد حاصره عبد الله باشا فى قلعة
(خوى) فاضطر إلى التسليم وتوفى فى عام (١١٤٤ هـ)

أمير أحمد خان : كان يعاصر (نادرشاه) وظل يحكم بلاد آبانه وأجداده
بمهاره وحزم ، خمسين عاما وستة أشهر ، وقد قتله أولاد شبهاز خان حين

وجوده لدى كريمخان الزند .

نجفقلی خان : هو ابن (شهباز خان) ومن قوادنا در شاه وأمير أمراء تبريز في

عده وكان شاعرا وأديبا وتوفي عام (١١٩٦) هـ .

أمير خداداد خان : هو ابن نجفقلی خان .

أقا محمد خان : ابن نجفقلی خان

فتحعلی بك : هو ابن خداداد خان .

عبد الرزاق بك : ابن نجفقلی خان ، وكان من فطاحل شعراء الأمير

(عباس ميزرا) ومن رجاله البارزين ، وله مؤلفات أدبية أشهرها كتابه عن

تاريخ أسرته ، توجد منه نسخة في المكتبة الشاهانية بطهران . وتوفي عام

١٥٤٣ للهجرة .

بهاء الدين محمد آقا : هو ابن عبد الرزاق بك ، وكان عالما فاضلا وشاعرا

مبدعا وله ديوان شعر رقيق .

كوجوك خان : هو ابن بهاء الدين آقا .

شهباز خان : هو ابن مرتضى قلي خان الثاني ، وقد وقع أسيرا في يد

كريمخان الزند بشيراز .

محمود خان : وهو ابن شهباز خان ، وكان أمير أمراء أصفهان .

شهباز خان : هو ابن محمود خان ، وكان يعاصر عهد ناصر الدين شاه

الأمير حسين قلي خان : هو ابن أحمد خان .

محمد صادق خان : هو ابن حسين قلي خان ، وكان أمير أمراء آذربيجان

١٨ - اشارة برادوست :

تنحدر هذه الأسرة من الأسرة الحسنوية القديمة حيث جاء أولاد هلال

ابن ناصر الدولة بدر ، الثلاثة بعد مقتله إلى (برادوست) . وتولى أحدهم ويدعى (طاهر) حكم (شهرزور) خلفا لأبيه . وكان الآخر رئيسا لعشيرة (آكور) ، أما ثالثهم فقد دخل (سلجاس) وأخضعها لحكمه . يقول (شرفنامه) إن (غازي قران بن سلطان أحمد) كان أشهر أمراء هذه الأسرة . وقد نصب الشاه اسماعيل العداء في بادئ الأمر ثم عادت العلاقات فتحسنت بينهما فتحجبه الشاه لقب (غازي قران) ، وأقطعه نواحى (تركور = ترچفور) و (صوماى) و (دول) ، وظل هذا الأمير الشجاع مستقلا في شؤنه الداخلى حتى حدثت معركة (جالديران) الشهيرة التى خضع بعدها مع سائر الأمراء الكرد لسلطان العثمانيين ، وكان السلطان العثماني يقدره حق قدره فأقطعه نواحى كثيرة في آيالات (أربيل) و (بغداد) و (ديار بكر) .

(١) أسرة صوماى :

أسس هذه الامارة (شاه محمد بك بن غازي قران) وظل أحفاده يتوارثونها حتى انقرضت . وفي عام ١٠٠٥ هـ كان أمير (صوماى) من يدعى أوليا بك .

(ب) أسرة تركور (تركور) :

كان أمراء هذه الأسرة من نفس عشيرة (برادوست) . ويقول (شرفخان) إن (ناصر بك بن شيرين بك بن شيخ حسن) كان أميرا للبلاد في عهده . هذا وكان (أمير خان يكديس) أشهر أمراء هذه الأسرة . وقد دافع عن قلعة (دمدم) الشهيرة وكل أميرا في أوائل عهد الشاه (عباس الأول) وما لبث أن شق عليه عصا الطاعة واعتصم بالقلعة وجرت وقائع دموية حولها في عام ١٠١٧ هـ .

١٩ - امارة مكرى (١):

يقول (شرفنامه) ان مؤسس هذه الامارة أمير صوماني يدعى (سيف الدين) فقد استولى هذا الأمير في عهد حكومة التراكمه (القرن التاسع الهجري) على ناحية (درباس) واتزعا من عشيرة تركمانية ثم بسط سلطانه على بلاد (دولي باريك و اختاجي و ايلتمور و سلدوز) فعلا شأنه و قويت شوكته وأطلق اسم (مكرى) وهو صفته البارزة على إمارته وعشيرته . وقد خاض غمار حروب دامية مع الحكومات المجاورة أظهر فيها كثيرا من ضروب المكر والدهاء والبسالة وقوة الشكيمة . وقد خلفه بعد وفاته ابنه (صارم بك) الذي استولى (الشاه اسماعيل) في عهده على جميع بلاد (كردستان) . وقد دحر في بادئ الأمر جيوش الشاه ، ثم الحق الهزيمة بجيش كبير آخر أغار عليه في عام (٩١٢ هـ) ولكنه أضطر أخيرا كسائر الأمراء الأكراد إلى طلب حماية العثمانيين فسافر إلى استانبول وتشرف بالزيارة السلطانية .

وقد انتقل الحكم بعد (صارم بك) إلى أبناء عمومته وهم (شيخ حيدر) و (مير نظر) و (مير خضر) أولئك الذين تخلوا عن العثمانيين وانحازوا إلى الإيرانيين في عام (٩٤٨ هـ) ، الأمر الذي أدى إلى اصدار السلطان سليمان أمرا إلى (سلطان حسين) أمير العماديه و (زينل بك) أمير الحكارى ورجال عشيرة البرادوست بالزحف على هؤلاء الأمراء المكريين الثلاثة وبعد أن تم القضاء عليهم بعد معارك حامية الوطيس أسند السلطان (سليمان) إماره هذه العشيرة إلى (أميره بك بن حاجي عمر بك بن صارم بك) الذي

(١) في رواية ان هذه الأسرة يمت نسبها الى أسرة البابانيين وانها فرع من فروعها .
المؤلف

عمر في الحكم ثلاثين عاما ، ثم انتقل منه الحكم الى (أميره بك بن شيخ حيدر) الذي فضل حماية الصفويين له على العثمانيين وبهذا خضعت البلاد مرة أخرى لحكم الايرانيين .

وفي عهد الشاه (محمد خدا بنده) دخلت إمارة (مكري) مرة أخرى مع امارتي لرستان وأردلان تحت حكم العثمانيين ، فانهز (أميره بك) هذه الفرصة واستعاد ملك آياته وأجداده مع ايلالة (شهرزور) ولواء (الموصل) وذلك كله بموافقة السلطان مراد الذي أقطع (أربل) و (مراغه) أيضا لابن (أميره بك) .

وبعد قليل أنعم السلطان علي (أميره بك) برتبة الميرميران ولقب الباشا مكافأة له على جليل خدماته وبسالته النادرة ، وهكذا حكم (أميره باشا) البلاد ودحا من الزمن بجدارة وحزم بلا منازع ، الى أن دب ديب الخلاف بينه وبين (جعفر باشا) والى تبريز العثماني الذي انتزع منه بعض البلاد . ومع ذلك فقد ظلت هذه الامارة مستقلة مدة أخرى محافظة على كيانها ، وان كانت قد تعرضت مرتين للذباح والقتل أيام (قباد بك) و (شير بك) في عهد الشاه عباس الأول . وليس لدينا معلومات عن نهاية هذه الاماره وعمآل اليه امرها .

٢٠ - إمارة سنوي^(١)

لم يذكر (شرفنامه) شيئا عن هذه الامارة ، ولكن يؤخذ مما جاء في (دائرة المعارف الاسلامية) بهذا الصدد أن أسرة (شمديتان) القديمة انما تنحدر من سلالة العباسيين ، وقد خلفها في الحكم اشراف وأسياد (نهري = نيري)

(١) تتعرض (دائرة المعارف الاسلامية) لذكر إمارة (زرزا) و (رزا) أيضا ولكنها لاتذكر تفصيل الاحوال الادارية والجغرافية فقط المؤلف

فيما بعد ، إذ كان سيد من هؤلاء الأسياد هو (الشيخ أبو بكر بن الشيخ عبد العزيز) يقيم بقرية (أستونى) ويقوم بوظيفة الوعظ والارشاد فعظم نفوذه بين الأهالى القاطنين تلك الجهات ، وقد استغل حفيده الشهير (الشيخ عبدالله النهري) هذه المكانة السامية وهذا النفوذ العريض خيرا استغلالا ، فعمل على إذكاء نار الوطنية والاستقلال الوطنى للوصول إلى إنشاء حكومة كردية فى (شمدينان) و (مكرى) فى (١٨٨٠ - ١٨٨٣) ولكن جهوده فى هذا السبيل قد أخفقت وقبض عليه ونفى إلى استانبول ثم أبعده إلى الحجاز وهناك توفى إلى رحمة الله .

﴿ د ﴾ « المجموعة الحكارية الجنوبية » (٢١ - ٢٧)

٢١ - إمارة البادينان (بهادينان) :

يطلق على هذه الإمارة اسم (بهاء الدينان) أيضا . ويقول (شرفنامه) إنها تأسست فى أواخر عهد العباسيين وأن مؤسسها كان من نسل العباسيين كما يزعمون وكان يدعى (بهاء الدين) فأطلق اسمه على أسرته ثم حدث تحريف فى الاسم تحت تأثير اللهجة الكرمانجية فصار (بهاء الدينان = بهادينان = بادينان) ويقول (شرفنامه ^(١)) أيضا أن العمادية كان يحكمها (تيمورلنك) وابنه (شاهرخ) من بعده ، وأن (شاهرخ) قد أمضى أيامه الأخيرة فى تلك البلدة وأنه أقطعها لابنه الأمير سيف الدين .

(١) راجع (شرفنامه) طبعة القاهرة تجد العبارة خلاف هذا . حيث يقول انه فى عهد تيمور وابنه شاهرخ فى كان امير العمادية من يدعى (زين الدين) فحكم البلاد بالعدل والحزم ثم تولى ابنه الأمير سيف الدين وبعده ابنه الأمير حسن
المترجم

وقد تولى الأمير حسن بن الأمير سيف الدين شتون الإمارة بعد والده
وقضى كل أيامه في حروب وقتال مع الآق قوينلية ثم خضع في النهاية للشاه
اسماعيل الصفوى .

ثم تولى الإمارة بعد الأمير حسن ، ابنه الكبير (سلطان حسين) الذى
خضع أخيرا للعثمانيين وصار واليا من ولاتهم لمدة ثلاثين عاما ، وقد سبق
أنه أسدى خدمات جلى للدولة العثمانية بتجريد حملة على إمارة (مكرى)
ومطاردة (القاص ميرزا) وحكم سنجق (الموصل) أيضا أربع سنوات علاوة
على تدبير شئون إمارته .

وقد تولى (قباد بك) شئون الإمارة بعد والده (سلطان حسين) ،
وبعد قليل استغل أخوه (بهرام بك = بهرام بك) ضعفه ودروشته فأثار
عليه عشائر (بادينان) وانحاز هو بعد ذلك إلى الشاه اسماعيل الثانى . ولكن
(قباد بك) قد تمكن من إخماد فتنة العشائر أخيرا ثم عاد وفوجيء بعد قليل
بقيام عشيرة (المزورى) القوية ضده وتنصيبها (سليمان بك) أحد الأمراء
البادينانيين أميرا على البلاد فاضطر إزاء ذلك إلى الالتجاء إلى الموصل ثم إلى
(سنجار) حيث كتب إلى استانبول بما حدث له .

وفى خلال هذه الحوادث عاد (بهرام بك) إلى العمادية وأعلن إمارته
على البلاد . وقد أقام (قباد بك) فترة من الزمن فى (زاخو) ثم سافر إلى
استانبول وهناك قابل الصدر الأعظم (سياوش باشا) الذى منحه فرمان
لإمارته على العمادية وبعث به ليتسلم زمام أمرها ، فوصل (قباد بك) إلى
(دهوك) وأراد أن يقوم بعمل حاسم للقضاء على مثيرى الفتنة والعصاة
ولكنه فوجيء بهجوم كل من (سليمان بك) و (مير ملك) رئيس المزورى
على (دهوك) وتطويقها لها وانحياز أهالى البلدة اليهما وفتحهم أبواب المدينة
لهما الأمر الذى أدى إلى سقوطها فى قبضة (سليمان بك) ، وقتل (قباد بك)

في المعركة سنة ٩٨٤ هـ، ولما ترامت تلك الأنباء إلى مسامح (بهرام بك) حمل
عشيرة المزوري على الاعتراف بإمارته عليها .

ولجأ (سيدى خان) و (أبو سعيد) ابني (قباد بك) إلى الدولة العثمانية وطلبوا
إليها الحصول على الامارة فأصدرت الدولة الأوامر والتعليقات إلى السردار
(فرهاد باشا) بالقاء القبض على (بهرام بك) ، وكان السردار حينئذ متجها
لفتح كرجستان فدعا إليه (بهرام بك) ووعدته باستناد منصب الاماره إليه بعد
عودته غازيا من كرجستان، إذا ما انضم إلى صفوفه ورافقه في المسير فاقنع
(بهرام بك) بهذا الوعد واسند وكالة الامارة في غيبته إلى ابن أخيه (سيدى
خان) وعشى في معية السردار . واشد ما كانت دهشته حين عهد السردار بعد
العودة إلى إلقاء القبض عليه ثم إصاقه تهمة ملفقة به . ألا وهي أنه سبق وقتل
أخاه ظلما وعدوانا^(١) فحكمت محكمة أرضروم بالاعدام ونفذ فيه الحكم على
الفور . وبذلك انفرد (سيدى خان) بحكم الامارة في سنة ٩٩٤ هـ ، وكان هذا
الأمير معاصرا لصاحب (شرفنامه) وعمر في الحكم طويلا .

والظاهر أن الذى تولى الحكم في بلاد العمادية بعد (سيدى خان) هو
(يوسف خان) الذى هاجمه (ملك أحمد باشا) والى ديار بكر في عام ١٠٤٨
للهجرة وألقى القبض عليه وزج به في سجون (ديار بكر) وبقي في غيابها

(١) يقول صاحب (الأربعة العصور الأخيرة للعراق) انه بعد وصول
(سيدى خان) وأخيه إلى استانبول اصدر السلطان مراد الثالث امره باستناد
منصب إمارة العمادية إلى (سيدى خان) وأمر السردار (فرهاد باشا) بمعاونة
هذا الأمير بجيوش بغداد وكركوك وجنود الامارات الكردية ، فنفذ فرهاد
باشا امر السلطان واستولى على العمادية واقام سيدى خان اميرا عليها سنة ١٥٨٥ م

حتى أطلق سراحه بعد وفاة السلطان مراد وبعد أن دفع غرامات مالية فادحة لرجال الحكومة .

وانتقل الحكم من بعد (يوسف خان) إلى ابنه الذي علا في عهده شأن الامارة وازداد نفوذها حتى بلغ عدد جنودها في عام ١٠٧١ للهجرة قرابة عشرة آلاف من الفرسان ومثل هذا العدد أو أكثر من المشاة .

يذكر التاريخ العام أن (قياد باشا) كان أميراً للعمادية في عام ١١١٢ هـ (١٧٠١ م) وأنه رافق جيش الموصل وديار بكر وقتذاك في حملته على جنوبي العراق لأخماد ثورة المنتفكين بها .

وفي عام (١١٣٨) ولي الامارة (بارام باشا) الذي اشتهر بهرام باشا الكبير (والظاهر أنه ابن قياد باشا) وقد عمّت البلاد في عهده موجة من التقدم في شتى الميادين ، وحكم البلاد زهاء أربعين عاماً ثم توفي إلى رحمة الله عام ١١٨١ هـ (١٧١٢ م) وقد خلفه ابنه (اسماعيل باشا) الذي حكم الامارة فترة طويلة . وفي سنة ١٢٠١ هـ دب الخلاف بين الأمير اسماعيل باشا واخوته فأخرجهم اسماعيل باشا من العمادية فذهبوا إلى قلعة (زاخو) واستولوا عليها عنوة . واضطر اسماعيل باشا إلى ارسال حملة عسكرية بقيادة اخيه (علي بك) إلى (زاخو) تمسكت من الاستيلاء عليها وطرد من فيها من اخوته المناء حين له . وبعد سنة مضت تصالح اسماعيل باشا مع اخوته هؤلاء . وأقطعهم قلعة (عقرا) والظاهر أنهم لم يخلدوا إلى السكنىه أيضاً مما اضطر اسماعيل باشا إلى أن يزحف عليهم مرة أخرى ويضطرهم إلى التسليم والخضوع .

(١) ٥١٠ (اوليا جاي) :

(٢) (كتاب اربعة العصور الأخير للعراق ص ٩٨) المؤلف

وفي سنة (١٢٠٣ هـ) اتفق اسماعيل باشا مع ابن أخيه (قباد بك) وزحفا معا إلى قلعة (عقرا) التي كان بها أخوته طيفور بك ولطف الله بك وحاجي خان بك وضربا نطاق الحصار على المدينة بعد أن تمكنوا من القبض على طائفة من سكانها وترحيلها إلى الموصل . وبعد فترة من الزمن انحسرت مادة النزاع ومالوا إلى التفاهم والوفاق فأعطاهم اسماعيل باشا ناحية (كندير) بدلا من قلعة عقرا التي أعطاهما لقباد بك جزاء عمله . ولكنه بعد سنة من ذلك أخذها منه وعين نيجه (مراد خان) حاكما عليها . وما كان من قباد بك إلا أن ذهب إلى السليمانية لاجئا لأميرها عبد الرحمن باشا .

وفي سنة (١٢٠٥) زحف اسماعيل باشا إلى قرى الشيخان واشتبك مع اليزيديين في القتال وقتل أميرهم (تيمور أغا) ورجاله وعين خنجر بك أميرا عليهم ثم عزله وسجنه في سنة ٥٢٠٦ هـ وعين بدله (حسن بك جولو) .

وفي سنة (١٢٠٩) ساد الوتام بين اسماعيل باشا وبين أخوته . وفي سنة (١٢١٣) اشتبك قباد بك أمير زاخو في القتال مع الأمير محمد أمير البوتان = البختان من جراء نهب عدة قرى من بلاد البوتان . راحت ضحيتها كثير من الأنفس والأرواح . وفي هذه السنة نفسها توفي اسماعيل باشا إلى رحمة الله بعد حكم دام ثلاثين سنة وتولى الإمارة إبنه (مراد خان بك) ولكن أخاه محمد طيار بك وكذا قباد بك لم يخضعا له وتقاتلوا مدة من الزمن إلى أن توسط بينهم محمد باشا الجليلي والى الموصل فاصطلحوا . وفي سنة (١٢١٤) اشتبك قباد بك أمير زاخو مع حسن بك أمير اليزيدية بشيخان في القتال ذهب ضحيته كثير من الناس .

وفي سنة (١٢١٥) أرسلت حملة عسكرية قوية إلى العمادية بقيادة ابراهيم باشا أمير السليمانية وبعد قتال شديد قصير أسفرت المعارك عن احتفاظ (علي مراد خان) بإمارته في العمادية وأعطيت قلعة (عقرا) لقباد بك وفي سنة (١٢١٨)

تولى قيادتك إمارة العمادية و صار لقبه (قياد باشا) . وكان على باشا والى بغداد قد أرسل محمد باشا حاكم كويسنجق بقوة عسكرية لمعاونة قياد باشا وتعضيده في بسط نفوذه على بلاد الإمارة التي خضعت كلها ماعدا العمادية وعقرا وقلعة القمر التي لم تستسلم له قط .

وفي سنة (١٢١٩) أغارت عشيرة المزوري القديمة على (قياد باشا) وألقت القبض عليه وزجته في أعماق سجن العمادية ثم أطلقت يد النهب والسلب في أمواله وممتلكاته وكذا ممتلكات وأموال (لطف الله بك) و (طيفور بك) و (حاجي بك) أنجال اسماعيل باشا المرحوم ولبت قياد باشا في سجن عمه عادل باشا أمير العمادية إلى ما شاء الله .

وفي نفس هذه السنة نزلت ويالات ومصائب كثيرة على بلاد الإمارة البادية نانية من جراء ظلم الأمراء والحكام وفساد الإدارة ، حيث كان (أحمد بك) أخو قياد بك قد التف حوله كثير من الأشرار يغيرون على القرى والساكنين يهبون ويسلبون الناس أموالهم ، حتى أنهم حاصروا العمادية مدة من الزمن .

وفي سنة (١٢٢٠) أرسل على باشا والى بغداد إلى العمادية قوة عسكرية هائلة مكونة من قوات خالد باشا وعبد الرحمن باشا البابين ومحمد باشا السوراني حاكم كويسنجق ، غير أن الخلاف دب بين هذين الأخيرين ، فجر إلى احتدام القتال بين عبد الرحمن باشا وبين على باشا والى بغداد . حيث كسر عبد الرحمن باشا جيش الموصل الذي كان بقيادة أخيه خالد باشا في نواحي (آلتون كوبري) ونهب هذه البلدة نهبا كاملا . ولما وصل جيش على باشا والى بغداد إلى ساحة القتال ، قامت معركة حامية بين الطرفين على مقربة من (كركوك) حيث لحقت هزيمة منكرة بجيش عبد الرحمن باشا الذي انسحب إلى مضيق بازيان الشهير .

وبعد هذا الانتصار أعطى (علي باشا) إمارة العمادية لمحمد باشا الجليلي
والى الموصل الذى أرسل الخلع والأنعامات الى (عادل باشا) أمير العمادية
وأبقاه فى منصبه .

وفى سنة (١٢٢٣ هـ) توفى إلى رحمة الله (عادل باشا) وتولى مكانه أخوه
(زبير باشا) بموافقة والى بغداد فأطلق سراح قياد باشا الذى كان سجيناً فى
العمادية ومنحه قلعة (زاخو) ولكنه لم يغادر العمادية وأقام فيها .

وأخيراً دب الخلاف والشقاق بين زبير باشا وبين نعمان باشا والى
الموصل مدة من الزمن، مما أدى إلى تفاقم الحالة ونزول كوارث شديدة على أهالى
الطرفين ورعاياهما. وهكذا تجددت تلك العداوة والبغضاء اللتان كانتا موجودتين
من عهد بايرام باشا بين رجال ورؤساء الأسره الجليلية فى الموصل (١)

وهذا وكان (سعيد باشا) أمير العمادية حين هاجمها (محمد باشا كوره) أمير
السوران، ورغم استماتته فى الدفاع عنها تمكن (محمد باشا) من الاستيلاء
عليها ونصب أخاه (رسول باشا) حاكماً عليها .

وبعد انقضاء أيام (محمد باشا كوره) (٢) ظهر (اسماعيل باشا البادينائى) حاكم
العقره السابق، على المسرح واسترد زمام الامارة، وتمكن من فرض سلطانه
على جيرانه وأمعن فى مضايقة (اينجه بير قدار محمد باشا) متصرف الموصل
ولم يتيح له فرصة التدخل فى شؤونه، ولكنه لم يمض على ذلك طويلاً وقت حتى
دهمه الصدر الأعظم (محمد رشيد باشا) بجيش عرمرم وحاصره فى العمادية
وتمكن من إلقاء القبض عليه وأرساله الى بغداد وهناك ألقى به فى

(١) ملخص من كتاب (غرائب الأثر فى حوادث ربيع القرن الثالث عشر)
لياسين العمري، مطبوع فى الموصل سنة ١٩٤٠

المؤلف

الترجم

(٢) اى الأعصي :

غياهب السجن حتى أدركته المنية في عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٢ م) وهكذا أسدل الستار على هذه الإمارة الوطنية أيضا .

٢٢ - إمارة داسني :

ترى (دائرة المعارف الاسلامية أن عشيرة (داسني) هذه كانت قاطنة في منطقة (دهورك) وأن المدينة التي تحمل هذا الاسم كانت تخضع لها وأخيرا انتزع أمير البادينان هذه المدينة من لواء (داسني) وضمها الى البادينان ، وبعد ذلك لما توجه السلطان سليمان القانوني لفتح بغداد انتزع إمارة (أربيل) من الأمير (عز الدين السوراني) وأعطاهها (حسين بك) رئيس العشيرة الداسنية ثم قتل الأمير عز الدين . وبعد فترة مات سليمان بك السوراني أخو عز الدين فانتقلت بوفاته جميع البلاد السورانية الى حوزة (حسين بك) الداسني . وفي تلك الأثناء كان الأمير (سيف الدين بن مير حسين) وهو من أحفاد وسلالة السورانيين مقيما في جهة تدعى (صوما قلق) ، ولما جاءت له الأبناء بانتقال الحكم في السوران إلى أيد أجنبية بادر الى قتال (حسين بك) الداسني ، وبعد مصادمات عنيفة بينهما انهزم حسين بك الداسني شر هزيمة . ثم استدعي الى استانبول فذهب اليها وهناك أعدم لعدم محافظته على ما أقطعه اليه السلطان من البلاد .

إمارة - (السوراني = المهراني)

يقول (شرفنامه) ان نسب أمراء هذه الأسرة السورانية يرجع الى

بغدادى يدعى (كولوس)^(١) الذى كان ابنا لرجل من رجالات بغداد البارزين ثم ألفت به الظروف الى هذه الجهات النائية فدخل منطقة (أوان) وأقام بقرية (هوديان) محترفا الرعى .

ويقول الدكتور (فريج) ان لفظ (كه ولوس = كولوس) لا يشبه اسما من الاسماء العربية، بل هو لفظ كردى يطلقه أكراد تلك الجهة على الذى سقطت أنيابه أو يطلقه على الأحوال .

وفي الواقع ان ما ذهب اليه الدكتور (فريج) أقرب الى الصواب والعقل . هذا وكان لكولوس ثلاثة أبناء هم (عيسى و ابراهيم و شيخ ادريس) وكان عيسى كبيرهم وعلى جانب عظيم من البسالة والحزم وفصاحة اللسان وجودة الطبع فلا غرو أنه كان محبوبا لدى المتصلين به . وصادف أن أشاع بعض المفسدين القلق في تلك الجهات فاضطر أهلها الى اتخاذ (عيسى) هذا زعيما لهم للدفاع عنهم فحشد (عيسى) قوة يعتد بها في فترة وجيزة تمكن بها من القاء الحصار على قلعة (أوان)^(١) ، وأقام معسكره مع رجاله على صخرة حمراء تشرف على القلعة المذكورة ، وأخذ في اعداد العدة للقتال والحرب حتى ألقى الرعب في قلوب المعتمدين بالقلعة فأطلقوا عليه وعلى أنصاره لقب (أصحاب الصخرة الحمراء) ثم تطور اللفظ الكردى الى (سوران) أى الحجر ، واشتهر سليل (عيسى)

(١) وفي شرفنامه (كلوس) ولعله محرف من (كه ولوس) بمعنى الذى سقطت بايعته العليا أو سنة منها . وذلك بلغة الاكراد في تلك الجهات كما حققتها بنفسى في زيارتى لها فى خريف سنة ١٩٤٧ م. واما (اوان) فلا شك فى انها محرفة عن كلمة (روان) القلعة والمدينة الشهيرة الآن بـ (رواندز) بمعنى قلعة روان لأن (دز) بمعنى القلعة فى لهجة من اللهجات الكردية .

بالسوران (١) . وأخيراً تم لعيسى الاستيلاء على القلعة ووضع بها أساس إمارة كردية، أدار دفعة شتونها طويلاً مستقلاً تمام الاستقلال . وقد خلفه بعد وفاته ابنه (شاه علي بك) الذي حكم مدة من الزمن . ثم قسم الإمارة بين أولاده (مير عيسى) و (مير بوداق) و (مير حسين) و (مير علي) ، وانسحب هو إلى قلعة (حرير) التي كانت من نصيب (مير عيسى) . وقد تعرض الأمير عيسى أخيراً لهجوم أخيه (مير بوداق) فقضى عليه وتم الأمر لمير بوداق . فعلا شأنه وامتد سلطانه حتى شمل الأراضي الإيرانية حيث انتزع منهم ناحية (صوما قلق) .

وكان (شاه علي بك (٢)) - أخو الأمير عيسى وحاكم (شق آباد - شقا آباد)

(١) يقول كتاب (الأربعة العصور الأخيرة للمعراق) ان سرخاب بك حاكم اردلان أرسل ابنه بهرام بك إلى رواندوز واستولى عليها وصار حاكماً . فنشوء حكومة السوران يرجع إلى (بهرام بك) وقد عاشت ثلاثة قرون إلخ . ويذكر الدكتور فريج كذلك ولداً (لسرخاب بك) يدعى « بهرام بك » ويقول ان سرخاب بك كان اميراً اردلان في عهد الشاه طهماسب . ويقول المؤرخ الشهير هامر في مبحث زحف خسرو باشا إلى همدان ان أمير اردلان والسوران في هذه الاثناء كان (خان أحمد خان) . فيفهم من هذا ان امارة السوران كانت في النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى في حماية الامارة الوردلانية . (ج - ٩) .

(٢) يقول الدكتور فريج في كتابه (كوردلر ص ٢٦٠) : ان الأمير السوراني الذي قتل مير بوداق ، هو الأمير سيدي بن شاه علي بك ، في حين أن هذا المؤرخ نفسه يقول في ص ٢٥٠ من كتابه « إنه كان لشاه علي بك السوراني أربعة أبناء هم مير عيسى ومير بوداق ومير حسين ومير علي . ويقول في الصفحة التي تليها ان الأمير علي قتل (مير بوداق بك) فاذا كان الأمر كذلك يكون اسم مير سيدي خطأ . ولا شك في ان هذه الحادثة وقعت في عهد السلطان مراد الثالث (٩٨٢ - ٩٩٠ م) والظاهر أن شاه علي هو ابن (مير عيسى) الذي كان له اخوان فقطوعها ابراهيم وشيخ ادريس .

المؤلف

أميرا على جانب كبير من الحزم والعزم والشجاعة والروية ، فوطن النفس على أن ينتقم لأخيه من (بير بوداق) فجأهره بالعداء واشتد الخلف ونشب النزاع بينهما إلى أن قتل (بير بوداق) وأخذ هو يستولى على البلاد شيئا فشيئا فانتزع (أربل) و (المرصل) و (كركوك) من القزلباشية (الإيرانيين) ووضع بذلك أساس إمارة كبيرة قامت في تلك المناطق وكانت مستقلة في شئونها تمام الاستقلال . ولما أدركته الوفاة ترك ثلاثة أبناء هم الأمير (سيف الدين) والأمير (عز الدين شير) و (سليمان بك) .

وبعد وفاة الأمير (سيف الدين) من غير عقب انتقل الحكم إلى أخيه الأمير (عز الدين شير) الذي اتخذ مدينة (أربل = هولير) مركزا لإمارته وحكم فيها ردحا من الزمن حتى مر بتلك الجهات ، السلطان سليمان القانوني وهو في طريقه إلى بغداد لغزوها فألصق رجال السلطان به تهمة ملفقة أدت إلى إصدار السلطان أمرا بالقبض عليه وقتله في عام ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) . وقد أقطع السلطان بعد ذلك (أربل) لحسين بك الداسني (١) الذي نجح في بسط سلطانه على كافة أجزاء الإمارة السورانية ، بعد وفاة الأمير سليمان بن شاه علي بك . وبعد فترة قصيرة تمكن الأمير سيف الدين ابن الأمير حسين بن مير بوداق بن شاه علي بك من انتزاع إمارة أجداده من هذا الأمير الداسني الدخيل بعد حروب نشبت بينهما .

وقد أفضى هذا العمل من جانب الأمير (سيف الدين) إلى غضب الدولة العثمانية عليه واستيائها منه ، فأصدرت أوامرها إلى (سلطان حسين) أمير العمادية وإلى أمراء آخرين من الأكراد بالزحف على الأمير (سيف الدين) فنفذوا أوامرها ولكنهم لم ينالوا منه شيئا . بيد أنه خدع أخيرا بنصيحة أحد الأمراء

(١) نسبة إلى العشيرة الداسنية = الطاسنية اليزيدية . المترجم

الأكراد وهو (غازي قران يوسف) أمير البرادوست . فذهب إلى استانبول
ولجأ إلى بلاط السلطان سليمان ، راجيا عفوه ولكن السلطان أبي عليه ذلك
وأمر بقتله .

وبعد وفاة (مير سليمان بن شاه علي بك) لجأ ابنه (قلي بك) إلى الشاه
(ظهماسب) بسبب استيلاء حسين الداسني على إمارة السوران ، كما سبق
تفصيل ذلك ؛ ونجح أخيرا (قلي بك) في توطيد العلاقات مع استانبول
فعينته حاكما على بلدة (السماوة) . ولما رأى أهالي منطقة السوران أن الأمير
سيف الدين قد أعدم في استانبول التمسوا من السلطان تعيين (قلي بك)
حاكم السماوة أميرا للسوران لأحقية بذلك . وما لبث أن صدر المرسوم
فعلا باسنادها إليه فقام بأعباء الحكم فيها إلى جانب إدارة دفة شئون جهة الحرير
وقد عمر حكمه عشرين عاما كان خلالها مثال الحزم والعزم .

وقد خلفه في الحكم ابنه (بوداق بك) فحكم سنتين دون ظهور قلاقل
أو حدوث فتن . ثم قام في وجهه أخوه (سليمان بك) ونازعه السلطان .
فلم يقو (بوداق بك) على الصمود أمامه ولجأ إلى (سلطان حسين بك) أمير
البادينان ، طالبا مساعدته فأمدته بنجدة . وفي عودته مع تلك النجدة إلى العقر
أدركته الوفاة .

وهكذا تم الأمر لسليمان بك بلا منازع ، وكان هذا الأمير عاقلا وحازما
ومحبوبا من الأهالي ، وقد جرد جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف فارس على
عشيرة (الزرزا) وألحق بها هزيمة منكرة وأعمل فيها يد النهب والسلب فرفعت
العشيرة شكايتهما إلى استانبول ؛ وأراد السلطان مراد أن يجر حملة تأديبية
على (سليمان بك) في نفس الوقت الذي كان (سليمان بك) مغيرا فيه على
الأراضي الإيرانية وغنم منها مغنم كثيرة ، فقدم منها هدايا جزيلة لرجال
السلطان ، مما حمل السلطان على العدول عن تجريد الحملة التي كان قد فكر في

تجربتها . وكان ذلك عام ١٩٩٤ للهجرة ، حيث ذاعت شهرة (سليمان بك) في شتى الأنحاء .

وبعد وفاة (سليمان بك) تولى الإمارة من بعده ابنه (علي بك) الذي كان معاصرا لشرفخان البدليسي صاحب كتاب (شرفنامه) الذي يذكر أمراء السوران حتى عهد هذا الأمير . وأما حالة أمراء هذه الأسرة بعد ذلك فلم تدرس بعد دراسة مستوفية .

ويقول صاحب كتاب (تاريخ نعيما) التركي انه في عام (١٠٢٩ هـ) حين قدم السردار خسرو باشا إلى الموصل ، بادر كل من (ميره بك السوراني) و (سيد خان العمادي) إلى معسكر السردار بصحبة جنودهما عارضين خدماتهما عليه فيؤخذ من هذا أن الذي تولى الإمارة في السوران بعد (علي بك) هو (ميره بك) الذي يجمل التاريخ أحواله ومدة حكمه .

وقد ورد في التقرير الإداري الإنجليزي عن راوندز (١) أن مركز إمارة السوران هذه كان تارة في (دوين) وتارة أخرى في (حرير) أو في (كاليبان) أو في (راوندز) .

والظاهر أن قلعة (دوين) كانت مركزا لإمارة السوران في القرن العاشر ودام ذلك حتى عام ١١٤٣ هـ (١٧٣٠ م) حيث ضيقت الخناق عليها بعد ذلك ، الحكومة البابانية بالسليمانية واضطرت (شكه لي بك) أمير السوران

(١) هنالك تقرير انجليزي عن أحوال (راوندز) الاداريه وضع في سنة ١٩٠٩ وطبع سنة ١٩٢٠ في بغداد وهو يشتمل علي خلاصة تاريخية عن السوران من عام (١٠٤٠ هـ ١٦٣٠ م) حتى اليهود الأخيرة ، ويؤخذ من تلقيب أمراء السوران بلفظ (ميران بك) أو اسم ميره بك - وهو علي ما يظهر ابن سليمان بك - أصبح لقباً لأمراء هذه الأسرة ، ورغم عدم معرفتنا مصدر هذا التقرير ، إلا أننا مضطرون للاخذ بما جاء فيه عن أحوال أمراء السوران . المؤلف

إلى نقل مركز حكومته إلى (حرير) . ثم جاء ابنه (سليمان بك) فبنى قلعة حصينة في (كلاسو) جبل (حرير) ، وله آثار أخرى عليّة وعمرائيّة ، وكان الشيخ (حيدر ماوراني) شيخا للعلماء في عهده . ومع كل ذلك لم ينج (سليمان بك) هذا من مضايقة البابانيين له ، وهو منزو في قلعته بـ (حرير) . إذ كثيرا ما أقضوا مضاجعه وظلوا بمعنّين في مضايقته حتى توفى إلى رحمته الله عن سبعين عاما ودفن بقلعة (حرير) .

ويؤخذ من الروايات المحليّة أن العلاقات قد ساءت بين هذا الأمير وبين حكومة بغداد . فترة من الزمن وقبض عليه لهذا السبب وسجن في بغداد وظل بها سجينا حتى أدركته الوفاة .

وفي خلال ذلك كانت أخته (خانزاد) (١) تقوم بأعباء الإمارة نيابة عن أخيها ، وقد خلفت آثارا خيرية عظيمة في البلاد .

ولم يقو (علي بك بن سليمان بك) على الصمود أمام البابانيين وهجماتهم المتواصلة ، فنقل مركز حكومته من (حرير) إلى قرية (كاليفان) في وادي (آلانا) عند مدخل مضيق (راوندز) وذلك في عام ١١٩٢ للهجرة (١٧٧٨ م) وقد اشتهر هذا المضيق فيما بعد باسم (كلّي علي بك) أي (مضيق علي بك) نسبة إلى اسم هذا الأمير الذي حصن المضيق ببناء قلعتي (سردرياوسره شمه) في الناحيتين المتقابلتين ، وقلعة أخرى فيما بين نهري (راوندز) و (بالكيان = بالكي) .

وقد خلف علي بك هذا ابنه (أوغوز بك الكبير) فنقل مركز الحكومة إلى (راوندز) في عام ١٢٠١ هـ ١٧٨٧ م وأخذ سلطانه يمتد حتى وصل إلى (سيدكان) و (هوديان = هه وديان) وسهل

(١) يوجد الآن فندق من الطراز الحديث باسم هذه الأمير الكردية في مصيف شقلاوه الشهير في شمال العراق بنّته الحكومة العراقية . المترجم

(ديانا) وإلى العشائر النصرانية التي أخضعها لحكمه نهائيا .

كما وسع ابنه (أحمد بك) حدود البلاد ، وسلك ابنه (أوغوز بك الصغير) مسلك أبيه في إنهاض البلاد وتوسيع حدودها . وقد نشبت الحروب والقتال مرة أخرى بين البابانيين والسورانيين في عهد (مصطفى بك بن أوغور بك الصغير) وأخذ المغربون يهددون مركز الأمانة ردحا من الزمن ، بيد أن مصطفى بك انتصر أخيرا على خصومه وألحق بهم هزيمة منكرة وأمعن في مطاردتهم حتى قتل الكثيرين منهم .

وبعد فترة عمد (مصطفى بك) إلى مصاهرة خصومه حسما للنزاع وقطعا لدابر الخلافات المستمرة فزوج ابنته (فاطمة هانم) لحسين بك بن محمود باشا الباباني . ثم شرع في إصلاح شئون البلاد وتعميرها منتزعا فرصة هذا الصلح الذي حققته المصاهرة ، فعين أخاه (تيمور بك) حاكما على (هفديان = هوديان) ، وعين (يحيى بك) على منطقة (سيدكان) و (برادوست) وأصاب عنه ابنه (محمد بك) وتوفي هو في سنة ١٢٤٥ هـ .

حكومة (محمد باشا كوره = الباشا الأعمى) :

ألقى (محمد بك) القبض على كل من عميه . بعد وفاة أبيه مباشرة ، ثم أخذ في توسيع حدود الأمانة فأخضع عشائر (شبروان) و (برادوست) مع عشائر (سورجى) لحكمه وطرد البابانيين من حرير واستولى على مدينة (هولير = أربل) وأخضع عشيرة الدزمتى واستولى على بلاد (آتون كوبرى) و (كوى) و (رانيه) واتخذ الزاب الصغير (زى كويه) حدا فاصلا بينه وبين البابانيين . يقول المستر (بيللى فرزر) الذى قام بسياحة (١٨٣٤) إلى (اشنو) ودرس عهد (محمد باشا) واستفاد من التقرير الذى وضعه الدكتور روس = ross الذى كان قدم من بغداد لمعالجة مصطفى بك والد محمد باشا ، يقول ما ملخصه - كان محمد باشا أميرراوندز ييسط سلطانه قبل هذا على منطقة صغيرة من كردستان مثل سائر الزعماء الكرد وكان ذكيا حاد الذكاء ، يقال إنه ذات يوم سمع أن احد اخوته

الحبيب اليه قد دخل جديقة من غير اذن صاحبها وقطع تفاحة منها ، فما كان من
الباشا إلا أن طلب إليه أخاه وقال له بأية يد قطعت التفاحة؟ فرد عليه أخوه :
بيدي هذه ثم سأله بأي اصبع من أصابعك قبضت على التفاحة فقال : بأصبعي
هذا وعند ذلك يقول الأمير يجب أن يقطع اصبعك هذا وينفذه حالا . وفي
الواقع أن حكاية مثل هذه تؤثر أيضا من (نادر شاه) شاه إيران العظيم .
هذا ويمكننا أن نذكر شيئا من المعلومات التاريخية عن عهد هذا الأمير ،
نقلا عن الدكتور (روس) طبيب السفارة الانجليزية الذي كان في بغداد حينذاك
وطلبه الأمير محمد باشا اليه في بلاد السوران . فيقول : إن محمد باشا كان قد جلب
هذا الدكتور اليه لمعالجة عين والده (مصطفى بك) الذي كان قد أضر : ولم يكن
قد ساح أحد من الأجانب في تلك الربوع سوى هذا الدكتور والميرالي
(تايلور) . ولقد قام (روس) مع بايزيد بك عم محمد باشا من بغداد متوجهين
إلى أربل في (١٥ مايو سنة ١٨٣٣) حيث شاهد الحدود بين بلاد الامارة وبين
عمال الترك في غاية من الغرابة . إذ رأى بعيني رأسه وتحقق أن أهالي القرى
الخاضعة لحكم رضا باشا والى بغداد في حالة يرثى لها ، فقسم منهم هجروا قراهم
وقسم اضطر للبقاء فيها تحت الضنك والإرهاب يضجون بالشكوى كلما رأوا
إلى ذلك سييلا . فاذا رأوا أحدا من عمال الحكومة قادما هربوا منه واختفوا
عن الأعين ، في حين أنهم قابلوا (بايزيد بك) من أول ما وصلا إلى بلدة
(آلتون كوبري) ، التي كان بينها وبين (أربل) قرى عامرة وسهول خصبة مكللة
بالورود والزهور ولقد قوبلا في أربل خاصة بحفاوة عظيمة ، وفي (١٩ مايو
سنة ١٨٣٣) غادر روس أربل إلى (رواندز) التي كان على مقربة منها (مصطفى
بك المسن) وبعد رحلة دامت بضع ساعات بين جبال مكسوة بالأشجار
والغابات وعامرة بالقرى والبلاد وصل إلى قلعة (ددم) مسكن ومقر
(مصطفى بك) حيث كان ظاهرا منه (وادي رواندز) واستحكمانه الشهيرة التي كانت
على مسافة ساعة منه . و (مد) هذه قلعة صغيرة مبنية على صخرة عالية

بناء محكما مطلة على قرية ذات مائة بيت ، واقعة وراء تلك الصخرة العاتية ومستورة بالبساتين والحدائق الغناء ، حيث كانت تظهر هنا مناظر مدينة (رواندر) التي كان يقدر عدد سكانها الفئ بيت وأسرة ، وتحيط بها من كل الجهات طوابق واستحكامات وتقع على نهر ؟ (فما ذهب إليه (روس) من أنه الزاب الكبير غلط) وما سمح لروس الذهاب فيما بعد إلى رواندر والتجوال في بلاد السوران ، وفي النهاية يذكر الأزياء والقيافات. فيقول إن الأهالي كانوا فقراء وجهلاء يلبسون ملابس محلية بسيطة عبارة عن سروال وقميص من جوخ ولكن الأغنياء منهم كانوا يلبسون مثل أهالي بغداد وكان كل يوم يأكل في منزل الأمير ، أكثر من عشرة أنفار من القرويين .

هذا وكان (مصطفى بك) قد أصيب بالعمى الذي لا دواء له ، وكان سبب عماء هو أنه ذات يوم قانظ صعد جبلا فشعر حرا شديدا وبادر إلى وضع الثلج على رأسه ونام عليه أيضا .

كان لمحمد باشا أربعة أخوة هم تمورخان وسليمان بك اللذان كانا مقيدين بالسلام في قلعة ، على مسافة خمس ساعات من رواندر وأحمد بك الذي كان حاكم أربل . ورسول بك كان في الجيش مثله كمثل ولي العهد للأمير .

وظاهر من كلام الدكتور (روس) أنه لم يكن راضيا عن هذه الرحلة إذ يشكو من قلة العناية والاحتفاء به ، حيث يقول إن السكرد أشدهاء شرسون لا يعجبهم ولا ينال رضاهم ، غير الحرب والطعان . ويظهر أن هذا هو مقتضى حياتهم القاسية في هذه البلاد حتى أن أطفالهم أيضا يعدون انفسهم للحرب والقتال ويقال إن جيش بغداد لا يمكنه الصمود أمامهم وأنهم استولوا على بلدة (آلتون كوبري) في ظرف ساعة ، ويقولون إن الغرض من أستيلائهم على هذه المدينة ومدينة (أربل) هو تأمينهم الحصول على الغلال اللازمة لتكوين قراهم وإلا فليس لهم طمع في بلاد الغير ولا سيما أن بلادهم من المناعة بمكان يستحيل معها على العدو اقتحامها .

ثم يقول ان الباشا قد خصص أطراف (أربل) لمعيشة مشايخ بلاده ، كما أن عشيرة (طلي) العربية خاضعة لحكم الباشا ، ولهذا العشيرة قوة عسكرية في خدمة الباشا معسكرة حول العقرة .

ويحترم الناس كثيرا الباشا إما رغبة في عدله أو رهبة منه لأن له إدارة حازمة وعدلا في تنفيذ الأوامر ، مما قطع دابر الفساد والمصوبية في أنحاء البلد واستتب الأمن فيها ، لدرجة أن الأهالي حتى في القرى النائية ينامون وبيوتهم أبوابها غير مغلقة طول الليل . ومن النوادر وقوع حوادث تستوجب حكم الإعدام . وحكم السارق قطع اليد ، كما أن حكم قطع الطريق قطع الرجل وعقوبة بعض الذنوب الأخرى سمل عين أو عينين اثنتين .

وحدث أن شيخا من شيوخ طلي ، كان مع عشيرته قد لجأ إلى الباشا ، حدثته نفسه أن يقدم على ضرب قافلة تمر من البلاد وسلب أهوالها ، فما كان من الباشا إلا أن أرسل عشرة من رجاله الأكراد إلى هذا الشيخ غداة الحادثة لتقطع رأسه من غير ضجة ولا قتال .

كان الدكتور في (أربل) ضيفا على حاكمها (أحمد بك) فيقول انه ورد عليه وهو هناك شخص من قواد الباشا يقال له (سلطان بك) فقال له أنه قد اتصل بجيش الباشا الذي يتراوح عدده بين ٢٠ ألفا و ١٥ ألف وكان معسكرا بالعقرة التي كان قد استولى عليها منذ مدة قليلة . حيث كان الباشا نفسه يقود الجيش المهاجم الذي تمكن من الاستيلاء في مدة ثلاث ساعات ، الأمر الذي كان قد أثر في نفوس أهالي العمادية وزعزع ثقتهم بأنفسهم وجاهلهم على أن يقرروا تسليم القلعة من غير قتال . ويقول الدكتور انه في (٣٠ مايو) ورد خطاب من الباشا إلى حاكم أربل يأمره فيه انتظارى بها مع تقديم الاحترام اللازم .

وفي (٦ مايو) جاءت الأنباء بأن العمادية تم الاستيلاء عليها وأن سيد باشا (سعيد)

حرم من إمارة البهادينان وعين (موسى باشا) بدله حاكما على العمادية، كما أن
سليم باشا عين حاكما على العقرة وهكذا خضعت جميع بلاد البادينان لحكومة
(رواندز).

وأخيرا في (٣ يونيو)، ورد أمر من الباشا بإرسال الدكتور (روس) إلى
معسكره بالعقرة فيذهب الدكتور إليه ويحتمع به هنالك ثم يصفه ويقول ،
أنه يناهز الخمس والأربعين من عمره بهي الطلعة حلو الحديد أسمر اللون طويل
اللحية أعور العين مربوط إحدى الساقين، لأن دابته كانت رفته وخذشته
وكان يتكلم بصوت خفيف بطلاء . وسأل عن أصول التدريس والتعليم في
انجلترا وغيرها من المسائل العامة. ثم عطف على العلاقات بين الانجليز والروس
وإيران وأظهر اهتمامه بها. وبعد ذلك استوضحني عن الأعمال الطبية وأثرها حتى
ذكر الطاعون والكوليرا فسألني عن طريقة مكافحتها ومعالجتهما ثم وقف في
مسألة البحث عن الأسلحة والبنادق . وكان ينام في الليل متأخرا فلذا ما كان
يصحو من النوم قبل الساعة التاسعة والعاشره قبل الظهر .

ثم يقول الدكتور إن عدد جيش الباشا لم يكن يزيد عن عشرة آلاف
لأن نصفه الثاني كان قد أرسله إلى الخارج بالسوران ، على أن نخبة عساكره
المنظمة كانوا ثلاثة آلاف من الجنود الحرس الأشداء، ضاربين خيامهم حول
خيمة الباشا وكان الجنود المشاة منهم مسلحا بالبنادق والقربينات . والحياة
بالرماح والقربينات، وكان هذا الجيش مرتبا بطريقة خاصة يمكنه في الوقت
المناسب زيادة عدده إلى خمسة آلاف . ولقد كان الجيش في غاية النظام والدرية
يسوده السكون والانتظام التام . لا يسمع لأحد صوت ولا جلبة في المعسكر
الكبير، بحيث كان الباشا في مدة خمس دقائق يحرك هذا الجيش إلى الجهة التي
يريدها . وكان يحتمع كل ليلة في خيمة الباشا أكثر من مائة ومايتين من رجال العشائر
المختلفة ويأكلون الطعام بها . وكان الباشا قد أمر بشراء ما يلزم للجيش أثناء

الحرب من الذخائر والعتاد بضعف قيمته ، وهذا كان منتهى العدل والإنصاف .
 ولقد غادر الدكتور ، المعسكر بعد بضعة أيام إلى الموصل فأصبحه الباشا
 قوة محافظة مؤلفة من العرب برئاسة (أبي سليمان) فأوصلته هذه القوة حتى
 الحدود العثمانية على مقربة من الموصل . ويذكر الدكتور ، هنا ما كان عليه
 الإدارة السورانية من الانتظام والحزم وما كان عليه الحال في البلاد العثمانية
 من الفوضى وسوء الإدارة ، حيث يقول إننا ما كدنا ندخل الحد العثماني إلا
 وفوجئنا بطلب البخشيش من كل ناحية مهددين إيانا بالقتل إن لم نعطه بالسهولة ؛
 في حين أن هذه العادة القبيحة لم تكن موجودة في أراضى (حكومة رواندز)
 وخلاصة القول ان الإدارة العامة في حكومة رواندز كانت أرقى وأقرب
 إلى الإنصاف من الإدارة في حكم والى بغداد المسمى (على باشا) من كل الوجوه
 يقول (فرازر) ان دراستى الخاصة أثبتت لى أن الباشا كان على جانب
 عظيم من الحرص والحيلة والحذر مع بعد النظر ودقة الشعور ، وكان مع
 عدله المفرط لا يتردد فى إراقة الدماء عند اللزوم . ومن ذلك أنى سمعت أن
 بعضا من العشائر الكردية كانت قد أبدت شيئا كثيرا من الشدة والقسوة ضد
 جيوشه حين محاصرته لقلعة العمادية ولم يكتفوا بذلك بل استمروا فى قتالهم
 وفضايعهم حتى بعد تسليم العمادية ، مما اضطره إلى سوق قوة خاصة إلى هؤلاء
 العتاة القساة فأدبتهم تأديبا صارما حتى أبادتهم عن آخرهم .

لم يكن (محمد باشا) ثقة بالسياحين الأجانب ، فما كان يسمح لهم بالطواف
 فى أنحاء بلاده . وهذا لا يمنع أنه كان يبيع للتجار والمسيبين من أهالى البلاد
 المجاورة ، دخول بلاده ومزاولة التجارة فيها . ولكنه ما كان يقبل أحدا من
 بلاد خصومه أن يدخل بلده ، مهما كانت الظروف وإذا قبض على أحد منهم
 عد أسيرا .

ثم يقول (فرازر) انه كان من الخطأ بمكان أن أدخل بلاد السوران حسب

الأحوال والأصول السائدة هناك. ومع ذلك فقد ثبت لي بعد التحقيق أن الباشا لم يكن في (رواندر) وأنه منذ عشرة أيام بعيد عنها في جهة قريبة من الموصل يخصوص غمار معركة من معاركه. فيلزم للحصول على إذن منه بالدخول والسياحة وقت طويل وأنا في غنى عنه ولذلك عدلت عنه.

وقد أثبتت لي دراستي أنه كان هناك رواية شائعة بأن (محمد باشا) قد اغتصب الإمارة من والده بالقوة، ولكن الصحيح هو أن والده في أواخر أيامه قد تنحى عن الحكم وعكف على الزهد والتقوى سالكا طريقه الصوفية. ورأى من المصلحة أن يترك أمور الإدارة في البلاد لابنه الأمير محمد الذي ما كاد يتسلم زمام الأمور في يده، إلا وبادر إلى تنظيم الأمور وإصلاح الشؤون وإخضاع الثائرين والمنشقين ثم بادر إلى إنشاء جيش قوى مدرب، عدة للمستقبل. ولقد صادف تولى محمد باشا الإمارة أن قامت الحرب الضروس بين إيران وبين الروس فأراد ولي عهد إيران وهو عادة يكون حاكما لولاية تبريز أيضا أن يضرب الأمير محمد ويتخلص منه، غير أنه بدأ أولا بضرب بعض العشائر الكردية والإمارات القومية الأخرى، حيث ضررها عليه أكثر وأثبت. فاتهم الأمير محمد الفرصة السانحة فاسترد البلاد السورانية التي كانت قد استولوا عليها سابقا ثم عطف عنان همته، نحو بلاد (أربيل) و (العمادية) فأخضعها لحكمه، وهكذا وصلت حدود سلطانه إلى (كر كوك) ونهر (دجلة) وأصبح لديه جيش قوامه خمسون ألفا من الجنود نصفهم مدرب تمام التدريب ذو راتب دائم، والنصف الآخر كان مؤلفا من رجال القبائل والعشائر.

هذا وكان (علي رضا باشا) والي بغداد يقف إزاء هذه الحالة مكتوف الأيدي لا يدري ما العمل لمقاومة بطش هذا الأمير الكبير وشدة بأسه. وأخيرا وجد نفسه مضطرا إلى اصطناع الملاينة وتفضيل السلام على إشعال نيران الحرب وبادر إلى الاعتراف بحكومته مستصدرا رتبة (الميرميران) له من استانبول.

وفي عام (١٢٤٩هـ) - (١٨٣٣م) جهز محمد باشا هذا جيشا كبيرا على أتم دربة وأكمل نظام، وبعث به إلى بادينان بتحريك من (موسى باشا الباديناني) الذي كان ينازع أميرها السلطة، ففتش القتال بين الفريقين ودارت رحى معارك عديدة مع اسماعيل باشا الباديناني أسفرت عن سقوط قلعه العقرة، في قبضة (محمد باشا) الذي توجه من هنالك إلى العمادية وحاصرها، ثم أمر حاكمها (سعيد باشا) بعد أن سلبت إليه المدينة، ثم شد رحاله وهاجم اليزيديين في (بعشيقا) فقتل منهم الكثيرين، وألقى القبض على رئيسهم (علي بك) وأرسله إلى (رواندز) وأبقاه هنالك سجينا طيلة عامين ثم قتله، وجاء في رواية أخرى أن (محمد باشا) توجه بعد ذلك إلى (جزيرة ابن عمر) وانتزع مدينتي (ماردين) و(نصيبين) من حاكمها (بدر خان بك) العزيزي.

وصفوة القول إن (محمد باشا) الشهير بالباشا الأعشى (باشا كوره) قد فتح الكثير من البلدان في فترة وجيزة وامتدت حدود بلاده من (رانية) وهضبة (بشدر) حتى (نصيبين) و(ماردين)، ومن (كلاشين) إلى (مخمور).

ولا شك في أن ازدياد نفوذ (محمد باشا) وعلو شأنه في تلك الجهات قد أقلق بال الدولة العثمانية وأقض مضاجع رجالها فجرد السلطان (محمود) عليه جيشا كبيرا بقيادة (محمد رشيد باشا باشا) (١) وأمر بأن يرافق كل من (علي رضا باشا) وإلى بغداد و(محمود باشا) وإلى الموصل، الصدر الأعظم في أدائه مهمته.

ولما علم الأمير محمد باشا بتلك الأنباء اعتصم بقلعة (رواندز) واستعد للمقاومة والنضال. وبعد أن استولى جيش الصدر الأعظم على منطقة بادينان

(١) في الاصل (مصطفى رشيد باشا) وهذا غير صحيح انظر الحاشية في ص ٢٤٦ من كتاب (خلاصة تاريخ الكرد وكرديستان) تعريب المترجم سنة ١٩٣٩

توجه صوب (رواندر) في الوقت الذي كان فيه جيشا بغداد والموصل متجهين نحو (اربل) . وقد كانت الأغلبية العظمى في جيش الصدر الأعظم و(علي رضا باشا) من العشائر الكردية ، فعسكر هذان الجيشان في سهل (ديانا) و(حرير) وكان الأمير محمد باشا مختلا مضيق على بك (كهلى على بك) فبدأ الصدر الأعظم في مفاوضة (محمد باشا) حثنا لدماء المسلمين وقد حذره من مخالفة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، قاطعا على نفسه العهود والمواثيق بالألا يحيق به ضرر ما ، إذا استسلم للدولة العثمانية، وقد نجح الصدر الأعظم في مسعاه وانتهت المفاوضات بتسليم (محمد باشا) نفسه إلى الصدر الأعظم فأرسل إلى الآستانة وهناك صدر عنه عفو ساطاني . وبينما هو عائد إلى بلاده عن طريق (طرابزن) صدر الأمر بالقاء القبض عليه وقتله كطلب (علي رضا باشا) والى بغداد الذي خشي عاقبة عودته إلى بلاده سالما (١)

(١) لما زاد الميجر ميلنغ ، مدينة (وان) سائحا كان (رسول باشا) واليا عليها . وذلك في سنة ١٨٧٠ م تقريبا ، فسأله الميجر عن قضية أخيه (محمد باشا) وما آل إليه أمره بعد التسليم فأجابه (رسول باشا) بما ملخصه؛ «أراد محمد باشا حوالى سنة (١٨٣٤) أن يعمل على إنقاذ بلاده من برائن الحكم العثماني ليستقل بها وينشئ إمارة من أمته فيها . حيث كان إلى جانب صفاته العسكرية الممتازة، إداريا حازما وعادلا، ولهذا كان في مكنته بجيشه الكردي المدرب أن يبسط سلطانه على الولايات المجاورة مثل كركوك والموصل ، وكان (رسول باشا) نفسه قائدا للجيش ووليا للعهد ، فأرسل الباب العالي جيشا بقيادة (رشيد باشا) الذي كان صديقا شخصيا ل محمد باشا لا تتزاع (رواندر) منه ، ولكن الحكومة كانت راغبة في إنها هذه المسألة دون قتال فاستغلت هذه الصداقة الشخصية ستار الحياة (محمد باشا) الذي خدع ووقع في المكيدة التي دبرها له . لأنه أجاب طلب (رشيد باشا) وذهب إلى معسكره لأجراء المفاوضات حيث =

وقد تولى إمارة السوران بعد الامير (محمد باشا) أخوه (أحمد بك) وأصبح رسول باشا حاكما للعمادية . وبعد سنتين قتل (أحمد بك) إثر مكيدة درها له أبناء عمومته فخلفه أخوه (سليمان بك) الذي لم يدم عهده أكثر من ستة أشهر . ثم أبعده عن أريكة الحكم لضعفه . وقد جاء رسول باشا إلى العمادية وتولى منصب الإمارة فيها تحقيقا لرغبة الأهالي وتعزيدا للحكومة له ، وعمر عهده سبع سنوات دون حدوث قلاقل أو إثارة فتن ، ثم حدث ان امتنع بعد ذلك عن أداء الاموال الاميرية للحكومة المركزية فخردت عليه قوة تأديبية اشتبكت معه في معركتين دامتين في (ديره) و (خليفان) انسحب عقبهما إلى (رواندز) ، ولما ضاق به الامر هنالك اضطر إلى الالتجاء إلى (اشنو) وليث هنالك خمس سنين متوالية ، وألحقت إمارة السوران خلال ذلك بالادارة العثمانية المباشرة . وبعد فترة من الزمن توسط ولي عهد إيران لدى الباب العالي بشأن (رسول باشا) فصدر عنه عفو سلطاني وعاد إلى (بغداد) وأقام فيها حيث خصصت الحكومة له راتبا شهريا قدره (٧٥) جنيا عثمانيا . ولما قامت حرب القرم بين الدولة العثمانية والروس ساهم فيها (رسول باشا) كقائد

قبض عليه وأرسل مخفورا إلى الآستانة ، وأظهر السلطان نحوه الكثير من ضروب العطف ، وقر قرار الباب العالي على تعيين (محمد باشا) واليا عاما على كردستان ومنحه سلطات واسعة ، فأركبوه سفينة حربية وأعادوه إلى بلاده ولكن مضى (٣٥ عاما) ولم يصل إليها بعد .

وقد سلم (رسول باشا) نفسه أيضا بعد تعليم أخيه وأقام فترة في بغداد ثم اشترك في حرب القرم قائدا لجيش كردي وأسدى خدمات جلي في هذه الحرب ومعاركها الطاحنة فعينته الحكومة متصرفا للواء (فارس) مكافأة له ، ثم انتقل لتصرفية (وان) ٥١ كتاب (حياة ابتدائية في كردستان ص ٨٥) المؤلف

للقوات الكردية والمتطوعين من العثمانيين في (أرضروم = أرزن الروم) ثم عاد الى بغداد عام ١٢٧٥ للهجرة . ثم سافر بعد ذلك الى الحجاز ثم الى الأستانة وبعدئذ عين متصرفا لمقاطعة (وان) وامضى فيها ثلاث سنوات اختار بعدها الإقامة بأرضروم ، وظل بها مقبلا حتى توفي إلى رحمة الله سنة (١٣٠١ هـ) .

٢٤- امارة البابان :

يقول صاحب (شرفنامه) ان بلاد إيران هي موطن الببابان القديم وأن (بير بوداق بك) مؤسس هذه الأسرة قد وضع أساس حكومة قوية بانتزاعه إيالة (لارجان) (١) من العشيرة الرزائية ، وبلاد السوران من عشائر شيوى (٢) ، وباستيلائه على منطقتي (مشيا كرد) و (سلدوز) من القزلباشية . وكان لقب هذا الأمير (به به = بابا) ولذا سميت الأسرة كلها بالببابان أو الببابانية ، وبعد فترة قتله الأمير (سيدى) - الظاهر انه ابن (شاه على) حاكم السوران - في إحدى رحلات القنص والطراد .

ولما كان (بير بوداق) عتقيا لم يعقب أولادا قط ، فقد تولى الأمانة من بعده ابن أخيه (بوداق بك بن رستم) الذى حكم سنتين فقط ثم اغتصب الامارة منه أحد رجالهم المدعو (بير نظر) .

وبعد وفاة (بير نظر) انتقلت البلاد الأصلية من الامارة إلى حكم الأمير

(١) كان مركزا للمنطقة بين الرى وطبرستان القديمتين (المؤلف) . والظاهر انه لاعلاقة لهذا المركز المتطرف البعيد ، بالموضوع بل الصحيح إن الكلمة محرفة عن (لاهيجان) الواقعة بمنطقة صاو جبالق التي فيها أيضا موطن الرزائية . المترجم
(٢) كذافي الاصل ، وعبارة شرفنامه هكذا ، انه اخذ سيوى ومشيا كرد من السوران وولاية سلدوز من القزلباشية ... الخ
المترجم

(سليمان) ، وحكم (مير ابراهيم) ما تبقى من البلاد .

وقد سلك هذان الاميران في بادىء الامر سبيل الصلح والوثام وكلاهما قانع وراض بما في حوزته من البلاد، ودام ذلك فترة؛ بيد أنهما اختلفا أخيراً فيما بينهما فتنازعا وظلا يتقاتلان حتى قتل الأمير (سليمان) خصمه الأمير (ابراهيم) وضم بلاده إلى حكمه الذي عمر بعد ذلك خمسة عشر عاماً . وقد ترك الأمير سليمان من بعده أربعة أبناء ، ومات الأمير ابراهيم عن ثلاثة أبناء ، وبذلك تكونت أسرتان ظلتا تتنازعان على الامارة وتتقاتلان بغية الانفراد بها إلى أن جاء عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ - ١٧٤ هـ) وما كان قد تبقى في حوزة أبناء هذه الأسرة سوى سنجق (مركه = مرجه) الذي كان يحكمه طفل يدعى (خضر بك) ابن الأمير (حسين بن سليمان بك) وبعد وفاة (خضر بك) هذا ، انقرضت أسرة (سليمان بك) نهائياً (١) .

إمارة البايان الأخيرة :

يقولون إن رجلاً يدعى (فقيه أحمد) هو الذي وضع أساس هذه الأسرة، وأنه كان سليلاً لأمراء السوران ومن عشيرة (نور الدين) إحدى بطون قبائل (بشدر = بزدر) الشهيرة . وهناك بعض روويات محلية أخرى عن حياة هذا الرجل تلوكها الألسنة في محيط البشدريين. خلاصتها أن الفقيه أحمد تمكن من حشد أناس كثيرين حوله واتخذ لنفسه لقب (به به - بابا = أب) فعلا شأنه وزادت شوكرته ثم خلفه ابنه (سليمان بابا) وسلك مسلك أبيه في نشر لواء النهضة والتقدم حتى اعتبر بحق المؤسس البارز للامارة ، وكان يستمع

(١) يؤخذ من رواية (شرفنامه) هذه أن الامراء البايانية الثانية قد انقرضت في اوائل القرن الحادى عشر الهجرى . وان الأسرة الثالثة قد وضح أمرها في أواخر القرن الحادى عشر الهجرى على يد (فقيه احمد) . فينتج من هذا أن الفترة التي بين امرة الامير (سليمان) وبين امرة (فقيه احمد) تتراوح بين الستين والسبعين عاماً .

المؤلف

بقسط وافر من الذكاء والبسالة والحزم ، وقد انتهز فرصة ضعف الإدارة في حكومة (أردلان) فاتزع منها بعض البلاد في عام ١١٠٦ للهجرة (١٦٩٤ م) ولكن لم يمض على ذلك عام واحد حتى دهمه جيش قوى من الأوردلانين والإيرانيين وهزمه شرهزيمة، مما اضطره إلى الالتجاء إلى استانبول ، وبعد أن أقام بها فترة، عينه الباب العالي متصرفا لـ (أدرنه) وقد توفي بها عام (١١١٥هـ) وقد سقطت بعض البلاد البابانية بعد (سليمان بك) في قبضة عشيرة الزنكنة وبقي بعض الآخر في حوزة أبناء سليمان بك ، بيد أن (بكر بك) أحد هؤلاء الأبناء قد تغلب على الجميع وانفرد بالامارة فوسع حدودها حتى امتدت من نهر سيروان (ديالى) إلى نهر الزاب الصغير، والظاهر أن (بكر بك) كان يزمع الاستيلاء على (كر كوك) أيضا ولهذا السبب مامت العلاقات بينه وبين الحكومة العثمانية التي جردت عليه جيش بغداد، الذي ظل يحاربه حتى قتل في المعركة وكان ذلك عام (١١٢٩هـ) ودخلت البلاد البابانية في حكم الدولة المباشرة خمس سنوات كاملة، تمكن خلالها (خانہ باشا) ابن أخي (بكر بك) من توطيد العلاقات مع الدولة ورجاها في بغداد واستعادة حكم أسرته إلى البلاد البابانية وتولى إدارة دفة شئونها عام (١١٣٤هـ)

وقد صحب (خانہ باشا)، حسن باشا والى بغداد في الزحف إلى إرباد. وضم في مقابل ذلك إمارة أردلان إلى إمارته ، وقد انحاز إلى (أشرف خان) الأفغانى في الحروب التي نشبت بينه وبين الجيش العثماني عام (١١٣٩هـ) وكان سببا في إلحاق الهزيمة بالجيش العثماني ، وهكذا ضمن بقاء إمارة أردلان في حوزته ونحت حكمه حتى أوائل عهد (نادر شاه) . وكان أخوه (خالد باشا) يحكم إمارة البابان وقت ذاك . وقد صادف قيام النزاع ونشوب الحروب والقتال بين البابان والسوران ، عهد (خالد باشا) الذي تمكن من اغتصاب (كويه = كوينجق) من السورانيين .

وفي عام (١١٤٣هـ) استرد (نادر شاه) إمارة (أردلان) من البابان وفي عام (١١٥٦هـ) عين (سليم باشا بن بكر بك) أميراً للبابان في الوقت الذي كانت

حكومة بغداد تحاول فيه إسناد إمارة البايان لسليمان باشا بن خالد باشا . وقد أدى كل هذا إلى إمتشاق الحسام بين الفريقين مدة كبيرة من الزمن .

وقد توجه (سليمان باشا) والى بغداد في عام (١١٦٤ هـ) لمحاربة سليم باشا الباياني والتقى على مقربة من شمالي بغداد ودارت بينهما رحى معارك دامية أسفرت عن انكسار (سليم باشا) . وعين (سليمان باشا الباياني) حاكما للإمارة فحكمها أربعة عشر عاما في جو مليء بالقتل والفتن كان يشيرها (محمد باشا بن خانه باشا) تارة ، و (سليم بك بن بكر بك) تارة أخرى . وقد استمرت تلك القلاقل وتلك الفترات الصاخبة حتى تمكن والى بغداد في عام (١١٧٤ هـ) من هزيمة جيش (محمد باشا) على نهر (نارين) والقضاء عليه نهائيا . أما (سليم باشا بن بكر بك) فإنه لم يوفق قط في إغاراته المتواصلة على بلاد البايان .

هذا ، وبعد وفاة والى بغداد (سليمان باشا) اختلف (سليمان باشا) أمير البايان مع والى بغداد الجديد بسبب عدم سداد الأموال الأميرية المطلوبة ، فزحف الباياني في عام (١١٧٤ هـ) بجيشه العرمرم إلى بغداد ، فانبرى له جيش بغداد على مقربة من بلدة (كبرى) ونشب قتال بين الفريقين أسفر عند اندحار (سليمان باشا الباياني) فولى الأدبار إلى إيران وهناك أسندت إليه حكمة الشاه منصب إمارة (أردلان) ، وبعد ذلك بعامين استدعاه (عمر باشا) والى بغداد وأعادته إلى إمارة البايان فأحسن إدارتها وأوصل حدودها إلى (زهار) و (رانية) و (كويه) . وكان ابنه (خالد بك) أو (علي بك) حاكما لأردلان . ثم انتهى أمره بقتله بقعة (قره جو الار) في عام (١١٧٨ هـ) . وبعد زوال عهد (سليمان باشا الباياني) تولى أخوه (محمد بك) نصب الإمارة ، وبعد فترة من حكمه اختلف مع أخيه (أحمد باشا) وفقد الثقة في حكومة بغداد فانشق عليها وحاربها ولكن جيش بغداد تغلب عليه وانتزع منه الإمارة التي أسندت إلى أخيه (أحمد باشا) ، ولكن (محمد باشا) كان قد جا إلى إيران . ومالبت أن عاد منها بجيش إيراني قوى واستولى على قلعه (جو الان) واتخذها قاعدة له . وفي عام (١١٩٢)

للهجرة استرد (أحمد باشا) إمارة البابان بمساعدة الجيش الإيراني له ، وحكمها فترة من الزمن وتوفي إلى رحمة الله عام ١١٩٣ هـ وهو في طريقه إلى بغداد مع جيشه فانتقل الحكم من بعده إلى أخيه (محمود باشا) الذي اندلع لهيب الفلاقل والفتن في عهده ، وقد انحاز إلى الإيرانيين وكان مصيره القضاء عليه في إيران وأسندت الامارة من بعده إلى (إبراهيم باشا بن أحمد باشا) الذي تولى إدارتها بحزم وعزم ، وأنشأ مدينة (السليمانية) ونقل إليها مركز الامارة من قلعة (قرة جوالان) وكان ذلك في عام ١١٩٩ هـ (١٧٨٤) . وفي عام ١٢٠٢ للهجرة تولى الامارة (عثمان بك بن محمود باشا) واشترك بجيشه في الحركات الأدبية لعشائر المنتفك بجنوبي العراق ، ولكن حكومة بغداد خالجا الشك في أمره وألقت القبض عليه وزجت به في أعماق السجن ، وعينت مكانه (إبراهيم باشا بن محمود باشا) للمرة الثانية ، ولكنه لم يحكم في هذه المرة أكثر من عام واحد . أسندت بعده الامارة إلى (عبد الرحمن باشا بن محمود باشا) الذي كان جديرا بمنصب الامارة . وقد عمر حكمه أربعة وعشرين عاما انقطع خلالها عن الحكم فترة وجيزة . وقد اصطدم مع جيش بغداد مرة في مضيق (بازيان) ومرة أخرى على مقربة من (كفرى) ، ثم اشترك مع (حالت أفندى) وجيش الموصل في الزحف إلى بغداد وتأديب واليها (سليمان باشا) تنفيذاً لأوامر الباب العالي فدحروا (سليمان باشا) على مقربة من بغداد واستولوا عليها . وسعى (عبد الرحمن باشا) سعيًا حثيثًا لتولى الأمور في (بغداد) ولكنه أخفق في مسعاه . وقد انقضت أيام (عبد الرحمن باشا) في فلاة وفتن وحروب كنتيجة حتمية للعداء والبغضاء الشديدين بين أفراد العائلة الواحدة ، ولا سيما فيما بينه وبين ابن عمه (خالد باشا) الأمر الذي أفضى إلى خراب الدار والديار . ويؤخذ مما ورد في كتاب (غرائب الاثر) انه في عصر هذا الامير كان هجوم عشيرتين كرديتين من أكراد شهر زور وهما (زرارى) و (لك) على عشائر ضفاف نهر (الخانزر) وبطشهما بهائم رجوعهما إلى (شهر زور) في سنة ١٢٠٩ هـ .

هذا وتولى الإمارة من بعد (عبدالرحمن باشا) ابنه (محمود باشا) في عام (١٢٢٨هـ) وقد عزل بعد أربع سنوات من توليه الحكم من غير ما سبب ظاهر، وخلفه (عبدالله باشا) إلا أن محمود باشا الذي كان قد لجأ إلى الإيرانيين قد أتى بجيش إيراني وكسر عبدالله باشا ودحر جيشه ولم يتمكن من الاستحواذ على الإمارة، وكان الديار داود افندي الشهير بـداود باشا بـداود باشا الكولامان - وقد لجأ في عهد هذا الأمير إلى البايانيين هاربا من بطش والي بغداد وطالبا المساعدة للاستيلاء على (بغداد) فساعده الأمير بجيش من البايان تمكن به من استرداد (بغداد) من (سعيد باشا) وصار واليا عليها. وقد استمرت العلاقات حسنة بين (محمود باشا الباياني) وبين (داود باشا) والي بغداد فترة من الزمن ثم عادت فسيات بعد ذلك فاتحاز (محمود باشا) إلى الإيرانيين واستعان بهم على والي بغداد وبذلك حافظ على مركزه، ولما لجأ منافسه (عبدالله باشا) إلى الأمير (محمد علي ميرزا) حاكم (كرمانشاه) تحسنت العلاقات بين (محمود باشا) وبين العثمانيين مرة أخرى. إذ أرسل (داود باشا) جيشا من بغداد لنجدة (محمود باشا) حينما زحف جيش إيراني إلى ولاية (شهر زور)، بيد أن الجيش العثماني قد انكسر أمام الجيش الإيراني وسقطت مدينة السليمانية في قبضة (عبدالله باشا) الذي صار أمير البايان المستقل بفضل تعضيد إيران له.

وبعد وفاة الأمير (محمد علي ميرزا) وعودة الجيش الإيراني إلى إيران، حشد (محمود باشا) قوة عسكرية هاجم بها (عبدالله باشا) وطرده من أرض البايان وبعد فترة وجيزة جردت بغداد جيشا على (محمود باشا) بالسليمانية اضطره إلى مغادرتها، ولكن الاتفاق بين الدولتين العثمانية والإيرانية وتفاهمهما بشأن إدارة إمارة (البايان) أدى إلى إقرار تعيين (محمود باشا) أميراً للسليمانية والبايان. وعين (عبدالله باشا) حاكما لبلدة (كويه = كويسنجق) عام (١٢٣٩هـ) وقد تولى الحكم من بعد (محمود باشا) أخوه (سليمان باشا) الذي دام عهده ثمانين سنوات، وقد كان معث قلق لـ (محمود باشا) في الكثير من الأحيان. وبعد وفاة (سليمان باشا) تولى إمارة البايان ابنه (أحمد باشا) الذي كان حازما فعلا

بجد ونشاط على انهاض البلاد وتقدمها في مضمار العلم والعمران ، فعمد أولا وقبل كل شيء إلى وضع الأسس لتكوين جيش منظم يتولى الدفاع عن مصالح البلاد ، ولولا تهديد عمه (محمود باشا) الدائم له ، فضلا عن استعانته بالقوة الإيرانية لمناوشته واشغاله - لنجح في إتمام مشروعه كل النجاح ، ومع ذلك فقد تمكن من تنفيذ مشروعه ووضع أساس جيش البايان في عام (١٢٥٦ هـ) وليس لدينا معلومات عن آخر عهد (أحمد باشا) تبين لنا عن أعماله في تلك الحقبة. وإن كان يقال ان هذا الأمير كان مستقلا عن والي بغداد وأنه حين حاصر بجيشه (كويسنجق) هاجمه كل من (كوز لكلي نجيب باشا) والي بغداد و(عبد الله باشا) أخو (أحمد باشا) وضيقا عليه الخناق ولكنه كان مستميتا في مقاومتهما لولا ما حدث أخيرا من انتشار روح التذمر واليأس بين جنوده واضطراره إلى العودة إلى السلجمانية والتوجه منها إلى (شهر زور) لاعداد جيش جديد بها من الجاف^(١) لمنازلة خصمه : وقبل أن يعود إلى السلجمانية كان (نجيب باشا) قد استولى عليها فاضطر إزاء ذلك إلى اللجوء إلى إيران وهناك توسط له السفير العثماني فصدر عنه عفو سلطاني ، وبذلك تمكن من السفر إلى استانبول . وقد تولى الحكم في السلجمانية بعد (أحمد باشا) هذا أخوه (عبد الله) متخذاً لنفسه لقب قائم مقام ، ثم خلفه في الحكم بنفس اللقب اللواء (اسماعيل باشا) ومنذ ذلك اليوم انتهت أيام الامارة المستقلة وأصبحت تخضع للإدارة التركية المباشرة وكان ذلك في عام ١٢٦٧ هـ (١٨٥١ م)

(١) يتعرض تاريخ (هامر) في المجلد التاسع من الترجمة التركية في مبحث الصلح بين العثمانيين وإيران في عهد السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩ هـ ، لذكر هذه العشيرة الكردية الكبيرة وقسمتها بين إيران والعثمانيين . فيقول ان قبيلتي (ضياء الدين) و (وهاروني) من هذه العشيرة كانتا من حصص العثمانيين كما ان كتاب (منشات صاري عبدالله) يتعرض لهذا الموضوع ويذكر (جاق) بدل كلمة (جاف) ؟ ..

يقول صاحب (شرفنامه) ان هذه الامارة كانت موجودة قبل الفتح الاسلامي وانها قبلت الاسلام دينها طوعا لا كرها ، ولهذا لقب أمراؤها بلقب (اختيار الدين) ، وكل ما لدينا من معلومات عن هذه الامارة لا يعود عهد (ميرزا بك بن مير محمد بك) الذي كان يحكم قلعتي (بيروني) (١) و (شوبوه) ومكانهما قضاء (بانه) الحالية بایران — . وقد كان صهره له (بيكه بك) أمير أردلان علي كريمته . وكان هذا الزواج سببا في وقوع الشقاق والعداء بينه وبين (سلطان علي) رئيس عشيرة (تتليج) ؟ الكردي الذي تغلب (٢) علي (ميرزا بك) أخيرا وطرده من الامارة وعين مكانه أخاه (فاتنمش) . فاستعان (ميرزا بك) بحميه (نسيبه) علي خصمه واسترد إمارته منه وظل يحكمها بعد ذلك فترة من الزمن دون منازع .

ولما توفي (ميرزا بك) تولى الامارة من بعده ابنه (بوداق بك) الذي كان له أخوان آخران من غير أمة يدعيان (محمد) و (أوغورلو) فنازعاه في الحكم واشتبكا معه في القتال حتى هزماه وأخرجاه من الامارة . فذهب (بوداق بك) إلى الشاه طلبا مساندة . فمد له الشاه يد المساعدة لاسترداد إمارته . إلا أنه توفي إلى رحمة الله بعد فترة قليلة في (قزوین) ، فعين

(١) هكذا في الاصل الكردي ولكن عبارة (شرفنامه) تخالف هذا وتقول ان ولاية (بانه) هذه تتألف من قلعتين وناحية فقط . فاحداهما (بيروز) والاخرى (شيوه) وانها تقع بين ولايات أردلان ومكري وبابان . واما الناحية فتدعى (بانه) ، كما ان عبارته لا تفيد ان (سلطان علي بك) رئيس لعشيرة تدعى (تتليج) بل انه موصوف بانمظ هو (غنليج) فليحذر . المترجم

(٢) تذكر دائرة المعارف الاسلامية هذا المبحث بصورة اخرى . ولكن رواية (شرفنامه) اقرب الى الصحة .

المؤلف

الشاه (سليمان بك) أخا (بوداق بك) أميرا على البلاد وليكن الأمير (محمد) وأخاه (أوغورلو) عملا على إثارة العشائر ضد (سليمان). فأدى ذلك إلى قدوم جيش إيراني لنجدة الأمير وتوطيد أقدامه في البلاد . وقد عمر في الحكم عشرين عاما تقدمت البلاد خلالها تقدما محسوسا ، إذ كان الأمير على جانب عظيم من الدراية والعلم وحب المساواة والعدل يخاف الله ويتقيه في كفاة تصرفاته وأعماله

وقد زوج ابنته في أواخر أيامه من ابن أخيه (بدر بك) . ثم تنازل له عن الامارة أيضا وسافر هو إلى المدينة المنورة وليث هناك يتعبد إلى جوار رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى أن توفاه الله إلى رحمته . وكان (سليمان بك) هذا معاصرا (١) لـ (شرفخان) البديسي صاحب كتاب (شرفنامه) في تاريخ الكرد وكرديستان .

هذا ويذكر تاريخ عالم آرا (ص ٥٧٤) في وقايع سنة (١٠٢٧ هـ) أن أميراً يدعى اسكندر سلطان كان حاكماً (بانه) وكان في خدمة الشاه عباس الأول ثم عصاه أخيراً . وقد لحقت هذه الامارة في عهد الأمير (بدر بك) بحكومة (أردلان) . ولقد مر المستشرق (ريج) في عام ١٢٢٦ للهجرة ببلدة (بانه) وقابل حاكمها (نور الله خان) . هذا وكان آخر أمير في (بانه) من أسرة (اختيار الدين) هو (كريم خان) الذي قتله خادمه (يونس خان) وحل محله في حكم (بانه) . وليكن لم يمض على ذلك طويل وقت حتى قتل (يونس خان) هذا ، على يد ابن أخيه (فتاح بك) فانتقلت إمارة (بانه) إلى (حمه خان) ابن (يونس خان) .

وقد ليث (حمه خان) هذا حاكماً على (بانه) حتى قبيل الحرب العالمية الأولى حيث اغتاله (ابراهيم البديليسي) رئيس القوة الحربية العثمانية بإيران

عام (١٣٢٣ هـ) . وهكذا انتهت أيام أسرة (يونس خان) أيضا ، وأصبحت
(بانه) قضاء من أفضية لواء (سابلاخ = صاو جبالق)

٢٦ - اماره كلباخي

أسس هذه الامارة (عباس أغاي استاجلو) بحصوله أولا على بلدة
(سرجاوه) بمنطقة (مريوان = مهران) من (بيكك بك) حاكم (أردلان)
ثم استيلائه بعد مدة على (بيلهور) من العشائر الكهرية . ثم تمكن من
جمع عشائر أخرى (١) حوله فقوى نفوذه وعلا شأنه فاعترف له الشاه طهاسب
بامارة (بيلهور) .

وقد قبلت هذه الامارة أخيرا الحماية العثمانية، فأضافت الدولة العثمانية
إليها بلاد (شيخان) و (جاكاران) و (خور خورا) و (نيره زند) و (قلعه تبه)
وبضعة بلاد أخرى . حيث جعل هذا الأمير منها كلها سنجقا مستقلا وأسندته
إلى (علي خان) الكلباخي . ولما تولى (يار الله خان) شئون هذه الامارة
عمل على توسيع حدودها وليس هنالك معلومات أخرى عن هذه الامارة .

٢٧ - اماره كهر (٢)

يقول (شرفنامه) ان الحكام الكهريين هم أحفاد (كيو بن كودرز) :

(١) مثل عشائر لك وسليمانى و (مادكى = بادكى) و ورمزبار . المترجم
(٢) يقول الميجر (راولفسون) الذى زار زهاب سنة (١٨٣٦ م) في صدد
الكلام عن الكهر ما يلى : « يقول الكهريون عن أنفسهم أن أصلهم يرجع
إلى العصور العريقة في القدم وأنهم من نسل (رحام) الذى هو مختصر
الشهير الذى اجتاحت فلسطين ونقل يهودا يبلغ عددهم ٤٠ - ٥٠ الفا تقريبا
إلى جبال (زاغروس) وأسكنهم فيها ، والظاهر أن أفراد هذه العشيرة هم

وتنقسم هذه الأسرة الحاكمة إلى ثلاثة فروع :

(١) نبلاء بلنكان .

(٢) نبلاء درتنك .

(٣) نبلاء ما هي دشت .

١ - نبلاء بلنكان

كان الأمير الشهير (غيب الله بك) من فرع (بلنكان) . وكان يحكم بعض القلاع في (شهرزور) والبلاد القريبة منها . وعين بعده ابنه (محمد بك) من قبل الشاه طهماسب أميراً على البلاد ، وقد نهض هذا الأمير بالبلاد نهضة عالية أفادت منها البلاد كثيراً . ولما صاهره الشاه طهماسب على ابنته ، علا شأن البلاد وقويت شوكتها . وقد قسم الأمير (محمد بك) البلاد في حياته بين أولاده الأربعة ، وبعد وفاته خلفه ابنه الأمير (اسكندر) وحكم البلاد عشرين عاماً

أحفاد هؤلاء المهاجرين المنفيين . لأن كثيراً من أسماء الأعلام فيهم تشبه أسماء اليهود ، ولأنهم من جهة أخرى يعتقدون أن (دارد) عليه السلام هو النبي المختص بهم مع كونهم مسلمين من (العلي الكهين) .

وأرى أن هذا غير صحيح لأنه إذا كان هنالك بعض دلالة على هجرة اليهود وتقسيمهم إلى تلك الجهات ، فذلك يدل على أن هؤلاء الكهريين أي أجدادهم اقتبسوا من عادات وتقاليد اليهود بحكم الجوار والاختلاط ، ولكن ليسوا أحفاد هؤلاء الدخلاء على البلاد . ومع ذلك فإن التاريخ يقول ان (كيروس = كيكسرو) بعد أن فتح (بابل) وضعها إلى إمبراطوريته أعاد اليهود المبعدين إلى بلادهم فلسطين . وليس من البعيد أن يكون الكهريون أحفاد (رحام بن كودرز) الذي أشارت إليه الشاهنامه أو (كودرز) أحد ملوك الاشكان الذي حارب (مهرداد) حاكم (أرمينية) .

وبعد (اسكندر بك) سقطت قلعة (بلنكان) في قبضة أمير (الدينور) (١) ثم صارت مقاطعة عثمانية .

٢ - نهر درتوك

قامت هذه الامارة بمنطقة (حلوان) القديمة، وكان مركزها قلعة (درتوك)، والمعروف من أمرائها كما يأتي : وأولهم هو (زوراب = سهراب بك) الذي اكتسب شهرة في البسالة والسخاء والكرم، واتسعت في عهده حدود الامارة . ثم خلفه ابنه (عمر بك) الذي خضع للسلطان (سليمان القانوني) وقبل حمايته . ثم جاء من بعده ابنه (قباد بك) الذي تولى الحكم وعمل بجد ونشاط على إنهاض البلاد وتقدمها حتى اتسعت حدودها وامتد سلطانها حتى (الدينور) و (بغداد) . وكان على جانب عظيم من الذكاء والقوة ورفعته الشأن ، وكان معاصرا للأمير (شرفخان البدليسي) صاحب (شرفنامه) (٢)

٣ - نهر ماهي دشت (مايردشت)

قامت هذه الامارة في بلدة (بيله ور) (٣) ، وكان المدعو (منصور بك) هو أميرها في عهد (شرفخان) الشهير .

(ملحوظة) كان هنا في الأصل بحث الحكومة العنانية فنقل الى باب الحكومات كما سبق ذكرها .
المترجم

(١) هو (سولاغ حسين تكاو) حاكم الدينور من قبل الشاه إسماعيل .

(٢) حيث يقول انه كان يحكم قلاع (باوه ، باسكه ، آلاني ، زنجير ،

روانسر ، دوان ، زرمانيكي .

المترجم

(٣) وفي مكان آخر في شرفنامه (تيلهرو) بالناء .

﴿٥﴾ - امارات ايران الشرقية (٢٨ - ٣٠)

تقول (دائرة المعارف الاسلامية) إن العشائر الكردية الايرانية الاساسية كانت تتألف من ثلاثة أقسام : (سياه منصور) و (جكنى) و (زنكته) نسبة إلى أجدادهم الذين كانوا ثلاثة إخوة قدموا من لرستان . وفضلا عن هذا ، فإن هذا المصدر يضيف إلى ذلك بحثه في المجلد الرابع عن عشيرة (شبانكاره) وإمارتها الشهيرة التي قامت في فارس وكرمان ، وفيما يلي موجز لهذه الامارات :

٢٨ - اماره سياه منصور :

يقول صاحب (شرفنامه) إن هذه الامارة تم تأسيسها في عهد الشاه طهماسب ، حيث استدعا إلى بلاطه أميراً من فرع (سياه منصور) يدعى (خليل بك) ومنحه لقب (خان) سنة (١٠٦٠ هـ) ، وأسند إليه منصب أمير أمراء جميع أكراد إيران . فنفذ حكمه في أربع وعشرين عشيرة كردية ، علاوة على عشيرته (سياه منصور) ، كما أقطعه الكثير من البلاد والأراضي فيما بين العراق وأذربيجان ، وكان يعسكر بمعية هذا الأمير بصفة دائمة ، حوالي ثلاثة آلاف فارس وهو مقيم بين (قزوین) و (تبریز) للحفاظ على الثغور والحدود في تلك الجهات ، وبعد ثلاث سنوات أخذ نفوذ (خليل بك) يتضاءل ويبدأ رويدا وبدأت تتحرك علامات الفتن والقلق ، مما حمل الشاه و (سلطان محمد) على إبعاد (خليل بك) إلى (خراسان) . حيث انحصرت سلطته في عشيرته (سياه منصور) فقط ، وأخيراً عين محافظاً لحدود (خراسان) . وقد حلف (خليل بك) في منصبه ابنه (دولتیار خان) الذي عينه الشاه فيما بعد محافظاً لحدود (آذربيجان) ، فقام بتنفيذ إصلاحات عظيمة في تلك النواحي ، ثم شق عصا الطاعة على الحكومة فدعمه جيش إيراني بقيادة (مرشد قولیخان شاملو)

وحاصره في قلعة (شبستان) ، ولكن (دولتيار خان) خرج من القاعة ذات يوم فجأة وباغت الجيش الايراني بهجوم عنيف فألحق به هزيمة منكرة وشنت شمله شذر مذر ، بعد أن قتل الكثيرين من القزلباش ونهب أموالهم وأثقالهم وقد طمع (دولتيار خان) بعد هذا النصر المؤزر في ولاية العراق (١) ، لكن الشاه (عباس) قابله بجيش عرمرم بقيادة (مهدي قلي سلطان) فما كان من (دولتيار خان) إلا أن استسلم للشاه دون قتال فأخذ الشاه وسجنه مع أتباعه ثم ما لبث أن قضى عليهم جميعا القضاء المبرم ، ويلوح أنه لم يبق بعد ذلك أحد من هذه العائلة في الوجود ، وانتهت أيام هذه الامارة أيضا كسائر الامارات الكردية الأخرى .

٢٩ - إمارة جكني

يقول (شرفنامه) ان عشيرة (جكني) هذه كانت وما زالت ذائعة الصيت بالاقدام والبسالة بين العشائر الكردية الايرانية ، ولكن حرمانها من رئيس فعلي لزعامتها قد أدى إلى تشتتها فيما بين (العراق) و (آذربيجان) وإمعانها في النهب والسلب ، فضج أهالي تلك البلاد بالشكوى والنذر من تصرفات هذه العشيرة ورفعوا شكايتهم إلى الشاه (طهماسب) الذي أصدر أمره بمطاردتهم في جميع الأنحاء والقضاء عليهم أينما كانوا ، وقد تمكنت خمسائة أسرة من اللجوء إلى (خراسان) والاستيطان بها ... وكان يحكم (هرات) وقتذاك (قزاق خان تكاو) الذي كان يهاب الشاه (طهماسب) ويخشاه ، فانتزعت الفرصة وبسط حمايته على هذه العشيرة المنكوبة وأسكنها في (غرجستان) بين هرات وكابل .

(١) إحدى ولايات ايران الادارية ولعلها (العراق العجمي = الجبل) . المترجم

(٢) في شرفنامه ، خمسمائة نفر من الأعيان والرؤساء وغير ذلك من

ولما علم الشاه (طهماسب) بذلك غير رأيه في هذه العشيرة وشملها بعطفه وأسند
أمورها إلى أمير جكني يدعى (برادق بك) ، فسعى هذا الأمير وأعاد هذه
العشيرة إلى (خراسان) وأسكنها فيها تحت إمرة الشاه وسلطانه .
ولقد أسدى (برادق بك) وعشيرته خدمات جلي للشاه (عباس) في حربته
مع (عبد المؤمن خان) حاكم (أزبك) في سنة (١٠٠١ هـ) وكافأه الشاه - نظير ذلك -
مكافأة مجزية ، بأن عينه هو وخمسة من أبنائه قوادا في الجيش الإيراني مع اسناد
منصب أمير الأمراء إلى (برادق بك) نفسه . ويقول (شرفنامه) ان هذا الأمير
كان معاصرا لشرفخان البدليسي نفسه حيث كان في مقدمة رجال الشاه (عباس) .
ومن دواعي الأسف أنه ليس لدينا معلومات عن نهاية هذه الامارة
الكردية وعشيرتها .

٣٠ - إمارة زانكند

يروى لنا (شرفنامه) أن هذه الامارة كانت معروفة ومشهورة حتى عهد
الشاه (اسماعيل الأول) ، ثم انقرضت الأسرة الحاكمة ، مما اضطر أفراد العشيرة
وبعض رجالها البارزين إلى الانخراط في سلك الحرس الشاهاني وسائر رجال
الدولة الصفوية .

(ملحوظة) كان في الأصل هنا مبحث حكومة الشبانكاره فنقل في
الترتيب الجديد إلى الباب الأول في مبحث الحكومات . المترجم

﴿ و ﴾ - « امارتا خراسان » (١-٢)

١ - إمارة قوجان

قلنا في المجلد الأول من هذا الكتاب في مبحث جغرافية كردستان ان عشائر كردية تقيم في خراسان أيضا . ويذكر (Hon. george N. Curzan) في رحلته (إيران) بصدد البحث عن هذه العشائر الكردية مايلي : نقل الشاه (عباس الكبير) بعض العشائر الكردية القاطنة في شمال غربي إيران إلى خراسان للاعتماد عليهم في المحافظة على حدود إيران الشمالية الشرقية ضد إغارات التركان ، وهذه العشائر هي (شاهدللو) و (زعفرانلو) و (كبروانلو) و (أمانلو) ويقول صاحب رسالة (غربي إيران وعشائره ورجاله) أن تعداد عشيرة الزعفرانلو فقط كان يبلغ ٤٠ ألف أسرة، وفرع من هؤلاء كان يبلغ عددهم ثمانمائة أسرة مقيمون في قضاء (جناران) كما إن عشيرة شادانلو بحسب تعداد سنة ١٩٠٨ كان عددها (٢٨٠٠) أسرة (ص ١٣٠-١٣٢) ، وأقامت غالبية هذه العشائر في منطقة (قوجان) . أما فرقة (شادانلو) فأقامت في جهة (بوجنورد) وكانت لعشائر (قوجان) إمارة شبه مستقلة إذ كانت تتمتع بالحرية الكاملة في أمورها الداخلية ، وكان لها قانونها الخاص ومحاكمها الخاصة ولم يكن لها أدنى ارتباط إداري بالحكومة المركزية اللهم إلا دفع مال سنوي مقرر لها . وقد أراد (نادرشاه) في وقت ما أن يخضع هذه الإمارة لسلطة الحكومة الإيرانية المباشرة . وتمهيدا لذلك تزوج بكريمة أمير العشيرة (إيلخان) ولكن لم يجده ذلك نفعا .

وأخيرا اضطر في أواخر عهده إلى الزحف بجيش لجب نحو (خراسان) لاختضاع هذه الإمارة لسلطانه . ولكنه ما كاد يصل إلى واجهة قلعة (قوجان) ويعسكر بجنده حتى سطا عليه ليلا أحد الفدائيين وقطع رأسه في فراشه في

سنة (١٧٤٧ م) . وفي عهد القاجاريين أيضاً زحف الشاه (فتمعلي خان) إليهم ونازلهم في بلادهم ولم يتمكن منهم فاضطر لابرار الصلح معهم .
وفي سنة (١٨٣٢ م) زحف عباس ميرزا (الأمير عباس) إلى قوجان واستولى عليها عنوة ، بفضل مساعدة ضباط إنجليز كانوا يقودون المدفعية .
وقد أسر (عباس ميرزا) أمير العشيرة (رضا قليخان) وأصحابه معه إلى (طهران) ثم أرسل منها إلى (تبريز) وهناك أعدم وعين بدله ابنه (سام خان) (إيلخاناً) .
وفي سنة (١٨٨٦) وهي السنة التي قام فيها المستر (كرزون) برحلته إلى إيران كان الأيلخان هو أمير الأمراء (شجاع الدولة الأمير حسين خان) الذي ثار على الحكومة في وقت ما وعزل من منصبه ثم عاد أخيراً واتفق معها وتوطدت العلاقات بينهما ، وكان على جانب كبير من الحزم والعزم وقوة النفوذ ، هذا وكانت إمارة (قوجان) هذه غنية وقوية على العكس من إمارة (بخباورد = بجنورد)

٢ - إمارة بجنورد

كانت هذه الإمارة ضعيفة ، وكان يخضع لها بعض العشائر التركمانية ، وكان لفظ (إيلخان) لقب أمراءها الرسمي ، وتقدر (دائرة المعارف البريطانية) عدد الأكراد في تلك الإمارة وقتذاك بمائتين وخمسين ألف نسمة .

﴿ ز ﴾ - امارات جبل لبنان (١ - ٣)

يؤخذ من كتاب (أخبار الأعيان في جبل لبنان) (١) أن هناك عدة إمارات صغيرة أسسها الكرد في أنحاء جبل لبنان نذكر منها مايلي :

١- مشايخ العماديين الدرزي:

هاجر جده هؤلاء العماديين وكان يدعى (عماد) من العمادية التي بولاية الموصل ، إلى الجبل الأعلى وسكن قرية (مرطحون) ثم انتقل منها إلى قرية (تاينا) وبعد مدة رحل إلى منطقة (العرقوب) وأقام بقرية (الزنبقية) وأخيراً اشتبك هو وأتباعه مع أسرة (جانبلاط) الشهيرة في النزاع ، قتل من رجال هذه الأسرة الأخيرة عدد غير قليل فاضطر العماديون بعد ذلك إلى الهجرة إلى عين (وزيه) ثم إلى (الباروك) حيث توفي (عماد) فيها إلى رحمة الله عن أربعة أولاد ذكور. ولكن رئاسة العائلة انتقلت إلى أخيه (سرحال) وقد قتل أخيراً (غضبان) الابن الصغير لعماد مع الأمير علي فخر الدين المعني في المعركة التي قام بها أحمد باشا الصغير في خان (حاصبيا) ضد الجبل ، كما ان أخواته الآخرين قضاوا نحبتهم أخيراً إما في ساحة الوغى وإما حتف أنفهم .

وفي سنة (١٦١٠) م نصب أحمد باشا الكوربلي الشيخ (سرحال) حفيد عماد حاكماً للشوف بدل الامراء المعنين ، الامر الذي اضطر الى قتله مع هؤلاء العماديين واستئصالهم من قبل المعنين وأنصارهم وعلى رأسهم الامير أحمد المعني ، ولكن واحداً منهم تمكن من الاختفاء مدة تحت اسم مستعار حيث حافظ على تسلسل الأسرة ودرامها مدة غير قليلة . ومن اشهر من هذه الأسرة بعد هذه الحوادث (نامم بن الشيخ عبد السلام العماد) الذي كان في غاية من الذكاء والنشاط

(١) لمؤلفه الشيخ طنوس بن يوسف الشديق ، طبع بيروت سنة ١٨٥٩ .

فاشتبك مع الشيخ علي الجانبلاطي سنة ١٧٨٨ في النضال والمشاحنات التي أدت أخيراً إلى انقسام أهالي تلك النواحي إلى معسكرين يرأس أحدهما (اليزبكيون) الذين كانوا مؤلفين من جماعات بني عماد وبني تلحوق وبني عبد الملك . ويرأس الثاني (الجانبلاطيون). وفي سنة (١٧٩٢) أمر الأمير قعدان الشهباني مشايخ العماديين والنكديين بالزحف إلى الجانبلاطين فقاموا بالمهمة خير قيام وهكذا اشتركوا في أغلب حوادث لبنان البارزة حينذاك. كما أن الشيخ (خطار) من أحفاد العماديين أراد الذهاب بمعيته البالغة ثلاثمائة جندي ، مع الأمير أمين أرسلان إلى أرضروم للاشتراك في جهاد الروس وحرهم سنة (١٨٥٤) ولكن شخوص الأمير إلى استانبول حينئذ، حمل الشيخ خطار إلى العودة إلى الجبل (ص ١٦٦ فصل - ١٦)

٢ - أمراء بني سيف الأكراد

هؤلاء الأمراء من أحفاد المقدم جمال الدين سيف، كانوا متوطنين في جهات طرابلس والعكار وحصن الأكراد وكانوا حكاماً على المنطقة الواقعة بين نهري الكلب وبرايم . ولما قام نزاع في سنة (١٥٢٨ م) بين بني شعيب حكام طرابلس وبين بني سيف الذين اضطروا نتيجة لهذا، إلى الرحيل إلى الباروك ونالوا تعضيداً من آل العساف والمعينين فهاجموا الشعيبيين وانتزعوا منهم العكار وأقاموا بها . وقد تولى رئاستهم (يوسف باشا) ردحا من الزمن منصب حاكم طرابلس ، بيد أن علاقاته مع الدولة العثمانية قد ساءت أخيراً فاضطر لترك المنصب والرحيل إلى برية الشام . وفي سنة (١٥٩٠ م) ظهر فجأة على رأس قوة باغت بها العسافيين وقتل أميرهم محمداً . وفي سنة (١٦٠٢ م) استولى على بعلبك ونهبها وأخربها ثم عاد إلى طرابلس . وفي سنة (١٦٠٥) تفاهم مع حاكم حلب (علي باشا جانبلاط) ولم يرض على ذلك سنتان إلا وتفاهم الشر بينهما فاقتلا وقامت معركة بينهما في (حماه) غلب فيها (يوسف باشا) على أمره ولجأ إلى دمشق ، غير أن خصمه علي باشا قد ضيق عليه هنالك أيضاً بواسطة حليفه الأمير نجر الدين المعني . وأخيراً تفاهم مع خصمه علي أن يعود إلى

حصن الاكراد والاكتفاء بها . ولما شق (على باشا جانبلاط) عصا الطاعة على الدولة ، بادر (يوسف باشا) بأمر منها بالزحف على خصمه الثائر واشترك في تأديبه حتى سقطت حلب في أيدي رجال القوة النأديبية وعاد يوسف باشا بعد ذلك الى العكار .

وفي سنة (١٦١٨) اتفق كل من عمر باشا والى طرابلس والامير فخر الدين المعني في الزحف الى يوسف باشا . وحاصراه في قلعة الحصن ولم يمض على ذلك وقت طويل إلا وعفت الدولة عن يوسف باشا واسندت اليه منصب حاكم طرابلس ، كما أن عمر بك من بني سيفاً أيضاً تعين حاكماً لخص . وفي سنة (١٦٢٤) توفي يوسف باشا بطرابلس . وكان رحمه الله في غاية من البسالة والصبر على القتال وهو أول باشا تعين لولاية طرابلس متصرفاً . وقد تولى بعده من أبنائه السبعة . (قاسم) منصب طرابلس بدل أبيه والامير (محمود) كان حاكماً لخصن الاكراد والامير (بلك) كان حاكم العكار . ولما عين والى طرابلس أخيراً ، الامير سليمان ابن أخى يوسف باشا المرحوم حاكماً للعكار لم يسع أبناء عمومته الا الرحيل الى الحصن .

وفي سنة (١٦٢٥) استولى الامير قاسم بن يوسف باشا على قلعة (المرقب) ثم أخذوا الحصن حيث حصل التفاهم بينهم وبين الامير فخر الدين المعني على ذلك . واتقد كوفي . آل سيفاً باسناد منصب طرابلس اليهم نتيجة لاشتراكهم في الحملة النأديبية التي ساقنها الدولة بقيادة أحمد باشا الصغير سنة (١٦٢٣) على الامير فخر الدين . وفي سنة (١٦٣٤) نال قاسم باشا رتبة الميرميران وتعين لمنصب حاكم طرابلس على أن يستعد للاشتراك في حرب ايران التي كانت اندلعت نازها حينذاك ، ولكنه لم يتمكن من ذلك .

وبعد مدة حل محله ابن أخيه الامير على الذي هاجمه أخيراً عمه الامير عساف واضطره الى اللجوء الى بيروت . ولقد دام النزاع بين العم وابن أخيه مدة . وفي سنة (١٦٢٥) تعين (نشانجي مصطفى باشا) متصرفاً لسنجق طرابلس فرأى من حسن السياسة أن يسند الحكم في بلاد الجبل والبترون والضنية الى

الأمير (علي) وفي بلاد العكار والحسن والصفيتا إلى أقربائه ، كما أنه سلم منصب الإيالة إلى الأمير (عساف) حينما كلف هو بقيادة الجيوش العثمانية في حرب إيران وقد ساد الوثام بين الأمير علي والأمير عساف حينما من الدهر ، غير أن الخلاف عاد كما كان سابقا على أشده ونشب القتال بينهما مدة من الزمن حتى ضج الناس والحكومة من جراء ذلك . ولما تعين شاهين باشا متصرفا لإيالة طرابلس بادر إلى قتل الأمير عساف وعمل على قطع دابر هذه الأسرة حيث عهد إلى الأمير اسماعيل الكردي والشيخ علي حمادة من رجاله بهذه المهمة فقاما بها بكل قوة وشدة ولم يتركا أحدا في طرابلس منهم . وكان ذلك سنة (١٦٤٠ م)

٥ من (ص ٣٤٩ - ٣٥٨)

٣ - أمراء رأس نحاش الأكراد

هؤلاء الناس من الأكراد الذين أسكنهم السلطان سليم العثماني سنة (١٥٥٨ م) في مقاطعة الكورة بجبل لبنان لحماية الجبل وحراسته من الأفرنج . ومن المعلوم أن شاهين باشا متصرف إيالة طرابلس قد نذب لإبادة أسرة آل سيفاكلا من الأمير اسماعيل ابن الأمير موسى والشيخ علي حمادة في سنة (١٦٣٧)

وقد استخدم محمد باشا الكور بيلي الأمير اسماعيل هذا في سنة (١٦٥٤) غير أنه غضب عليه وساق عليه جيشا لتأديبه في السنة التالية فلم يتمكن الأمير اسماعيل من الصمود ولجأ إلى الأمير (أحمد المعنى) الذي بادر إلى تعيينه حاكما لمدينة (صور) ، وفي سنة (١٦٦٠) تظاهرت الحكومة بالرضا عنه فأعطته المواثيق بالأمان حتى حضر إلى طرابلس وقضى عليه هناك بأمر من محمد باشا .

هذا وفي عهد الصدر الأعظم (علي باشا) كان قد نصب الأمير صعب ابن حسين من هذه الأسرة ، حاكما لقضاء الجليل إلا أن أيامه لم تدم كثيرا حيث قتل هو وأقرباؤه عن آخرهم في هجمة مباغتة قام بها العماديون .

٥ من (ص ١٦٤ - ١٦٥)

ص	ص
١٥٠ : ١ - شجاع الدين خورشيد	الفصل الثامن
١٥٢ : ٢ - أتابك سيف الدين رستم	١٢٥ (٨) - حكومة أتابكية اللراكبير
٣ - شرف الدين أبو بكر	(الحكومة الفضلوية)
٤ - عز الدين كرشاسب	١ : ١٣٦ - أبو طاهر محمد
١٥٢ : ٥ - حسام الدين خليل	٢ : ١٢٧ - اتابك هزازاسب
١٥٤ : ٦ - بدر الدين مسعود	٣ : ١٣٨ - اتابك تكاه
٧ - تاج الدين شاه	٤ : ١٤٠ - اتابك شمس الدين ألب آرغون
٨ - فلك الدين وعز الدين	٥ : ١٤١ - أتابك يوسف شاه
١٥٥ : ٩ - جمال الدين خضر	٦ : ١٤٢ - أتابك أفراسياب
١٥٦ : ١٠ - حسام الدين عمر	٧ : ١٤٤ - أتابك نصرة الدين احمد
١١ - صمصام الدين محمود	٨ : ١٤٥ - أتابك ركن الدين يوسف شاه
١٢ - عز الدين أحمد	الثاني
١٥٧ : ١٣ - دولت خاتون	٩ - مظفر الدين افراسياب الثاني
١٤ - عز الدين حسين	١٠ : ١٤٦ - نور الودود
١٥ - شجاع الدين محمود	١١ - شمس الدين بشنك
١٥٨ : ١٦ - الملك عز الدين بن شجاع الدين	١٢ - بير أحمد
١٥٩ : ١٧ - الملك سيد احمد	١٣ : ١٤٧ - أبو سعيد
١٨ - شاه حسين	١٤ - الشاه حسين
١٩ - شاه رستم	١٥ - غياث الدين
١٦٠ : ٢٠ - أوغوز خان	١٤٨ ملحوظة على كتاب (كوردلر)
٢١ - جهانكبير	الفصل التاسع
١٦١ : ٢٢ - شاه رستم الثاني	١٤٩ (٩) - حكومة اللراكبير الصغير
١٦٣ : ٢٣ - شاه ويردى	(الأسرة الخورشيدية)
١٦٦ (ملحوظة)	

ص	الفصل العاشر	ص
٢٤٨	الملك العادل الثاني	
٢٥١ : ١	الحكومات الايوبية	١٦٧ (١٠) -
٢٥٧ : ٢	أهدافه وآثاره	١ - من مؤسس هذه الحكومات
٢٥٩	عهد سلطنة تورانشاه	٢ : ١٦٩ - كيف تقدموا
٢٦٢	نهاية الايوبيين بمصر	٣ : ١٧٢ - نشأة الامير صلاح الدين
٢٦٤ : ٢	الحكومة الايوبية بحلب	٤ : ١٧٣ - سفره الاول إلى مصر
٢٦٧ : ٣	الحكومة الايوبية بالشام	٥ : ١٧٥ - صلاح الدين يسافر لمصر ثانية
٢٦٩ : ٤	الحكومة الايوبية بحماه	٦ : ١٧٧ - سفره الثالث
٢٧٠ : ٥	الامارة الايوبية في حمص	٧ : ١٧٩ - وزارة الامير صلاح الدين
٢٧١ : ٦	الحكومة الايوبية باليمن	٨ : ١٨٦ - بعد وفاة السلطان نور الدين
٢٧٣	نظرة عامة في السلطنة الايوبية	٩ : ١٩٣ - عهد السلطنة
	الفصل الحادى عشر	١٠ : ٢٠٣ - السلطان صلاح الدين والصليبيون
٢٧٦ (١١) -	حكومة بى أردلان	١١ : ٢١٨ - اتصال السلطان بالجيش الانجليزى
	الفصل الثانى عشر	١٢ : ٢٢٦ - وفاة السلطان صلاح الدين
٢٩٢ (١٢) -	حكومة ملوك الكرد = الكرت	١٣ : ٢٢٨ - صفاته وخصاله
	الفصل الثالث عشر	١٤ : ٢٣٤ - آثاره العمرانية والمدنية
٢٩٥ (١٣) -	الحكومة الزندية	١٥ : ٢٣٧ - أنجال السلطان صلاح الدين
٢٩٨ : ١	عهد كرىمخان	الملك الافضل والعزىز والعاقل
٣١٠ (١) -	أخلاقه وسجاياه	١ : ٢٤١ - سلطنة الملك العادل
٣١٤ (ب) -	الحالة بعد وفاة كرىمخان	٢ : ٢٤٣ - صفاته ومزاياه
٣ -	عهد لطف على خان	١ - سلطنة الملك الكامل
٣٥٤	نظرة عامة إلى هذه الحكومة	٢ : ٢٤٧ - صفاته ومزاياه

ص	س
٣٨٩ (ب) أسرة تركه ور	الفصل الرابع عشر
٣٩٠ : ١٩ - اماره مكري	٣٥٧ : (١٤) - حكومة الامارة البراخوئية
٣٩١ : ٢٠ - اماره استونى	الباب الثانى
(د) - المجموعة الحكارية الجنوبية	٣٦٢ - فى الامارات الكردية فى
٣٩٢ : ٢١ - اماره البادينان (بهادينان)	العهد الاسلامى
٣٩٩ : ٢٢ - اماره داسنى = طاسنى	(١) - امارات بين الجزيرة ودرسم
٢٣ - « السوران = السهران	٣٦٣ : ١ - اماره الجزيرة
٤٠٦ : حكومة محمد باشا الكور	٣٦٦ : ٢ - « خيران
٤١٦ : ٢٤ - اماره البايان	٣ : « شيروان
٤١٧ « البايان الأخيرة	٣٦٧ : ٤ - « بدليس
٤٢ : ٢٥ - اماره بانه	٣٦٩ : ٥ - « صاصون
٣٢٥ : ٢٦ - « كلباضى	٦ : « السويدية
٠٠٠ : ٢٧ - « كاهر	٣٧٠ : ٧ - « البازوكين
٣٦ : ١ - نبلان بلنكان	٣٧١ : ٨ - « المرديسى (مرداسى)
٤٢٧ : ٢ - « درتنك	٣٧٢ : ٩ - « جمشكرك
٠٠٠ : ٣ - « ماهى دشت	(ب) - امارات بين الجزيرة وكلس
٤٢٨ : (٥) - امارات ايران الشرقية	٣٧٣ : ١٠ - اماره حصن كيف = حسنكيف
٠٠٠ : ٢٨ - اماره سياه منصور	٣٧٤ : ١١ - « سليمانى = سليفانى
٠٠٠ : ٢٩ - « جكنى	٣٧٥ : ١٢ - « زرقى = زرىكى
٤٣٠ : ٣٠ - « زكنه	٣٧٦ : ١٣ - « كلس واعزاز
٤٣١ : (و) - امارتا خراسان (١ : ٢)	(ج) - امارات ما بين الجزيرة وخوى
٠٠٠ : ١ - « قوجان	٣٨٠ : ١٤ - اماره الحكارية = الهكارية
٤٣٢ : ٢ - « بجنورد (باجنورد)	٣٨٢ : ١٥ - « المحمودى
٤٣٩ : (ز) - امارات جبل لبنان	٣٨٣ : ١٦ - « بنياش
٠٠٠ : ١ - مشايخ العمادين الدروز	١٧ : « الدنبلى
٤٣٤ : ٢ - امراء بنى سيفا الاكراد	٣٨٨ : ١٨ - « برادوست
٤٣٦ : ٣ - امراء رأس نحاش الاكراد	٣٨٩ (١) أسرة صوماى
٤٣٧ فهرس الموضوعات	

